ولأول مرة
فى تاريخ العالم

بسم الله الرحمن الرحیم

و لأول مرة فی تاریخ العالم

كاتب:

محمد حسینی شیرازی

نشرت فی الطباعة:

محمد حسینی شیرازی

رقمی الناشر:

مركز القائمیة باصفهان للتحریات الكمبیوتریة

الفهرس

و لأول مرة فى تاريخ العالم

اشارة

اسم الكتاب: ولأول مرة فى تاريخ العالم

المؤلف: حسينى شيرازى، محمد

تاريخ وفاة المؤلف: ۱۳۸۰ ش

اللغة: عربى

عدد المجلدات: ۲

مكان الطبع: بيروت

الطبعة: اول

الجزء الاول

الجزء الاول

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة اللّه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى يوم الدين.

وبعد: فهذا شـىء من تاريخ الرسول الأعظم (ص) سـميناه: (ولأول مرة فى تاريخ العالم) لأنه لأول مرة فى التاريخ وبعد فترة من الرسل ظهرت هذه الحركة الإصـلاحية السلمية الشاملة، والإلهية المباركة، بقيادة الرسول الأعظم محمد بن عبد اللّه (ص) وذلك بهذا الشكل الـذى لاـ يزال يتفاعـل فى النفوس، ويترك أثره الطيب فى العـالم حتى اليوم وإلى أن يظهر على الـدين كله فى زمـان الإمام المهـدى (عجل اللّه تعالى فرجه الشريف).

واللّه أسأل القبول والفائدة وهو المستعان

قم المقدسة

محمد الشيرازى

ولادته ونشأته

أما اسمه ونسبه:

فهو (ص): أبو القاسم محمـد بن عبـد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَـىّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لُؤىّ غالب بن فهر بن مالك بن النَّضـر بن كِنانة بن خزَيمة بن مُدركة بن الياس بن مُضَر بن نِزار بن معدّ بن عدنان، وعدنان من وُلد إسماعيل بن

إبراهيم (عليه السلام) وإسماعيل هو الذبيح.

ولـد (ص) بمكهٔ عام الفيل، وكانت وقعهٔ الفيل تقدمهٔ قدمها اللّه تعالى لنبيه (ص)، وإلا فأهل الفيل نصارى أهل كتاب، دينهم خير من دين أهل مكهٔ، لأنهم عبّاد أوثان، غير انّ أولئک كان يرأسـهم ظالم غاشم وهو (أبرههٔ) فجرّ عليهم الوبال، وهؤلاء كان يرأسـهم مؤمن عادل وهو جـد النبى (ص) فعمّهم عدله، ونصـرهم اللّه نصـراً لا صـنع للبشـر فيه، فأباد جيش الفيل الرهيب وحفظ ببركهٔ نبيّه قريشاً من القتل، وبيته من الهدم، وحرمه من الهتک.

ولـد (ص) يوم الجمعـهٔ سـابع عشـر ربيع الأوّل، وبُعِث بـالنبوهٔ فى السـابع والعشـرين من شـهر رجب، وأنزل عليه القرآن كاملاً فى ليلهٔ القدر، ثمّ نزل عليه تدريجاً فى مدهٔ ثلاث وعشـرين سنهٔ، وتوفى (ص) مسموماً شهيداً فى الثامن والعشرين من شهر صفر عام أحد عشر هجريهٔ.

الشجرهٔ الطيّبهٔ

أمـا جـد النبى (ص) هـاشم بن عبـد مناف: فكان كبقيـهٔ أجـداده مؤمناً باللّه تعالى وسـيد قريش، وإليه يُشار بالبنان فى الفضل والكرم، وكان موسـراً، وهو أول من سنّ الرحلتين لأهل مكهٔ: (رحلهٔ الشـتاء والصيف)(۱)، وأول من أطعم قومه الثريـد بمكـهٔ، حتى قال الشاعر فيه:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه قومٍ بمكهٔ مسنتين عجافِ.

وأما جـدّه عبـد المطلب: فهو الـذّى نـذر للّه تعالى لئن آتاه اللّه عشـرهٔ من الولـد يمنعونه، لينحرن أحـدهم عند الكعبهٔ، فلما توافى بنوه عشرهٔ وعرف أنهم يمنعونه، جمعهم فأخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟

قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتونى، ففعلوا.

فقال لصاحب القـداح: اضـرب على بنىَّ هؤلاء بقـداحهم هذه، وأخبره بنذره، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسـمه، وكان عبد اللّه بن عبـد المطلب أحبّ ولده إليه، فكان يرى أن السـهم إذا أخطأ فقد أشوى، فلما أخذ صاحب القداح القداحَ ليضـرب بها قام عبد المطلب يدعو اللّه تعالى، ثم ضرب صاحب القداح فخرج على عبد اللّه، فأخذ بيده وأخذ الشفرهٔ، فقامت إليه قريش من أنديتها فمنعوه من ذلک.

وقـال له المغيرهٔ بن عبـد اللّه بن عمرو بن مخزوم وكـان عبـد اللّه ابنا اُخت القوم: واللّه لا تـذبحه حتى تعـذر فيه أبـداً، فإن كان فـداؤه بأموالنا فديناه.

ثم عرضوا عليه أن يضـربه فى ابله السوائم عشرهٔ عشرهٔ، فوافق عبد المطلب عليه وقام يدعو اللّه تعالى، ثم قربوا عبد اللّه وقربوا عشراً من الإبل، وعبد المطلب يدعو اللّه، فضـربوا فخرج القدح على عبد اللّه، فلم يزالوا يزيدون عشراً والقدح يخرج على عبد اللّه، إلى أن بلغوا مائـهٔ من الإبل، وقام عبـد المطلب يـدعو اللّه فخرج القـدح على الإبل، ثم أعادوا الثانيـهٔ فخرج على الإبل، ثم أعادوا الثالثهٔ فخرج على الإبل، فنحرت وتُركت لا يُصدُّ عنها إنسان ولا يمنع، فجرت الديهٔ فى العرب مائهٔ من الإبل، وأقرّها رسول اللّه (ص) فى الإسلام.

وروى عن النبى (ص) أنه قال: (أنا ابن الذبيحين)(۲) يعنى: جدّه إسماعيل (ع)، وأباه عبد اللّه (ع).

وقـد كان عبـد المطلب فعل ذلک لإبطال عادهٔ كانت فى الجاهليـهٔ، وهى قتل الأولاد بسـبب النـذر أو غيره، كما كان إبراهيم (ع) فعل ذلک من قبل لهذه الغايهٔ أيضاً.

أمـا عبـد اللّه أبو رسول اللّه (ص) فهو: ابن عبـد المطلب صاحب النـذر المـذكور، وكان عبـد اللّه أحسن أولاد عبـد المطلب وأعفّهم، وكان أبوه يحبه كثيراً.

توفى عبد اللّه والنبى (ص) حمل فى بطن اُمه.

وكان جميع ما خلفه عبد اللّه على قول خمسة أجمال، وجارية حبشية اسمها: بركة، وكنيتها: أُم أيمن، وهى حاضنته، وكان عبد اللّه (ع) مؤمناً موحِّداً.

وأُمه (ص): آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب، وكانت مؤمنة باللّه تعالى.

ولد مختوناً مسروراً، فأعجب به عبد المطلب جدّه، وحظى عنده، وقال: ليكونن لهذا شأن.

ارهاصات المولد الشريف

ولما كانت الليلة التى ولد فيها رسول اللّه (ص) ارتجّ إيوان كسرى وانشقّ من وسطه، وسقط منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك مدة ألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، وفاض وادى سماوة.

ولعل فى سقوط الأربع عشرة شرفة إشارة إلى أنه يملك منهم ملوك وملكات بعدد الشرفات، ثم ينتهى حكمهم وتنهار الإمبراطورية الفارسية، وكان كذلك حيث تمّ بعدها على أيدى المسلمين فتح إيران، وبذلك سقطت الإمبراطورية الفارسية.

كما ان فى إخماد نار فارس إشارة إلى انتهاء دين فارس، وهكذا حال بحيرة ساوة وهى بحيرة فى فارس.

وأما فيضان وادى سماوة: فسماوة من بلاد العرب، وفيه إشارة إلى فيضان دين الإسلام إلى كل العالم.

ولما ولد (ص) قالت اُمه: واللّه لما وضعت حملى على الأرض اتكأ بيديه على الأرض ورفع رأسه إلى السماء وأدار ببصره إلى الآفاق، وهو يتفوّه بالتوحيد، ثم سطع منه نور أضاء كل شىء حتى رأيت منها قصور الشام، وإذا بهاتف يهتف بى قائلًا: ولدتِ خير الناس فسمّيه محمداً.

ثم أرسلت اُمه إلى جدّه عبد المطلب وكان يطوف بالبيت تلك الليلة فجاء إليها فقالت له: ولد لك مولود له أمر عجيب، ثم أخرجته له، فنظر إليه وأخذه ودخل به الكعبة ودعا اللّه تعالى ثم خرج فدفعه إليها وسمّاه محمداً.

أيام الرضاع

وأرضعته (ص) ثويبة عتيقة أبى لهب، أعتقها حين بشّرته بولادته (ص).

وقيل: انه رؤى أبو لهب بعد موته فى النوم فقيل له: ما حالك؟ فقال: فى النار، إلا أنه يخفّف عنى كل اُسبوع يوماً واحداً وأمص من بين إصبعىَّ هاتين ماء وأشار برأس إصبعه وان ذلك اليوم هو يوم اعتاقى ثويبة عندما بشّرتنى بولادة النبى (ص) وبإرضاعها له.

وأرضعت ثويبة أيضاً مع رسول اللّه (ص) بلبن ابنها مسروح حمزة عمّ رسول اللّه، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى، ثم أرضعته (ص) حليمة السعدية، والظاهر انهنّ كنّ مؤمنات بدين إبراهيم (ع) فلم يكنّ مشركات.

فقدان الاُم

لم يستكمل النبى (ص) سبع سنين إلاـ وفقد اُمه، وذلك حين انصرافها من زيارة أخواله بنى النجار، وكانت خرجت به معها، ومعه حاضنته اُم أيمن، فقدمت به اُم أيمن إلى مكة بعد موتها، فكفله جده عبد المطلب، ورقَّ عليه لمعرفته بأمره وإيمانه به رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يفارقه، وما كان يجلس على فراشه إجلالًا له إلاّ رسول اللّه (ص).

وقدم مكة قوم من بنى مدلج من القافة، فلما نظروا إليه قالوا لجده: احتفظ به، فلم نجد قَدَماً أشبه بالقدم الذى فى المقام من قدمه، فقال عبد المطلب لأبى طالب وهو يوصيه به: اسمع ما يقول هؤلاء واحتفظ به.

فقد الجد

وتوفى جده عبد المطلب (ع) فى السنة الثامنة من مولده (ص)، وأوصى به إلى أبى طالب (ع).

وكان عبد المطلب من سادات قريش، مؤمناً باللّه تعالى وكذا كان أبو طالب محافظاً على العهود، يتخلّق بمكارم الأخلاق، يحب المساكين، ويقوم بالحجيج، ويطعم حتى الوحوش والطير فى رؤوس الجبال، ويطعم فى أزمان القحط، ويقمع الظالمين.

فى كفالهٔ أبى طالب

ثم قام أبو طالب بكفالهٔ النبى (ص) من سنهٔ ثمان من مولده إلى السنهٔ العاشرهٔ من النبوهٔ ثلاثاً وأربعين سنهٔ يحوطه ويقوم بأمره ويذبُّ عنه ويلطف به.

ونقل عن جُلهمهٔ بن عرفطهٔ قال: قدمتُ مكهٔ وهم فى قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادى وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس ضحى تجلّت عنه سحابهٔ قتماء حوله أغيلمهٔ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبهٔ، ولاذ بإصبعه الغلام وما فى السماء قُزَعهٔ، فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأغدق واغدودق، وانفجر الوادى وأخصب النادى والبادى، وفى ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثِمال اليتامى عصمهٔ للأرامل

و(الثمال) بكسر المثلثهٔ: الملجأ والغياث.

فى طريق الشام

ولما بلغ رسول اللّه (ص) اثنتى عشرهٔ سنهٔ خرج مع عمه أبى طالب (ع) حتى بلغ (بُصرى) فرآه بحيرا الراهب واسمه جرجيس فعرفه بصفته، فقال وهو آخذ بيده: هذا سيد العالمين، هذا يبعثه اللّه رحمهٔ للعالمين.

فقال: وما علمك بذلك؟

فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبهٔ أقبل وعليه غمامهٔ تظلّه، ولم يبق حجر ولا شجر إلاّ وخرّ ساجداً، ولا تسجد إلا لنبى، وإنى أعرفه بخاتم النبوهٔ فى أسفل غضروف كتفه مثل التفاحهٔ، وإنا نجده فى كتبنا، وسأل أبا طالب أن يردَّه خوفاً عليه من اليهود.

ثم خرج (ص) مرهٔ أخرى، ومعه ميسرهٔ غلام خديجهٔ فى تجارهٔ لها، حتى بلغ سوق بُصرى وله إذ ذاك خمس وعشرون سنهٔ، فنزل تحت ظل شجرهٔ، فقال نسطور الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرهٔ إلا نبىّ، وكان ميسرهٔ يرى فى الهاجرهٔ ملكين يظلاّنه من الشمس، فلما رجعوا إلى مكهٔ ساعهٔ الظهيرهٔ وخديجهٔ فى عليهٔ لها، رأت رسول اللّه (ص) وهو على بعيره وملكان يظلانه.

الزواج المبارك

تزوّج رسول اللّه (ص) وعمره خمس وعشرون عاماً بالسيّدهٔ خديجهٔ، وكان لها على ما قيل حين تزوّجها من العمر أربعون سنهٔ، فولدت لرسول اللّه (ص) بنين وبنات، وكل أولاده (ص) من خديجهٔ، ماعدا إبراهيم، فإنه من (ماريهٔ القبطيهٔ)، فالذكور من ولده: القاسم وبه كان يُكنّى وهو أكبر ولده (ص).

والقاسم هذا كان يُدعى بالطاهر، وولد له عبد اللّه وكان يدعى بالطيّب.

وأما إبراهيم فولد له بالمدينهٔ وعاش عامين غير شهرين ومات قبل موته (ص).

وأما بناته منها، فأربع:

زينب: تزوّجها أبوالعاص بن الربيع، وكانت خديجهٔ خالته، وولدت له علياً وأُمامهٔ، أما على فمات مراهقاً، وأما اُمامهٔ فتزوّجها على (ع) بعد فاطمهٔ، وماتت زينب فى حياهٔ أبيها رسول اللّه (ص)، وذلك لسبب إخافهٔ هبّار لها وإسقاطها جنينها.

ورُقَية: وتزوّجها عثمان، فولدت له ابناً مات وله من العمر أربع سنين.

وأم كلثوم: وتزوّجها عثمان بعد موت رقية، وماتت عنده أيضاً كما ماتت رقية قبلها عنده.

وذهب بعض إلى أن بعضهنّ كنّ متبنيات للنبي (ص).

وفاطمة (عليها السلام): تزوَّجها علي بن أبي طالب (ع)، فولدت له الحسن والحسين (عليهما السلام) وزينب وأُم كلثوم وابناً مات شهيداً اسمه المحسن، وهي (عليها السلام) وحدها التي بقيت بعد أبيها رسول اللّه (ص) لكن لم يطل بقائها بعده حتى لحقت به (ص) سريعاً، وذلك على أثر الضرب المبرح الذي كسر به ضلعها وأسقطت منه جنينها محسناً.

كانت خديجة أول امرأة آمنت برسول اللّه (ص) وأول امرأة صلّت مع رسول اللّه (ص) وواسته بنفسها ومالها حتى أنفقت كل مالها في سبيل اللّه، ودخلت الشعب معه، وكانت هي أول امرأة تزوّجها، وأول امرأة ماتت من نسائه، ولم ينكح عليها في حياتها غيرها، وأمره جبرائيل أن يقرأ عليها السلام من ربها، كما أمره أن يعطي فدكاً إلى فاطمة (عليها السلام) بدل ما أنفقته أُمها خديجة (عليها السلام) في سبيل اللّه من أموالها.

مع حلف الفضول

حضر رسول اللّه (ص) (حلف الفضول) واشترك فيه.

ذكر المؤرخون: انه اجتمع رؤساء مكة في دار عبد اللّه بن جُدْعان، وكان أكرم حلف سمع به في العرب وأشرفه، وكان أول من تكلّم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب.

وكان سببه: أن رجلًا من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل وكان ذا قدر بمكة وشرف فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي، الأحلاف: عبد اللّه، ومخزوماً، وجُمَحاً، وسهماً، وعدياً، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل، فعلا جبل أبي قبيس وقريش في أنديتهم حول الكعبة فنادى بشعر يصف فيه ظلامته رافعاً صوته، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار ابن جُدعان، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام قياماً، فتعاهدوا وتعاقدوا باللّه ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدّي إليه حقه ما بلّ بحر صوفة كناية عن انه دائماً وأبداً فسمّت قريش ذلك الحلف (الفضول).

وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه مال الزبيدي وسلموه إياه.

وقال الزبير بن عبد المطلب في ذلك:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ألّا يقيم ببطن مكة ظالم

أمر عليه توافقوا وتعاقدوا فالجار والمعترُّ فيهم سالم

ثم ان رسول اللّه (ص) حين أرسله اللّه تعالى قال وهو يشير إلى حلف الفضول: (لقد شهدتُ في دار عبد اللّه بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو اُدعى به في الإسلام لأجبت).

تجديد بناء الكعبة

ولما بنت قريش الكعبة ورفعت سمكها وتأتّى لها ما أرادت في بنائها من الخشب الذي قيل انه ابتاعوه من السفينة التي رمى بها البحر إلى ساحله وكان قد بعث بها ملك الروم من القُلزُم من بلاد مصر إلى الحبشة ليبني بها هناك كنيسة، وانتهوا إلى موضع الحجر تنازعوا أيهم يضعه، فاتفقوا على أن يرتضوا بأول من يطلع عليهم من باب بني شيبة، فكان أول من ظهر لأبصارهم النبي (ص) من ذلك الباب، وكانوا يعرفونه ب(الصادق الأمين) لوقاره، وهديه، وصدق لهجته، واجتنابه الأدناس، فحكّموه فيما تنازعوا فيه، وانقادوا

لقضائه، فبسط (ص) ما كان عليه من رداء، وأخذ (ص) الحجر فوضعه فى وسطه، ثم قال لهم: ليأخذ كل واحد منكم بجنبة من جنبات هذا الرداء.

ففعلوا ورفعوه من الأرض وأدنوه من موضعه، فأخذ (ص) الحجر ووضعه مكانه، وقريش كلها حضور، فكان ذلك مما ظهر من فعله وقضاياه وأحكامه، فقال قليل ممن حضر من قريش تعجباً من فعلهم وانقيادهم إلى أصغرهم سناً: واعجباً لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا إلى أصغرهم سناً وأقلهم مالاً ـ فجعلوه رأساً حاكماً! أما انه ليفوتنهم سبقاً، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً، وليكونن له بعد هذا اليوم شأناً ونبأ عظيماً.

كما انّ رسول اللّه (ص) كان ينقل معهم الحجارة عند تجديد بناء الكعبة.

الجاهلية وعبادة الأصنام

كان الجاهليون يعبدون الأصنام فى الجاهلية، فلما بعث رسول اللّه (ص) أبطلها وأتى عليها.

قال أبو رجاء: كنا نعبد الحجر فى الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه، ثم طفنا به.

وروى الدارمى عن مجاهد قال: حدثنى مولاى: أن أهله بعثوا معه بقَدح فيه زبد ولبن إلى آلهتهم، قال: فمنعنى مخافتها أن آكل الزبد، قال: فجاء كلب فأكل الزبد وشرب اللبن ثم بال على الصنم وهو أساف ونائلة.

وقال بعض المؤرخين: كان الرجل فى الجاهلية إذا سافر حمل معه أربعة أحجار: ثلاثة لقدره، والرابع يعبده.

وروى: أن رجلاً ـ أتى النبى (ص) فقال: يا رسول اللّه، إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، فكانت عندى بنت لى، فدعوتها يوماً فأتبعتنى، فمررت حتى أتيتُ بئراً من أهلى غير بعيد، فأخذتُ بيدها فرديت بها فى البئر، وكان آخر عهدى بها تقول: يا أبتاه يا أبتاه، فبكى رسول اللّه (ص) حتى وكف دمع عينيه.

فقال رجل: أحزنتَ رسول اللّه؟

فقال له: كفَّ فإنه يسأل عما أهمه. ثم قال: أعد علىّ حديثك، فأعاده، فبكى (ص) حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته، ثم قال له: إن اللّه قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنف عملك.

ولما فتح رسول اللّه (ص) مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعن بسية قوسه فى وجوهها وعيونها ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً)(٣) جاء (الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد)(۴) وهى تتساقط على رؤوسها، ورفع عليّاً (ع) على كتفه فأسقط ما تبقّى من الأصنام التى كانت منصوبة فوق الكعبة.

من خرافات الجاهلية

وكان من عادة الجاهليين جعل بعض الحيوانات محرمة عليهم مثل:

(البحيرة): وهى التى يمنع درها فلا يحلبها أحد من الناس.

و(السائبة): وهى التى يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها.

و(الوصيلة): وهى الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل ثم تثنى بعد بأُنثى، وكانوا يسيبونها إن وصلت إحداهما بالأُخرى ليس بينهما ذكر.

و(الحامى): فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا ضربه دعوه وأعفوه من الحمل فلا يحمل عليه، وسموه الحامى.

فلما بعث اللّه رسوله محمداً (ص) أنزل تعالى: (ما جعل اللّه من بحيرة ولا سائبة ولا وَصيلة ولا حام)(۵).

وأنزل سبحانه: (وقالوا ما فی بطون هذه الأنعام خالصة لذکورنا ومحرّم علی أزواجنا)(... ۶).
وقوله تعالی: (قل أرأیتم ما أنزل اللّه لکم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً)(... ۷).

قریش وسکان الحرم

قال المؤرخون: کانت قریش قد ابتدعت للحُمْس (أی: سکّان الحرم) رأیاً رأوه وأرادوه، فقالوا: نحن بنو إبراهیم وأهل الحرم وولاة البیت وقاطنوا مکة وساکنوها، فلیس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلنا، ولا تعرف له مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شیئاً من الحل مثل ما تعظمون الحرم، فإنکم إن فعلتم ذلک استخفت العرب بحرمتکم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم. فترکوا الوقوف علی عرفة والإفاضة منها، وهم یعرفون ویقرّون أنها من المشاعر والحج ودین إبراهیم (ع)، ویرون لسائر العرب أن یقفوا علیها وأن یفیضوا منها، إلا أنهم قالوا نحن أهل الحرم، ولیس ینبغی لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غیره.
ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساکن الحل والحرم مثل الذی لهم بولادتهم إیاهم، یحل لهم ما یحل لهم ویحرم علیهم ما یحرم علیهم، وکانت کنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فی ذلک.
ثم ابتدعوا فی ذلک اُموراً لم تکن لهم حتی قالوا: لا ینبغی للحمس أن یقطوا الأقط ولا یسلوا السمن وهم حرم، ولا یدخلوا بیتاً من شعر ولا یستظلوا إن استظلوا إلا فی بیوت الادم ما کانوا حرماً.
ثم رفعوا فی ذلک فقالوا: لا ینبغی لأهل الحل أن یأکلوا من طعام جاؤا به من الحل إلی الحرم إذا جاؤا حجاجاً أو عماراً، ولا یطوفوا بالبیت إذا قدموا أول طوافهم إلا فی ثیاب الحمس، فإن لم یجدوا شیئاً طافوا بالبیت عراة، فإن تکرم منهم متکرم من رجل أو امرأة ولم یجد ثیاب الحمس وطاف فی ثیابه التی جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ولم ینتفع بها ولم یمسها هو ولا أحد غیره، فکانت العرب تسمی تلک الثیاب (اللقی) فحملوا علی ذلک العرب فدانت به، أما الرجال فیطوفون عراة، وأما النساء فتضع المرأة ثیابها کلها إلا درعاً مفرجاً ثم تطوف فیه، وأحیاناً عاریة.
فکانوا کذلک حتی بعث اللّه محمداً (ص) فأنزل اللّه: (ثم أفیضوا من حیث أفاض الناس)(۸) یعنی قریشاً والعرب، وأنزل تعالی فیما حرموا علی الناس من طعامهم ولبوسهم عند البیت: (یا بنی آدم خذوا زینتکم عند کل مسجد)(۹) إلی قوله تعالی: (قل من حرَّم زینة اللّه التی أخرج لعباده والطیّبات من الرزق)(... ۱۰) وذلک علی ما ذکره بعض المفسّرین.

التحدث بأمر الرسول (ص)

کانت الأحبار من الیهود، والرهبان من النصاری، والکهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول اللّه (ص) قبل مبعثه بما یقارب زمانه.
فأما الأحبار من الیهود والرهبان من النصاری: فعمّا وجدوا فی کتبهم صفته وصفة زمانه وما کان من عهد أنبیائهم إلیهم فیه.
وأما الکهان من العرب: فلما کانوا یتلقّونه من الجن والشیاطین حیث کانت تسترق السمع، وکان الکاهن والکاهنة لا یزال یقع منهما ذکر بعض اُموره، ولکن لا تلقی العرب لذلک فیه بالا، حتی بعثه اللّه تعالی ووقعت تلک الاُمور التی کانوا یذکرون فعرفوها.
فلما تقارب زمان رسول اللّه (ص) وحضر مبعثه حجبت الشیاطین عن السمع وحیل بینها وبین المقاعد التی کانت تقعد لاستراق السمع فیها، فرموا بالنجوم، فعرفت الجن أن ذلک لما حدث من أمر اللّه، وذلک لئلا یلتبس بالوحی، ولیکون ذلک أظهر للحجة، وأقطع للشبهة.
روی عن رجل من بنی لهب یقال له لهیب قال: حضرت مع رسول اللّه (ص) فذکرت عنده الکهانة، فقلت: بأبی واُمی، نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشیاطین ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم، وذلک انا اجتمعنا إلی کاهن لنا یقال له خطر بن مالک وکان شیخاً کبیراً وکان من أعلم کهاننا فقلنا: یا خطر هل عندک علم من هذه النجوم التی یرمی بها؟ فإنا قد فزعنا لها وخشینا

سوء عاقبتها.

فقال: ائتونى بسَحَر، اُخبركم الخبر، بخير أم ضرر، أو لأمن أو حذر.

قال: فانصرفنا عنه يومنا، فلما كان من غد فى وجه السحر أتيناه، فإذا هو قائم على قدميه شاخص فى السماء بعينيه، فناديناه: يا خطر، فأومأ إلينا أن أمسكوا، فانقض نجم عظيم من السماء، وصرخ الكاهن رافعاً صوته: أصابه اصابه، خامره عقابه، عاجله عذابه، أحرقه شهابه، زايله جوّابه، ياويله ما حاله، عاوده خباله، تقطعت حباله، وغيرت أحواله، ثم أمسك طويلًا وذكر أشعاراً.

فقلنا له: يا خطر ومن هو؟

فقال: والحياة والعيش، إنه لمن قريش، ما فى حلمه طيش، ولا فى خلقه هيش، يكون فى جيش أى جيش، من آل قحطان وآل أيش.

فقلنا له: بين من أى قريش هو؟

فقال: والبيت ذى الدعائم، والركن والأجائم، إنه لمن نجل هاشم، ومن معشر أكارم، يبعث بالملاحم، وقتل كل ظالم.

ثم قال: هذا هو البيان، أخبرنى به رئيس الجان، ثم قال: اللّه أكبر، جاء الحق وظهر، وانقطع عن الجن الخبر، ثم سكت واُغمى عليه فما أفاق إلا بعد ثالثة فقال: لا إله إلا اللّه.

وعن عاصم بن عمرو بن قتادة، عن شيخ من بنى قريظة قال: قال لى: هل تدرى عمّ كان اسلام ثعلبة بن شعية، وأسيد بن شعية، وأسد بن عبيد إخوة بنى قريظة، كانوا معهم فى جاهليتهم ثم كانوا سادتهم فى الإسلام؟

قال: قلت: لا.

قال: إن رجلاً ـ من اليهود من أهل الشام يقال له الهيبان، قدم علينا قبل الإسلام بسنتين فحلّ بين أظهرنا، لا واللّه ما رأينا رجلًا قط لا يصلّى الخمس أفضل منه، فأقام عندنا فكنا إذا قحط المطر علينا قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا.

فيقول: لا واللّه حتى تقدموا بين يدى مخرجكم صدقة.

فنقول له: كم؟

فيقول: صاعاً من تمر ومدين من شعير.

قال: فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقى اللّه لنا، فواللّه ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونسقى، وقد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث.

قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر اليهود ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟

قال: فقلنا: أنت أعلم.

قال: فإنى قدمتُ هذه البلدة أتوقّع خروج نبىّ قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجره، فكنتُ أرجو أن يُبعَث فأتبعه، قد أظلكم زمانه فلا تُسبقن إليه يا معشر اليهود، فلا يمنعكم ذلك منه.

فلما بُعث رسول اللّه (ص) وحاصر بنى قريظة قال هؤلاء الفتية، وهم: ثعلبة بن شعية، واسيد بن شعية، وأسد بن عبيد، إخوة بنى قريظة، وكانوا شباباً أحداثاً: يا بنى قريظة واللّه إنه للنبى الذى عهد إليكم فيه ابن الهيبان.

قالوا: ليس به.

قالوا: بلى واللّه، إنه لهو بصفته، فنزلوا فأسلموا وأحرزوا دماءهم وأهليهم.

۱ قريش: ۲ ۲ بحار الأنوار: ج ۱۲ ص ۱۳۲ ب ۶ ح ۱۷، و: ج ۳۶ ص ۴۷ ب ۳۲ ح ۷.

۳ الإسراء: ۸۱. ۴ سبأ: ۴۹. ۵ المائدة: ۱۰۳.

۶ الأنعام: ۱۳۹. ۷ يونس: ۵۹. ۸ البقرة: ۱۹۹

۹ الأعراف: ۳۱. ۱۰ الأعراف: ۳۲.

المبعث الشريف وبداية الدعوة

ولما بلغ رسول اللّه (ص) أربعين سنة بعثه اللّه تعالى رحمة للعالمين، وكافة للناس أجمعين.
وكان اللّه قد أخذ له الميثاق على كل نبىّ بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدّوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم، فأدّوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه، يقول اللّه تعالى لنبيه محمد (ص): (وإذ أخذ اللّه ميثاق النبيّين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم)(۱).
وقيل: انه أول ما بدأ به رسول اللّه (ص) من الوحى الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلوة فكان يخلو بغار حراء فيتعبّد فيه الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة(ع) فيتزوّد لمثلها، حتى فجأه الحق فى السابع والعشرين من شهر رجب الحرام، وهو (ص) فى غار حراء فجاءه الملك فقال له: اقرأ!
قال: وما أقرأ؟
قال: (بسم اللّه الرحمن الرحيم اقرأ بسم ربّك الّذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربّك الأكرم الّذى علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم)(۲) فرجع بها رسول اللّه (ص) يرجف فؤاده، حتى دخل على خديجة(ع)، فقال: زمّلونى زمّلونى، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع.

لقاء فى الشام

عن عبد اللّه بن عباس: ان أبا سفيان بن حرب أخبره قائلاً: ان هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش كانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول اللّه (ص) قد أظهر الإسلام وهاجر إلى المدينة وكفار قريش تجحده.
فأتوه وهم بايلياء، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟
قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً.
قال: أدنوه منى وقربوا أصحابه واجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إنى سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبنى فكذِّبوه.
قال أبو سفيان: فواللّه لولا الحياء من أن يأثر علىّ كذباً لكذبتُ عليه، ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال:
كيف نسبكم فيه؟
فقلت: هو فينا ذو نسب.
قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟
قلت: لا.
قال: فهل كان من آبائه من ملك؟
فقلت: لا.
قال: فأشرافهم اتّبعوه أم ضعفاؤهم؟
قلت: بل ضعفاؤهم.
قال: أيزيدون أم ينقصون؟
قلت: بل يزيدون.
قال: فهل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها، قال: ولم يمكنّى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إيّاه؟

قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: بماذا يأمركم؟

قلت: يقول: اعبدوا اللّه وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت: أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسّى بقول قيل قبله.

وسألتك: هل كان فى آبائه من ملك؟ فذكرت: أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ: أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على اللّه.

وسألتك: أأشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ: أن ضعفاءهم اتّبعوه، وهم أتباع الرُسُل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت: أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الرُسُل لا يغدرون.

وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت: أنه يأمركم بأن تعبدوا اللّه ولا تُشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج فلم أكن أظن أنه فيكم، فلو أعلم أننى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعا بكتاب رسول اللّه (ص) الذى بعث به مع دحية الكلبى إليه فقرأه عليهم فإذا فيه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد اللّه ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك اللّه أجرك مرّتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ اللّه ولا نُشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون)(۳).

قال أبو سفيان: فلمّا قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأخرجنا.

فقلت لأصحابى حين أخرجنا: لقد عظم أمرُ ابن أبى كبشة، انه ليخافه ملك بنى الأصفر.

امتحان واختبار

وقيل: انه كان ابن الناظور صاحب إيليا وهرقل اُسقف على نصارى الشام يحدّث: أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوماً خبيث النفس، فقال له بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك.

قال ابن الناظور: وكان هرقل ينظر فی النجوم، فقال لهم حين سألوه: إنی رأيت الليلة حين نظرتُ فی النجوم أن ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأُمة؟

فقالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلی مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم كذلك إذ جیء إلی هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبره عن خبر رسول اللّه (ص)، فلما استخبره هرقل وسأله عن العرب: أهم يختتنون؟

فقال: هم يختتنون.

فقال هرقل: هذا ملك هذه الأُمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلی صاحب له برومية وكان نظيره فی العلم، وسار هرقل إلی حمص فلم يرم حمص حتی أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأی هرقل علی خروج النبی، وأنه نبی، فأذن هرقل لعظماء الروم فی دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم فی الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبی؟

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلی الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأی هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردّوهم علیّ، وقال: إنی قلتُ مقالتی آنفاً أختبر بها شدّتكم علی دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل.

أول المؤمنين

وكان أول من آمن بالرسول (ص) من الرجال علی (ع)، ومن النساء زوجته خديجة(ع).

وعن أبی ذر انه قال: سمعت رسول اللّه (ص) يقول لعلی (ع): (أنت أوّل من آمن بی، وأول من يصافحنی يوم القيامة، وأنت الصدّيق الأكبر، وأنت الفاروق الذی يفرق بين الحق والباطل)(... ۴).

وفی نهج البلاغة: (ولم يجمع بيت واحد يومئذ فی الإسلام غير رسول اللّه (ص) وخديجة وأنا ثالثهما أری نور الوحی والرسالة، وأشم ريح النبوّة)(۵).

ثم زيد، وكان غلاماً لخديجة، فوهبته لرسول اللّه (ص) لمّا تزوّجها، وقدم أبوه وعمه فی فدائه فسألا عن النبی (ص) فقيل: هو فی المسجد، فدخلا عليه فقالا: يابن عبد المطلب يابن هاشم يابن سيّد قومه، أنتم أهل حرم اللّه وجيرانه، تفكون العانی وتطعمون الأسير، جئناك فی ابننا عبدك فامنن علينا وأحسن إلينا فی فدائه.

قال: من هو؟

قالا: زيد بن حارثة.

فقال رسول اللّه (ص): فهلا غير ذلك؟

قالا: ما هو؟

قال: ادعوه فأُخيِّره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارنی فواللّه ما أنا بالذی أختار علی من اختارنی أحداً.

قالا: قد زدتنا علی النصف.

فدعاه فقال (ص): أتعرف هؤلاء؟

قال: نعم.

قال: من هذا؟

قال: هذا أبی، وهذا عمّی.

قال: أنا من قد علمتَ ورأيتَ صحبتی، فاخترنی أو اخترهما.

قال: ما أنا بالذی أختار عليكَ أحداً، أنت منّی بمكان الأب والعم.

قالا: ويحك يا زيد! أتختار العبودية علی الحريّة وعلی أبيك وعمّك وعلی أهل بيتك؟

قال: نعم، قد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً.

فلمّا رأى رسول اللّه (ص) ذلک أخرجه إلى الحجر فقال: اُشهدكم أنّ زيداً ابنى.

فلمّا رأى ذلک أبوه وعمّه طابت نفوسهما فانصرفا، ودعى زيد بن محمّد، حتى جاء اللّه بالإسلام فنزلت (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند اللّه)(۶) فدعى يومئذ زيد بن حارثة.

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدّثت به قريش.

إبلاغ الرسالة

ثم ان اللّه سبحانه أمر رسوله (ص) أن يصدع بما جاءه منه، وأن ينادى الناس بأمره ويدعو إليه، فأنزل سبحانه: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)(۷). ثم قال تعالى: (وأنذر عشيرتک الأقربين واخفض جناحک لمن اتّبعک من المؤمنين فإن عصوک فقل انّى برىء ممّا تعملون)(۸).

فعن سالم عن على (ع) قال: أمر رسول اللّه (ص) خديجة وهو بمكّة فاتخذت له طعاماً، ثم قال لى: ادع لى بنى عبد المطلب، فدعوتُ أربعين رجلًا.

فقال لى (ص): هلمّ طعامک، فأتيتهم بثريد إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها، فأكلوا منها جميعاً حتى أمسكوا.

ثم قال (ص): اسقهم، فسقيتهم بإناء هو رىّ أحدهم، فشربوا منه جميعاً حتى صدروا.

فقال أبو لهب: لقد سحركم محمد، فتفرقوا ولم يدعهم.

فلبثوا أياماً ثم صنع لهم طعاماً مثله ثم أمرنى فجمعتهم فطعموا ثم قال لهم:

(انّ الرائد لا يكذب أهله، واللّه الذى لا إله إلاّ هو انى رسول اللّه إليكم خاصّة، وإلى الناس عامة، واللّه لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون، ولتحاسبنّ بما تعملون، وانها الجنّة أبداً، والنار أبداً).

ثم قال (ص): يا بنى عبد المطلب! اننى واللّه ما أعلم أحداً فى العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى اللّه تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر، على أن يكون أخى ووصيّى وخليفتى فيكم؟

قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، فقلت وانى لأحدثهم سنّاً: يا نبىّ اللّه أكون وزيرک، فأخذ (ص) برقبتى ثم قال: انّ هذا أخى ووصيّى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا.

قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب: قد أمرک أن تسمع لابنک وتطيع(۹).

وعن ابن عباس: لمّا أنزل اللّه تعالى: (وأنذر عشيرتک الأقربين)(۱۰) أتى النبى (ص) الصفا فصعده، ثم نادى: يا صباحاه! فاجتمع الناس إليه بين رجل يأتى إليه وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول اللّه (ص): يا بنى عبد المطلب، يا بنى فهر، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدّقتمونى؟

قالوا: نعم.

قال: فإنّى نذير لكم بين يدى عذاب شديد

فقال أبو لهب: تباً لک سائر اليوم، أما دعوتنا إلاّ لهذا؟ فأنزل اللّه تعالى فيه: (تبّتْ يدا أبى لهب وتب)(۱۱).

موقف أبى طالب (ع)

مضى رسول اللّه (ص) على أمر اللّه مظهراً لأمره لا يردّه عنه شىء، فلمّا رأت قريش أنّ رسول اللّه (ص) لا يعتبهم من شىء أنكروه عليه، ورأوا أنّ عمّه أبا طالب (ع) قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب وفيهم:

عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى، وأبو سفيان بن حرب بن اُمية واسمه صخر، وأبو البخترى واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزّى بن قصى، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن العزّى بن قصى، وأبو جهل واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد اللّه بن مخزوم، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، والعاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم، وغيرهم.

فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلّى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه(۱۲) فنكفيكه.

فقال لهم أبو طالب قولاً ـ رفيقاً، وردّ عليهم ردّاً جميلاً ـ ثم بعث إلى رسول اللّه (ص)، فلما دخل عليه رسول اللّه (ص) قال له: يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم، وقد سألوك أن تكفّ عن شتم آلهتهم ويدَعوك وإلهك.

قال: يا عم أفلا تدعوهم إلى ما هو خير لهم؟

قال: وإلى ما تدعوهم؟

قال: أدعوهم إلى أن يتكلّموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم؟

فقال أبو جهل من بين القوم: ما هى وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها؟

قال: تقولون: (لا إله إلاّ اللّه).

فنفروا وقالوا: سلنا غيرها

قال: لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدىّ ما سألتكم غيرها، فقاموا من عنده غضاباً، وولّوا على أدبارهم نفوراً

وهنا التفت أبو طالب (ع) إلى رسول اللّه (ص) وقال: يا ابن أخى ادع كما أمرت، ثم أنشأ:

واللّه لن يصلوا إليك بجمعهم حتى اُوسّد فى التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر وقر بذاك منك عيونا

ودعوتنى وعلمت أنك ناصحى ولقد صدقتَ وكنتَ ثم أمينا

ولقد علمت بأنّ دين محمد من خير أديان البريّة دينا

منطق الجاهليّين

فلمّا نادى رسول اللّه (ص) بالإسلام وصدع بما أمره اللّه تعالى به، استجاب له الأحداث من الرجال، والضعفة من الناس، حتى كثر من آمن به، فعظم ذلك على أصحاب الأغراض والأطماع من قومه، ورأوا أنّ مصالحهم الشخصية المعتمدة على عبادة الأصنام مهدّدة بالخطر، فناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته، وأكبّوا على منابذته وايذائه، فحدب أبو طالب (ع) على رسول اللّه (ص) ومنعه وقام دونه، لأنه بالإضافة إلى ايمانه باللّه والرسول (ص) كان شريفاً فى قومه، معظّماً فى قريش، مطاعاً فى أهل مكة، فلم يتجاسروا معه مكاشفة الرسول (ص) بشىء من الأذى.

أما أصحابه:

فمن كانت له عشيرة تحميه امتنع بعشيرته، وأما من لم تكن له عشيرة، فقد تصدّوا له بالأذى والعذاب، فلقى أصحاب رسول اللّه (ص) من العذاب أمراً عظيماً.

عمّار وأبواه

وكان ممّن عذّبوه: عمّار بن ياسر واُمّه وأباه، وكان إذا مرّ بهم رسول اللّه (ص) يقول: صبراً يا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة، فمات ياسر

أبو عمّار تحت التعـذيب القاسـى، وكذلك ماتت سـمية أُم عمار على أثر حربة طعنها فى قلبها أبو جهل، وبقى عمّار فى أيدى أسـياده وأخـذوا يعـذّبونه أشـدّ التعـذيب، إلى أن قالوا له: لا نترككَ حتى تكفر بمحمّد وإلهه، فأجابهم إلى ذلك مكرهاً، فتركوه، فأتى النبى (ص) معتذراً باكياً، فأنزل اللّه تعالى: (إلاّ من أُكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان..)(۱۳) فقال له (ص): لا بأس عليك يا عمّار إن عادوا فعد.

مع بلال

وكذلك كان بلال، فإن أسياده كانوا يأخذونه إلى التعذيب خارج مكة، فيطرحونه على الرمضاء ثم يلقون على بطنه الصـخرة العظيمة المحماة بالشمس، ثم يأخذونه ويلبسونه فى ذلك الحرّ الشديد درع من حديد، ويضعون فى عنقه حبلاً ويسلّمونه إلى الصبيان يطوفون به، وهو فى كل ذلك صابر محتسب لا يبالى بما يلقى فى ذات اللّه، وكان كلما اشتدّ به العذاب يقول: أحد، أحد.

الهجرة إلى الحبشة

فلمّـا اشـتدّ البلاء عليهم أذن رسول اللّه (ص) لهم فى الهجرة الأُولى إلى أرض الحبشـة وقال: إنّ بها ملكاً لا يظلم الناس، وهى أرض صدق، فلو خرجتم إليها حتى يجعل اللّه لكم فرجاً ومخرجاً ممّا أنتم فيه.

فهاجر إليها جماعة يبلغ عددهم أحد عشـر رجلاً وأربع نسوة، فخرجوا متسالمين سرّاً فوفّق اللّه لهم ساعة وصولهم إلى الساحل سفينتين للتجّـار فحملوهم فيها إلى أرض الحبشـة، وكان خروجهم فى رجب من السـنة الخامسـة من المبعث الشـريف، فأقاموا بالحبشـة شـعبان ورمضان، وخرجت قريش فى آثارهم حتى جاءوا البحر فلم يدركوا منهم أحداً.

ثم رجعوا إلى مكة فى شوّال لما بلغهم أنّ قريشاً صافّوا رسول اللّه (ص) وكفّوا عنه.

ولكن لما وافوها ورأوا الأمر على خلاف ما بلغهم، حيث تعرَّض كثير منهم لأذى المشـركين واضطهادهم القاسى وبنحو أشد من المرة الأُولى، اسـتأذنوا الرسول (ص) ثانيـة بـالهجرة، فأذن لهم فى الهجرة إلى الحبشـة مرة ثانيـة فخرجوا، فكان خروجهم الثانى أشق عليهم وأصـعب، وكان عدّة من خرج فى هذه المرّة ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانية عشـرة امرأة قرشـيّة وغير قرشية، يرأسهم جعفر بن أبى طالب (ع).

فأكرم النجاشى وفادتهم وآمن بالرسول (ص).

من بركات الهجرة

ولمـا رأت قريش اطمئنان المهاجرين فى أرض المهجر، وحسن صـحبة النجاشـى لهم، اجتمعوا فى دار النـدوة وقالوا: إنّ لنا فى الـذين عنـد النجاشـى ثأراً، فاجمعوا مالاً واهـدوه إلى النجاشـى لعلّه يـدفع إليكم من عنـده، ولينتدب فى ذلك رجلان من أهل رأيكم، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد مع الهدية فركبا البحر.

فلمّا دخلا على النجاشـى سـجدا له وسـلما عليه وقالا: قومنا لك ناصـحون، وإنهم بعثونا إليك لنحـذرك هؤلاء الـذين قـدموا عليك، لأنهم قوم رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول اللّه ولم يتّبعه إلاّ السـفهاء، فضـيّقنا عليهم وألجأناهم إلى شِعب بأرضنا لا يخرج منهم أحـد ولاـ يـدخل عليهم أحـد، فقتلهم الجوع والعطش، فلمـا اشـتد عليهم الأـمر بعث إليـك ابن عمه ليفسـد عليـك دينـك وملكك، فاحـذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم، وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسـجدون لك ولا يحيّونك بالتحية التى كنت تحيّا بها، رغبة عن دينك.

فلمّا دعاهم النجاشى وحضروا صاح جعفر بن أبى طالب بالباب: يستأذن عليك حزب اللّه.

فقال النجاشى: مروا هذا الصائح فليُعد كلامه، ففعل.

فقال: نعم فليدخلوا بأمان اللّه وذمّته.

فدخلوا ولم يسجدوا له.

قال: ما منعكم أن تسجدوا لى؟

قالوا: نسجد للّه الذى خلقك وملّكك، وإنما كانت تلك التحيّهٔ لنا ونحن نعبد الأوثان، فبعث اللّه فينا نبيّاً صادقاً، وأمرنا بالتحيهٔ التى رضيها وهى (السلام) تحيهٔ أهل الجنّهٔ.

فعرف النجاشى أن ذلک حق، وأنه فى التوراهٔ والإنجيل.

فقال: أيکم الهاتف يستأذن؟

قال جعفر: أنا.

قال: فتکلّم.

قال: إنک ملک لا يصلح عندک کثرهٔ الکلام ولا الظلم، وأنا اُحب أن اُجيب عن أصحابى، فمر هذين الرجلين فليتکلّم أحدهما فتسمع کلامنا وحوارنا.

فقال عمرو بن العاص لجعفر: تکلّم.

فقال جعفر للنجاشى: سله أعبيد نحن أم أحرار؟ فإن کنّا عبيداً قد أبقنا من موالينا فارددنا إليهم.

فقال عمرو: بل أحرار کرام.

فقال: هل أرقنا دماً بغير حق فيقتص منا؟

قال: لا، ولا قطرهٔ.

قال: فهل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها؟

قال عمرو: ولا قيراط.

قال النجاشى: فما تطلبون منهم؟

قال: کنا وهم على دين واحد، على دين آبائنا، فترکوا ذلک واتبعوا غيره.

فقال النجاشى لجعفر: ما هذا الذى کنتم عليه والذى اتّبعتموه؟ وأصدقنى.

فقال جعفر: أما الذى کنا عليه فترکناه فهو دين الشيطان، کنا نکفر باللّه ونعبد الحجارهٔ، وأما الذى تحولنا إليه فهو دين اللّه الإسلام، جاءنا به من اللّه رسول، وکتاب مثل کتاب ابن مريم موافقاً له.

فقال النجاشى: تکلمتَ بأمر عظيم فعلى رسلک.

ثم أمر بضرب الناقوس، فاجتمع إليه کل قسيس وراهب، فقال: اُنشدکم باللّه الذى أنزل الإنجيل على عيسى، هل تجدون بين عيسى وبين القيامهٔ نبيّاً مرسلاً؟

قالوا: اللّهمّ نعم، قد بشّرنا به عيسى وقال: من آمن به فقد آمن بى، ومن کفر به فقد کفر بى.

فقال النجاشى لجعفر: ماذا يقول لکم هذا الرجل؟ وماذا يأمرکم به وماذا ينهاکم عنه؟

قال: يقرأ علينا کتاب اللّه، ويأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنکر، ويأمرنا بحسن الجوار، وصلهٔ الرحم، وبرّ اليتيم، ويأمرنا أن نعبد اللّه وحده لا شريک له.

فقال: اقرأ ما يقرأ عليکم.

فقرأ عليه سورهٔ العنکبوت والروم، ففاضت عين النجاشى وأصحابه من الدمع.

فقال: زدنا من هذا الحديث الطيّب.

فقرأ عليهم سورة الكهف.

فأراد عمرو أن يغضب النجاشی فقال: إنهم يسبّون عيسى وأُمّه.

فقرأ عليهم جعفر سورة مريم (ع).

فلمّا أتى على ذكر عيسى وأُمه رفع النجاشی نفاثة من سواكه قدر ما يقذی العين فقال: واللّه ما زاد المسيح على ما يقول هؤلاء نقداً.

ثم التفت إلى جعفر ومن معه من المسلمين وقال لهم: اذهبوا فأنتم سيوم(١۴) بأرضی، من سبّكم غرم، فلا هوادة اليوم على حزب ابراهيم، ما أحب أن لی دَبْرا(١۵) من ذهب وأنی آذيت رجلًا منكم.

ثم قال: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لی فيها، فواللّه ما أخذ اللّهُ منّی الرشوة حين ردّ علیّ ملكی فآخذ الرشوةَ فيه، وما أطاع الناس فیّ فأطيعهم فيه.

فخرجا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به.

وفی النجاشی وأصحابه حسب بعض التفاسير نزلت: (وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع)(١۶).

اسلام النجاشی

ثم ان النجاشی أسلم سراً وآمن بالنبی (ص) خفية وقال: لو قدرتُ أن آتی النبی لأتيته، فكاتبه النبی (ص) فی أن يزوّجه أُم حبيبة بنت أبی سفيان، وكانت ممن هاجر إلى الحبشة مع زوجها عبيد اللّه بن جحش، فتنصَّر هناك ومات، فزوّجه إيّاها، وأصدقها عنه أربعمائة دينار، وكان الذی تولّى تزويجها خالد بن سعيد بن العاص، وكتب إليه أن يبعث إليه من بقی من أصحابه ويحملهم ففعل، وحملهم فی سفينتين مع عمرو بن أُميۀ، وقدموا على رسول اللّه (ص) حين افتتح خيبر.

ولمّا مات النجاشی نعاه رسول اللّه (ص) فی اليوم الذی مات فيه وخرج إلى المصلّى فكبّر خمس تكبيرات ثم التفت إلى المسلمين وقال: استغفروا لأخيكم.

قيل: وكان موت النجاشی فی رجب سنة تسع هجرية، ولما صلّى عليه رفع إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه بالمدينة، وتكلّم المنافقون وقالوا: يصلّی على علج مات بأرض الحبشة.

١ آل عمران: ٨١. ٢ القلم: ١ ـ ۵. ٣ آل عمران: ۶۴.

۴ بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ۴٣۵ ب ١٢ ح ۴٩، وشرح نهج البلاغة لابن أبی الحديد: ج ١٣ ص ٢٢٨ ب ٢٣٨ دار إحياء التراث العربی ط ٢.

۵ نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢. ۶ الأحزاب: ۵. ٧ الحجر: ٩۴.

٨ الشعراء: ٢١۴ ـ ٢١۵.

٩ راجع شرح النهج لابن أبی الحديد المعتزلی: ج ١٣ ص ٢١٠ ٢١١ ط دار إحياء التراث العربی.

١٠ الشعراء: ٢١۴. ١١ المسد: ١.

١٢ سبق أنّ أبا طالب (ع) كان مؤمناً بالله تعالى. ١٣ النحل: ١٠۶.

١۴ السيوم: الآمنون. ١۵ الدبر بلسان الحبشة: الجبل. ١۶ المائدة: ٨٣.

إسلام حمزة

ثم أسلم حمزة بن عبدالمطلب وكان سبب اسلامه أنّ أبا جهل مرّ برسول اللّه (ص) فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلّمه رسول اللّه (ص)، ومولاة لعبداللّه بن جُدعان فی مسكن لها تسمع ذلک.

ثم انصرف عنه عامداً إلی نادی قریش عند الکعبة فجلس معهم، فلم یلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له، وکان صاحب قنص یرمیه ویخرج له، وکان إذا رجع من قنصه لم یصل إلی أهله حتی یطوف بالکعبة، وکان إذا فعل ذلک لم یمر علی ناد من قریش إلا وقف وسلم وتحدّث معهم، وکان أعزّ فتی فی قریش وأشدّه شکیمةً.

فلما مرّ بالمولاة وقد رجع رسول اللّه (ص) إلی بیته قالت: یا أبا عمارة، لو رأیت ما لقی ابن أخیک محمد آنفاً من أبی الحکم بن هشام، وجده ههنا جالساً فآذاه وشتمه وسبّه وبلغ منه ما یکره، ثم انصرف عنه ولم یکلّمه محمد.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد اللّه به من کرامته، فخرج یسعی لم یقف لأحد، معدّاً لأبی جهل إذا لقیه أن یوقع به، فلقیه جالساً فی القوم، فأقبل نحوه، حتی إذا قام علی رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منکرة، ثم قال: أتشتمه وتسبّه؟ فأنا علی دینه، أقول ما یقول، فردَّ علیّ إن استطعت.

فقامت رجال من بنی مخزوم إلی حمزة لینصروا أبا جهل.

فقال أبوجهل: دعوا أبا عمارة، فإنی واللّه قد سببتُ ابن أخیه سباً قبیحاً.

وتم حمزة علی إسلامه وعلی ما تابع علیه رسول اللّه (ص)، فعرفت قریش أن رسول اللّه (ص) قد عزَّ وامتنع، وأن حمزة سیمنعه، فکفوا عن بعض ما کانوا ینالون منه.

أبوطالب ومواقفه المشرّفة

فلما رأت قریش ان أمر رسول اللّه (ص) یتزاید ویقوی، مشوا إلی أبی طالب مرة اُخری فقالوا له: یا أباطالب، إن لک سناً وشرفاً ومنزلة، وإنا قد استنهیناک من ابن أخیک، فلم تنهه عنا، وإنا واللّه لانصبر علی هذا من شتم آبائنا وتسفیه أحلامنا وعیب آلهتنا، حتی تکفه عنا أو ننازله وإیاک فی ذلک حتی یهلک أحد الفریقین.

فبعث إلی رسول اللّه (ص) فقال: یا ابن أخی إن قومک جاءونی وقالوا لی کذا وکذا فما تقول؟

فقال له رسول اللّه (ص): یا عم واللّه لو وضعوا الشمس فی یمینی والقمر فی یساری علی أن أترک هذا الأمر ما ترکته حتی یظهره اللّه أو أهلک فیه.

ثم استعبر رسول اللّه (ص) فبکی، ثم قام. فلما ولی ناداه أبو طالب فقال: أقبل یابن أخی. فأقبل علیه رسول اللّه (ص) فقال له: قل یا ابن أخی ما أحببت، فواللّه لا اسلمک لشیء أبداً.

مکیَدَة قریش

ثم إن قریشاً حین عرفوا أن أباطالب (ع) قد أبی خذلان رسول اللّه (ص) وإسلامه له، وإجماعه لفراقهم فی ذلک وعداوتهم، مشوا إلیه بعمارة بن الولید فقالوا له: یا أباطالب، هذا عمارة بن الولید أنهد فتی فی قریش وأجمله، فخذه فلک عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لک، وأسلم إلینا ابن أخیک هذا الذی قد خالف دینک ودین آبائک وفرَّق جماعة قومک وسفّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل کرجل.

فأجابهم أبو طالب قائلاً: واللّه لبئس ما تسوموننی، تعطوننی ابنکم اغذیه لکم، وأعطیکم ابنی تقتلونه! هذا واللّه ما لایکون أبداً.

فقال المطعم بن عدی بن نوفل بن عبد مناف: واللّه یا أباطالب لقد أنصفک قومک، وجهدوا علی التخلص مما تکره، فما أراک ترید أن تقبل منهم شیئاً؟

فقال: واللّه ما أنصفتمونی، ولکنک قد أجمعت خذلانی ومظاهرة القوم علیّ، فاصنع ما بدا لک، فتنابذ القوم وبادی بعضهم بعضاً.

فقال أبو طالب عند ذلک یعرّض بالمطعم ویعم من خذلة من بنی عبد مناف ومن عاداه من قبائل قریش ویذکر ما سألوه وما تباعد من

أمرهم أبياتاً أولها: (ألاّ قل لعمرو والوليد ومُطعم ألا ليت حظى من حياطتكم بكر).

قريش يتآمرون

ثم إن قريشاً تآمروا بينهم على من فى القبائل من أصحاب رسول اللّه (ص) الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع اللّه رسوله منهم بعمّه أبى طالب (ع)، وقد قام أبوطالب (ع) حين رأى قريشاً يصنعون مايصنعون فى بنى هاشم وبنى عبدالمطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول اللّه (ص) والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، إلا ما كان من أبى لهب وولده فإنهم ظاهروا قريشاً على قومهم.

ثم إنهم أجمعوا على أن يقتلوا رسول اللّه (ص) علانية، فبلغ ذلك أباطالب، فجمع بنى هاشم وبنى عبدالمطلب فأدخلوا رسول اللّه (ص) شعبهم ومنعوه ممّن أراد قتله.

الصحيفة المشؤومة

فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً على بنى هاشم وبنى عبدالمطلب ألاّ ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوا منهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتّى يسلموا رسول اللّه (ص) للقتل.

وكتبوه فى صحيفة بخط أحدهم، فأُصيبت يد الكاتب بعدها بالشلل، وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة.

فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مسلمهم وكافرهم، إلى أبى طالب فدخلوا معه شعبه، فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا وكان لا ـ يصل إليهم شىء إلاّ سرّاً، وقطعت قريش عنهم الأسواق حتى كان يسمع أصوات نسائهم وأبنائهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع، واشتدّوا على من أسلم ممن لم يدخل الشعب، وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً.

وكان أبوطالب (ع) إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول اللّه (ص) فاضطجع فراشه حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر علياً (ع) أو أحد بنيه أو اخوته أو بنى عمّه فاضطجع على فراش رسول اللّه (ص)، وأمره أن يأتى بعض فرشهم، وفى ذلك أنشأ أبوطالب قصيدته اللامية المشهورة، والتى قال فيها:

(ولما رأيت القوم لا وُدّ فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل)

إلى آخر القصيدة.

نقض الصحيفة

ثم بعد ذلك تألّف قوم من قريش على نقض تلك الصحيفة، كان أحسنهم فيها عناءً هشام بن عمرو بن الحرث، فإنه مشى إلى زهير بن أُمية بن المغيرة وكلّمه فى ذلك، وكان زهير هذا شديد الغيرة على النبى (ص) والمسلمين، وكانت أُمه عاتكة بنت عبدالمطلب، فأجابه زهير إلى نقض الصحيفة.

ثم مشى هشام إلى المطعم بن عدى فذكره أرحام بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبدمناف فأجابه إلى ذلك.

ثم مشى إلى أبى البخترى بن هشام فقال له مثل ما قال للمطعم بن عدى.

ثم مشى إلى زمعة بن الأسود فكلّمه وذكر له قرابتهم وحقهم. فقال: وهل معى على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد؟

قال: نعم، ثم سمى له القوم.

واتعدوا خطم الجحون ليلاً ـ بأعلى مكة، فاجتمعوا وتعاهدوا على القيام فى نقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلّم.

فلما أصبحوا غـدوا على أنـديتهم، وغدا زهير بن أبى اُمية عليه حلة، فطاف بالبيت سـبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة: أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنوهاشم هلكى لايباعون ولا يباع منهم، واللّه لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل وكان فى ناحية المسجد: كذبت واللّه لاتشق.

قال زمعة بن الأسود: أنت واللّه أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت.

فقال أبو البخترى: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقرّ به.

قال المطعم بن عدى: صدقتم وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى اللّه منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

قال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل، وتُشووِر فيه بغير هذا المكان.

هـذا كله وأبو طـالب (ع) يسـتعدّ للمجىء إلى المسجد، وكان قـد أخبره رسول اللّه (ص): بأن اللّه قـد سـلّط الارضـة على صـحيفتهم فأكلتها إلاّ ما كان من اسم اللّه تعالى، فلما أخبر النبى (ص) عمه أبا طالب بذلك، قال أبوطالب: لا والثواقب ما كذبتنى.

فانطلق يمشـى بعصابـة من بنى عبدالمطلب حتى أتى المسـجد وهو حافل من قريش، فتكلّم وقال: إنه قد حدث أمر لعله أن يكون بيننا وبينكم صلحاً، فأتوا بصحيفتكم.

وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا فيها قبل أن يأتوا بها.

فأتوا متعجّبين لا يشكّون أن رسول اللّه (ص) مدفوع إليهم.

قالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد قد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم.

فقـال أبوطـالب: لأعطينكم أمراً لكم فيه نَصَف، إن ابن أخى أخبرنى ولم يكـذبنى: أن اللّه برىء من هـذه الصـحيفة التى فى أيـديكم ومحـا كـل غـدركم وقطيعتكم إلاّـ مـا كان من اسم اللّه تعالى فيها، فإن كان ما قال حقاً، فواللّه لانسـلمه إليكم حتى نموت عن آخرنا، وإن كان الذى يقول باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه.

قالوا: قد رضينا.

ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر، لكنهم أصرّوا فى غيّهم وعنادهم وقالوا: هذا سحر من صاحبكم.

فتكلّم عنـد ذلك النفر الذين تعاقدوا، ومزّقت الصـحيفة، فلما مزقت وبطل ما فيها أنشأ أبوطالب فى ما كان من أمر اُولئك القوم الذين قاموا فى نقضها يمدحهم قائلاً:

ألا هل أتى بحرٍّ يرى صنع ربنا**على نأيهم واللّه بالناس أروَد

إلى آخر الأبيات.

وخرج بنو هاشم من شعبهم وخالطوا الناس، وذلك بعد عشرة أعوام من المبعث الشريف.

عام الحزن

ولمّا خرج بنو هاشم من الشـعب لم يمض عليهم من الزمان إلاّ سـتّة أشهر حتى توفى أبوطالب (ع)، ثم توفيت خديجة بعده بثلاثة أيام على قول، فسمّى رسول اللّه (ص) ذلك العام: عام الحزن.

اشتداد أذى قريش

وبموت أبى طـالب (ع) اشـتدّ البلاـء على رسول اللّه (ص) من قومه، وتجرّؤا عليه، وكاشـفوه بالأـذى الشديـد، وأرادوا قتله، إلاّ أن اللّه منعهم منه، وجرّعوه غصصاً كثيرة:

فمنهـا: مـا رواه بعضـهم وقـال: حضـرتهم وقـد اجتمعوا فى الحجر يـذكرون رسول اللّه (ص) فقـالوا: مـا رأينا مثل ما صبرنا عليه، سـفّه

أحلامنا وشتم آباءنا وفرّق جماعتنا، فبينماهم كذلك إذ أقبل رسول اللّه (ص) فاستلم الركن، فلما مرّ بهم غمزوه، فعرفت ذلك فی وجه رسول اللّه (ص) ثم مضی، فلما مرّ بهم الثانیة غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك فی وجه رسول اللّه (ص) ثم مر بهم الثالثة، فلما كان من الغد اجتمعوا كذلك إذ طلع، فقالوا: قوموا إليه وثبة رجل واحد وهكذا فعلوا.

مع ابن أبی معیط

ومنها: انه قال بعضهم: سألت بعض الصحابة عن أذى قريش للنبی (ص) بعد وفاة عمّه أبی طالب (ع) وقلت له: أخبرنی بأشد شیء صنعه المشركون برسول اللّه (ص).

قال: بينما النبی (ص) يصلّی فی حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبی معيط فخنقه خنقاً شديداً.

البنت الوفیة

ومنها: ما عن عبداللّه بن مسعود قال: كان رسول اللّه (ص) يصلّی عند الكعبة وجمع من قريش فی مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلی هذا المرائی، أيكم يقوم إلی جزور آل فلان فيعمد إلی فرثها ودمها وسلاها فيجیء به ثم يمهله حتی إذا سجد وضعه بين كتفيه.

فانبعث أشقاهم، فلما سجد (ص) وضعه بين كتفيه، وثبت النبی ساجداً، فضحكوا حتی مال بعضهم علی بعض من الضحك، وأنا قائم أنظر، ولو كان لی منعه طرحته عن ظهر رسول اللّه (ص).

فانطلق منطلق إلی فاطمة، فأقبلت تسعی، وثبت النبی (ص) ساجداً حتی ألقته عنه، وأقبلت عليهم تؤنّبهم.

فلما قضی رسول اللّه (ص) صلاته رفع صوته شاكياً إلی اللّه ما نزل به وهو يقول: اللّهم عليك بقريش، اللّهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، واُمية بن خلف، وعقبة بن أبی معيط، وعمارة بن الوليد.

قال عبداللّه: فواللّه لقد رأيتهم صرعی يوم بدر قد غيّرتهم الشمس فی يوم حارّ، ثم سحبوا إلی قليب بدر فاُلقوا فيه.

نماذج من أذى قریش

ومنها: انهم كانوا يحضّون سفهائهم لإلقاء التراب علی وجهه ورأسه(ص).

ومنها: انهم كانوا يطرحون الفرث والدم والشوك علی بابه (ص).

ومنها: ان اُمية بن خلف تجاسر علی النبی (ص) فی وجهه، فاحمرّ وجه رسول اللّه (ص) ولم يقل له شيئاً.

مع البنت الحنون

ومنها: انه قال بعضهم: لما نثر ذلك السفيه علی رأس رسول اللّه (ص) التراب دخل رسول اللّه (ص) بيته والتراب علی رأسه، فقامت إليه فاطمة فجعلت تغسل عنه التراب وهی تبكی، ورسول الله (ص) يقول لها: لا تبكی يا بنية فإن اللّه مانع أباكِ.

قال: ويقول بين ذلك: ما نالت منی قريش شيئاً أكرهه حتی مات أبو طالب.

فی ظل الكعبة

ومنها: ما روی عن خباب قال: أتيتُ النبی (ص) وهو متوسّد بردة وهو فی ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول اللّه ألا تدعو اللّه؟

فقعد (ص) وهو محمرّ وجهه فقال: لقد كان فيمن كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد مادون عظامه، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمّنَّ اللّه هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الذئب على غنمه.

مع جماعة الأحلاف

ومنها: ما عن عبداللّه بن عباس انه قال: اجتمع جماعة من أحلاف الكفار عند غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه من يقول له: ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك فأتهم.

فجاءهم رسول اللّه (ص) وهو حريص عليهم، يحب رشدهم ويعزّ عليه عنتهم، حتى جلس إليهم.

فقالوا: يا محمد إنّا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنا واللّه ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد سببت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فما بقى من قبيح إلاّ قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنتَ تريد ملكاً ملكناك، وإن كان الذى يأتيك رئياً وكانوا يسمون التابع من الجن: رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك عنه أو نعذر فيك، وإن كنتَ تريد امرأة زوّجناك أجمل بنت فى العرب.

فقال لهم رسول اللّه (ص): ما بى ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن اللّه تعالى بعثنى إليكم رسولاً ـ وأنزل علىّ كتاباً وأمرنى أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالات ربّى، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا منّى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر اللّه حتى يحكم اللّه بينى وبينكم.

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منّا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا، فاسئل ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا: قصى بن كلاب فإنه كان شيخ صدق فنسأله عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من اللّه، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول اللّه (ص): ما بهذا بعثتُ إليكم، إنما جئتكم من اللّه بما بعثنى به، وقد بلغتكم ما أُرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ فأصبر لأمر اللّه، حتى يحكم اللّه بينى وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك، واما لا، فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضّة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم فى الأسواق تلتمس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربّك إن كنتَ رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول اللّه (ص): ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يسأل ربّه، ولكن اللّه بعثنى بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر اللّه حتّى يحكم اللّه بينى وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمتَ أنّ ربك إن شاء فعل.

قال: فقال رسول اللّه (ص): ذلك إلى اللّه، إن شاء أن يفعله بكم فعل.

قالوا: يا محمد، فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيعلمك بما تراجعنا به ويخبرك بما هو صانع فى ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به، إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا، رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا واللّه لانؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا واللّه لانتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا.

فقام رسول اللّه (ص) من عندهم وانصرف إلى أهله حزيناً أسفاً عليهم.

فلما قام عنهم رسول اللّه (ص) وانصرف، قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا

وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا، وإنى أُعاهد اللّه لأجلسنّ له غداً بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فلتصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

قالوا: واللّه لا نسلمك لشىء أبداً فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول اللّه (ص) ينتظره، وغدا رسول اللّه (ص) كما كان يغدو، وكان رسول اللّه (ص) بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلّى، صلّى بين الركن اليمانى والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام.

فقام رسول اللّه (ص) يصلّى وقد غدت قريش فى أنديتهم فجلسوا فيها ينظرون ما أبوجهل فاعل، فلما سجد رسول اللّه (ص) احتمل أبوجهل الحجر ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده.

فقامت إليه رجال قريش وقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟

قال: قمتُ إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوتُ عرض لى دونه فحل من الإبل واللّه ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهمَّ بى أن يأكلنى.

وروى ان رسول اللّه (ص) قال: ذاك جبرائيل، ظهر له بهذه الصورة، ولو دنا لأخذه.

فلما قال ذلك لهم أبو جهل قام النضر بن الحارث بن كلدة فقال:

يا معشر قريش! واللّه لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمّد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر، لا واللّه ما هو بساحر، قد رأينا السحرة نفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا واللّه ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة تخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا واللّه ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يا معشر قريش، فانظروا فى شأنكم، فإنه واللّه قد نزل بكم أمر عظيم.

الحرب الثقافية ضد القرآن

وكان النضر هذا من قريش، وممّن كان يؤذى رسول اللّه (ص) وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول اللّه (ص) مجلساً فذكّر فيه باللّه، وحذَّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأُمم من نقمة اللّه، خلّفه فى مجلسه إذا قام، وقال: أنا واللّه يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم فأنا أُحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا كان أحسن حديثاً منّى؟

قالوا: وهو الذى قال: سأُنزل مثل ما أنزل اللّه.

وفد المشركين إلى أحبار المدينة

ثم انهم بعثوا النضر بن الحارث وبعثوا معه عقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلاهم عن محمّد، وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من الأنبياء.

فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول اللّه (ص) ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله وقالا لهم: انكم أهل التوراة قد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقالت لهما أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبىّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجب.

وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه.

وسلوه عن الروح ما هی؟
فإذا أخبرکم بذلک فاتّبعوه فإنه نبیّ، وإن لم یفعل فالرجل متقوّل فاصنعوا فی أمره ما بدا لکم.
فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبی معیط بن عمرو بن اُمیة بن عبد شمس بن عبد مناف حتی قدما مکة علی قریش فقالا: یا معشر قریش قد جئناکم بفصل ما بینکم وبین محمّد، قد أمرنا أحبار الیهود أن نسأله عن أشیاء أمرونا بها، فإن أخبرکم بها فهو نبیّ، وإن لم یفعل فالرجل متقوّل فروا فیه رأیکم.
فجاءوا رسول اللّه (ص) فقالوا: یا محمد، أخبرنا عن فتیة ذهبوا فی الدهر الأول قد کان لهم قصّة عجب، وعن رجل کان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هی؟
فقال لهم رسول اللّه (ص): اُخبرکم بما سألتم عنه غداً.
فجاء جبریل من اللّه بسورة الکهف، وفیها ما سألوه عنه: من أمر الفتیة، والرجل الطوّاف، والروح.

مع رؤوس الشرک

روی أن أبا سفیان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شُریق الثقفی حلیف بنی زهرة، خرجوا لیلة لیستمعوا القرآن من رسول اللّه (ص) وهو یصلّی من اللیل فی بیته، فأخذ کل رجل منهم مجلساً یستمع فیه، وکل لایعلم بمکان صاحبه، فباتوا یستمعون له، حتی إذا طلع الفجر تفرَّقوا فجمعهم الطریق، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لاتعودوا فلو رآکم بعض سفهائکم لأوقعتم فی قلبه شیئاً، ثم انصرفوا.
حتی إذا کانت اللیلة الثانیة عاد کل منهم إلی مجلسه، فباتوا یستمعون له، حتی إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطریق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا.
حتی إذا کانت اللیلة الثالثة أخذ کل رجل منهم مجلسه فباتوا یستمعون له حتی إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطریق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتی نتعاهد علی أن لانعود، ثم تعاهدوا علی ذلک ثم تفرّقوا.
فلما أصبح الأخنس بن شریق أخذ عصاه ثم خرج حتی أتی أبا سفیان فی بیته فقال: أخبرنی یا أبا حنظلة عن رأیک فیما سمعت من محمّد.
فقال: یا أبا ثعلبة لقد سمعت أشیاء أعرفها وأعرف ما یراد بها، وسمعت أشیاء ما عرفت معناها ولا ما یراد بها.
قال الأخنس: وأنا کذلک، والذی حلفت به، ثم خرج من عنده حتی أتی أبا جهل، فدخل علیه بیته فقال: یا أبا الحکم، ما رأیک فیما سمعت من محمد؟
قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطینا، حتی إذا تحاذینا علی الرکب وکنا کفرسی رهان. قالوا: منّا نبیّ یأتیه الوحی من السماء، فمتی ندرک مثل هذه؟ واللّه لانؤمن به أبداً ولا نصدّقه، فقام عنه الأخنس وترکه.

تخطیط الولید ضد القرآن

ثم ان الولید بن المغیرة اجتمع إلیه نفر من قریش، وکان ذا سنّ فیهم وقد حضر الموسم، فقال لهم: یا معشر قریش إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم علیکم، وقد سمعوا بأمر صاحبکم هذا، فأجمعوا فیه رأیاً واحداً ولا تختلفوا فیکذّب بعضکم بعضاً، ویردّ قولکم بعضه بعضاً.
قالوا: فأنت یا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأیاً نقول به.

قال: بل أنتم قولوا وأسمع.

قالوا: نقول کاهن.

قال: لا واللّه ما هو بکاهن، لقد رأينا الکهان، فما بزمزمة الکاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر کله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: نقول ساحر.

قال: وما هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده.

قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟

قال: واللّه إن لقوله حلاوة، وان عليه لطلاوة، وان اعلاه لمثمر، وان أسفله لمعذق، وانه ليعلو وما يعلى عليه، وما أنتم بقائلين من قولکم ذلک شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر، يفرق بين المرء وابنه، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلک وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا ـ يمر بهم أحد إلا ـ حذّروه إياه وذکروا لهم أمره، فأنزل اللّه سبحانه فی الوليد بن المغيرة قوله تعالی: (ذرنی ومن خلقت وحيداً)(۱) إلی قوله تعالی: (سأصليه سقر)(۲).

الوليد برواية اُخری

وعن ابن عباس: ان الوليد بن المغيرة جاء إلی رسول اللّه (ص) فقال: اقرأ علیّ. فقرأ عليه: (إنّ اللّه يأمر بالعدل والإحسان)(۳) إلی آخر الآية.

قال: أعد. فأعاد عليه.

قال: واللّه إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمعذق، وما يقول هذا بشر.

فبلغ ذلک أبا جهل فأتاه فقال: يا عم، إنّ قومک يريدون أن يجمعوا لک مالاً.

قال: ولِمَ؟

قال: أتيت محمداً لتعرض مما قبله.

قال: قد علمت قريش أنی من أکثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومک أنک منکر له.

قال: ماذا أقول؟ ثم قال: انه سحر، فنزلت فيه الآيات.

مع العتبة بن ربيعة

عن جابر بن عبداللّه قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمکم بالسحر والکهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذی قد فرَّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وعاب ديننا، فليکلمه ولينظر ماذا يردّ عليه.

فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد.

فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خير أم عبداللّه؟ فسکت رسول اللّه (ص).

فقال: أنت خير أم عبدالمطلب؟ فسکت رسول اللّه.

قال: فإن كنت تزعم ان هؤلاء خير منك فإنهم لم يظهروا كلاماً، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، ثم أردف قائلًا:

إنّا واللّه ما رأينا شخصاً قط أشأم على قومه منك، فرقت جماعتنا، وشتّتّ أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا فى العرب، لقد طار فيهم: ان فى قريش ساحراً، وان فى قريش كاهناً، واللّه ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى. أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أىّ نساء قريش شئتَ فلنزوّجك عشراً.

فقال رسول اللّه (ص): فرغتَ؟

قال: نعم.

فقال رسول اللّه (ص): (بسم اللّه الرحمن الرحيم، حم، تنزيل من الرحمن الرحيم)(۴) حتى بلغ (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)(۵) وحينئذ أمسك عتبة على فيه (ص) وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم.

فقال أبو جهل: يا معشر قريش، واللّه لانرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذلك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه.

فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد، وأعجبك طعامه، فإن كان لك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما نغنيك عن طعام محمد.

فغضب غضبة وأقسم: أن لا يكلّم محمداً أبداً وقال: واللّه إنى من أكثر قريش مالًا، ولكنى أتيته وقصصت عليه القصة، فأجابنى بشىء واللّه ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)(۶) فأمسكتُ بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب.

وفى رواية: ثم مضى رسول اللّه (ص) فيها يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول اللّه(ص) إلى السجدة منها فسجد ثم قال (ص): قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف باللّه لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذى ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائى أنى سمعت قولاً واللّه ما سمعت مثله قط، واللّه ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فواللّه ليكوننّ لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك واللّه يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

۱ المدّثر: ۱۱. ۲ المدّثر: ۲۶. ۳ النحل: ۹۰.

۴ فصّلت: ۱ ۲. ۵ فصّلت: ۱۳. ۶ فصّلت: ۱۳.

الصبر على الأذى

كان هناك جماعة يستهزؤون برسول اللّه (ص)، فأنزل اللّه فيهم آيات يذمّهم بها، ويحذّرهم فيها عاقبة أمرهم، ويتوعّدهم العذاب والنار.

منهم: عمه أبولهب، وامرأته اُم جميل بنت حرب بن اُمية حمّالة الحطب.

سماها اللّه حمّالة الحطب لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول اللّه (ص) حيث يمر، فأنزل اللّه تعالى فيهما: (بسم اللّه الرحمن الرحيم تبّت يدا أبى لهب وتبّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمّالة الحطب فى جيدها حبل من

مسد)(١).

وقد كانت تمشى بالنميمة، وتنقل الحديث، وتلقى العداوة بين الناس، وتوقد ناراً كما توقد النار بالحطب.

ثم ان أُم جميل حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت رسول اللّه(ص) وهو جالس فى المسجد عند الكعبة، وفى يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليه أخذ اللّه ببصرها عن رسول اللّه (ص) فلم تره، لكنها قالت: قد بلغنى انه يهجونى، واللّه لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما واللّه إنى لشاعرة، ثم أنشأت تقول:

(مذمماً عصينا) (لو أمرَه أبينا) (ودينه قلينا).

ثم انصرفت.

قال (ص): ما رأتنى، لقد أخذ اللّه ببصرها عنّى.

وقد كانت قريش تسمّى رسول اللّه (ص) مذمّما، يسبّونه به، وكان رسول اللّه (ص) يقول: ألا تعجبون لما يصرف اللّه عنى من أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذمماً، وأنا محمد.

ويل لكلّ هُمَزَة

ومنهم: اُمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمح، كان إذا رأى النبى (ص) همزه ولمزه، فأنزل اللّه فيه: (ويل لكلّ هُمَزة لُمَزة)(٢) إلى آخر السورة.

و(الهُمَزة): الذى يشتم الرجل علانية ويكسر عينه عليه ويغمز به، وجمعه همزات.

و(اللُمَزة): الذى يعيب الناس سرّاً ويؤذيهم.

الكافر بآيات اللّه

ومنهم: العاص بن وائل السهمى، فعن الخبّاب بن الأرتّ صاحب رسول اللّه (ص) انه قال: كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل السهمى، فجئت أتقاضاه، فقال: لا اُعطيك حتى تكفر بمحمد (ص).

فقلت: لا أكفر بمحمد حتى يميتك اللّه ثم يحييك.

قال: إذا أماتنى اللّه ثم بعثنى بعثنى ولى مال وولد، فأنزل اللّه تعالى: (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لاُوتينّ مالاً وولداً)(٣) إلى قوله تعالى: (ويأتينا فرداً)(۴).

الإنسان الطاغى

ومنهم: أبو جهل فإنّه سأل قومه يوماً وقال: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟

فقيل: نعم.

فقال: واللات والعُزّى لئن رأيته يفعل ذلک لأطأنّ رقبته ولاُعفرنّ وجهه فى التراب.

قال الراوى: فأتى رسول اللّه (ص) وهو يصلى، فزعم ليطأ على رقبته، فما فجئهم منه إلاّ وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه.

فقالوا: ما لک يا أبا الحكم؟

قال: انّ بينى وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة.

فقال رسول اللّه (ص): (لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)، فأنزل اللّه فيه: (كلّا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)(۵).

الأفّاك الأثيم

ومنهم: النضر بن الحارث، فإنه كان إذا جلس رسول اللّه (ص) مجلساً فدعا فيه إلى اللّه تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذّر قريشاً ما أصاب الأُمم الخالية، خلّفه النضر بن الحارث فى مجلسه إذا قام فحدّثهم عن رستم وإسفنديار وملوك فارس ثم يقول: واللّه ما محمد بأحسن حديثاً منّى، وما حديثه إلاّ أساطير الأولين أكتتبها.

فأنزل اللّه فيه: (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تُملى عليه بكرةً وأصيلًا قل أنزله الذى يعلم السرّ)(۶).

ونزل فيه: (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين)(۷).

ونزل فيه: (ويل لكل أفّاكٍ أثيم يسمع آيات اللّه تتلى عليه)(۸) إلى قوله (فبشّره بعذاب أليم)(۹).

حصب جهنم

ومنهم: ابن الزبعرى، وذلك ان رسول اللّه (ص) جلس يوماً مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول اللّه (ص)، فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول اللّه (ص) حتى أفحمه، ثم تلا عليه: (إنّكم وما تعبدون من دون اللّه حصب جهنم أنتم لها واردون)(۱۰).

ثم قام رسول اللّه (ص) وأقبل عبد اللّه بن الزّبعرى السهمى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبداللّه بن الزبعرى: واللّه ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصبُ جهنم.

فقال عبد اللّه بن الزبعرى: أما واللّه لو وجدته لخصمته، فاسألوا محمداً أكلّ ما يعبدون من دون اللّه فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود يعبدون عزيراً، والنصارى يعبدون عيسى بن مريم.

فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قوله، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.

فذكر ذلك لرسول اللّه (ص)، فقال رسول اللّه (ص): كل من أحب أن يعبد من دون اللّه فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم الشياطين بعبادته، فأنزل اللّه عليه: (إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون)(۱۱).

ونزل فى ماذكر من أمر عيسى بن مريم (ع) وأنه يُعبد من دون اللّه: (ولمّا ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون)(۱۲) أى يصيحون فرحاً لزعمهم بأنّ الرسول (ص) قد انقطع به.

ثم ذكر عيسى فقال: (ان هو إلاّ عبد أنعمنا عليه)(۱۳) إلى قوله: (وانه لعلم للساعة فلا تمترنّ بها)(۱۴).

وفى رواية: ان رسول اللّه (ص) قال له: ما أجهلك بلسان قومك، (ما) لما لا يعقل، أى: فلا يشمل الملائكة وعزيراً والمسيح (عليهم السلام).

عظيما القريتين

ومنهم: الوليد بن المغيرة فإنه قال: أينزّل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيّدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف؟ فنحن عظيما مكة والطائف القريتين.

فأنزل اللّه تعالى فى ذلك: (وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربّك)(۱۵).

الظالم وخليله

ومنهم: عقبة بن أبى معيط، وأُبىّ بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمح، كانا متصافيين حسناً ما بينهما، فكان عقبة قد جلس إلى

رسول اللّه (ص) وسمع منه. فبلغ ذلک أُبیاً، فأتی عقبة فقال له: ألم یبلغنی عنک أنّک جالست محمداً وسمعت منه؟ ثم قال: وجهی من وجهک حرام أن أکلمک واستغلظ من الیمین إن انت جالست محمداً وسمعت منه، أو لم تأته فتتجاسر علیه فی وجهه. ففعل ذلک عقبة، فأنزل اللّه فیهما:

(ویوم یعضُّ الظالم علی یدیه یقول یا لیتنی اتّخذتُ مع الرسول سبیلًا)(۱۶) إلی قوله: (وکان الشیطان للإنسان خذولًا)(۱۷).

صاحب المثل

ومنهم: اُبیّ بن خلف، فإنّه مشی إلی رسول اللّه (ص) بعظم بال قد أرفت فقال: یا محمد أنت تزعم أن اللّه یبعث هذا بعد ما أری؟ ثم فته فی یده ثم نفخه فی الریح نحو رسول اللّه (ص).

فقال رسول اللّه (ص): أنا أقول ذلک، فأنزل اللّه فیه:

(وضرب لنا مثلًا ونسی خلقه قال من یحیی العظام وهی رمیم قل یحییها الذی أنشأها أول مرة وهو بکل خلق علیم)(۱۸).

لا للحل الوسط

ومنهم: الأسود بن المطلب، والولید بن المغیرة، واُبیّ بن خلف، والعاص بن وائل السهمی، وکانوا ذوی أسنان فی قومهم، فاعترضوا رسول اللّه (ص) وهو یطوف بالکعبة فقالوا: یا محمد، هلُم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، فنشترک نحن وأنت فی الأمر، فإن کان الذی تعبد خیراً مما نعبد کنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن کان ما نعبد خیراً مما تعبد کنت قد أخذت بحظک منه. فأنزل اللّه فیهم:

(بسم اللّه الرحمن الرحیم قل یا أیها الکافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لکم دینکم ولی دین)(۱۹).

طعام الأثیم

ومنهم: أبو جهل بن هشام حیث قال یوماً: یا معشر قریش هل تدرون ما شجرة الزقوم التی یخوفکم بها محمد؟

قالوا: لا.

قال: عجوة یثرب بالزبد، واللّه لئن استمکنّا منها لنتزقمنها تزقماً، فأنزل اللّه فیه: (إن شجرة الزقوم طعام الأثیم کالمهل یغلی فی البطون کغلی الحمیم)(۲۰) أی لیس کما یقول.

مع الملأ من قریش

ومنهم: الملأ من قریش، فإنهم کانوا یستهزئون برسول اللّه (ص) إذا جلس فی المسجد، وجلس إلیه المستضعفون من أصحابه: خبّاب، وعمّار، وأبو فکیهة، ویسار مولی صفوان بن اُمیة، وصهیب، وأشباههم من المسلمین.

وکان بعضهم یقول لبعض: هؤلاء أصحابه کما ترون، أهولاء منّ اللّه علیهم بالهدی من بیننا؟ لو کان ما جاء به محمد خیراً ما سبقنا هؤلاء إلیه وما خصّهم اللّه به؟

وکانوا کلما مرّوا علی رسول اللّه (ص) ووجدوا عنده خبّاباً وصهیباً وبلالاً. قالوا: یا محمد أرضیت بهؤلاء عن قومک؟

فانزل اللّه تعالی فیهم: (وأنذر به الذین یخافون أن یحشروا إلی ربّهم لیس لهم من دونه ولیّ ولا شفیع)(۲۱) إلی قوله: (واللّه أعلم بالظالمین)(۲۲).

وفی روایة قالوا: یا محمد، أرضیت بهؤلاء عن قومک؟ أهؤلاء منّ اللّه علیهم بالهدی من بیننا، فنحن نصیر تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم،

فذاك أحرى إن طردتهم أن نتبعك، فنزل: (ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشى)(۲۳).

اتهامات واهية

ومنهم: جماعة من قريش فانهم لما رأوا رسول اللّه (ص) يمرّ أحياناً عند المروة على مبيعة غلام نصرانى اسمه: (جبر) وكان عبداً لبنى الحضرمى، فيعرض عليه الاسلام، ويدعوه إلى اللّه، كانوا ينتهزونه فرصة لكيل التهم على رسول اللّه (ص) فكانوا يقولون: واللّه ما يعلّم محمداً كثيراً مما يأتى به إلّا (جبر) النصرانى غلام بنى الحضرمى.

فأنزل اللّه فى ذلك: (ولقد نعلم أنهم يقولون إنّما يعلّمه بشر، لسان الذين يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين)(۲۴) يلحدون أى: يميلون، فإن الإلحاد الميل.

الشماتة بالرسول (ص)

ومنهم: العاص بن وائل السهمى، فانه كان إذا ذكر رسول اللّه (ص) قال: دعوه فانما هو رجل أبتر لا عقب له، لو قد مات لانقطع ذكره واسترحتم منه. فأنزل اللّه فى ذلك: (بسم اللّه الرحمن الرحيم إنّا أعطيناك الكوثر فصلّ لربّك وانحر إنّ شانئك هو الأبتر)(۲۵).

و(الكوثر) الخير الكثير، والمراد من الكوثر: فاطمة الزهراء (ع) بنت رسول اللّه (ص)، حيث كان منها نسل رسول اللّه (ص) إلى يوم القيامة، كما جاء فى بعض الروايات.

وعن أنس قال: سمعت رسول اللّه (ص) وقد قيل له: يا رسول اللّه ما الكوثر الذى أعطاك اللّه؟

قال: نهر كما بين صنعاء إلى أيلة، آنيته كعدد نجوم السماء.

ولا مانع من ان يكون المراد كل ذلك.

مع ركانة

ومنهم: ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف وكان أشد قريش، قيل: انه التقى برسول اللّه (ص) فى بعض شعاب مكة، فقال له رسول اللّه (ص): يا ركانة ألا تتقى اللّه وتقبل ما أدعوك إليه؟

قال: إنى لو أعلم أن الذى تقول حق لاتبعتك.

فقال له رسول اللّه (ص): أفرأيت إن صرعتك تعلم أن ما أقول حق؟

قال: فهلم حتى أصارعك.

فقام اليه ركانة يصارعه، فلما بطش به رسول اللّه (ص) أضجعه لا يملك من نفسه.

ثم قال: عد يا محمد. فأعاد، فصرعه. فقال: والله يا محمد إن هذا للعجب، أتصرعنى؟

قال رسول اللّه (ص): وأعجب من ذلك إن شئت أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمرى.

قال: وما هو؟

قال: أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتينى.

قال: ادعها.

فدعاها، فأقبلت حتى وقفت بين يدى رسول اللّه (ص). فقال لها: ارجعى إلى مكانك. فرجعت إلى مكانها.

فلما رأى ركانة ذلك ذهب إلى قومه فقال: يا بنى عبد مناف، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فواللّه ما رأيت أسحر منه قط. ثم أخبرهم بالذى رأى والذى صنع.

اصطحاب الملائكة

ومنهم: زمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبد يغوث، وأُبيّ بن خلف، والعاص بن وائل، فانهم كانوا كلما عرض رسول اللّه (ص) الإسلام على قومه وكلّمهم فابلغ إليهم، قالوا له: لو جعل معك يا محمد ملك يحدّث عنك الناس ويرى معك؟
فأنزل اللّه فى ذلك: (وقالوا لولا أُنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر)(۲۶) إلى قوله تعالى: (ما يلبسون)(۲۷).

مع الهمّازين

ومنهم: الوليد بن المغيرة وأُمية بن خلف وأبو جهل بن هشام، فإنهم كانوا كلما مرّ رسول اللّه (ص) بهم غمزوه واستهزءوا به، فأنزل اللّه عليه فى أمرهم: (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون)(۲۸).

أشد من يوم اُحد

ومنهم: ابن عبد ياليل بن عبد كلاب، فانه روى عن إحدى نساء النبى (ص) أنها قالت: قلت للنبى (ص): هل أتى عليك يوم أشد عليك من يوم اُحد؟
فقال (ص): لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلاب فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت على وجهى وأنا مهموم، فلم أرنى إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا بسحابة قد أظلتنى فإذا فيها جبرئيل فنادانى فقال: ان اللّه سمع قول قومك وما ردوا عليك وقد بعث اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.
فنادانى ملك الجبال فسلّم علىّ وقال: ان اللّه قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعثنى إليك لتأمرنى بما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين.
فقلت: أرجو أن يخرج اللّه من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً.

رؤوس المستهزئين

لقد عذب اللّه طائفة ممن كذّب رسول اللّه (ص) بأنواع من العذاب كالمستهزئين الذين قال اللّه فيهم: (إنّا كفيناك المستهزئين) فعذب كل واحد منهم بعذاب معروف.
كعتيبة بن أبى لهب. فإن أبا لهب لما عادى النبى (ص) أمر ابنيه أن يطلقا ابنتى النبى (ص) رقية وأُم كلثوم(۲۹)، وقال عتيبة لرسول اللّه (ص): كفرت بدينك وفارقت ابنتك، لا تحبنى ولا اُحبك، ثم تسلط عليه بالأذى وشق قميصه.
ثم إن عتيبة خرج بعد ذلك فى نفر من قريش حتى نزلوا فى مكان من الشام يقال له الزرقاء، ليلًا، فطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أخى، هو واللّه آكلى، فعدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه.

۱ المسد: ۱ ۵. ۲ الهمزة: ۱. ۳ مريم: ۷۷.
۴ مريم: ۸۰. ۵ العلق: ۶ ۷. ۶ الفرقان: ۵ ۶.
۷ القلم: ۱۵. ۸ الجاثية: ۷ ۸. ۹ لقمان: ۷.
۱۰ الأنبياء: ۹۸. ۱۱ الأنبياء: ۱۰۱. ۱۲ الزخرف: ۵۷.
۱۳ الزخرف: ۵۹. ۱۴ الزخرف: ۶۱. ۱۵ الزخرف: ۳۱.
۱۶ الفرقان: ۲۷. ۱۷ الفرقان: ۲۹. ۱۸ يس: ۷۸ ۷۹.

۱۹ الكافرون: ۱ ۶. ۲۰ الدخان: ۴۳ ۴۶. ۲۱ الأنعام: ۵۸.

۲۲ الأنعام: ۵۱. ۲۳ الأنعام: ۵۲. ۲۴ النحل: ۱۰۳.

۲۵ الكوثر: ۱ ۳. ۲۶ الأنعام: ۸. ۲۷ الأنعام: ۹.

۲۸ الأنعام: ۱۰. ۲۹ على بعض الروايات.

وفد قساوسة الحبشة

ومن الوقائع المذكورة: انه قدم على رسول اللّه (ص) وهو بمكة عشرون رجلاًـ أو قريباً من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه فی المسجد الحرام، فجلسوا إليه فكلموه وسألوه، ورجال من قريش فی أنديتهم حول الكعبة.

فلما فرغوا من مسألة رسول اللّه (ص) عما أرادوا، دعاهم رسول اللّه (ص) وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فی كتابهم من أمره.

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل فی نفر من قريش وقال لهم: خيّبكم اللّه من ركب، بعثكم من وراءكم من اهل دينكم ترتادون لهم وتأتونهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم؟

فأجابوه: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً.

فنزل فيهم قوله تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب من قبل هم به مؤمنون)(۱) إلى قوله سبحانه: (سلام عليكم لا نبتغی الجاهلين)(۲).

مع شاعر الجاهلية: الأعشى بن قيس

واسم الأعشى ميمون قيل: إنه خرج إلى رسول اللّه (ص) يريد الإسلام، فقال يمدح رسول اللّه (ص) فی قصيدة منها:

وآليت لا أرى لها من كلالة ولا من حفی حتى تلاقی محمداً

متى ما تناخی عند باب ابن هاشم تراحی وتلقی من فواضله ندی

نبی يرى ما لا يرون وذكره أغار لعمری فی البلاد وأنجدا

له صدقات ما تغب ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غداً

فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره، فأخبره أنه جاء يريد رسول اللّه (ص) ليسلم.

فقال له: يا أبا بصير أنه يحرّم الزنا.

فقال الأعشى: واللّه إن ذلك لأمر مالی فيه من أرب.

فقال له: يا أبا بصير فانه يحرم الخمر.

فقال الأعشى: اما هذه فواللّه ان فی النفس منها لعلالات، ولكنی منصرف لأتروى منها عامی هذا. ثم آتيه فأُسلم. فانصرف فمات من عامه ذلك، ولم يعد إلى رسول اللّه (ص).

رحلة إلى الطائف

ولما اشتد البلاء من قريش على رسول اللّه (ص) بعد موت عمه أبی طالب (ع) كما تقدم وعانى من سفهاء قومه ما عاناه حيث قد تجرأوا عليه وكاشفوه بالأذى ما لم يكاشفوه به من قبل، خرج (ص) إلى الطائف، ورجا أن يؤووه وينصروه على قومه، ويمنعوه منهم.

فلما وصلها اجتمع (ص) بهم فی ناديهم ودعاهم إلى اللّه، فلم ير فيهم من يجيبه أو يؤويه وينصره، ونالوه مع ذلك بأشد الأذى ونالوا منه ما لم ينل قومه.

وكان معه (ص) زيد بن حارثة مولاه، فأقام بينهم فى الطائف عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلّا جاءه وكلمه.
فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم، فأخذ هؤلاء السفهاء يرجمون عراقيبه (ص) بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء، وكان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذونه بعضديه ويقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شج فى رأسه شجاجاً، وما زالوا به حتى ألجأوه إلى حائط لابنى ربيعة: عتبة وشيبة، فعمد إلى الظل وانصرف عنه السفهاء، فأخذ (ص) يناجى ربه ويدعوه بالدعاء المأثور:
(اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوّتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، أنت أرحم الراحمين، ورب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى عدوّ بعيد يتجهمنى، أو إلى عدوّ ملّكته أمرى، ان لم يكن بك على غضب فلا- أبالى، غير أن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى غضبك، أو يحل علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك).
فلما رآه ابنا ربيعة ورأيا ما لقى (ص) من ثقيف تحركت له رحمهما، فبعثا إليه مع غلامهما عدّاس النصرانى قطفاً من عنب، فلما وضع (ص) يده فى القطف قال: بسم اللّه، ثم أكل.
ثم نظر عداس إلى وجهه وقال: واللّه إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة.
فقال له (ص): من أى البلاد أنت، وما دينك؟
قال: نصرانى من أهل نينوى.
قال: من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى؟
قال عداس: وما يدريك؟
قال: ذاك أخى، وهو نبى مثلى.
فأكب عداس على يديه ورأسه يقبلهما.
فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس مالك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟
قال: يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا، فقد أخبرنى ما لا يعلمه إلّا نبى.
قالا: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.
ثم إن إبنى ربيعة نهرا رسول اللّه (ص) من ان يستظل بظل بستانهما غيظاً وحنقاً منهما عليه، فخرج رسول اللّه (ص) من الطائف متّجهاً إلى مكة.

فى منزل نخلة

ولما نزل رسول اللّه (ص) بنخلة فى مرجعه من الطائف قام يصلّى فى جوف اللّيل، فصرف اللّه إليه نفراً من الجنّ فاستمعوا قراءته، وكانوا من أهل نصيبين.
فلما فرغ (ص) من الصلاة ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا به وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص اللّه خبرهم عليه فقال تعالى: (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن)(۳).
وأقام رسول اللّه (ص) بنخلة أياماً، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعنى قريشاً.
فقال: يا زيد إن اللّه جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن اللّه ناصر دينه ومظهر دينه.
ثم انتهى (ص) إلى مكة، فأرسل على قول رجلًا من خزاعة إلى المطعم بن عدى ليقول له: أدخل فى جوارك؟

فقال: نعم. ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت، فإنى قد أجرت محمداً.
فدخل رسول اللّه (ص) ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إنى قد أجرت محمداً، فلا يهيجه منكم أحد. فانتهى رسول اللّه (ص) إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته والمطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل (ص) بيته.

العودة إلى مكة

وفى مكة عاد رسول اللّه (ص) إلى تبليغ رسالات ربّه كما كان عليه من قبل، فكان (ص) يقف بالموسم على القبائل ويتبع الناس فى منازلهم بعكاظ ومجنة وذى المجاز.
وكان (ص) لا ـ يسمع بقادم من العرب له اسم وشرف إلاّ ـ كان يأتيه ويعرض عليهم الاسلام وخلفه أبو لهب فيقول: لا تطيعوه فإنه كذاب، ثم يرميه بالحجارة.
لكن ذلك لم يكن صاداً رسول الله (ص) عن مهمّته ولا كافاً له عن ابلاغ رسالته وانما كان مجداً فى مواصلة طريقه حتى أسلم جماعة كان منهم: (الطفيل بن عمرو الدوسى) فإنه أسلم ودعا قومه إلى الإسلام، فأسلم بعض قومه، فأقام الطفيل فى بلاده إلى أن هاجر بعد عام الخندق هو وجماعة ما بين السبعين والثمانين بيتاً من قومه إلى المدينة فوافوا رسول اللّه (ص) بخيبر.
ثم إن الطفيل كان عند رسول اللّه (ص) بالمدينة حتى قبض اللّه رسوله (ص)، فخرج بعدها مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل فقُتل هو باليمامة، وجرح ابنه جراحةً شديدة، ثم استبسل فيها ثم قُتل عام اليرموك.
۱ القصص: ۵۲. ۲ القصص: ۵۵. ۳ الأحقاف: ۲۹.

رحلة إلى السماء

ومن القضايا التى اتفقت لرسول اللّه (ص) فى مكة: قضية (المعراج) وذلك على ما نطق به القرآن الكريم، فلقد اُسرى به (ص) ليلاً بجسده الشريف وفى حال اليقظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو: بيت المقدس، راكباً على مركب أعدّه له جبرائيل بأمر من اللّه تعالى يقال له: البراق.
وذلك بصحبة جبرائيل حيث نزل به بطيبة فى طريقه إلى المسجد الأقصى فصلى فيها رسول اللّه (ص) فقال له جبرائيل: هذه طيبة واليها مهاجرتك، ثم نزل به بطور سيناء، فصلى فيها فقال له جبرائيل: هذه طور سيناء حيث كلّم اللّه موسى تكليماً، ثم نزل به بعد ذلك ببيت لحم فصلى فيها فقال له جبرائيل: هذه بيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم على رواية، ثم انتهى به إلى بيت المقدس فنزل هناك، وربط رسول اللّه (ص) البراق بالحلقة.
ثم التقى (ص) بالأنبياء (عليهم السلام) حيث رآهم قد اجتمعوا إليه هناك، واُقيمت الصلاة، فأذّن جبرائيل وأقام وقال فيهما: حيّ على خير العمل(۱)، ثمّ أخذ بعضد رسول اللّه (ص) وقدّمه للصلاة، فصلّى (ص) بالأنبياء (عليهم السلام) إماماً.
ثم سرى به فى تلك اللّيلة من بيت المقدس إلى مسجد الكوفة حيث صلّى هناك أيضاً.
ثم عرج منه بصحبة جبرئيل إلى السماوات، فرأى مكتوباً على باب كل سماء، وعلى كلّ حجاب من حجب النور، وعلى كل ركن من أركان العرش: (لا إله إلاّ اللّه، محمّد رسول اللّه، علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين)(۲).
فلمّا بلغ إلى سماء الدنيا استفتح له جبرئيل، ففتح لهما، فرأى هناك آدم (ع) أباالبشر، فسلّم عليه، فرحّب به وردّ عليه السلام، وأقرَّ بنبوّته (ص) وولاية على بن أبى طالب (ع)(۳).
ثم عرج به إلى السماء الثانية، فرأى فيها يحيى بن زكريّا وعيسى بن مريم فسلّم عليهما، فردّا عليه، السلام ورحّبا به وأقرّا بنبوّته (ص)

وولاية على بن أبى طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف الصدّيق (ع)، فسلّم عليه فرحّب به وأقرّ بنبوّته (ص) وولاية على بن أبى طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس (ع)، فسلّم عليه فرحّب به وأقرّ بنبوّته (ص) وولاية علىّ بن أبى طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فلقى فيها هارون بن عمران (ع) فسلم عليه فرحب به، وأقرّ بنبوّته (ص) وولاية على بن أبى طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقى فيها موسى (ع)، فسلم عليه فرحب به وأقرّ بنبوّته وولاية على بن أبى طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقى فيها إبراهيم (ع)، فسلّم عليه فرحب به وأقرّ بنبوّته (ص) وولاية على بن أبى طالب (ع).

ثم رفع (ص) إلى البيت المعمور، فحضرت الصلاة، فأذّن جبرائيل وأقام، ثم صلّى (ص) بالنبيّين والملائكة إماماً.

ثم رفع إلى سدرة المنتهى وفيها نودى: استوص بعلى (ع) خيراً فإنه سيّد المسلمين، وإمام المتقين، وقائد الغرّ المحجّلين يوم القيامة.

ثم رفع إلى حُجُب النور وخلّى عنه جبرائيل.

فقال له (ص): تخلّينى على هذه الحالة؟

فقال: امضه فواللّه لقد وطئت مكاناً ما وطئه أحد قبلك.

ثم رفع (ص) إلى حجاب الجلال، فدنا من ربّه دنوّاً معنوياً، لأنّ اللّه ليس بجسم وليس له مكان، فناجاه ربّه، فكان ممّا ناجاه به: (بك وبعلىّ وبالائمّة من وُلده أرحم عبادى وإمائى، وبالقائم منكم أُعمر أرضى)(... ۴).

ثم على رواية فرض عليه (ص) وعلى أُمَّته خمسين صلاة، فرجع حتى مرَّ على إبراهيم (ع)، فلم يقل له شىء فمرّ حتّى أتى موسى (ع).

فقال: بما أُمِرت؟

قال (ص): بخمسين صلاة.

فقال: إنَّ أُمَّتك لا يطيقون ذلك، ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف لأُمَّتك.

فالتفت إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار أن نعم إن شئت. فرجع يسأل ربّه التخفيف على أُمَّته، ولم يزل يتردَّد بين موسى وبين ربّه تعالى حتّى جعلها خمس صلوات.

ثم ناداه مناد وهو يقول: فهذه الخمس بخمسين.

هذا، ولا يخفى ان النبى (ص) انما لم يسأل ربه التخفيف، لأنّه (ص) كان لايقترح على ربّه عزّوجل ولا يراجعه فى شىء يأمره به. فلمّا سأله موسى (ع) ذلك وصار شفيعاً لأُمّته إليه، لم يرد شفاعته، فرجع وسأل ربّه التخفيف.

وفيه أيضاً: اظهار لفضل موسى (ع) فقد دعا له أبو عبداللّه (ع) وقال: (جزى اللّه موسى عن هذه الأُمَّة خيراً).

وفيه أيضاً: اظهار لفضله (ص) وتقرّبه عند اللّه عزّوجل.

المشركون وأنباء الرحلة

فلما أصبح رسول اللّه (ص) فى قومه أخبرهم بمعراجه وبما أراه اللّه من آياته الكبرى واذ يحدثهم بانه اتى بيت المقدس ورجع من ليلته، وان آية ذلك انه مرّ بعير لأبى سفيان على ماء لبنى فلان وقد اضلّوا جملاً لهم أحمر، وقد همّ القوم فى طلبه.

فاشتد تكذيب القوم له وأذاهم، ومرّ به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزىء هل كان من شىء؟

قال (ص): نعم.

قال: وما هو؟

قال: أُسرى بى الليلة.

قال: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قال: ثم اصبحت بين ظهرانينا؟

قال: نعم.

قال: إن دعوت قومك اتحدثهم بما حدثتنى به؟

قال: نعم.

قال: يا معشر بنى كعب بن لؤى. فانقضت اليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما. فقال: حدّث قومك بما حدثتنى.

فقال رسول اللّه (ص): إنى أَسرى بى الليلة.

قالوا: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: نعم.

فمن بين مصعق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً. فقال المطعم بن عدى: كل أمرك قبل اليوم كان تماماً غير قولك هذا، أنا أشهد انك كاذب. نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً، تزعم أنك أتيته فى ليلة! واللات والعُزّى لا اُصدّقك.

فقالوا: يا محمد، صف لنا بيت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل؟ وفى القوم من سافر إليه.

فذهب (ص) ينعت لهم: بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا، فما زال ينعت لهم.

فقالوا: كم للمسجد من باب؟

فجاء جبرئيل فقال: يا رسول اللّه انظر ههنا، فنظر إلى بيت المقدس وقد انكشف له فأخذ (ص) يعدّ لهم أبوابها باباً باباً.

فقال القوم: أما النعت فواللّه لقد أصاب.

ثم قالوا له: أخبرنا عن عيرنا وعن قدومها، فأخبرهم عنها فى مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وعن البعير الذى يقدمها. وكان الأمر كما قال. فرموه بالسحر ولم يؤمن منهم إلاّ قليل، وهو قول اللّه تبارك وتعالى: (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)(۵).

لا لليأس والخيبة

لقد مرّ أنّ رسول اللّه (ص) أقام بمكة ثلاث سنين من أوّل نبوته يبلّغ رسالات ربه إلى خاصته، ثم أجهر بها فى الرابعة، وأخذ يبلّغ رسالة ربّه إلى الناس كافة وفى كل مكان، وبكل الطرق وذلك مدة عشر سنين، حتى إنه كان فى السنين الأخيرة ليسأل عن القبائل ويأتى فى المواسم منازلها قبيلة قبيلة ويقول: يا أيها الناس، قولوا لا إله إلاّ اللّه تفلحوا، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم، وتكونون ملوكاً فاذا متم كنتم ملوكاً فى الجنة.

وأبو لهب وجماعته وراءه يقولون: لا تطيعوه فإنه كذاب. فيردون على رسول اللّه (ص) أقبح ردّ ويؤذونه ويقولون: اُسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك.

فكان ممّن أتاهم رسول اللّه (ص) وبلّغهم رسالات ربه فلم يقبلوها: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة وغسان ومرة وحنيفة وسليم وعبس وبنو نصر وبنو البكاء وكندة وكلب والحارث بن كعب وعُذرة والحضارمة وغيرهم فلم يستجب منهم أحد.

الالتقاء بوفد اليمامة

وذات مرة اقبل رسول اللّه (ص) ومعه على (ع) إلى مجلس من مجالس العرب، فدعاهم إلى دينه فقال أحدهم واسمه مفروق: وإلى م تدعو يا أخا قريش؟

فقال رسول اللّه (ص): (قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألّا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وأياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم اللّه إلاّ بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون)(۶).

قال مفروق: ما هذا من كلام اهل الأرض ولو كان من كلامهم عرفناه ثم قال: وإلى م تدعو أيضاً يا أخا قريش؟

فتلا رسول اللّه (ص): (إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكّرون)(۷).

فقال مفروق: دعوت واللّه يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك.

وكأنه أراد أن يشرك فى الكلام هانئ ابن قبيصة فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإنى أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لوهنٌ فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر.

وكأنه أحب أن يشرك فى الكلام المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة فى تركنا ديننا واتباعنا إياك فى مجلس جلسته الينا ليس له أول ولا آخر، وإنا إنما نزلنا بين صريان اليمامة والسماوة.

فقال رسول اللّه (ص): ما هذان الصريان؟

فقال: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب فذنبه مغفور وعذره مقبول، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، لا نحدث حدثاً ولا نؤوى محدثاً وإنى أرى أنّ هذا الأمر مما تكرهه الملوك، فان أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا.

فقال رسول اللّه (ص): ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق، فان دين اللّه لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلّا قليلا حتى يورثكم اللّه ارضهم وديارهم، أتسبّحون اللّه وتقدّسونه؟

فقال النعمان بن شريك: اللّهم لك ذا.

فتلا رسول اللّه (ص): (يا أيها النبى إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى اللّه بإذنه وسراجاً منيراً) ثم نهض النبى فأخذ بيدى على (ع) ينهضه وقال: إنها أخلاق فى الجاهلية ما أشرفها، بها يدفع اللّه بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم.

مع رهط من الخزرج

وفى السنة الحادية عشرة من البعثة النبويّة الشريفة خرج رسول اللّه (ص) على ما دأب عليه إلى الموسم فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل مرة، فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد اللّه بهم خيراً، فلما لقيهم رسول اللّه (ص) قال: من أنتم؟

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: أمن موالى اليهود؟

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أُكلمكم؟

قالوا: بلى. فجلسوا معه، فبلّغهم رسالات اللّه، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع اللّه به فى الإسلام أن يهوداً كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: ان نبياً مبعوث الآن قد أظلّ زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول اللّه (ص) أولئك النفر ودعاهم إلى اللّه قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون واللّه أنه النبى الذى توعّدكم به اليهود، فلا يسبقنكم اليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

وقالوا: إنّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم، فعسى اللّه أن يجمعهم بك، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم اللّه عليك فلاـ رجل أعز منك. وكان هؤلاء ستة نفر من الخزرج.

فقال لهم النبى (ص): أتمنعون ظهرى حتى أُبلّغ رسالة ربى؟

فقالوا: يا رسول اللّه إنما كانت بعاث عام الهول يوم من أيامنا اقتتلنا به، فان تقدم ونحن كذا لا يكون عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعل اللّه يصلح ذات بيننا وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه، فعسى اللّه أن يجمعهم عليك، فان جمعهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك، وموعدك الموسم العام القابل، وانصرفوا إلى المدينة.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا رسول اللّه (ص)، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الانصار إلّا وفيها ذكر من رسول اللّه (ص).

العقبة الأولى وبيعتها

ولما كان العام المقبل أى: فى سنة اثنتى عشرة من البعثة النبوية وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلًا، وكان من بينهم: أسعد بن زرارة، وعبادة بن الصامت، فلقوا رسول اللّه (ص) عند العقبة الأولى، فبايعوه على القرار التالى:

قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول اللّه (ص) على أن لا نشرك باللّه شيئاً، ولا نسرق ولا نزنى، ولا نقتل اولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بيد أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف.

فقال لنا رسول اللّه (ص): ان وفيتم فلكم الجنة، وان غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى اللّه عز وجلّ إن شاء عذّب وإن شاء عفا وغفر. ثم انصرفوا.

وبعث (ص) معهم مصعب بن عمير يصلّى بهم، ويفقههم، ويعلمهم القرآن، وكان بينهم بالمدينة يسمّى بالمقرئ، فأسلم على يديه جمع كثير، حتى لم يبق دار فى المدينة إلّا وفيها رجال ونساء مسلمون الّا ما شذّ وندر.

العقبة الثانية وبيعتها

ثم رجع مصعب إلى مكة فى العام المقبل ووافى فى الموسم ذلك العام، أى بسنة ثلاث عشرة من البعثة النبوية خلق كثير من الأنصار من المسلمين والمشركين، وزعيم القوم البراء بن معرور، فلما كانت ليلة العقبة وقد مضى الثلث الأول من الليل تسلل إلى رسول اللّه (ص) منهم ثلاثة وسبعون رجلاًـ وأمرأتان: نسيبة بنت كعب إحدى نساء بنى مازن بن النجار، وأسماء ابنة عمرو ابن عدى أُم منيع إحدى نساء بنى سلمة.

قال: فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول اللّه (ص)، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلّا أنه أحب أن

يحضر أمر أبن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال:

يا معشر الخزرج! وكانت العرب يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها إن محمداً منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا، وهو فى عزٍّ من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلاّ الانحياز اليكم واللحوق بكم، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعونه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه، فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده.

فقالوا له: سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول اللّه فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلّم رسول اللّه (ص) وقال: ابايعكم على الإسلام.

فقال له بعضهم: نريد ان تعرفنا يا رسول اللّه ما للّه علينا، وما لك علينا؟ وما لنا على اللّه؟

فقال (ص): أما ما للّه عليكم: فان تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأما مالى عليكم: فتنصروننى مثل ما تنصرون ابناءكم ونساءكم، وان تصبروا على عضّ السيوف وان يقتل خياركم.

قالوا: فاذا فعلنا ذلك ما لنا على اللّه؟

قال: اما فى الدنيا فالظهور على من عاداكم، وفى الآخرة رضوانه والجنة.

فأخذ البراء بن معرور بيده (ص) ثم قال: نعم والذى بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول اللّه، فنحن واللّه أهل الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر.

فاعترض القوم والبراء يكلم رسول اللّه (ص) أبو الهيثم بن التيهان فقال: يارسول اللّه، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، ونحن قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك اللّه أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسّم رسول اللّه (ص)، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم. وفى حديث آخر قال: المحيى محياكم والممات مماتكم.

ثم قال رسول اللّه (ص): أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً حتى يكونوا كفلاء على قومهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

فقال لهم رسول اللّه (ص): ارجعوا إلى رجالكم.

قال الراوى: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تسترجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وانه واللّه ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

قال: فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون باللّه ما كان من هذا شىء وما علمناه.

قال: وصدقوا، لم يعلموا. وبعضنا ينظر إلى بعض.

إبليس وبيعة العقبة

وفى حديث آخر: انه لما اجتمع الانصار فى العقبة الثانية وبايعوا رسول اللّه (ص) على أن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم، ويمنعوا أهله مما يمنعون أهاليهم وأولادهم، وأخرجوا إليه منهم اثنى عشر نقيباً ليكونوا شهداء عليهم بذلك، صاح ابليس: يا معشر قريش والعرب! هذا محمدٌ والصباة من أهل يثرب على جمرة العقبة يبايعونه على حربكم، فأسمع أهل منى، وهاجت قريش، فاقبلوا بالسلاح.

وسمع رسول اللّه (ص) النداء فقال للانصار: تفرقوا.

فقالوا: يا رسول اللّه إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيافنا فعلنا.

فقال رسول اللّه (ص): لم اؤمر بذلک، ولم يأذن اللّه لى فى محاربتهم.

قالوا: فتخرج معنا؟

قال: انتظر أمر اللّه.

فجاءت قريش على بكرة ابيها قـد اخـذوا السـلاح، وخرج حمزة وعلى (ع) ومعهما السـيف فوقفا على العقبـة. فلما نظرت قريش اليهما قالوا: ما هذا الذى اجتمعتم له؟

فقال حمزة: ما اجتمعنا وما ههنا احـد، واللّه لا يجوز هـذه العقبة أحد الاّ ضـربته بسـيفى هذا، فرجعوا إلى مكة وقالوا: لا نأمن ان يفسـد أمرنا ويدخل واحد من مشايخ قريش فى دين محمد.

بيعة العقبة على لسان جابر

وعن جـابر: ان النبى (ص) لبث عشـر سـنين يتبع النـاس فى منـازلهم فى المواسم وبـذى المجـاز ومجنّة وعكاظ وفى منازلهم من منى ويقول: (من يؤوينى ومن ينصـرنى حتى أبلغ رسالـة ربى وله الجنة) فلا يجد أحداً ينصـره ولا يؤويه، حتى أن الرجل ليرتحل من مصـر واليمن إلى ذوى رحمه فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش لايفتننّک.

وكان (ص) يمشى بين رجالهم يعرض عليهم رسالات اللّه، وهم يشيرون اليه بالأصابع.

قال الراوى: انه كان كذلک حتى بعثنا اللّه من يثرب فيأتيه الرجل منا فيؤمن به يقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون باسلامه، وحتى لم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها رهط من المسـلمين يظهرون الإسـلام، وبعثنا اللّه إليه فائتمرنا فيما بيننا وأجمعنا على نصـرته (ص) فرحلنا ونحن أكثر من سـبعين نفراً حتى قـدمنا عليه (ص) فى الموسم، فواعـدناه بيعة العقبة، فقال له عمّه العباس: يا ابن أخى، ما أدرى ما هؤلاء القوم الذين جاءوک، إنى ذو معرفة بأهل يثرب.

فاجتمعنـا عنـده من رجـل ورجلين، فلما نظر العباس فى وجوهنا قال: هؤلاء القوم لا نعرفهم، هؤلاء أحـداث. فقلنا: يارسول الله، على ما نبايعک؟

قال (ص): (على السـمع والطاعة فى النشاط والكسل، وعلى النفقة فى العسـر واليسـر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى أن تقوموا فى اللّه لا تأخذكم فى اللّه لومة لائم، وعلى أن تنصـرونى إذا قدمت عليكم، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسـكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة).

فقمنا نبايعه (ص)، فأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغرنا وقال: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلاّ ونحن نعلم أنه رسول اللّه، وان إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وان تعضـكم السيوف، فإمّا أنتم تصبرون على ذلک فخذوه وأجركم على اللّه، وإمّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذركم عند اللّه.

فقالوا: يا ابن زرارة امط عنا يدک، فواللّه لا نترک هذه البيعة ولا نستقيلها.

فقمنا إليه (ص) رجلًا رجلًا فأخذ علينا البيعة يعطينا بذلک الجنة. ثم انصرفوا إلى المدينة.

اسلام عمرو بن الجموح

فلما قدم الانصار إلى المدينة، اظهروا الاسـلام بها، وكان فى قومهم بقايا من شـيوخ على دينهم من الشـرک، منهم: عمرو بن الجموح، وكـان ابنه معـاذ بن عمرو ممن شـهد العقبـة وبـايع رسول اللّه (ص) وكـان عمرو بن الجموح سـيداً من سادات بنى سـلمة وشـريفاً من اشرافهم، وكان قد اتخذ فى داره صنماً من خشب يقال له: (مناة) كما كانت الاشراف يصنعون، يتخذه إلهاً يعظمه ويظهره.

فلما أسـلم فتيان بنى سـلمة معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو فى فتيان منهم ممن اسـلم وشـهد العقبـة، كانوا يدلجون بالليل على صـنم

عمرو ذلک، فيحملونه فيطرحونه فی بعض حفر بنی سلمهٔ وفيها فضلات الناس منکساً علی رأسه، فإذا اصبح عمرو قال: ويلکم من عدا علی إلهنا هذه الليلهٔ؟

قال الراوی: ثم يعود ويلتمسه حتی إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بک لأخزينّه.

فإذا أمسی ونام عمرو عدوا عليه فعملوا به مثل ذلک، فيغدوا فيجده فی مثل ما کان فيه من الأذی، فيغسله ويطهره ويطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسی فيفعلون به مثل ذلک.

فلما أکثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال: إنی واللّه ما أعلم من صنع بک ما تری، فإن کان فيک خير فامتنع، فهذا السيف معک.

فلما أمسی ونام عدوا عليه وأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا کلباً ميتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه فی بئر من آبار بنی سلمهٔ فيها فضلات وقذارات الناس.

ثم غدا عليه عمرو فلم يجده فی مکانه الذی کان فيه، فخرج يتبعه حتی وجده فی تلک البئر منکساً مقروناً بکلب. فلما رآه أبصر شأنه، وکلمه من أسلم من قومه، فأسلم وحسن إسلامه، وأشترک مع رسول اللّه (ص) فی غزوهٔ احد فرزقه اللّه الشهادهٔ فيها فمات شهيداً.

۱ راجع بحار الأنوار: ۱۰ / ۱۶۲ ب ۱۲ ح ۱۳ ط بيروت.

۲ راجع بحار الأنوار: ۱۱ / ۱۶۵ ب ۳ ح ۹ ط بيروت.

۳ کنز الفوائد: ۲ / ۱۳۹ ط قم، ۱۴۱۰ ه وفيه: (عن النبی (ص): ليلهٔ أسری بی إلی السماء أوحی الله عز وجل إلیّ أن سل من أرسل من قبلک من رسلنا علی ما بعثوا؟ فقلت لهم: علی ما بعثتم؟ فقالوا: علی نبوّتک وولايهٔ علی بن أبی طالب والأئمهٔ منکما).

۴ راجع أمالی الصدوق: ۵۰۴ ح ۴ المجلس ۹۲ وفيه: (بک وبه وبالأئمهٔ من ولده.. وبالقائم..).

۵ يونس: ۱۰۱. ۶ الأنعام: ۱۵۱. ۷ النحل: ۹۰.

قرار الهجرهٔ

ثم أمر رسول اللّه (ص) أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمکهٔ من المسلمين بالخروج إلی المدينهٔ والهجرهٔ إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال (ص): إن اللّه قد جعل لکم إخواناً وداراً تأمنون بها.

فخرجوا ارسالاً، وأقام رسول اللّه (ص) ينتظر أن يأذن له ربه فی الخروج من مکهٔ والهجرهٔ إلی المدينهٔ.

فکان أول من هاجر إلی المدينهٔ من أصحاب رسول اللّه (ص) من قريش من بنی مخزوم أبو سلمهٔ بن عبد الأسد وأسمه عبد اللّه، هاجر إلی المدينهٔ قبل بيعهٔ أصحاب العقبهٔ بسنهٔ، وکان قد قدم علی رسول اللّه (ص) من أرض الحبشهٔ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلی المدينهٔ مهاجراً، وحبست عنه أمرأته أم سلمهٔ.

ثم کان أول من قدمها بعد أبی سلمهٔ: عامر بن ربيعهٔ ومعه أمرأته ليلی بنت أبی خيثمهٔ.

ثم عبد اللّه بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرهٔ بن مرهٔ بن کبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمهٔ، احتمل بأهله وبأخيه، وکانت أُمه أميمهٔ بنت عبد المطلب بن هاشم، فغلقت دار بنی جحش هجرهٔ، فمر بها عتبهٔ بن ربيعهٔ والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل ابن هشام وهم مصعدون إلی مکهٔ، فنظر إليها عتبهٔ بن ربيعهٔ تخفق أبوابها ليس فيها ساکن، فلما رآها کذلک تنفس الصعداء ثم قال:

وکل دار وإن طالت سلامتها يوماً ستدرکها النکباء والحوب

کل امرئ بلقاء الموت مرتهن کأنه غرض للموت منصوب

وکان بنو غنم بن دودان أهل اسلام، وقد أوعبوا إلی المدينهٔ مع رسول اللّه (ص) رجالهم ونساؤهم.

فمن رجالهم: عبد اللّه بن جحش، وأخوه، وعکاشهٔ بن محصن، وشجاع، وعتبهٔ بن وهب، وأربد بن جبيرهٔ، ومنقذ بن نباتهٔ، وسعيد بن

قيس، ومحرز بن نضلة، ويزيد بن رقيش، وقيس بن جابر، وعمرو بن محصن، ومالك بن عمرو، وصفوان بن عمرو، وغيرهم.

ومن نسائهم: زينب بنت جحش، وأُم حبيبة بنت جحش، وحمنة بنت جحش وجذامة بنت جندل، وأُم قيس بنت محصن، وأُم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت ثمامة،

وقال بن جحش فی ذلک شعراً:

لنحن الأُلی كنا بها ثم لم نزل بمكة حتی عاد غثاً سمينها

بها خيمت غنم بن دودان وابتنت وما أن غدت غنم وخف قطينها

إلی اللّه تغدو بين مثنی وواحد ودين رسول اللّه بالحق دينها

ثم تتابع المهاجرون فنزل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو مرثد كناز بن حصين وابنه مرثد الغنويان حليفا حمزة بن عبد المطلب علی كلثوم بن هدم بقباء، وقيل: بل نزلوا علی سعد بن خيثمة وقيل: بل نزل حمزة علی أسعد بن زرارة أخی بنی النجار، ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب وأخواه الطفيل والحصين ابنا الحارث علی عبداللّه بن مسلمة ونزل مصعب بن عمير علی سعد بن معاذ وهكذا.

القرار الأخير

فلما رأت قريش أن رسول اللّه (ص) صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم وقد ساقوا الذراری والاطفال والأموال إلی الأوس والخزرج فعرفوا أن الدار دار منعة، وأن القوم أهل حلقة وبأس وشوكة، فخافوا خروج رسول اللّه (ص) إليهم ولحوقه بهم، فاجتمعوا فی دار الندوة، ولم يتخلف أحد من ذوی الرأی والحجی منهم ليتشاوروا فی أمره.

فاعترضهم إبليس فی صورة شيخ كبير طاعن فی السن عليه بت له، فوقف علی باب الدار فلما رأوه واقفاً علی بابها قالوا: من الشيخ؟

قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذی اتعدتم فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسی أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً.

قالوا: أجل فادخل.

فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش، فقال بعضهم لبعض: ان هذا الرجل(۱) قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنّا واللّه لا نأمنه علی الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً. فتشاوروا.

ثم قال قائل منهم: احبسوه فی الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله: زهير والنابغة ومن مضی منهم من هذا الموت، حتی يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدی: لا واللّه ما هذا لكم برأی، واللّه لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذی أغلقتموه دونه إلی أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثرونكم به حتی يغلبوكم علی أمركم، ما هذا لكم برأی، فانظروا فی غيره.

فتشاوروا فی أمره ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فواللّه ما نبالی أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدی: لا ـ واللّه ما هذا لكم برأی، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته علی قلوب الرجال بما يأتی به؟ واللّه لو فعلتم ذلک ما أمنت أن يحل علی حی من العرب فيغلب عليهم بذلک من قوله وحديثه حتی يتابعوه عليه، ثم يسير بهم اليكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل: واللّه إن لی فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟

قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه. فانهم اذا فعلوا ذلک تفرق دمه فى القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبدمناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم.

قال الشيخ النجدى: القول ما قال الرجل، هذا الرأى لا رأى غيره، فتفرق القوم على ذلک وهم مجمعون له.

جبرئيل وإفشاء المؤامرة

فأتى جبرئيل رسول اللّه (ص)، فتلا هذه الآية: (واذ يمكر بک الذين كفروا ليثبتوک أو يقتلوک أو يخرجوک، ويمكرون ويمكر اللّه واللّه خير الماكرين)(۲) ثم قال: لا تبت هذه الليلة على فراشک الذى كنت تبيت عليه وأمره بالهجرة وان يبيت علياً (ع) مكانه.

فدعا رسول اللّه (ص) علياً (ع) لوقته وقال له: يا على ان جبرائيل هبط علىّ بهذه الآية آنفاً، يخبرنى إن قريشاً اجتمعت على المكر بى وقتلى، وانه أوحى إلىّ عن ربى عز وجل ان أهجر دار قومى وان انطلق إلى غار ثور تحت ليلتى، وانه أمرنى أن آمرک بالمبيت على مضجعى تفدينى بنفسک، وتخفى عليهم أمرى، فما أنت قائل و صانع؟

قال على (ع): أو تسلمنّ بمبيتى هناک يا نبى اللّه؟

قال: نعم، فتبسّم على (ع) ضاحكاً وأهوى إلى الأرض ساجداً شكراً للّه على ذلک، فلما رفع رأسه قال له: يا نبى اللّه امض لما اُمرت، فداک سمعى وبصرى وسويداء قلبى، ومرنى بما شئت اكن فيه لمسرتک، واقع منه بحيث مرادک، وما توفيقى الاّ باللّه.

فشكره رسول اللّه (ص) على ذلک وقال له: فارقد على فراشي واشتمل ببردى الحضرمى.

ليلة المبيت

لما أنام رسول اللّه (ص) علياً (ع) على فراشه وعزم على الخروج التفت إليه يودّعه وهو يقول: أخبرک يا على ان اللّه تعالى يمتحن أولياءه على قدر ايمانهم ومنازلهم من دينه، فأشدّ الناس بلاءاً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وقد امتحنک يابن العم وامتحننى فيک بمثل ما امتحن به خليله إبراهيم (ع) والذبيح إسماعيل(ع)، فصبراً صبراً، فإنّ رحمة اللّه قريب من المحسنين.

ثم ضمّه النبى (ص) إلى صدره وبكى وجداً به، وبكى على (ع) جشعاً لفراق رسول اللّه (ص) ثم أوصاه بوصاياه وأمره فى ذلک بالصبر حتى صلّى العشائين ثم خرج (ص) فى فحمة العشاء الآخرة، والرصد من قريش قد أطافوا بداره.

القرآن ومبيت على (ع)

نام على (ع) على فراش رسول اللّه (ص) موطّناً نفسه على القتل، فأوحى اللّه تعالى إلى جبرئيل وميكائيل: انى آخيتُ بينكما وجعلتُ عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بحياته؟ فاختار كل منهما الحياة وأحبّاها.

فأوحى اللّه عزّوجل إليهما: أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب (ع) آخيتُ بينه وبين محمد (ص) فبات على فراشه يفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فكان جبرئيل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، وجبرئيل ينادى: بخّ بخّ، من مثلک يابن أبى طالب؟ يباهى اللّه بک الملائكة، فأنزل اللّه عزّ وجل: (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات اللّه واللّه رؤوف بالعباد)(۳).

ليلة الهجرة

أطاف المشركون بدار رسول اللّه (ص) وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: انّ محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوک العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم فجُعِلَت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان لكم منه الذبح، ثم بُعثتم

من بعد موتكم فجُعِلت لكم نار تحرقون فيها.

فخرج رسول اللّه (ص) فی هذه الحال وقد أخذ حفنة من تراب فی يده ثم قال: نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، وأخذ اللّه علی أبصارهم عنه، فجعل ينثر ذلك التراب علی رؤوسهم وهو (ص) يتلو هذه الآيات من سورة يس: (بسم اللّه الرحمن الرحيم يس* والقرآن الحكيم* إنّك لمن المرسلين)(۴) إلی قوله تعالی: (وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لايبصرون)(۵) حتّی فرغ من الآيات، فلم يبق منهم رجل إلاّ وقد وضع علی رأسه التراب، ثم انصرف (ص) إلی حيث أراد أن يذهب.

وعلی رواية: أتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ههنا؟

قالوا: محمّداً.

قال: خيّبكم اللّه، قد واللّه خرج عليكم محمّد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلاّ وقد وضع علی رأسه التراب، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟!

قال: فوضع كل رجل منهم يده علی رأسه فإذا عليه تراب.

ثم جعلوا يطّلعون فيرون علياً (ع) علی الفراش متسجياً ببرد رسول اللّه (ص)، فيقولون: واللّه إنّ هذا لمحمّد نائم عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتی أصبحوا. فقام علیّ (ع) من الفراش. فقالوا: واللّه لقد كان صدقنا الذی كان حدّثنا به.

فقال لهم علی (ع): ما شأنكم؟

قالوا: أين محمّد؟

قال: أجعلتمونی عليه رقيباً؟! ألستم قلتم: نخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم.

فأقبلوا علی أبی لهب الذی كان يمنعهم عن مداهمة البيت ليلاً يلومونه ويقولون له: أنت تخدعنا منذ الليلة، ثم تفرَّقوا فی طلبه.

وكان رسول اللّه (ص) يمشی تلك الليلة علی أطراف قدميه كی يخفی اثره حتی حفيت قدماه، ورأی (ص) فی طريقه أبابكر فاصطحبه وذلك لعلل مذكورة فی المفصّلات.

تاريخ الهجرة

وكانت الليلة التی خرج فيها رسول اللّه (ص) مهاجراً من مكة ليلة الخميس أول ليلة من شهر ربيع الأول بعد أن انقضت مدّة ثلاث عشرة سنة من مبعثه الشريف، وفيها كان مبيت علی (ع) علی فراشه، وكان خروجه من غار ثور ليلة الرابع من شهر ربيع الأول، حيث توجّه فيها إلی المدينة، ووصلها يوم الإثنين فی الثانی عشر من شهر ربيع الأول أی: بعد اثنتی عشرة ليلة خلت منه، فنزل بقبا ينتظر قدوم علی (ع) عليه، فقد أمره النبی (ص) بعد المبيت علی فراشه أن يبقی فی مكة حتی يؤدّی الودائع والأمانات التی كانت للناس عنده، ثم يحمل الفاطميّات معه ويلتحق بالنبی (ص)، وهكذا فعل علی (ع).

فعن أبی رافع انه قال: كان علی (ع) يجهّز النبی (ص) حين كان فی الغار يأتيه بالطعام والشراب، وخلّفه النبی (ص) ليخرج إليه أهله فأخرجهم، وأمره أن يؤدی عنه أماناته ووصاياه وما كان بمؤتمن عليه من مال، وأن يقضی عنه ديونه وينجز عداته، فلما أداها قام علی الكعبة فنادی برفيع صوته: (يا أيها الناس هل من صاحب أمانة؟ هل من صاحب وصيّة؟ هل من عِدة له قِبَل رسول اللّه (ص)؟) فلما لم يأت أحد لحق بالنبی (ص).

المشركون يطلبون الرسول (ص)

ولما فوجئ المشركون بمغادرة الرسول (ص) داره، وانّ النائم فی فراشه هو علی بن أبی طالب (ع) أذكوا عليه العيون، وركبوا فی طلبه الصعب والذلول.

وخرجوا يقتصون أثره، وأخذوا معهم القافة حتى وصلوا إلى الغار، وكان اللّه تعالى قد أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار، وباضتا فى أسفل النقب، فكان ذلك مما صد المشركين عنه، فلما أتوا الغار طارت الحمامتان ورأوا البيض ونسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هاهنا لتكسر البيض ولم يكن عليه نسج العناكب، فصرفهم اللّه عزّ وجل بذلك عنه.

الجائزة لمن جاء بالرسول (ص)

ولما يئس المشركون من الظفر برسول اللّه (ص) جعلوا لمن جاء به دية كاملة أى: مائة من الإبل جائزة لذلك، فجدّ الناس فى الطلب (واللّه غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون).

وكان ممّن جدّ فى طلبه سراقة بن مالك بن جعشم حيث يقول:

جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول اللّه (ص) دية كاملة لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى من بنى مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتّى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة إنى قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، لكنى أردتُ الحصول على الجائزة لوحدى.

فقلت: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا.

ثم لبثت فى المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرتُ جاريتى أن تخرج بفرسى من وراء أكمة فتحبسها عليَّ، فأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها، فدفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم.

فلما رآنى رسول اللّه (ص) أقترب منهم، رفع يديه نحو السماء وقال: (اللّهمّ اكفنى شرّ سراقة بما شئت).

فساخت قوائم فرسى، فثنيت رجلى ثم اشتددت وقلت: يا محمد انى علمت ان الذى أصاب قوائم فرسى انما هو من قِبلك، فادع اللّه أن يطلق لى فرسى، فلعمرى ان لم يصبكم خير منّى لم يصبكم منّى شرّ.

فدعا رسول اللّه (ص) فأطلق اللّه عزّوجل فرسه، فعاد فى طلب رسول اللّه(ص) حتّى فعل ذلك ثلاث مرّات، كل ذلك يدعو رسول اللّه (ص) فتأخذ الأرض قوائم فرسه.

فلما أطلقه اللّه فى الثالثة قال: يا محمد هذه ابلى بين يديك فيها غلامى، وان احتجت إلى ظهر أو لبن فخذ منه، وهذا سهم من كنانتى علامة عليه، وأنا ارجع فأردّ عنك الطلب.

فقال (ص): لاحاجة لنا فيما عندك.

قال الرجل: ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم ان سيظهر أمر رسول اللّه (ص)، فسألته أن يكتب لى كتاب أمن، وكان الكتاب معه إلى يوم فتح مكّة، فجاء بالكتاب فوفى له رسول اللّه (ص) وكان يوم وفاء وبرّ.

مع بريدة الأسلمى

وممّن جدّ فى طلب الرسول (ص) بريدة بن الحصيب الأسلمى، فقد ركب فى سبعين راكباً من أهله من بنى سهم يطلبه، فالتقى به فبادره الرسول (ص) قائلاً: من أنت؟

قال: أنا بريدة.

فقال (ص): برد أمرنا وصلح.

ثم قال (ص): وممّن أنت؟

قال: من أسلم.

فقال (ص): سلمنا.

ثم قال (ص): ممّن؟

قال: من بنى سهم.

وهنا التفت إليه النبى (ص) وقال له: خرج سهمك.

فأعجب بريدة تفاؤل الرجل وحسن أخلاقه وأحبّه فى قلبه، وتلهّف للتعرّف عليه فقال له: ومن أنت؟

فقال (ص): أنا محمد بن عبداللّه رسول اللّه.

فلم يتريَّث بريدة لما سمع ذلك حتّى قال: (أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأشهد أنَّ محمّداً رسول اللّه) فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعاً.

فقال (ص): الحمد للّه لقد أسلمت بنو سهم طائعين غير مكرهين.

عند اُم معبد

ثم مضى رسول اللّه (ص) فيمن معه فمروا بخيمة اُم معبد الخزاعية، وكانت امرأة جلدة برزة تحتبى بفناء الخيمة ثم تطعم وتسقى من مر بها، فسألها (ص): هل عندها شىء يشترونه؟

فقالت: واللّه لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القرى، والشاء عازب، وكانت سنة شهباء.

فنظر رسول اللّه (ص) إلى شاة فى كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا اُم معبد؟

فقالت: هذه شاة خلّفها الجهد عن الغنم.

فقال (ص): هل بها من لبن؟

قالت: هى أجهد من ذلك.

قال (ص): أفتأذنين لى أن أحلبها.

قالت: نعم، بأبى واُمّى، إن رأيت بها حليباً فاحلبها.

فدعا رسول اللّه (ص) بالشاة فمسح بيده ضرعها وذكر اسم اللّه وقال: اللّهمّ بارك لها فى شاتها، فتفاجّت عليه ودرّت واجترّت، فدعا بإناء لها يُربض الرهط فحلب فيه ثجاً حتى علته الرغوة، فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب (ص) آخرهم، فشربوا جميعاً عللاً بعد نهل، ثم حلب فيه ثانياً حتى ملأ الإناء.

فلما رأت اُمّ معبد ذلك قالت: إنّ لى ولداً له سبع سنين وهو كقطعة لحم لا يتكلّم ولا يقوم، فأتته به، فأخذ (ص) تمرة وقد بقيت فى الوعاء ومضغها وجعلها فى فيه، فنهض فى الحال، ومشى وتكلّم، وجعل نواها فى الأرض فصارت فى الحال نخلة، وقد تهدّل الرطب منها، وكان كذلك صيفاً وشتاءاً، وأشار من الجوانب فصار ما حَولها مراعى، ثم ارتحلوا عنها.

فقلّما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزالاً. فلما رأى اللبن وما إلى ذلك عجب وقال: من أين لكِ هذا والشاء عازب حيال، ولا حلوبة فى البيت؟!

فقالت: لا واللّه، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك، كان من حديثه كيت وكيت.

قال: واللّه إنى لأراه صاحب قريش الذى تطلبه، صِفيه لى يا اُمّ معبد.

فقالت: رأيتُ رجلاً ظاهر الوضاءة حسن الخلق، أبلج الوجه، لم تعبه ثجلة ويروى نحلة بالنون والحاء ولم تزر به صعلة، كأن عنقه ابريق فضّة، وسيم جسيم، فى عينيه دعج، وفى أشفاره وطف، وفى صوته صحل، أحور أكحل أزج أقرن شديد سواد الشعر، فى عنقه سطع، وفى لحيته كثاثة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلّم سما به وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم ينحدرن، حلو المنطق فصل، لانزر

ولا ـ هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا ـ تشنؤه عين من طول ولا تقتحمه من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفنّد.

فقال: هذا واللّه صاحب قريش الذى ذكروا لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولو كنت أنا وافقته لالتمست أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، فإنه صادق فى قوله انه رسول اللّه، فليس هذا إلا من فعل اللّه، ثم قصده فآمن هو وأهله.

ويروى: أن الشاة التى لمس رسول اللّه (ص) ضرعها وحلبها بيده بقيت عند اُمّ معبد حتى كان زمن الرمادة فى سنة ثمان عشرة من الهجرة.

قالت اُم معبد: هاجرت وأسلمت، وكنا نحلبها صبوحاً وغبوقاً وما فى الأرض قليل ولا كثير.

انتظار المسلمين للرسول (ص)

وبلغ المسلمين خروج رسول اللّه (ص) من مكة إلى المدينة، فجعلوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينظرون حتى يردّهم حر الظهيرة. فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم ينظر لأمر يريده، فبصر برسول اللّه (ص) وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودى أن نادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، هذا جدكم الذى تنتظرون.

فبادر المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول اللّه (ص) بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين وسار حتى نزل ب (قبا) فى (بنى) عمرو بن عوف) فكبّر المسلمون فرحاً بقدومه، وسمعت الوجبة والتكبير فى بنى عمرو بن عوف، فنزل على كلثوم ابن الهدم، وقيل: على سعد بن خيثمة، ب (قبا) وبقى هناك ينتظر قدوم على (ع).

وكان على (ع) قد خرج بالفواطم(۶) بعد أن أدّى ودائع كانت عند رسول اللّه (ص) للناس، وقضى ديونه وأنجز عداته، فلما قدم المدينة رآه النبى (ص) وقد تورّمت قدماه وأصبحتا يقطران دماً، فاعتنقه وبكى رحمة لما به، ثم دعا له (ع) بالعافية، ومسح رجليه فلم يشكهما بعد ذلك.

ثم نزل (ع) مع النبى (ص) بقبا، وبقى رسول اللّه (ص) بعد قدوم على (ع) فى بنى عمرو بن عوف يوماً أو يومين، وفى مدة بقائه بقبا أسّس مسجد قباء، وهو أول مسجد اُسِّس على التقوى بعد النبوّة بالمدينة المنوّرة.

أول جمعة بالمدينة

فلما كان يوم الجمعة ركب بأمر اللّه له، فاجتمعت إليه بنو عمرو بن عوف فقالوا: يا رسول اللّه أقم عندنا فإنّا أهل الجدّ والجلد، والحلقة والمنعة.

فقال (ص): خلّوا عنها فإنها مأمورة.

وبلغ الأوس والخزرج خروج رسول اللّه (ص) فلبسوا السلاح وأقبلوا يعدون حول ناقته، لايمرّ بحىّ من أحياء الأنصار إلا وثبوا وأخذوا بزمام ناقته وطلبوا منه النزول عليهم، وهو (ص) يقول لهم: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة.

حتى مرّ (ص) ببنى سالم عند الزوال من يوم الجمعة، فتعرضت له بنو سالم فقالوا: يا رسول اللّه هلم إلينا فإنا أهل الجد والجلد، والحلقة والمنعة، فبركت ناقته عند مسجدهم فنزل فى مسجدهم الذى خطه (ص) لهم ونصب قبلته وصلّى بهم الجمعة وخطبهم، وكان أول مسجد خطب فيه بالجمعة، وصلّى إلى بيت المقدس، وكان الذين صلّوا معه فى ذلك الوقت مائة رجل.

عند أبی أيوب

ثم ركب النبی (ص) ناقته وعلی (ع) معه لايفارقه يمشی بمشيه، فأرخی زمامها لايحركها وهی تنظر يميناً وشمالاً، فلم تزل ناقته سائرة، ولا يمر بـدار من دور الأنصار إلاّ رغّبوه فی النزول عليهم وأخـذوا بخطام راحلته وقالوا: هلم إلی العوذ والعدة والسـلاح والمنعة، فكان يجيبهم (ص) بعد التشكّر منهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.

فلم تزل سائرة به حتی وصـلت إلی موضع مسجده اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتی نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت فبركت فی موضـعها الأول عند باب أبی أيوب فنزل عنها، ولم يكن آنذاک مسجداً، فجعل الناس يكلمون رسول اللّه (ص) فی النزول عليهم، فبادر أبو أيوب الأنصاری إلی رحله فحلّه وأدخله منزله، فجعل رسول اللّه (ص) يقول: (المرء مع رحله).

وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته فحوّلها إلی منزله، فقال النبی (ص): أی بيوت أهلنا أقرب؟

فقال أبو أيوب: أنا يا رسول اللّه، هذه داری، وهذا بابی.

قال (ص): فانطلق فهی لنا مقيلاً.

قـال: قوما علی بركـة اللّه، فنزل رسول اللّه (ص) وعلی (ع) معه(۷) فی دار أبی أيوب، حتی بُنی له مسـجده، وبُنيت له مسـاكنه ومنزل علی (ع)، فتحوّلا إلی منازلهما.

وقيـل: انه لمـا بركت ناقـة رسول اللّه (ص) علی بـاب أبی أيوب الأنصاری ولم يكن أفقر منه فی المدينـة انقطعت قلوب الناس حسـرة علی مفارقـة النبی (ص) فنادی أبو أيوب: يا اُماه افتحی الباب، فقـد قدم سـيد البشـر، وأكرم ربيعة ومضـر، محمد المصـطفی، والرسول المجتبی.

فخرجت وفتحت البـاب وكـانت عميـاء فقالت: واحسـرتاه ليت كانت لی عين أبصـر بها وجه سـيّدی رسول اللّه (ص)، فـدعا (ص) لها فانفتحت عيناها، وكانت أول معجزة النبی (ص) فی المدينة.

وفی روايـة: انه لمـا أقبل رسول اللّه (ص) إلی المدينـة لم يُر الناس فرحوا بشـیء مثل فرحهم به، حتی ان النساء والصبيان والإماء كانوا يقولون: هذا رسول اللّه، قد جاء رسول اللّه.

وعن بعضـهم انه قال: شـهدته (ص) يوم دخل المدينة فما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوء من يوم دخل علينا، وشـهدته يوم مات فما رأيت يوماً قط كان أقبح ولا أظلم من يوم مات.

المسجد النبوی الشريف

وكان رسول اللّه (ص) يصـلّی فی المربد بأصـحابه، فقال لأسـعد بن زرارة: اشتر هذا المربد من أصـحابه، وكان ليتيمين فساوم اليتيمين عليه، فقالا: هو لرسول اللّه. فقال رسول اللّه (ص): لا، إلاّ بثمن.

فاشتراه (ص) بعشرة دنانير، وكان فيه ماء مستنقع، فأمر به رسول اللّه (ص) فسيل، وأمر باللبن فضرب، فبناه مسجداً، وبنی منازله ومنازل أصحابه حول المسجد، وخط لعلی بن أبی طالب (ع) ولحمزة (ع) مثل ما خطّ له ولأصحابه، فبنوا فيه منازلهم، وكل منهم شرع منه باباً إلی المسجد، فكانوا يخرجون من منازلهم فيدخلون المسجد.

فنزل عليه جبرئيل (ع) وقال: ان السـلام يخصّک بالسـلام ويأمرک بسدّ الأبواب إلاّ بابک وباب علی بن أبی طالب، فإنه يحل له فيه ما يحل لک، فتأثر أصحاب الأبواب من ذلک.

فقال لهم رسول اللّه (ص): ما أنا أمرتُ بسدّها، ولكن اللّه أمر بسدّ أبوابكم وترک باب علی (ع).

فقالوا: رضينا وسلمنا للّه ولرسوله.

بناء المسجد

ولما أمر النبى (ص) ببناء المسجد طفق ينقل معهم اللبن وكان يقول وهو ينقل اللبن:

(هذا الحمال لا حمال خيبر، هذا وربّنا أبرّ وأطهر).

أى: هـذا المحمـول من اللبن أبرّ عنـد اللّه وأطهر يعنى: أبقى ذخراً وأدوم منفعـة من التمر والزبيب والطعـام المحمـول من خيـبر الـذى يغتبطه حاملوه، وكان يقول أيضاً: (اللّهمّ انّ الأجر أجر الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرين).

وأخذ المسلمون يرتجزون وهم يعملون، فقال بعضهم:

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل

والنبى (ص) يقول: (لا عيش إلاّ عيش الآخرة، اللّهمّ ارحم الأنصار والمهاجرين).

فدخل عمّار بن ياسر وقد أثقلوه باللبن، فقال: يا رسول اللّه قتلونى، يحملون علىَّ ما لايحملون.

فتبسَّم رسول اللّه (ص) ونفض وفرة عمّار بيـده وكان رجلًا جعـداً وقال له: (ويـح ابن سـميّة، ليسوا بالـذين يقتلونك، انما تقتلك الفئة الباغية).

وارتجز على بن أبى طالب (ع) يومئذ وهو يقول:

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعداً

ومن يرى عن التراب حائداً

وجعلت قبلته إلى بيت المقـدس، وجعل له ثلاثـة أبواب، وقيل: أكثر من ثلاثـة، وجعل طوله مما يلى القبلة إلى مؤخّره مائة ذراع، وفى الجـانبين مثـل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريباً من ثلاثـة أذرع، وجعل عمـده الجـذوع، وسـقّفه بالجريـد، وجعل عضادتيه الحجارة، وقيل له: ألا تسقفه؟ فقال: لا، عريش كعريش موسى، وبنى بيوتاً إلى جنبه باللبن وسقفها بالجريد والجذوع لنفسه ولأصحابه.

وكان فى مؤخر المسجد موضع مظلل يأوى إليه المساكين يسمّى (الصفّة).

وكان النبى (ص) يدعوهم بالليل فيفرقهم على أصحابه، ويتعشى طائفة منهم معه، وأجرى (ص) فى مسجده نهراً.

مغادرة بيت أبى أيوب

ثم انتقـل رسول اللّه (ص) من بيت أبى أيوب إلى مسـاكنه التى بنيت له، وقيل: ان مـدة مقامه فى بيت أبى أيوب بالمدينـة إلى أن بنى المسـجد وبيوته: كان من شـهر ربيع الأول إلى صـفر من السنة الداخلة، واستجمع له إسلام هذا الحى من الأنصار، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها، إلا ما شذّ وندر.

۱ أى: الرسول(ص). ۲ الانفال: ۳۰. ۳ البقرة: ۲۰۷.

۴ يس: ۱ .۳ . ۵ يس: ۹.

۶ اُمه وبنت رسول الله (ص) وبنت الزبير. ۷ راجع مناقب ابن شهرآشوب: ۱ / ۱۳۱ ط.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

ثم آخى رسول اللّه (ص) بين المهـاجرين والأنصار من أصـحابه، وكانوا تسـعين رجلًا، وقيل: ثلاثمائـة رجل، نصـفهم من المهاجرين، ونصـفهم من الأنصـار، آخى بينهم على الحق والمواسـاة، ويتوارثون بعـد الموت، إلى وقعـة بـدر. فلما أنزل اللّه تعالى: (واُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب اللّه)(۱) ردّ التوارث إلى الرحم دون عقد الاُخوّة.

وقد تمت عملية المؤاخاة مرتين، وفى كل مرة اتّخذ النبى (ص) عليّاً (ع) أخاً لنفسه من دون الناس.

كما انه (ص) آخى بين النساء المهاجرات والأنصار أيضاً.

وروى السبط ابن الجوزى قائلاً: آخى رسول اللّه (ص) بين المهاجرين والأنصار، فبكى على (ع) فقال رسول اللّه (ص): ما يبكيك يا على؟

قال: لم تواخ بينى وبين أحد.

قال: أنا ادّخرتك لنفسي، ثم قال لعلى (ع): أنت منّى بمنزلة هارون من موسى(۲).

ثم قال (ص): يا على أما علمت ان أول من يدعى به يوم القيامة أنا، فأقوم عن يمين العرش، إلى أن قال: ثم أنت أول من يدعى به لقرابتك منّى ومنزلتك عندى، ويدفع إليك لوائى وهو لواء الحمد.

النبى (ص) ونقباء الأنصار

وكان من النقباء الاثنى عشر الذين جعلهم رسول اللّه (ص) شهداء على الأنصار: البراء بن معرور، وكان هو أول من تكلّم ليلة العقبة حين التقى رسول اللّه (ص) بالسبعين من الأنصار فبايعوه، وقد توفّى قبل قدوم رسول اللّه (ص) إلى المدينة بشهر، فلما قدم رسول اللّه (ص) انطلق بأصحابه فصلّى على قبره وقال: (اللّهمّ اغفر له وارحمه وارض عنه وقد فعلت).

وكان البراء هذا هو أول من مات من النقباء، ومات بعده من النقباء الاثنى عشر: أسعد بن زرارة، وذلك قبل أن يفرغ رسول اللّه (ص) من بناء مسجده، ودفن بالبقيع، والأنصار يقولون: هو أول من دفن فيها، والمهاجرون يقولون: أول من دفن فيها هو عثمان بن مضعون.

ولما مات أبو امامة أسعد بن زرارة جاءت بنو النجار إلى رسول اللّه (ص) وكان أبو امامة نقيبهم فقالوا: يا رسول اللّه إنّ هذا الرجل قد كان منّا حيث قد علمت، فاجعل لنا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم.

فقال لهم رسول اللّه (ص): أنا نقيبكم، وكره رسول اللّه (ص) أن يخص بها بعضهم دون بعض، فكان من فضل بنى النجار أن كان رسول اللّه (ص) نقيبهم.

تشريع الأذان

ولما كثر المسلمون ذكروا أن يعلموا وقت الصلاة بشيء، فذكروا: أن يوروا ناراً، أو يضربوا ناقوساً، أو ينفخوا فى بوق، أو يبعثوا من ينادى بالصلاة.

فهبط جبرائيل (ع) على رسول اللّه (ص) بالأذان والإقامة، وعندها أمر رسول اللّه (ص) علياً (ع) أن يدعو له بلالاً، فدعاه فعلمه رسول اللّه (ص) الأذان وأمره به، وكان من فصولهما: (حىَّ على خير العمل).

ثم فى يوم الغدير لمّا نصب النبى (ص) علياً (ع) بأمر من اللّه تعالى خليفة على المسلمين، وأخذ منهم البيعة له بإمرة المؤمنين، زيد فى فصولهما بأمره (ص) بعد الشهادة للّه بالوحدانية وللنبى بالرسالة: الشهادة لعلى (ع) بالولاية.

أبو سفيان: أول من صادر أموال المسلمين

وتلاحق المهاجرون إلى رسول اللّه (ص)، فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس.

وبعث رسول اللّه (ص) وهو بعد فى منزل أبى أيوب: زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكّة، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم ليحملوا إليه بناته اللاتى لم يسلم أزواجهنّ، لنزول القرآن فى حرمتهنّ على أزواجهنّ إلاّ أن يسلموا، وليحملوا إليه زوجته سودة بنت زمعة، وأُسامة بن زيد، وأُمه، وأُم أيمن، فقدما عليه بهنّ وبأُسامة.

وأما زينب بنت رسول اللّه (ص) فقد خرجت فتعرّض لها هبّار فی الطريق بما أسقط جنينها فتمرضت على أثره وفارقت الحياة، فأهدر رسول اللّه (ص) دم هبار على جريمته هذه حيث انه قتل الاُم وجنينها معاً.

نعم لم يستوعب من مكة أهل هجرة بأهليهم وأموالهم إلى اللّه وإلى رسوله إلا أهل دور يسمون بنى مظعون من بنى جُمح وبنو جحش بن رئاب وبنو البكير من بنى سعد بن ليث، فإن دورهم اُغلقت بمكة هجرة.

ولما خرج بنو جحش من دارهم عدا عليها أبوسفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة أخى بنى عامر بن لؤى.

فلما بلغ بنى جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ذكر ذلك عبداللّه بن جحش لرسول اللّه (ص)، فقال له: أما ترضى يا عبداللّه أن يعطيك اللّه بها داراً فی الجنّة؟

قال: بلى.

قال: فذلك لك.

فلما افتتح رسول اللّه (ص) مكة كلمه ابن جحش فی دارهم فأبطأ عليه رسول اللّه (ص).

فقال له الناس: إنّ رسول اللّه (ص) يكره أن ترجعوا فی شیء من أموالكم اُصيب منكم فی اللّه.

فأمسك عن كلام رسول اللّه (ص)، وقال:

أبلغ أبا سفيان عن أمر عواقبه ندامه

دار ابن عمك بعتها تقضى بها عنك الغرامه

وحليفكم باللّه رب الناس مجتهد القسامه

اذهب بها، اذهب بها طُوِّقتها طوق الحمامه

المدينة ودعاء الرسول (ص)

كان هواء المدينة وخماً وعفناً، وكانت المدينة من أوبأ أرض اللّه من الحمّى، وكانت مشهورة بالوباء فی الجاهلية، ومن أجلها كانت تدعى باسم يثرب، فإذا دخلها غريب تمرض، فاستوخم المهاجرون هواء المدينة ولم يوافق مزاجهم، فمرض كثير منهم وضعفوا حتى لم يقدروا على الصلاة قياماً، وكرهوا المدينة، فقال رسول اللّه (ص) وهو يدعو ربّه: (اللّهمّ حبّب إلينا المدينة كما حبّبت إلينا مكّة أو أشدّ، وبارك لنا فی مدّها وصاعها، وانقل وباءها وحماها عنا) ثم سماها طيبة، فسمّيت بها واشتهرت بمدينة الرسول (ص).

على (ع) يخطب فاطمة (ع)

ولما انتقل رسول اللّه (ص) من بيت أبى أيوب إلى منازله كانت ابنته فاطمة(ع) عنده، فخطبها أكابر قريش من أهل الفضل والسابقة فی الإسلام والشرف والمال، كما خطبها بعض الصحابة، وكان كلما ذكرها له أحدهم أعرض عنه رسول اللّه (ص) بوجهه، حتى كان الرجل منهم يظن ان رسول اللّه (ص) ساخط عليه.

فقيل لعلى (ع): لم لا تخطب فاطمة؟ فواللّه ما نرى رسول اللّه (ص) يحبسها إلاّ عليك.

فأقبل على (ع) إلى النبى (ص) خاطباً وهو فی دار اُم سلمة، وقبل أن يصل على (ع) إلى الدار هبط جبرئيل على النبى (ص) وأخبره بمجیء على (ع).

فلما طرق الباب قال النبى (ص) لاُم سلمة: افتحى له الباب ومريه بالدخول، فهذا رجل يحبّه اللّه ورسوله ويحبّهما، فدخل فإذا هو على (ع)، فسلّم على النبى (ص) وجلس مطرقاً برأسه حياءاً.

فقال له النبى (ص): أنى أرى انك أتيت لحاجة؟

فقال على (ع): فداك أبى وأُمى يا رسول اللّه، انک لتعلم انک أخذتنى من عمک أبى طالب ومن فاطمة بنت أسد، وأنا صبىّ، فغذّيتنى بغذائک، وأدّبتنى بأدبک، فکنتَ إلىّ أفضل من أبى طالب ومن فاطمة بنت أسد فى البرّ والشفقة، وان اللّه تعالى هدانى بک وعلى يديک، وأنت واللّه يا رسول اللّه ذخرى وذخيرتى فى الدنيا والآخرة، يا رسول اللّه، فقد أحببت مع ما شدّ اللّه من عضدى بک أن يکون لى بيت، وأن يکون لى زوجة أسکن إليها، وقد أتيتک خاطباً راغباً، أخطب إليک ابنتک فاطمة، فهل أنت مزوّجى يا رسول اللّه؟ ثم سکت وأطرق برأسه ينتظر جواب رسول اللّه (ص).

صداق الزواج

ولما خطب على (ع) فاطمة(ع) من أبيها رسول اللّه (ص) تهلّل وجه رسول اللّه (ص) فرحاً وسروراً وقال له: فهل معک شىء أُزوّجک به؟

فقال على (ع): فداک أبى وأُمى، واللّه ما يخفى عليک من أمرى شىء، أملک سيفى ودرعى وناضحى، ومالى شىء غير هذا.

فقال رسول اللّه (ص): يا على أما سيفک فلا غنى بک عنه تجاهد به فى سبيل اللّه وتقاتل به أعداء اللّه، وناضحک تنضح به على نخلک وأهلک وتحمل عليه رحلک فى سفرک، ولکنى قد زوجتک بالدرع ورضيت بها منک، يا على أبشر فإن اللّه تعالى قد زوّجکها فى السماء قبل أن أُزوّجک فى الأرض.

ابداء الرضا

ثم قال رسول اللّه (ص) لعلى (ع): يا على انه قد ذکر فاطمة رجال قبلک، فذکرتُ ذلک لها، فرأيتُ الکراهة فى وجهها، ولکن على رسلک حتى أخرج إليک.

فدخل (ص) عليها فقامت(ع) فأخذت رداء أبيها (ص) ونزعت نعليه، وأتته بالوضوء فوضّئته بيدها، وغسلت رجليه، ثم جلست تنتظر أمره (ص).

فقال (ص) لها: يا فاطمة!

فقالت: لبيک يا أبة يا رسول اللّه ما حاجتک؟

قال: ان على بن أبى طالب من قد عرفت قرابته وفضله وإسلامه، وانى قد سألتُ ربّى أن يزوّجک خير خلقه وأحبّهم إليه وقد ذکر عن أمرک شيئاً، فما ترين؟

فسکتت فاطمة(ع) ولم تولّ وجهها، ولم يرَ فيها رسول اللّه (ص) کراهة، فقام وهو يقول: (اللّه أکبر، سکوتها اقرارها).

إعلان خبر الزواج

ثم قام على (ع) ومضى إلى المسجد، وجاء رسول اللّه (ص) فى أثره، وفى المسجد المهاجرون والأنصار، فصعد رسول اللّه (ص) المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: معاشر المسلمين ان جبرئيل أتانى آنفاً فأخبرنى عن ربّى عزّ وجل انه جمع الملائکة عند البيت المعمور، وانه أشهدهم جميعاً انه زوّج أمته فاطمة بنت رسول اللّه من عبده على بن أبى طالب، وأمرنى أن أُزوّجه فى الأرض وأُشهدکم على ذلک.

ثم جلس وقال لعلى (ع): قم يا أبا الحسن فاخطب أنت لنفسک.

فقام فحمد اللّه وأثنى عليه وصلّى على النبى وآله ثم قال:

(الحمد للّه شکراً لأنعمه وأياديه، ولا إله إلاّ اللّه شهادة تبلغه وترضيه، وصلّى اللّه على محمد صلاة تزلفه وتحظيه، والنکاح مما أمر اللّه

عزوّجل به ورضيه، ومجلسنا هذا مما قضاه اللّه وأذن فيه، وقد زوّجنى رسول اللّه ابنته فاطمة وجعل صداقها درعى هذا وقد رضيت بذلک، فاسألوه واشهدوا).

فقال المسلمون لرسول اللّه (ص): زوّجته يا رسول اللّه؟

فقال (ص): نعم.

فقالوا: بارک اللّه لهما شملهما.

الصداق لمصلحة الزوجين

ثم أقبل رسول اللّه (ص) على على (ع) وقال له: يا على انطلق الآن فبع درعک وأتنى بثمنه حتى اُهيّىء لک ولإبنتى فاطمة ما يصلحکما.

قال على (ع): فانطلقتُ فبعتُ درعى بأربعمائة درهم، وقيل: بأربعمائة وثمانين، وقيل: بخمسمائة درهم(۳) وأقبلتُ بها إلى رسول اللّه (ص) وطرحتها بين يديه، فدعا رسول اللّه (ص) بعض أصحابه ودفع له بعض المال وقال له: اشتر بهذه الدراهم لابنتى ما يصلح لها فى بيتها، فانطلق واشترى:

۱ فراشاً من خيش مصر محشواً بالصوف.

۲ نطعاً من ادم.

۳ وسادة من ادم حشوها من ليف النخل.

۴ عباءة خيبرية.

۵ قربة للماء.

۶ کيزاناً.

۷ جراراً.

۸ مطهرة للماء.

۹ ستراً من صوف.

۱۰ رحى لليد.

فلما وضع ما اشتراه بين يدى رسول اللّه (ص) نظر إليه فبکى وجرت دموعه، ثم رفع يده إلى السماء وقال: (اللّهمّ بارک لقوم جُلّ آنيتهم الخزف).

وهذا الدعاء يشمل من حينه کل زواج يتم ببساطة وسهولة وبلا تشريفات وتعقيدات إلى يوم القيامة، وعلينا إذا أحببنا أن يشملنا هذا الدعاء ويشمل أبناءنا وبناتنا أن نلتزم بذلک ولا نطلب سوى الکفاءة والأهلية من حسن الخلق والتديّن، کما فى الحديث الشريف: (إذا جاءکم من ترضون خُلقه ودينه فزوِّجوه)(۴).

البساطة فى اُمور الزواج

ثم دعى رسول اللّه (ص) علياً (ع) وقال له: هيّىء منزلاً حتى تحوّل فاطمة إليه.

فقال على (ع): يا رسول اللّه ما هاهنا منزل إلا منزل حارثة بن النعمان.

فقال رسول اللّه (ص): واللّه لقد استحيينا من حارثة بن النعمان، فقد أخذنا عامة منازله، فبلغ ذلک حارثة فجاء إلى رسول اللّه (ص) فقال: يا رسول اللّه أنا ومالى للّه ولرسوله، واللّه ما من شىء أحبّ إلىَّ مما تأخذه، والذى تأخذه أحبّ إلىّ ممّا تترکه.

فجزّاه رسول اللّه (ص) خيراً.

ثم فرشوا البيت بالرمل، ونصبوا فيه عوداً يوضع عليه القربة، وستروه بكساء، ونصبوا خشبة من الحائط إلى الحائط للثياب، ثم حُوّلت فاطمة(ع) إلى على (ع)، ولها من العمر تسع سنين.

وليمة الزفاف

ثم قال رسول اللّه (ص) لعلى (ع): يا على اصنع لأهلك طعاماً فاضلًا، فجاء الأصحاب بالهدايا، فأمر النبى (ص) بطحن الحنطة، فطحن وخبز، وذبح الكبش، وجىء بتمر وسمن، فلمّا تهيّأ الطعام قال رسول اللّه (ص) لعلى (ع): يا على ادع من أحببت.

قال على (ع): فأتيتُ المسجد وهو غاص بأهله، فناديت: أجيبوا إلى وليمة فاطمة بنت محمد (ص)، فأجابوا وأقبلوا أفواجاً، فأكلوا ورفعوا منها ما أرادوا ولم ينقص من الطعام شىء.

ثم دعا رسول اللّه (ص) الأوانى فملئت ووجه بها إلى منازل أزواجه، ثم أخذ آنية منها وقال: هذه لفاطمة وبعلها (عليهما السلام).

ليلة الزفاف وآدابه

ثم أمر رسول اللّه (ص) فى ليلة الزفاف نساءه وبنات عبدالمطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يصحبن فاطمة(ع) إلى بيت زوجها، وأن يفرحن، ويرتجزن، ويكبّرن، ويحمدن، ولا يقولنّ ما لا يرضى اللّه تعالى.

ولما دخلن الدار أنفذ رسول اللّه (ص) إلى على (ع) ثم دعا فاطمة(ع) فأخذ يدها ووضعها فى يد على (ع) وقال: بارك اللّه فى ابنة رسول اللّه، يا على نعم الزوجة فاطمة، ويا فاطمة نعم الزوج على، ثم قال: يا على هذه فاطمة وديعتى عندك، ثم رفع يديه بالدعاء وقال:

(اللّهمّ اجمع شملهما، وألّف بين قلوبهما، واجعلهما وذريتهما من ورثة جنّة النعيم، وارزقهما ذرّية طاهرة طيّبة مباركة، واجعل فى ذرّيتهما البركة، واجعلهم أئمّة يهدون بأمرك إلى طاعتك، ويأمرون بما يرضيك، اللّهمّ انهما أحبّ خلقك إلىّ فأحبّهما واجعل عليهما منك حافظاً، وانى أُعيذهما بك وذرّيتهما من الشيطان الرجيم).

ثم خرج (ص) إلى الباب وهو يقول: طهّركما وطهّر نسلكما، أنا سلم لمن سالمكما، وحرب لمن حاربكما، استودعكما اللّه، وأستخلفه عليكما.

صبيحة ليلة الزفاف

ولما انصرف الجميع من زفاف علىّ وفاطمة (عليهما السلام) باتت أسماء عندهما فى البيت، وأصبح الصباح، وجاء رسول اللّه (ص) إلى زيارتهما وقال: السلام عليكما ءأدخل؟

ففتحت أسماء الباب، فدخل (ص)، فقال (ص) لعلى (ع): يا على كيف وجدت أهلك؟

قال: نعم العون على طاعة اللّه.

ثم قال لفاطمة(ع): كيف وجدت بعلك؟

قالت: خير بعل.

ثم جاء (ص) بقدح فيه لبن فقال لفاطمة(ع): اشربى فداك أبوك، وقال لعلى (ع): اشرب فداك ابن عمك(۵).

ثم ذكر لهما بعض الوظائف الزوجية، وقسّم ادارة الشؤون المنزلية إلى قسمين: فأوكل ما هو فى البيت إلى فاطمة(ع)، وما هو خارج البيت إلى على (ع).

ولادة السبطين

لم يمض على زواج على (ع) من فاطمة الزهراء(ع) التى كان قد بنى بها فى ذى الحجة من السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة، إلّا أقل من سنة حتى وَلَدت(ع) السبط الأكبر الإمام الحسن المجتبى (ع)، وذلك ليلة النصف من شهر رمضان المبارك سنة ثلاث من الهجرة النبوية المباركة.

كما وولدت(ع) السبط الأصغر الإمام الحسين الشهيد (ع) فى اليوم الثالث من شهر شعبان المعظم سنة أربع من الهجرة النبوية المباركة.

ولادة الحسن بن على (ع)

قالت أسماء بنت عميس: لما حملت سيدتى فاطمة (ع) بالحسن بن على وولدته، جاء النبى (ص) فقال: يا أسماء هلمّى ابنى، فدفعته إليه فى خرقة صفراء، فقال (ص) وقد أزاحها عنه: يا أسماء ألم أعهد إليكم أن لاتلفّوا المولود فى خرقة صفراء؟ فلففته فى خرقة بيضاء ودفعته إليه، فأذّن (ص) فى اذنه اليمنى وأقام فى اليسرى.

ثم قال لعلى (ع): بأىّ شىء سمّيت ابنى؟

قال: ما كنت أسبقك باسمه يا رسول اللّه.

فقال النبى (ص): ولا أسبق أنا باسمه ربّى.

فهبط جبرئيل (ع) وقال: يا محمّد، العلىّ الأعلى يقرؤك السلام ويقول: على منك بمنزلة هارون من موسى ولا نبىّ بعدك، سمّ ابنك هذا باسم ابن هارون.

فقال (ص): وما اسم ابن هارون؟

قال: شبر.

فقال: لسانى عربى.

قال: سمّه الحسن.

قالت أسماء: فسمّاه الحسن، فلمّا كان يوم سابعه عقّ النبى (ص) عنه بكبشين أملحين، عق عنه بيده وهو يقول: (بسم اللّه عقيقة عن الحسن، اللّهم عظمها بعظمه، ولحمها بلحمه، ودمها بدمه، وشعرها بشعره، اللّهمّ اجعلها وقاءاً لمحمد وآله)، ثم أعطى القابلة فخذاً وديناراً، وحلق رأسه(ع)، وتصدّق بوزن الشعر فضّة، وطلى رأسه (ع) بالخلوق(۶) مكان الدم الذى كان الجاهليون يطلون به رأس الوليد، وقال: يا أسماء الدم فعل الجاهلية.

ولادة الحسين بن على (ع)

قالت أسماء: فلما كان بعد حول ولد الحسين (ع) فجاء النبى (ص) وقال: يا أسماء هلمّى ابنى، فدفعته إليه فى خرقة بيضاء، فأذّن (ص) فى اذنه اليمنى، وأقام فى اليسرى، ووضعه فى حجره وبكى.

قالت أسماء: فقلت: ممّ بكاؤك فداك أبى واُمّى يا رسول اللّه؟

قال: على ابنى هذا.

فقلت: انه ولد الساعة.

قال: تقتله من بعدى الفئة الباغية من بنى اُميّة، لا أنالهم اللّه شفاعتى، ثم قال (ص): يا أسماء لا تخبرى فاطمة(ع) بهذا فإنها قريبة عهد بولادته.

ثم قال لعلى (ع): أىّ شىء سمّيت ابنى هذا؟

قال: ما كنت لأسبقك باسمه يا رسول اللّه.

فقال النبى (ص): ولا أسبق باسمه ربّى.

فهبط جبرئيل (ع) وقال: يا محمد العلىّ الأعلى يقرؤك السلام ويقول: علىّ منك كهارون من موسى ولا نبىّ بعدك، سمّ ابنك هذا باسم ابن هارون.

فقال: وما اسم ابن هارون؟

قال: شبير.

فقال: لسانى عربى.

قال: سمّه الحسين.

قالت أسماء: فسمّاه الحسين، فلما كان يوم سابعه عق النبى (ص) عنه بكبشين أملحين، عق عنه بيده وقرأ الدعاء المزبور، ثم أعطى القابلة فخذاً وديناراً، ثم حلق رأسه وتصدّق بوزن الشعر فضّة، وطلى رأسه بالخلوق وقال: يا أسماء الدم فعل الجاهلية.

۱ الأنفال: ۷۵.

۲ حديث المنزلة وقد أجمع عليه سائر فرق الإسلام، قال ابن أبى الحديد المعتزلى فى شرحه على نهج البلاغة: ج ۱۳ ص ۲۱۱ ط دار إحياء التراث العربى: (وقال النبى فى الخبر المجمع على روايته بين سائر فرق الإسلام (أنت منّى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبىّ بعدى) فأثبت له جميع مراتب هارون عن موسى، فإذن هو وزير رسول الله وشادّ أزره، ولولا أنه خاتم النبيّين لكان شريكاً فى أمره) انتهى. وفى البخارى ج ۵ ص ۲۴ باب مناقب على بن أبى طالب: (قال النبى لعلى أما ترضى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى).

۳ وفى بعض الأخبار: ان صداقها (ع) كان ثلاثين درهماً فقط [راجع الكافى: ج ۵ ص ۳۷۷ ح ۲] وذلك لتتضع المناكح.

۴ وسائل الشيعة: ج ۱۴ ص ۵۰ ب ۲۸ ح ۱ و ۲ و ۶ عن الرسول (ص).

۵ كشف الغمة: ۱ / ۳۶۸ ط قم ۱۳۸۱ ه: (اشرب فداك ابن عمك).

۶ الخلوق: نوع من الطيب فيه صفرة.

مع أحبار اليهود

ونصبت أحبار اليهود غالباً العداوة لرسول اللّه (ص) بغياً وحسداً وضغناً لما خص اللّه به العرب من النبوّة، حيث جعلها فى ولد اسماعيل، وأخرجها من ولد اسحاق، فقالوا: لا نكون تبعاً لولد اسماعيل أبداً.

هذا مع ان رسول اللّه (ص) قد كان وادعهم وكتب بينه وبينهم كتاباً على أن لا يعينوا على رسول اللّه (ص) ولا على أحد من أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح ولا بكراع فى السرّ والعلانية، لا بليل ولا بنهار، واللّه بذلك عليهم شهيد، فإن فعلوا فرسول اللّه (ص) فى حلّ من سفك دمائهم، وسبى ذراريهم ونسائهم، وأخذ أموالهم.

وكانوا ثلاث قبائل:

۱ بنو قينقاع، وقد تولّى أمرهم: (المخيريق).

۲ بنو النضير، وقد تولّى أمرهم: (يحيى) بن (أخطب).

۳ بنو قريظة، وقد تولّى أمرهم: (كعب) بن (أسد).

فحاربته الثلاث، فمنّ (ص) على بنى قينقاع، وأجلى بنى النضير، وقتل بنى قريظة. وقد ذكرنا فى بعض الكتب: ان مقاتلى بنى قريظة الذين قتلوا كانوا قليلين جداً.

هـذا وقـد نزلت سورة الحشـر فى بنى النضـير، وسورة الأحـزاب فى بنى قريظـة. وسـيأتى الكلاـم عن القبائـل الثلاـث فى غزواته (ص) وسراياه ان شاء اللّه تعالى.

اسلام ابن سلام

كان ابن سـلام من علماء اليهود، فى المدينـة المنوّرة ومن أحبارهم، فلما جاء النبى (ص) إلى المدينة جاء عبداللّه بن سـلام إليه يسأله عن أشياء قال: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ إلاّ نبى: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنّة، وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى اُمّه؟

قال (ص): أخبرنى به جبرائيل آنفاً.

قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

قال (ص): أما أول أشـراط الساعـة فنار تحشـرهم من المشـرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنّة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى اُمّه.

قال: أشـهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأنّك رسول اللّه، وأنّك جئت بحق، وقد علمت اليهود انّى سيّدهم وابن سيّدهم وعالمهم وابن عالمهم، فادعُهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىّ ما ليس فىَّ.

فأرسل نبى اللّه (ص) إلى اليهود فدخلوا عليه. فقال لهم رسول اللّه (ص): يا معشـر اليهود اتقوا اللّه، فوالذى لا إله إلاّ هو إنكم لتعلمون أنّى رسول اللّه حقّاً وأنّى جئتكم بحق، فأسلموا.

قالوا: ما نعلمه، قالوا ذلك للنبى (ص) ثلاث مرّات.

قال (ص): فأىّ رجل فيكم عبداللّه بن سلام؟

قالوا: ذاك خيرنا وابن خيرنا، وسيّدنا وابن سيّدنا، وعالمنا وابن عالمنا.

قال: أفرأيتم إن أسلم أتسلمون؟

قالوا: حاشا للّه، ما كان ليسلم.

قال: أفرأيتم إن أسلم؟

قالوا: حاشا للّه ما كان ليسلم.

قال: أفرأيتم إن أسلم؟

قالوا: حاشا للّه ما كان ليسلم.

قال (ص): يا ابن سلام اخرج عليهم.

فخرج إليهم فقـال: أشـهد أن لاـإله إلاّـ اللّه، وأشـهد أنّ محمّـداً رسول اللّه، يـا معشـر اليهود اتقوا اللّه فو اللّه الـذى لاـ إله إلاّ هو إنكم تعلمون أنه رسول اللّه وأنه جاء بحقّ.

فقالوا: كذبت انك أنت شرّنا وابن شرّنا، وجاهلنا وابن جاهلنا ونقصوه.

فقال ابن سلام: هذا ما كنت أخاف يا رسول اللّه، فقد أخبرتك ان اليهود قوم بهت.

المخيريق يعلن اسلامه

وكـان الـذى تولّى أمر اليهود من بنى القينقاع يقال له: (مخيريق)، وكان خيرهم، وكان حبراً عالماً، وكان غنياً كثير الأموال والأملاك، وكـان يعرف رسـول اللّه (ص) بصـفته ومـا يجـد فى علمه، فقـال لقومه: تعلمون انه النـبى المبعوث فهلمّوا نؤمن به ونكون قـد أدركنا

الكتابين.

فلم يجبه قينقـاع إلى ما دعاهم إليه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم اُحـد وكان يوم السبت قال: يا معشـر اليهود، واللّه إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق.

قالوا: ان اليوم يوم السبت.

قال: لا سبت لكم.

ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول اللّه (ص) وأصحابه بأُحد، وعهد إلى من وراءه من قومه إن قتلت فى هذا اليوم فأموالى لمحمد (ص) يصنع فيها ما أراه اللّه.

فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتل، وذلك بعد أن أسلم، فاستلم رسول اللّه (ص) أمواله ووهبها بأمر من اللّه تعالى للصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء(ع) وكانت حيطان سبعة.

مع ابنى أخطب

عن صفية بنت حُيى أنها قالت: كنت أحب ولد أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر، ولم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه.

قـالت: فلما قـدم رسول اللّه (ص) المدينـة ونزل قبا فى بنى عمرو بن عوف، غـدا عليه أبى حُيى بن أخطب وعمى أبو ياسـر بن أخطب مغلسين.

قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس. فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا.

قالت: فهشـشت اليهما كما كنت أصـنع، فواللّه ما التفت إلىّ واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمى (أبا ياسر) وهو يقول لأبى (حيى): أهو، هو؟

قال: نعم واللّه.

قال: تعرفه وتثبته؟

قال: نعم.

قال: فما فى نفسك؟

قال: عداوته واللّه ما بقيت.

مكائد اليهود وتلبيسهم

جاء اليهود إلى المدينة واسـتوطنوها ليدركوا النبى (ص) فكانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج قبل مبعثه، فلما بعثه اللّه من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

فقال لهم معاذ بن جبل وبشـر بن البراء بن معرور أخو بنى سـلمة: يا معشـر اليهود اتّقوا اللّه وأسـلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد (ص)، ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته.

فقال سلام بن مشكم أحد بنى النضير: ما جاءنا بشىء نعرفه، وما هو بالذى نذكره لكم، فأنزل اللّه تعالى فى ذلك: (ولمّا جاءهم كتاب من عند اللّه مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به)(۱).

وقال ابن صلويا لرسول اللّه (ص): يا محمد ما جئتنا بشىء نعرفه، وما أنزل اللّه عليك من آية بيّنة فنتّبعك لها.

فأنزل اللّه فى ذلك من قوله تعالى: (ولقد أنزلنا إليك آيات بيّنات وما يكفر بها إلاّ الفاسقون)(۲).

وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد: يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه، وفجّر لنا أنهاراً نتّبعك ونصدقك.

فأنزل اللّه تعالى فى ذلك من قولهما: (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل)(۳).

وكان حيى بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد اليهود حسداً للعرب، لما خصّهم اللّه برسوله (ص)، فكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل اللّه تعالى: (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ)(۴).

ودعا رسول اللّه (ص) اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم عذاب اللّه ونقمته، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم منّا وخيراً منا، فأنزل اللّه تعالى فى ذلك: (وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل اللّه قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا)(۵).

اليهود وتأجيج العداوات

وكان شأس بن قيس شيخاً قد عتا، عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم، فمرّ على نفر من أصحاب رسول اللّه (ص) من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من الفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية.فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة فى هذه البلاد، لا واللّه ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار.

فأمر فتى شاباً من اليهود كان معه فقال: اعمد إليهم واجلس معهم، ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار.

وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، فكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك أبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى، فقتلا جميعاً.

ففعل الفتى، فتكلّم القوم عند ذلك وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحارث بن الأوس، وجبّار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها جذعة، فغضب الفريقان جميعاً وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة(۶). السلاح، السلاح.

فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول اللّه (ص)، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين، اللّه اللّه، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم اللّه للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألّف به بين قلوبكم؟

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوّهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول اللّه (ص) سامعين مطيعين، وقد أطفأ اللّه عنهم كيد عدوّ اللّه، فأنزل اللّه تعالى فى شأس بن قيس وما صنع:

(قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات اللّه واللّه شهيد على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل اللّه من آمن تبغونها عوجاً)(۷).

وأنزل اللّه سبحانه فى أوس بن قيظى وجبار بن صخر وكان معهما من قومهما: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الّذين أُوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين)(۸)، إلى قوله تعالى: (ومن يعتصم باللّه فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم)(۹).

۱ البقرة: ۸۹. ۲ البقرة: ۹۹. ۳ البقرة: ۱۰۸.

۴ البقرة: ۱۰۹. ۵ البقرة: ۱۷۰. ۶ والظاهرة: الحرة.

۷ آل عمران: ۹۸ ــ ۹۹. ۸ آل عمران: ۱۰۰. ۹ آل عمران: ۱۰۱.

مع ابن اُبیّ وأبی عامر

قدم رسول اللّه (ص) المدینهٔ وسید أهلها: عبداللّه بن اُبیّ، لا یختلف علیه فی شرفه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده علی رجل من أحد الفریقین حتی جاء الإسلام، ومعه فی الأوس رجل هو فی قومه من الأوس شریف مطاع: أبو عامر عبد بن عمرو بن صیفی بن النعمان وهو أبو حنظلهٔ الغسیل یوم اُحد، وکان قد ترهب فی الجاهلیهٔ، ولبس المسوح، وکان یقال له الراهب، فشقیا بشرفهما وضرهما.

أما ابن اُبی فکان قومه قد نظموا له الخرز لیتوّجوه ثم یملکوه علیهم، فجاءهم اللّه برسوله (ص) وهم علی ذلک، فلما انصرف قومه عنه إلی الإسلام ضغن ورأی أنّ رسول اللّه (ص) قد استلبه ملکه، فلما رأی قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل کارهاً مصرّاً علی نفاقه وضغنه.

وأما أبو عامر فأبی إلّا الکفر والفراق لقومه حین اجتمعوا علی الإسلام، فخرج إلی مکهٔ ببضعهٔ عشر رجلًا، وکان أبو عامر أتی رسول اللّه (ص) حین قدم المدینهٔ قبل أن یخرج إلی مکهٔ فقال: ما هذا الدین الذی جئت به؟

قال (ص): جئتُ بالحنیفیهٔ دین ابراهیم (ع).

قال: فأنا علیها.

فقال له رسول اللّه (ص): إنّک لست علیها.

قال: بلی، إنک أدخلت یا محمد فی الحنیفیهٔ ما لیس منها.

قال (ص): ما فعلتُ، ولکنی جئت بها بیضاء نقیّهٔ.

قال: الکاذب أماته اللّه طریداً غریباً وحیداً، یعرّض برسول اللّه (ص) أی: إنّک جئت بها کذلک.

فقال رسول اللّه (ص): أجل فمن کذب یفعل اللّه به ذلک.

فکان هو ذلک فقد خرج إلی مکهٔ، فلما فتحت خرج إلی الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها.

فی طریق العیادهٔ

ورکب رسول اللّه (ص) إلی سعد بن عبادهٔ یعوده من شکوی أصابته علی حمار علیه إکاف فوقه قطیفهٔ فدکیهٔ مختطمهٔ بحبل من لیف فمرّ بعبداللّه بن اُبیّ وهو فی ظل (مزاحم) أطمه، وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول اللّه (ص) نزل فسلّم، ثم جلس فتلا القرآن، وذکّر باللّه وحذر، وبشر وأنذر.

قال الراوی: وهو زام لا- یتکلّم، حتی إذا فرغ رسول اللّه (ص) من مقالته قال: یا هذا إنه لا- أحسن من حدیثک هذا إن کان حقاً، فاجلس فی بیتک فمن جاءک فحدّثه إیّاه، ومن لم یأتک فلا تغشه به، ولا تأته فی مجلسه بما یکره.

فقال عبداللّه بن رواحهٔ فی رجال کانوا عنده من المسلمین: بلی فاغشنا به وائتنا فی مجالسنا ودورنا، فهو واللّه ممّا نحب، ومما أکرمنا اللّه به وهدانا.

فقال عبداللّه حین رأی من خلاف قومه ما رأی:

متی ما یکن مولاک خصمک لا تزل تذل ویصرعک الذین تصارع

وهل ینهض البازی بغیر جناحه وإن جذ یوماً ریشه فهو واقع

فقال سعد: یا رسول اللّه لا یعرض فی قلبک من قول هذا شیء، فو اللّه لقد جاءنا اللّه بک وإنا لننظم له الخرز لنتوّجه ملکاً علینا، فإنه لیری أن قد سلبته ملکاً أشرف علیه.

عفو رسول اللّه (ص)

وكـان النبى (ص) وأصـحابه يعفون عن المشـركين وأهـل الكتـاب، كمـا أمرهم اللّه تعـالى، ويصبرون على الأـذى، قـال اللّه عزّوجل: (ولتسمعن من الّذين اُوتوا الكتاب من قبلكم ومن الّذين أشركوا أذى كثيراً، وإن تصبروا وتتّقوا فإنّ ذلك من عزم الأُمور)(۱).
وقال تعالى: (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً)(۲) إلى قوله تعالى: (فاعفوا واصفحوا حتّى يأتى اللّه بأمره)(۳).
وكـان النبى (ص) يأخـذ بـالعفو ما أمره اللّه حتى أذن اللّه فيهم، فلما غزا رسول اللّه (ص) بـدراً فقتل اللّه صـناديد كفار قريش قال ابن اُبىّ ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا رسول اللّه (ص) وأسلموا.

تحويل القبلة

وصلّى رسول اللّه (ص) إلى بيت المقدس ثلاث عشرة سنة بمكة وسبعة عشر شهراً بالمدينة، وكان يعجبه أن تكون قبلته الكعبة تخلّصاً من تعيير اليهود، فحوّل اللّه القبلة إليها، والنبى (ص) مع المسلمين فى الصلاة، فتحوّلوا إلى الكعبة المكرّمة.
فخرج رجل ممّن كان صـلّى معه فمرّ على أهل مسـجد وهم راكعون فقال: اُشهد باللّه لقد صلّيت مع النبى (ص) قِبَل مكة، فداروا كما هم قِبَل البيت.
وكذلك بينما الناس يصـلّون الصبح فى مسجد قباء إذ جاءهم رجل فقال: إن النبى (ص) قد اُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، ألا فاستقبلوها، وكان وجه الناس إلى الشام فاستداروا بوجوههم إلى الكعبة.
وكـان فى جعـل القبلـة إلى بيت المقـدس ثم تحويلهـا إلى الكعبـة حِكَم عظيمـة وفتنـة وامتحان للمسـلمين والمشـركين وأهل الكتاب والمنافقين.
فأما المسلمون فقالوا: (سمعنا وأطعنا)(۴)، وقالوا: (آمنّا به كلّ من عند ربّنا)(۵)، وهم الذين هداهم اللّه ولم تكن كبيرة عليهم.
وأما المشركون فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا.
وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء.
وأما المنافقون فقالوا: ما يـدرى محمـد أين يتوجّه، إن كانت القبلـة الأُولى حقاً فقـد تركها، وإن كانت الثانيـة هى الحق فقد كان على باطل.
وكثرت أقاويل السـفهاء من الناس، وكانت كما قال اللّه: (وإن كانت لكبيرة إلاّ على الّـذين هـدى اللّه)(۶) وكانت فتنـة من اللّه امتحن بها عباده ليرى من يتبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه، فأنزل اللّه جواب السـفهاء ...: (قل للّه المشـرق والمغرب يهـدى من يشاء إلى صراط مستقيم)(۷).

صلاة الاستسقاء

وفى شـهر رمضان المبارك سنة ست من الهجرة النبوية المباركة صلّى رسول اللّه (ص) بالناس صلاة الإستسقاء بكيفيتها الخاصة، فلما قضى صلاته جثا على ركبتيه ورفع يديه نحو السماء ثم كبر وقال: (اللّهمّ اسقنا وأغثنا) إلى آخر الدعاء المأثور.
فما أن تمّ دعاءه (ص) حتى أمطرت السماء عليهم مطراً غزيراً وصارت المدينة والسحاب عليها كالفسطاط.
عندها تبسَّم رسول اللّه (ص) وقال: للّه درّ أبى طالب، لو كان حيّاً قرّت عيناه، من الذى ينشدنا قوله؟
فقام على بن أبى طالب (ع) وقال: يا رسول اللّه كأنّك أردت:
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاّك من آل هاشم فهم عنده فى نعمة وفواضل

كذبتم وبيت اللّه نبزى محمداً ولما نقاتل دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقال رسول اللّه (ص): أجل. فقام عندها رجل من كنانة وقال:

لك الحمد والشكر ممّن شكر سقينا بوجه النبى المطر

وكان كما قاله عمّه أبو طالب أبيض ذو غرر

به اللّه يسقى صوب الغمام وهذا العيان لذاك الخبر

فقال رسول اللّه (ص): إن يك شاعراً أحسن فقد أحسنت.

ثم استمرت السماء تهطل عليهم حتى جاءوا وقالوا: يا رسول اللّه ادع اللّه تعالى أن يصرفها عنّا، فرفع يديه وقال: (حوالينا ولا علينا، اللّهمّ على رؤوس الظراب، ومنابت الشجر، وبطون الأودية، وظهور الآكام).

فتصدعت عن المدينة، تمطر مراعيها ولا تمطر فيها قطرة.

۱ آل عمران: ۱۸۶. ۲ البقرة: ۱۰۹. ۳ البقرة: ۱۰۹.

۴ البقرة: ۲۸۵. ۵ آل عمران: ۷. ۶ البقرة: ۱۴۳.

۷ البقرة: ۱۴۲.

الإذن فى الحرب الدفاعية

ولما استقر رسول اللّه (ص) بالمدينة كما تقدّم، وأيّده اللّه بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التى كانت بينهم، فمنعته أنصار اللّه وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدّموا محبّته على محبّة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، ففرض اللّه على المسلمين القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، فقال تعالى: (وقاتلوا فى سبيل اللّه الذين يقاتلونكم)(۱).

آداب وسنن

وكان (ص) يستحب القتال أول النهار كما يستحب الخروج للسفر أوله، فإذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهبّ الرياح وينزل النصر.

وكان يبايع أصحابه فى الحرب على أن لا يفرّوا، وربما بايعهم على الموت، وبايعهم على الجهاد، كما بايعهم على الإسلام، وبايعهم على الهجرة قبل الفتح، وبايعهم على التوحيد والتزام طاعة اللّه ورسوله.

وبايع (ص) نفراً من أصحابه على أن لايسألوا الناس شيئاً، فكان السوط يسقط من يد أحدهم فينزل فيأخذه ولا يقول لأحد ناولنى إياه.

وكان (ص) يشاور أصحابه فى الجهاد ولقاء العدوّ و تخيّر المنازل.

وفى حديث: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول اللّه (ص).

وكان (ص) يتخلّف فى ساقتهم فى المسير فيزجى الضعيف ويردف المنقطع، وكان أرفق الناس بهم فى السير.

وكان (ص) إذا أراد غزوة ورّى بغيرها ليقل القتل، وكان يبعث العيون يأتونه بخبر عدوّه، ويطلع الطلائع ويبث الحرس.

وكان (ص) إذا لقى عدوّه وقف ودعا واستنصر، وأكثر هو وأصحابه من ذكر اللّه، وخفضوا أصواتهم.

وكان (ص) يرتب الجيش والمقاتلة، ويجعل فى كل جنبة كفؤاً لها.

وكان (ص) يبارز بين يديه بأمره.

وكان (ص) يلبس للحرب عدة، وربما ظاهر بين درعين.

وكان (ص) له الأولوية.

وكان (ص) إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً ثم قفل.

وكان (ص) يستحب للرجل أن يقاتل تحت راية قومه.

وكان (ص) إذا لقى العدو يقول: (اللّهمّ مُنزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم، اللّهمّ أنزل نصرك، اللّهمّ أنت عضدى ونصيرى، بك اُقاتل).

وكان (ص) إذا اشتدّ البأس وحمى الحرب وقصده العدو يعلم بنفسه ويقول: (أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب).

وكان (ص) إذا اشتدّ البأس اتقوا به، كما قال على (ع) فى نهج البلاغة: (كنا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول اللّه (ص)، فلم يكن أحد أقرب منّا إلى العدوّ منه).

وكان (ص) أقربهم إلى العدو.

وكان (ص) يجعل لأصحابه شعاراً فى الحرب ورمزاً يعرفون به إذا تكلّموا.

وكان (ص) ينهى عن قتل النساء والولدان والشيوخ ونحوهم.

وكان (ص) إذا بعث سرية يوصيهم بتقوى اللّه ويقول: (سيروا بسم اللّه، قاتلوا من كفر باللّه، ولاتمثلوا، ولاتغدروا، ولاتقتلوا وليداً).

وكان (ص) ينهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو ولعله حتى لا يقع القرآن فى أيديهم فيبيحوا حرمته.

وكان (ص) يأمر أمير سريته أن يدعو عدوّه قبل القتال إما إلى الإسلام والهجرة، أو الإسلام دون الهجرة ويكونوا كأعراب المسلمين ليس لهم فى الفيء نصيب، أو بذل الجزية، فإن أجابوا إليه قبل منهم، وإلا استعان باللّه وقاتلهم.

وكان (ص) إذا ظفر بعدوّه أمر منادياً فجمع الغنائم كلها، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها، ثم أخرج خمس الباقى فوضعه حيث أراه اللّه وأمر به: من مصالح المسلمين، ثم يرضخ من الباقى لمن لاسهم له من النساء والصبيان والعبيد، ثم يقسم الباقى بالسوية بين الجيش: للفارس ثلاثة أسهم له سهم وسهمان لفرسه، وللراجل سهم.

وكان (ص) يسوّى بين الضعيف وغيره فى القسمة ما عدا النفل.

النبى (ص) وانقسام الكفار عليه

ولما قدم رسول اللّه (ص) إلى المدينة، وأرسى فيها قواعد الإسلام صار الكفار معه على ثلاثة أقسام:

قسم: صالحوه على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه.

وقسم: حاربوه ونصبوا له العداوة.

وقسم: تاركوه واتّخذوا موقف الحياد فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما ينتهى إليه أمره، وما يكون مصيره، وكان بين هؤلاء من يحب ظهوره وانتصاره باطناً، وإن لم يعلن بذلك.

أوّل سريّة فى الإسلام

وحيث ان مشركى قريش قد نصبوا الحرب للمسلمين، وصادروا فى مكة الأموال المنقولة وغير المنقولة للمسلمين الذين هاجروا إلى المدينة، وحاولوا أيضاً فرض حصار اقتصادى وسياسى على المدينة نفسها ليعرقلوا مسيرة النبى (ص) التقدمية، ويصدّوا زحف المسلمين وانتشار الإسلام من المدينة إلى غيرها من المناطق الاُخرى، فكر النبى (ص) بعد أن أذن اللّه له بمجابهة المشركين عسكرياً فى أن يكسر جبروت المشركين، ويفك حصارهم، ويرغمهم على إعادة النظر فى مواقفهم العدائية تجاه الإسلام والمسلمين.

فرأى أن يتعرض لهم بتهديدهم، وذلك ببعث السرايا إليهم، أو غزوهم بنفسه (ص)، علماً بأن الغزوة فرقها مع السريّة هو: ان الغزوة كان يشترك فيها رسول اللّه (ص) بنفسه، دون السرية، فإنه كان يؤمّر عليها أحداً من المسلمين.

وكانت الغزوات على رواية تعدّ (۲۷) غزوة، بينما السرايا بلغت (۶۶) سرية.

وأول سرية بعثها رسول اللّه (ص) فى هذا المجال كانت بعد مضى ثمانية أشهر من الهجرة النبوية المباركة، فقد عقد (ص) اللواء لعمّه حمزة بن عبدالمطلب وأمّره على ثلاثين رجلًا من المهاجرين ممّن تحمّل الأذى والتعذيب القاسى من مشركى مكّة، وممّن صودرت أمواله على أيديهم، وبعثهم إلى سواحل البحر الأحمر، فالتقوا هناك فى (العيص) من أرض جهينة بأبى جهل وهو فى مائة وثلاثين راكباً من أهل مكّة فى قافلة تجارية، فاصطفّ الفريقان للقتال، فحجز بينهما (مجدى بن عمرو الجهنى) وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف القوم بعضهم عن بعض، ولم تقع مناوشات بينهم.

سرية عبيدة بن الحارث

وكانت هذه السرية متزامنة مع سرية حمزة بن عبدالمطلب، فقد عقد رسول اللّه (ص) اللواء لعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب بن عبدمناف فى ستّين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماءاً بالحجاز بأسفل (ثنية المرة).

فلقى بها أباسفيان بن حرب فى مائتين من أهل مكّة، فكانت بينهم الرماية دون أن يقع قتال بينهم، غير انه التحق بالمسلمين رجلان ممّن خرج مع المشركين كانا قد أسلما من قبل إلا أنهما لم يتمكّنا من الإلتحاق بالمسلمين، فجعلا ذلك وسيلة للإلتحاق بهم والتخلّص من المشركين وهما: المقداد بن عمرو البهرانى، وعتبة بن غزوان المازنى.

سريّة سعد

وفى شهر ذى القعدة فى السنة الاُولى من الهجرة النبوية المباركة بعث رسول اللّه (ص) سريّة ثالثة تتشكّل من تسعة رجال من المهاجرين يرأسهم سعد بن أبى وقاص، ليرصدوا المشركين فى تحرّكاتهم التجارية، فخرجوا حتى بلغوا موضعاً يقال له: (الخرّار) من أرض الحجاز، فلم يلقوا كيداً ورجعوا إلى المدينة.

غزوة الأبواء

وفى شهر صفر من السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة، أى: على رأس اثنى عشر شهراً من مقدم رسول اللّه (ص) إلى المدينة خرج (ص) مع جماعة من أصحابه بعد أن عقد اللّواء لعلىّ بن أبى طالب (ع) واستعمل على المدينة سعد بن عبادة حتى بلغ ودان وهى غزوة الأبواء يريد قريشاً وبنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فوادع فيها بنى ضمرة، وعقد تلك المعاهدة معه سيد بنى ضمرة (مخشى بن عمرو الضمرى) وكان سيدهم فى زمانه ذلك.

ثم رجع رسول اللّه (ص) إلى المدينة ولم يلق كيداً، فأقام بها بقية صفر وصدراً من ربيع الأول.

غزوة بَواط

ثم خرج رسول اللّه (ص) فى أواسط ربيع الأول من السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة فى مائتين من أصحابه، وذلك بعد أن استعمل على المدينة السائب بن مظعون، وقيل: سعد بن معاذ، يريد (ص) قريشاً حتى بلغ (بواط) من ناحية رضوى(۲)، فلم يظفر بقافلة قريش التى كان على رأسها (اُمية بن خلف) فى مائة رجل من المشركين.

ثم رجع (ص) إلى المدينة ولم يلق كيداً، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الاُولى.

غزوة ذات العشيرة

ثم فى أواسط شهر جمادى الُاولى خرج رسول اللّه (ص) من المدينة، وقد حمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، واستخلف على المدينة أباسلمة بن عبدالأسد، وذلك فى مائة وخمسين من أصحابه، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها ويتعرضون عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام، وكان قد جاءه الخبر بفصولها مع أبى سفيان من مكة، وفيها أموال لقريش، حتى بلغ (ص) (ذات العشيرة) فبلغه الخبر بأنّ العير قد فاتته بأيام، وهذه هى التى وعده اللّه إيّاها، أو ذات الشوكة، ووفى له بوعده، وفيها وادع بنى مدلج وعقد معهم معاهدة عدم اعتداء.

وفى هذه الغزوة نزل رسول اللّه (ص) بأصحابه عند عين، فنام على (ع) وعمّار هناك فى دقعاء من التراب، فأيقظهما رسول اللّه (ص) وحرّك علياً (ص) فقال له: قم يا أباتراب سمّاه (ص) بذلك لما عليه من التراب ثم قال: ألا اُخبرك بأشقى الناس؟ أحمر ثمود عاقر الناقة، والذى يضربك يا على على هذه، ووضع رسول اللّه (ص) يده على رأسه الشريف، حتى يبلّ منها هذه، ووضع (ص) يده على لحيته الكريمة.

وأراد رسول اللّه (ص) بهذه الغزوات:

أوّلاً: التحالف مع العشائر.

وثانياً: ارهاب قريش، لما سبق من انهم فرضوا حصاراً اقتصاديّاً على المدينة.

غزوة بدر الاُولى

لما رجع رسول اللّه (ص) إلى المدينة قادماً من غزوة (ذات العشيرة) لم يبق فيها إلاّ ليال قلائل لا تبلغ العشر، حتّى أغار كرز بن جابر الفهرى على سرح المدينة فاستاقه، فخرج رسول اللّه (ص) فى طلبه، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة حتى بلغ وادياً يقال له: (سفوان) فى ناحية بدر ففاته كرز، فرجع رسول اللّه (ص) إلى المدينة ولم يلق حرباً.

سريّة عبد اللّه بن جحش

ثم رجع رسول اللّه (ص) إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجباً، وفى رجب المذكور بعث عبداللّه بن جحش الأسدى إلى نخلة، وذلك فى اثنى عشر رجلاً من المهاجرين كل اثنين يعتقبان على بعير، وقال: كن بها حتى تأتينا بخبر من أخبار قريش، ولم يأمره بقتال، فوصلوا إلى بطن نخلة يرصدون عيراً لقريش.

وكان رسول اللّه (ص) قد كتب له كتاباً وأمره أن لاينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه.

فلما فتح الكتاب وجد فيه: (إذا نظرت إلى كتابى هذا فامض حتى تنزل بنخلة بين مكة والطائف فترصد بها عيراً لقريش وتعلم لنا من أخبارهم).

فقال لمّا قرأ الكتاب: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك وأنه لايستكرههم، فمن أحبّ الشهادة فليمض معه، ومن كره الموت فليرجع.

فمضوا كلهم حتى إذا نزلوا نخلة مرت بهم عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة، فيها عمرو بن الحضرمى وعثمان ونوفل ابنا عبداللّه بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة.

فتشاور المسلمون فيهم وقالوا: نحن فى آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم أجمعوا على ملاقاتهم، فرمى أحدهم وهو واقد بن عبداللّه التميمى عمرو بن الحضرمى فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل فأعجزهم، ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة.

الشهر الحرام والقتال فيه

فلما قدموا على رسول اللّه (ص) قال: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام، وتوقف عن تأييدهم وامضاء عملهم، وانتظر تأييد اللّه تعالى وامضائه لهم عبر أمين وحيه جبرئيل (ع)، وذلك لأهميّة المسألة.

فلما توقف رسول اللّه (ص) عن استلام العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً وهو بانتظار الوحى، أسقط فى أيدى القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين.

واشتدّ تعنّت قريش وإنكارهم ذلك، وزعموا أنهم وجدوا مقالاً وقالوا: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام.

وتفاءلت اليهود على رسول اللّه (ص) بذلك فقالوا: عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبداللّه، (عمرو): عمرت الحرب، و(الحضرمى): حضرت الحرب، وواقد: وقدت الحرب، فجعل اللّه ذلك عليهم لا لهم، فأنزل على رسوله:

(يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل اللّه وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند اللّه والفتنة أكبر من القتل)(۳).

بوادر النصر

فلما نزل القرآن بذلك انحسمت المسألة وانقطع النزاع فيها، فقد فرج اللّه عن المسلمين، واستلم رسول اللّه (ص) العير وما فيها من أموال وقسمها بين المسلمين، وكانت هذه أول غنيمة للمسلمين، وأول انتصار سجّله المسلمون على المشركين بعد خمسة عشر عاماً سجّل المشركون فيها كل ما استطاعوه من ظلم وتعذيب، وتشريد وتهجير، ونهب وسلب، وضغط وكبت.

وأما الأسيران: فأرسلت قريش فى فدائهما، وحيث كان رجلان من هذه السرية قد أسرتهما قريش أيضاً قال رسول اللّه (ص) لموفدها: لن نفديهما حتى يقدم صاحبانا، إنّا نخاف عليهما.

فأطلقت قريش سراح الأسيرين ومع وصولهما إلى المدينة أُطلق سراحهما.

فأما أحد الأسيرين وهو: الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول اللّه (ص) حتّى قُتِل يوم بئر معونة.

وأما الثانى وهو: عثمان بن عبداللّه فلحق بمكة، فمات بها كافراً.

فلما تجلى عن عبداللّه بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمعوا فى الأجر فقالوا: يا رسول اللّه إنا نطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين.

فأنزل اللّه فيهم (إنّ الّذين آمنوا والّذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل اللّه أُولئك يرجون رحمت اللّه)(۴).

سرية عمير بن عدى

ولما خلت من شهر رمضان خمس ليال وعلى رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة النبوية المباركة كانت سرية عمير بن عدى، إلى عصماء بنت مروان اليهودى، أُم المنذر بن المنذر، وكانت عصماء تعيب المسلمين، وتؤذى رسول اللّه (ص) وتمشى فى مجالس الأوس والخزرج وتقول شعراً تحرّض عليه، والشعر يؤثر أثره فى اظهار الضغائن واثارة الحروب آنذاك، وقد قال تعالى: (أُذن للّذين يقاتلون بأنهم ظلموا وانّ اللّه على نصرهم لقدير)(۵).

فلمّا نفّذ عمير مهمّته أتى فصلّى الصبح مع النبى (ص) بالمدينة وأخبره الخبر، فضرب رسول اللّه (ص) على كتفه وقال: هذا رجل نصر اللّه ورسوله بالغيب، أما انه لاينتطح فيها عنزان، كناية عن انه لا يتنازع من أجلها أحد، وكان كذلك.

۱ البقرة: ۱۹۰. ۲ بقرب ينبع على بعد ما يقارب تسعين كيلو متراً من المدينة.

۳ البقرة: ۲۱۷. ۴ البقرة: ۲۱۸. ۵ الحج: ۳۹.

غزوة بدر الكبرى

ولما عادت سرية عبداللّه بن جحش إلى المدينة فى شهر شعبان، أمضى رسول اللّه (ص) بعده فى المدينة بقية شهر شعبان وشيئاً من شهر رمضان، ثم وصله (ص) خبر رجوع قافلة قريش التى كان فيها أبو سفيان عائدة من الشام فخرج إليها مع أصحابه.

وكان خروجهم يوم السبت لإثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، على رأس تسعة عشر شهراً، وقيل: لثمان خلون منه.

واستخلف (ص) على المدينة أبا لبابة، وعيّن للصلاة بالناس عبداللّه بن اُم مكتوم، وخرج معه الأنصار، ولم تكن قبل ذلك خرجت معه، وكانت من غير قصد من المسلمين إليها ولا ميعاد، كما قال تعالى: (ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد)(۱).

وذلك أنّ رسول اللّه (ص) بلغه خبر العير المقبلة من الشام مع أبى سفيان فى أربعين رجلاً وفيها أموال عظيمة لقريش، وهى التى خرج إليها عند فصولها من مكة، فلم يدركها، فندب فى هذه المرة أصحابه إليها، فخف بعض أصحابه وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول اللّه (ص) يلقى حرباً.

فخرج (ص) فيهم وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وهم اثنان وثمانون من المهاجرين، ومائة وسبعون من الخزرج، وواحد وستون من الأوس، وكانوا على سبعين بعيراً يعتقبونها، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرَسان: فرساً للمقداد، وفرساً للزبير بن العوام، فكان رسول اللّه (ص) وعلى بن أبى طالب (ع) ومرثد بن أبى مرثد الغنوى على بعير.

فلما بلغ أبا سفيان مسيره (ص) أحجم عن الإقتراب من بدر واستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى بعشرة دنانير على أن يأتى قريشاً بمكة فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد اعترض لعيرهم فى أصحابه.

فنهضوا مسرعين فى قريب من ألف مقاتل، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير، ولم يتخلف أحد من أشرافهم، إلا أبا لهب وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة كان له دين بذلك، وحشدوا فيمن حولهم من العرب، ولم يتخلف من بطون قريش سوى عدى بن كعب.

وخرجوا من ديارهم كما قال اللّه تعالى: (بطراً ورئاء الناس)(۲) وقالوا: أيظنّ محمّد وأصحابه أن نكون كعير ابن الحضرمى؟ فخرجوا سراعاً وأخرجوا معهم القيان يشربون الخمور، ويضربون بالدفوف.

إلى وادى ذفران

وأقبل رسول اللّه (ص) فيمن خف معه من أصحابه قاصداً وادى ذفران، وقد عقد رايتين جعل إحداهما مع مصعب بن عمير، والاُخرى وتسمّى العقاب مع على بن أبى طالب (ع) وسلك طريقه من المدينة إلى ذفران ومنه إلى بدر على نقب المدينة، ثم على العقيق، ثم على ذى الحليفة، ثم على اولات الجيش، ثم على تربان، ثم على ملل، ثم على غميس الحمام، ثم على صخرات اليمام، ثم على السيالة، ثم على فج الروحاء، ثم على شنوكة، حتى إذا كان بعرق الظبية لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبراً.

ونزل رسول اللّه (ص) سجسج وهى بئر الروحاء، ثم ارتحل منها حتى إذا كان بالمنصرف ترك طريق مكة يساراً وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدراً، فسلك فى ناحية منها حتى جزع وادياً يقال له: رحقان، بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم علا المضيق ثم انصب به، حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسيس بن عمرو الجهنى حليف بنى ساعدة، وعدى بن أبى الزغباء الجهنى حليف بنى النجار يتجسّسان الأخبار عن أبى سفيان وعيره، ثم رحل (ص) وأخذ ذات اليمين على وادى ذفران وجزع، ثم نزل ذفران.

النبى (ص) يستشير أصحابه

ولما نزل (ص) بأصحابه ذفران أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، ونزل عليه جبرئيل فأخبره بأن العير قد أفلتت، وانّ قريشاً

قد أقبلت لمنع عيرها وأمره بالقتال.

فاستشار أصحابه فى ذلك وأخبرهم عن قريش وخروجهم إليهم، فقام المقداد بن الأسود وقال: يا رسول اللّه امض لما أمرك اللّه، فنحن معك، واللّه لاـ نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون)(٣) ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالّذى بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى برك الغماد وهو موضع باليمن لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، ولو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه معك.

فقال له رسول اللّه (ص) خيراً ودعا له بخير.

ثم قال رسول اللّه (ص): أشيروا علىَّ أيها الناس، وانما يريد الأنصار، ثم أعادها ثانية وثالثة، ففهمت الأنصار انه يعنيهم، فقام سعد بن معاذ الأنصارى وقال: لكأنّك يا رسول اللّه تريدنا؟

فقال النبى (ص): أجل.

فقال سعد: بأبى أنت واُمّى يا رسول اللّه إنّا قد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق من عند اللّه، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول اللّه لما أردت، فنحن معك، فوالذى بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعلّ اللّه يريك منّا ما تقرُّ به عينك، فسر على بركة اللّه، وصل من شئت، واقطع من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحبّ إلينا ممّا تركت.

فسرّ رسول اللّه (ص) بقول سعد، وشكره والأنصار على ذلك.

ثم قال (ص): سيروا على بركة اللّه وأبشروا، فإن اللّه قد وعدنى إحدى الطائفتين ولن يخلف اللّه وعده، واللّه لكأنّى أنظر إلى مصارع القوم، ثم ارتحل (ص) بهم ونزل قريباً من بدر.

استطلاع أخبار قريش

ولمّا نزل (ص) بأصحابه قريباً من بدر، ركب هو ورجل من أصحابه حتّى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم.

فقال: لا اُخبركما حتى تخبرانى من أنتما.

فقال له رسول اللّه (ص) إذا أخبرتنا أخبرناك.

قال: أو ذاك بذاك؟

قال: نعم.

قال: فإنه بلغنى أنّ محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا المكان الذى به رسول اللّه (ص) وبلغنى أنّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا، المكان الذى به قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟

فقال رسول اللّه (ص): نحن من ماء، ثم انصرف عنه ورجع إلى أصحابه.

فلما أمسى بعث جماعة إلى ماء بدر يلتمسون الخبر، فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بنى الحجاج وعريض بن يسار غلام بنى العاص بن سعيد فأتوا بهما فسألوهما لمن أنتما؟ ورسول اللّه (ص) قائم يصلّى.

فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء.

فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبى سفيان، فضربوهما حتى قالا إنهما لأبى سفيان فتركوهما، وذلك على عادتهم فى الجاهلية

حيث كانوا يأخذون الإعتراف بالتعذيب، فنهى الإسلام عنه نهياً باتاً وحرّمه أشد تحريم، وجعل الإعتراف المأخوذ بالتعذيب كالعدم، ولذا نرى انّ رسول اللّه (ص) انفتل من صلاته والتفت إلى أصحابه معترضاً عليهم وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما؟ صدقا واللّه، إنهما لقريش.

ثم التفت إليهما وقال: أخبرانى عن قريش.

قالا: هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى، والكثيب: التلّ من الرمل.

فقال لهما رسول اللّه (ص): كم القوم؟

قالا: كثير.

قال (ص): ما عدّتهم؟

قالا: ما ندرى.

قال (ص): كم ينحرون كل يوم؟

قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً.

قال رسول اللّه (ص): القوم ما بين التسعمائة والألف.

ثم قال (ص) لهما: فمن فيهم من رؤوس قريش؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البخترى بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدى بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبوجهل بن هشام، وأُمية بن خلف، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو.

فأقبل رسول اللّه (ص) على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

هروب أبى سفيان

وخفض أبو سفيان فلحق بساحل البحر، ولما رأى أنه قد نجا وأحرز العير كتب إلى قريش يخبرهم بهروبه وسلامة العير، فأتاهم الخبر وهم بالجحفة فهمّوا بالرجوع، فقال أبوجهل: واللّه لانرجع حتى نقدم بدراً فنقيم به، فننحر الإبل ونطعم من حضرنا من العرب الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فتخافنا بعد ذلك.

وأشار الأخنس بن شريق عليهم بالرجوع فعصوه، فرجع هو وبنو زهرة، فلم يشهد بدراً زهرى قط، فاغتبطت بنو زهرة بعد برأى الأخنس، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً، وكان حليفاً لهم.

ليلة بدر

ولما كانت ليلة بدر وهى ليلة السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية من الهجرة المباركة انتدب رسول اللّه (ص) أصحابه، وقد نزل بهم قريباً من بدر إلى الماء فسكتوا وأحجموا عن ذلك، فانتدب علياً (ع) فخرج، وكانت ليلة باردة ذات ريح وظلمة، فخرج (ع) بقربته، فلما كان إلى القليب لم يجد دلواً، فنزل فى الجبّ تلك الساعة فملأ قربته ثم أقبل فاستقبلته ريح شديدة، فجلس حتى مضت، ثم قام، ثم مرت به اُخرى، فجلس حتى مضت، ثم قام، ثم مرت به اُخرى، فجلس حتى مضت، ثم قام، فلما جاء إلى النبى (ص) قال له: ما حبسك يا أبا الحسن؟

قال: لقيت ريحاً، ثم ريحاً، ثم ريحاً شديدة، فأصابتنى قشعريرة.

فقال: أتدرى ما كان ذاك يا على؟ كان ذلك جبرئيل فى ألف من الملائكة، وقد سلّم عليك وسلّموا، ثم مرّ ميكائيل فى ألف من

الملائكة فسلّم عليك وسلّموا، ثم مرّ إسرافيل فی ألف من الملائكة فسلّم عليك وسلّموا، وهم مدد لنا.

وإليه أشار السيد الحميری فی قصيدته المعروفة يمدح بها علياً (ع) ويقول:

اقسم باللّه وآلائه والمرء عما قال مسؤول

ان علی بن أبی طالب علی التقی والبرّ مجبول

كان إذا الحرب مرتها القنا وأحجمت عنها البهاليل

يمشی إلی القِرن وفی كفّه أبيض ماضی الحدّ مصقول

مشی العفرنا بين اشباله أبرزه للقنص الغيل

ذاك الذی سلم فی ليلة عليه ميكال وجبريل

ميكال فی ألف وجبريل فی ألف ويتلوهم سرافيل

ليلة بدر مدداً اُنزلوا كأنهم طير أبابيل

التشاور يهدی إلی التفوّق

ثم سار رسول اللّه (ص) حتی نزل مياه بدر، وكانت منطقة بدر واسعة، جنوبها العدوة القصوی، وشمالها العدوة الدنيا، وفيها عدّة آبار وعيون للماء، تنزل فيها القوافل.

فسبق رسول اللّه (ص) قريشاً إلی بدر، ومنع قريشاً من السبق إليه مطر عظيم أرسله اللّه تعالی مما يليهم ولم يصب منه المسلمين إلا ما لبّد لهم دهس الوادی وأعانهم.

ولما نزل (ص) مياه بدر مما يلی المدينة أتاه الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح فقال: يا رسول اللّه، أرأيت هذا المنزل هو منزل أنزلكه اللّه ليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّر عنه، أم هو الرأی فی الحرب؟

فقال (ص) فی جوابه: بل هو الرأی.

فقال: يا رسول اللّه (ص) إنّ هذا ليس بمنزل، فانهض بنا حتی نأتی أدنی ماء من القوم فننزله ونغوّر ما وراءه من القلب، ثم نبنی عليه حوضاً فنملأه فيكون الماء فی متناولنا فنشرب ونروی.

فاستحسن رسول اللّه (ص) هذا الرأی وفعله، فكان سبباً من أسباب تفوّقهم علی المشركين.

ومشی رسول اللّه (ص) بعد أن استقرّ هو وأصحابه فی مواقعهم علی موضع الوقعة فعرض علی أصحابه مصارع رؤوس الكفر من قريش مصرعاً مصرعاً وهو يقول: هذا مصرع فلان إن شاء اللّه، وهذا مصرع فلان إن شاء اللّه، وهكذا.

الجمعان يلتقيان

وفی صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة انحدر المشركون من وراء الكثيب إلی وادی بدر، فلما رآهم رسول اللّه (ص) ينحدرون من وراء الكثيب الذی جاءوا منه إلی الوادی رفع يديه بالدعاء وقال:

(اللّهمّ هذه قريش قد أقبلت بخُيَلانها وفخرها، تحادّك وتكذّب رسولك، اللّهمّ فنصرك الذی وعدتنی به، اللّهمّ أحِنهم الغداة) ثم عبّأ رسول اللّه (ص) أصحابه وقال: غضّوا أبصاركم، ولا تبدأوهم بالقتال، ولا يتكلّمن أحد.

فلمّا نزل المشركون الوادی أقبل نفر منهم حتی وردوا حوض رسول اللّه (ص) فأراد بعض أن يمنعوهم. فقال رسول اللّه (ص): دعوهم، فشربوا منه.

وقال أبو جهل لما رأی قلّة المسلمين وبساطة أسلحتهم: ما هم إلا أكلة رأس، لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد.

فقال عتبة بن ربيعة: أترى لهم كميناً ومدداً؟

فبعثوا عمرو بن وهب الجمحى وقالوا له: احزر لنا أصحاب محمد، وكان فارساً شجاعاً، فجال بفرسه حول العسكر، ثم صعد فى الوادى وصوّب ثم رجع إلى قريش فقال: ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصونه، ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد، فضـرب فى بطن الوادى حتى أبعـد فلم ير شـيئاً، فرجع اليهم فقـال: ما رأيت شـيئاً، ولكنى قـد رأيت يا معشـر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضـح يثرب تحمـل الموت النـاقع، أمـا ترونهم خرس لا يتكلّمون، يتلمضون تلمض الأفاعى، انهم قوم ليس لهم منعـة إلا سـيوفهم، واللّه ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فارتأوا رأيكم.

فلما سـمع حكيم بن حزام ذلك مشـى فى الناس فأتى عتبـة بن ربيعة فأشار عليه أن يرجع الناس ولا يكون بينهم حرب، فوافقه عتبة بن ربيعة، وقام عتبة فى الناس خطيباً وأشار عليهم بالرجوع، فأبى أبو جهل ذلك وساعده عليه المشركون.

بوادر الهزيمة فى المشركين

ولما كان من دأب الإسـلام وسـيرة رسوله العظيم (ص) وأهل بيته المعصومين (عليهم السلام)، أن لا يبدأوا أحداً بالقتال، لذلك بعث رسول اللّه (ص) إلى قريش من يقول لهم: يا معشـر قريش ما أحد أبغض إلىَّ من أن أبدأ بكم، فخلّونى والعرب، فإن أكُ صادقاً فأنتم أعلى بى عيناً، وإن أكُ كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمرى فارجعوا.

فقال عتبة: واللّه ما أفلح قوم قطّ ردّوا هذا.

ثم ركـب جملاًـ له أحمر، فنظر إليه رسـول اللّه (ص) يجـول فى العسـكر وينهى عن القتـال، فقـال (ص): إن يكن عنـد أحـد خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا.

فأقبل عتبـة يقول: يا معشـر قريش اجتمعوا واسـمعوا، ثم خطبهم فقال: يمن مع رحب، ورحب مع يمن، يا معشـر قريش أطيعونى اليوم، واعصونى الدهر، وارجعوا إلى مكة واشـربوا الخمور، وعانقوا الحور، فإنّ محمّداً له إلّ وذمّة وهو ابن عمّكم، فارجعوا ولا تردّوا رأيى، وانما تطالبون محمّداً بالعير التى أخذها بنخلة ودم ابن الحضرمى وهو حليفى وعلىَّ عقله.

فلما سـمع أبوجهل ذلك غاظه وقال: ان عتبة أطول الناس لساناً وأبلغهم فى الكلام، ولئن رجعت قريش بقوله ليكوننّ سـيّد قريش إلى آخر الدهر.

ثم قال: يا عتبة نظرت إلى سيوف بنى عبدالمطلب وجبنت، وتأمر الناس بالرجوع؟

فأخـذه عتبـة بشـعره، وكـان أبوجهـل على فرس، فقـال النـاس: يقتله، فعرقب فرسه فقـال: أمثلى يجبن؟ وسـتعلم قريش اليوم أيّنا الألئم والأجبن، وأينا المفسد لقومه، لايمشى إلا أنا وأنت إلى الموت عياناً، ثم أخذه بشعره يجرّه.

فاجتمع الناس إليه وقالوا: يا أبا الوليد لاتفتّ فى اعضاد الناس تنهى عن شيء تكون أوله، فخلصوا أباجهل من يده.

فبعث من فوره إلى عـامر أخى عمرو بن الحضـرمى الـذى قتـل بنخلـة وقـال له: هـذا حليفك عتبـة يريـد أن يرجع بالناس، فقم وانشـد خفرتك ودم أخيك.

فقام عامر وكشف عن رأسه وصاح: واعمراه، فهاج الناس وأجمعوا على الحرب.

الحرب: القرار الأخير

ولما انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه، نظر عتبـة إلى أخيه شـيبة وإلى ابنه الوليـد وقال لهما: قوما ثم لبس درعه وطلبوا له بيضة تسع رأسـه فلم يجـدوها لعظم هامته، فاعتجر بعمامتين ثم أخـذ سـيفه وتقـدّم هو وأخوه وابنه حتى انفصـلوا من الصف ونادوا: ليخرج إلينا أكفاؤنا من قريش.

فخرج إليهم فتية من الأنصار وهم: عوف، ومعوذ، ابنا حارث واُمهما عفراء وعبداللّه بن رواحة.

فقالوا: من أنتم؟

قالوا: رهط من الأنصار.

قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم: يا محمّد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فقال رسول اللّه (ص): قم يا عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان له سبعون سنة، وقم يا حمزة بن عبدالمطلب، وقم يا على بن أبى طالب، وكان أصغرهم سنّاً، فقاموا بين يدى رسول اللّه (ص) بسيوفهم.

فقال لهم: اطلبوا بحقّكم الذى جعله اللّه لكم، فقد جاءت قريش بخيلائها وفخرها تريد أن تطفىء نور اللّه، (ويأبى اللّه إلاّ أن يتمّ نوره)(۴).

ثم قال: يا عبيدة عليك بعتبة، ويا حمزة عليك بشيبة، ويا على عليك بالوليد بن عتبة.

فمرّوا حتى انتهوا إلى القوم.

فقال عتبة: من أنتم انتسبوا حتى نعرفكم؟

فعرّفوا أنفسهم.

فقالوا: أنتم أكفاء كرام.

فبارز عبيدة وكان أسنَّ القوم عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز على (ع) الوليد.

فأمّا حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله.

وأمّا على (ع) فلم يمهل الوليد أن قتله.

واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه، فكرّ حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فدفّفا عليه، واحتملا صاحبهما حتى أتيا به رسول اللّه (ص) وبه رمق، فلما نظر إليه رسول اللّه (ص) استعبر.

فقال عبيدة: بأبى أنت واُمّى يا رسول اللّه ألستُ شهيداً؟

فقال (ص): بلى أنت أول شهيد من أهل بيتى.

فقال: أما لو كان عمك حياً لعلم انى أولى بما قال.

قال: وأىّ أعمامى تعنى؟

قال: أبو طالب (ع) حيث يقول:

كذبتم وبيت اللّه نبزى محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقال له رسول اللّه (ص): أما ترى ابنه كالليث العادى بين يدى اللّه ورسوله، وابنه الآخر فى جهاد اللّه بأرض الحبشة؟

جنود الرحمن وجنود الشيطان يتقابلان

واصطف الجيشان وجاء إبليس إلى قريش فى صورة سراقة بن مالك فقال لهم: أنا جار لكم ادفعوا إلىَّ رايتكم، فدفعوها إليه وجاء بشياطينه يهول بهم على أصحاب رسول اللّه (ص) وتزاحف الناس على أثره ودنا بعضهم من بعض.

فأمر رسول اللّه (ص) أصحابه أن لايحملوا حتى يأمرهم، وأن يكتفوا برمى القوم بالنبال حتى لايقتربوا منهم، ثم رفع يده إلى السماء يناشد ربّه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول:

(اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تعبد فى الأرض أبداً، وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد).

فأنزل اللّه تعالى: (إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم انّى ممدّكم بألف من الملائكة مردفين)(۵) فأمدّه اللّه بالملائكة، حتى سمع الناس قعقعة السلاح من الجوّ، وقائل يقول: اقدم حيزوم، اقدم حيزوم، وكان ذلك جبرئيل فى ألف من الملائكة مردفين، فلما نظر إبليس إلى جبرئيل تراجع ونكص على عقبيه ورمى باللواء، فأخذ منبه بن الحجاج بمجامع ثوبه ثم قال: ويلك يا سراقة تفتّ فى أعضاد الناس، فركله إبليس ركلة فى صدره وقال: انى أرى ما لاترون، حيث انه كان يرى جبرئيل يلاحقه بحربة معه يريد أن يطعنه بها.

المشركون ينهزمون

ثم حرض رسول اللّه (ص) الناس على القتال وقال: والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله اللّه الجنّة.

فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة، وفى يده تمرات يأكلهنّ: بخ بخ، فما بينى وبين أنْ أدخل الجنّة إلاّ أن يقتلنى هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل (رحمه اللّه).

ثم إنّ رسول اللّه (ص) أخذ حفنة من الحصى فاستقبل بها قريشاً ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه فقال: شدوا، فكانت الهزيمة.

فقال رسول اللّه (ص) وقد رفع يديه إلى السماء: (اللّهمّ لا يفلتنّ فرعون هذه الاُمّة أبو جهل بن هشام) فقتل فيها مع من قتل من صناديد قريش، واُسر فيها من اُسر من رؤوسهم، فكان الذين قتلوا سبعين، والذين اُسروا سبعين أيضاً.

مصير أبى جهل

روى عن بعض من شهد بدر انه قال: إنى لواقف يوم بدر فى الصف، إذ التفتّ، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السنّ، فكأنّى لم آمن بمكانهما، إذ قال لى أحدهما سرّاً من صاحبه: يا عم أرنى أباجهل.

فقلت: يا ابن أخى فما تصنع به؟

قال: اُخبرت أنه يسبّ رسول اللّه (ص) ثم أردف يقول: والذى نفسى بيده لئن رأيته لايفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منّا، فتعجّبت لذلك.

قال: وغمزنى الآخر فقال لى مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذى تسألانى عنه.

قال: فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول اللّه (ص).

فقال (ص): أيّكما قتله؟

فقال كل واحد منهما: أنا قتلته.

قال: هل مسحتما سيفيكما؟

فقالا: لا.

فنظر رسول اللّه (ص) إلى السيفين فقال: كلاّ كلاكما قتله.

وقضى رسول اللّه (ص) بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء.

وفى رواية: ان معاذ بن عفراء ضرب أبا جهل هو وأخوه عوف بن الحارث حتى أثبتاه، فعطف عليهما فقتلهما، ثم وقع صريعاً، فدفّف عليه ابن مسعود وذلك كما قال: انتهيت إلى أبى جهل وهو يتشحّط فى دمه فقلت: الحمد للّه الذى أخزاك.

فرفع رأسه فقال: انما أخزى عبد ام عبد، أخبرنى لمن الدائرة اليوم؟

قلت: للّه ولرسوله (ص)، وانى قاتلك، ووضعت رجلى على عاتقه.

فقال: لقد ارتقيت مرتقاً صعباً، أما انه ليس واللاّت والعزّى شيء أشدّ من قتلك إيّاى يا رويعىّ الغنم، ألا تولّى قتلى رجل من المطّلبين أو رجل من الأحلاف، فاقتلعت بيضة كانت على رأسه فقتلته وأخذت رأسه وجئت به إلى رسول اللّه (ص) فقلت: يا رسول اللّه البشرى هذا رأس أبى جهل، فسجد للّه شكراً.

لما ألقت الحرب أوزارها

ولما انقضت الحرب أقبل رسول اللّه (ص) حتى وقف على قتلى المشركين فقال: جزاكم اللّه من عصابة شراً، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيّكم، كذّبتمونى وصدّقنى الناس، وخذلتمونى ونصرنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس.

ثم التفت (ص) إلى أبى جهل فقال: ان هذا أعتى على اللّه من فرعون، انّ فرعون لما أيقن بالهلاك وحّد اللّه، وانّ هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللاّت والعزّى.

ثم أمر بهم فأُلقوا فى القليب، فلما اُلقوا فيه وقف عليهم وقال: (يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا اُمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام، وذكر أهل القليب واحداً واحداً، ثم قال: هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً؟ فإنّى قد وجدتُ ما وعدنى ربّى حقاً).

فقال رجل من الصحابة: أتكلّم قوماً موتى؟

فقال (ص): (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يُجيبونى).

ثم دفنوا شهداء المسلمين وكانوا تسعة رجال فيهم سعد بن خيثمة، وكان من النقباء بعد أن صلّوا عليهم، ثم صلّى رسول اللّه (ص) بالناس صلاة العصر ورحلوا من بدر.

فى طريق العودة

ولما غادر رسول اللّه (ص) بأصحابه منطقة بدر متّجهاً نحو المدينة حمل معه الأُسارى من المشركين وفيهم عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث، وحمل أيضاً معه الغنائم التى اغتنموها، والنفل الذى أُصيب من المشركين، وجعل على النفل عبداللّه بن كعب بن عمرو بن عوف المازنى من بنى النجار، حتى إذا كان بالصفراء قسم الغنائم بين أصحابه بالسويّة وادّخر سهم الشهداء ليُسلّمها إلى ذويهم.

ثم دخل رسول اللّه (ص) المدينة مع أصحابه مؤيداً مظفراً منصوراً قد هاب جانب المسلمين كل عدوّ لهم بالمدينة وحولها، كما وأسلم بشر كثير من أهل المدينة ممّن لم يكن أسلم بعد، وحينئذ دخل عبداللّه بن أُبىّ رأس المنافقين وأصحابه فى الإسلام.

مع أسرى بدر

ثم انّ رسول اللّه (ص) حين أقبل بالأُسارى فرّقهم بين أصحابه وقال: استوصوا بالأُسارى خيراً..

فكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأُمّه فى الأُسارى، وكان يحمل أحد ألوية قريش، وكان يقول بعد أن أُطلق سراحه بالفداء: كنتُ أسيراً فى أيدى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداءهم أو عشاءهم خصّونى بالخبز، وأكلوا التمر، والخبز عندهم قليل، والتمر زادهم، وذلك لوصية رسول اللّه (ص) بنا.

وما تقع فى يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحنى بها. فأستحى فأردها عليهم، فيردها علىّ ما يمسّها، كما انهم كانوا لقلّة مراكبهم يحملوننا على ما عندهم من مركب ويمشون هم بأنفسهم.

مع العباس بن عبد المطلب

ولما جنّهم الليل وولى بعض الصحابة وثاق الأسرى فشدّ وثاق العباس، فسمعه النبى (ص) وهو يئن فلم يأخذه (ص) النوم، فبلغ الأنصار فأطلقوا العباس، فكان الأنصار فهموا رضاء رسول اللّه (ص) بفك وثاقه، وسألوه أن يتركوا له الفداء، فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن اُختنا عباس فداءه.

وفى حديث ابن عباس: انه (ص) قال: يا عباس افد نفسك وابنى أخويك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمر.

فقال: إنّى كنتُ مسلماً، ولكن القوم استكرهونى.

قال: اللّه أعلم بما تقول، إن يكن ما تقول حقاً فاللّه يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا.

قال: ما ذاك عندى يا رسول اللّه.

قال: فأين المال الذى دفنته عند اُم الفضل فقلت: إن أصبت فالمال الذى دفنته للفضل وعبداللّه وقثم.

قال: واللّه يا رسول اللّه إنى لأعلم أنك رسول اللّه، انّ هذا شىء ما علمه أحد غيرى وغير اُم الفضل، فاحسب لى يا رسول اللّه ما أصبتم منى عشرين أوقية من مال كان معى.

قال رسول اللّه (ص): ذاك شىء أعطانا اللّه منك، ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه، وأنزل اللّه فيه: (يا أيّها النبىّ قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم اللّه فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم)(۶).

بين المنّ والفداء

وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألفى درهم إلى ألف درهم، إلى قوم لامال لهم منّ عليهم رسول اللّه (ص).

وأسر رسول اللّه (ص) يوم بدر سبعين أسيراً، وكان يفاديهم على قدر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لايكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلّمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه.

وممّن منّ عليه رسول اللّه (ص): المطلب بن حنطب، وصيفى بن أبى رفاعة، وأبو عزة الجمحى، وأخذ عليه أن لايظاهر عليه أحداً، وكان محتاجاً ذابنات، فقال: يا رسول اللّه لقد عرفت مالى من مال، وإنى لذو حاجة وذو عيال، فامنن علىَّ، فمنّ عليه رسول اللّه (ص) وأخذ عليه أن لايظاهر عليه أحداً.

النبى (ص) يستوهب فداء صهره

وممّن منّ عليه رسول اللّه (ص) أبو العاص بن الربيع زوج زينب ابنته بعد أن بعثت زينب بنت رسول اللّه (ص) بفدائه، وكان فيما بعثت به: قلادة كانت خديجة اُمّها أهدتها لها ليلة زفافها، فلمّا رأى رسول اللّه (ص) القلادة تذكّر زوجته الوفيّة خديجة(ع) فرقّ لها وبكى.

ثم التفت (ص) إلى المسلمين وقال: إن رأيتم أن تطلقوا سراح أسيرها وتردّوا عليها ما بعثت به من الفداء فافعلوا.

أى: انه (ص) لم يفرض رأيه عليهم مع ان القرآن يقول: (النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم)(۷) وبذلك أعرب عن حرية الإسلام ورسم سياسته الحكيمة.

فقال المسلمون: نعم يا رسول اللّه نفديك بأنفسنا وأموالنا، فردّوا عليها ما بعثت به، وأطلقوا سراح أبى العاص بغير فداء، فشكرهم

رسول اللّه (ص) على ذلك.

هذا، وكان رسول اللّه (ص) قد أخذ عليه، أو انه وعد رسول اللّه (ص) أن يخلى سبيل زينب، فلما خرج أبوالعاص إلى مكة بعث رسول اللّه (ص) زيد بن حارثة ورجلاً ـ من الأنصار فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمرّ بكما زينب فتصحباها حتى تأتيانى بها. فخرجا نحو مكة، وذلك بعد بدر بشهر.

فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فتجهّزت وخرجت، فتعرّض لها هبار بن الأسود وروّعها بالرمح وهى فى الهودج، وكانت حاملاً، فألقت ما فى بطنها، فأمر رسول اللّه (ص) بقتله، فلم يظفروا به حتى إذا كان يوم الفتح هرب ثم قدم مختفياً، فلما مثل بين يدى رسول اللّه (ص) أسلم، فقبل (ص) اسلامه وعفا عنه.

النهى عن التعذيب والمُثلة

وقدم مكرز بن حفص فى فداء سهيل بن عمرو، وكان الذى أسره مالك بن الدخشم، وفداه بأربعة آلاف درهم.

وذكر ابن اسحاق أنّ رجلاً ـ من الصحابة قال: يا رسول اللّه دعنى انزع ثنيتى سهيل بن عمرو يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً.

فقال رسول اللّه (ص): لا اُمثل به، فيمثل اللّه بى وإن كنت نبياً.

وفى حديث: انّ رسول اللّه (ص) قال فى جوابه: انه عسى أن يقوم مقاماً لا نذمه.

بؤرة التآمر والبخل

اشترك فى بدر لأبى سفيان ولدان: حنظلة وعمرو ابنا أبى سفيان، أما حنظلة فقد قتل، وأما عمرو فقد وقع أسيراً فى يدى رسول اللّه (ص).

فقيل لأبى سفيان: افد عمرواً ابنك.

فقال: يجمع علىّ دمى ومالى، قتلوا حنظلة، واُفدى عمرواً، دعوه فى أيديهم يمسكونه ما بدا لهم.

فبينما هو كذلك إذ خرج سعد بن النعمان أخو بنى عمرو بن عوف معتمراً، فعدا عليه أبوسفيان فحبسه بابنه عمرو، وقد كان عهد قريش لا يتعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير.

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول اللّه (ص) فأخبروه خبره وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان، فيفكوا به صاحبهم، ففعل رسول اللّه (ص)، فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد.

المشركون وأنباء الحرب

وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش: الحيسمان بن عبداللّه الخزاعى، فقالوا: ما وراءك؟

قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبوالحكم بن هشام، واُمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبوالبخترى بن هشام.

فلما جعل يعدّ أشراف قريش قال صفوان بن اُمية وهو قاعد فى الحجر مستنكراً عليه ذلك: واللّه إن يعقل هذا فاسألوه عنّى.

قالوا: ما فعل صفوان بن اُمية؟

قال:ها هو ذا جالس فى الحجر، وقد واللّه رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

مصیر أبی لهب

وفی حدیث أبی رافع وکان غلاماً للعبّاس انه قال: لما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر سررنا بذلک، لأنا کنا قد أسلمنا من قبل، وکنت جالساً فی حجرة زمزم أنحت السهام وأصنعها، وعندی اُم الفضل جالسة، إذ أقبل أبولهب وهو یجرّ رجلیه بشرّ حتی جلس.

فبینا هو جالس إذ قال الناس: هذا ابن أخیک أبوسفیان بن الحارث بن عبدالمطلب قدم من بدر.

قال: فقال أبو لهب: هلم إلیَّ، فعندک لعمری الخبر.

قال: فجلس إلیه والناس قیام علیه، فقال: یا ابن أخی، أخبرنی کیف کان أمر الناس؟

قال: واللّه ما هو إلاـ أن لقینا القوم فمنحناهم أکتافنا یقتلوننا کیف شاءوا، ویأسروننا کیف شاءوا، وأیم اللّه مع ذلک ما لمت الناس، لقینا رجالاً بیضاً علی خیل بلق بین السماء والأرض، واللّه ما تبقی شیئاً ولا یقوم لها شیء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة ثم قلت وکان الإسلام قد دخلنا وسرّنا ذلک: تلک واللّه الملائکة.

فرفع أبو لهب یده فضربنی فی وجهی ضربة شدیدة.

فقامت اُم الفضل إلی عمود فضربت به فی رأس أبی لهب وقالت: استضعفته أن غاب عنه سیّده؟

قال: فواللّه ما عاش أبو لهب بعدها إلا سبع لیال حتی رماه اللّه بالعدسة وهی قرحة تتشاءم بها العرب فتباعد عنه بنوه حتی هلک، وبقی ثلاثة أیام لا یقرب أحد جنازته، ولا یحاول دفنه، فلما خافوا السبة فی ترکه حفروا له ثم دفعوه بعود فی حفرته وقذفوه بالحجارة من بعید حتی واروه.

وکان فراغ رسول اللّه (ص) من بدر فی عقب رمضان وأوائل شوّال، وفی أول شوّال صلّی (ص) صلاة الفطر.

۱ الأنفال: ۴۲. ۲ الأنفال: ۴۷. ۳ المائدة: ۲۴.

۴ التوبة: ۳۲. ۵ الأنفال: ۹. ۶ الأنفال: ۷۰.

۷ الأحزاب: ۶.

غزوة بنی سُلیم

وبعد بدر بسبعة أیام، خرج رسول اللّه (ص) فی ثلاثمائة من الصحابة یرید بنی سُلیم، حیث کانوا یعیثون فی الأرض فساداً ویستعدّون لشنّ هجوم علی المدینة.

فبلغ (ص) ماء یقال له: قرقرة الکدر، وهی أرض ملساء، والکُدر: طیر فی لونها کدرة، فأقام بها ثلاث لیال وقیل: عشراً، فلم یلق حرباً، وذلک بعد أن استخلف علی المدینة سباع بن عرفطة الغفاری، وقیل: ابن اُم مکتوم، وحمل اللواء علی بن أبی طالب (ع)، وقیل: إنه أصاب لهم نعماً یزید علی خمسمائة وغلاماً یقال له یسار فأعتقه، ورجع ولم یلق کیداً.

وکانت هذه الغزوة من غزواته التأدیبیة.

غزوة بنی القینقاع

ثم کانت غزوة بنی قینقاع بطن من یهود المدینة فی یوم السبت للنصف من شوال علی رأس عشرین شهراً من الهجرة النبویة المبارکة، وکانوا أول من نقض العهد، فجمعهم رسول اللّه (ص) فی سوق بنی قینقاع وقال لهم:

(یا معشر الیهود احذروا من اللّه مثل ما نزل بقریش من النقمة وأسلموا، فإنکم قد عرفتم انی نبی مرسل تجدون ذلک فی کتابکم وعهد اللّه إلیکم).

فقالوا: يا محمد لا يغرنّك انك لقيت قومك فأصبت منهم، ولا علم لهم بالحرب، فإنا واللّه لو حاربناك لعلمت انا خلافهم.

فكادت تقع بينهم المناجزة فنزل فيهم: (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنّم وبئس المهاد، قد كان لكم آية فى فئتين التقتا)(...۱) إلى آخر الآية.

فبينما هم على ما أظهروه من العداوة ونبذ العهد إذ جاءت امرأة رجل من الأنصار فجلست إلى صائغ فى حلى لها، فجاء أحد بنى قينقاع فعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهى لا تعلم، فلما قامت انكشفت فصاحت، فضحكوا منها، فاتبعه رجل من المسلمين فقتله، فاجتمع عليه بنو قينقاع فقتلوه ونبذوا عهدهم ووقع الشر بين المسلمين وبين بنى قينقاع، فنزل فيهم: (وامّا تخافنّ من قوم خيانة، فانبذ إليهم على سواء انّ اللّه لا يحبّ الخائنين)(۲).

فسار إليهم النبى (ص) وحاصرهم خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة وكان اللواء بيد حمزة بن عبدالمطلب، وكان أبيض، فقذف اللّه فى قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول اللّه (ص) على ان له أموالهم، وان لهم النساء والذرّية.

فأمر (ص) المنذر بن قدامة بتكتيفهم، فتوسّط لهم عبداللّه بن اُبىّ وألحّ عليه من أجلهم.

فقال (ص): خلوهم، وأمر أن يجلوا من المدينة وتركهم من القتل، فأجلاهم محمد بن سلمة الأنصارى، وقيل: عبادة بن الصامت، فلحقوا بأذرعات الشام بنسائهم وذراريهم فلم يلبثوا إلاّ ـ قليلاً ـ حتى هلكوا، وأما أموالهم فخمّسها رسول اللّه (ص) وقسّم الباقى بين أصحابه.

غزوة السويق

ولما رجع رسول اللّه (ص) من غزوة بنى القينقاع، أقام بالمدينة بقية شوال، وذى القعدة، وفادى فى إقامته جلّ اُسارى بدر من قريش، ثم كانت غزوة السويق.

وذلك ان أبا سفيان بن حرب كان نذر أن لا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً (ص) فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبرّ نذره حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له: (نبت) وكان من المدينة على بريد أو نحوه.

ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل، فأتى حُيى بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخاف.

فانصرف منه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بنى النضير فى زمانه ذلك، وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطن له من خبر الناس.

ثم خرج فى عقب ليلته حتى أتى ناحية يقال لها: (العريض) فوجد فيها رجلًا من الأنصار وحليفاً له فى حرث لهما فقتلهما، ثم حرق بيتاً وحرثاً لهم، ثم ولّى هارباً خوفاً من ملاحقة المسلمين، وقد رأى فيما فعله براً لنذره.

فلما سمع رسول اللّه (ص) بذلك انتدب أصحابه وخرج فى طلبهم حتى بلغ قرقرة الكُدر، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، وطرحوا كثيراً من أزوادهم، كالسويق وغيره، يتخففون منها للنجاء، فأخذها المسلمون، فسميت غزوة السويق.

فقال المسلمون: يا رسول اللّه أتطمع بأن تكون لنا غزوة؟ قال: نعم.

غزوة ذى أمَر

ولما رجع رسول اللّه (ص) من غزوة السويق، أقام بالمدينة بقية ذى الحجة أو قريباً منها، ثم غزا نجداً يريد غطفان.

وذلك لأن جمعاً من غطفان تجمّعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف المدينة ويغيروا عليها، وقد جمعهم رجل يقال له: دعثور بن الحارث المحاربى.

فندب رسول اللّه (ص) المسلمين وخرج بهم فى أربعمائة وخمسين رجلًا، ومعهم أفراس.

فلما سـمعوا بمهبطه هربوا في رؤوس الجبال، فأصاب المسـلمون رجلًا منهم يقال له: جبار من بنی ثعلبهٔ، فأدخل على رسول اللّه (ص)، فدعاه إلى الإسلام فأسلم وضمه إلى بلال.

وأصـاب النبـيّ (ص) مطر فبـلّ ثـوبه، فجعـل وادى أمر بينه وبين أصـحابه، ثم نزع ثيـابه ونشـرها على شـجرهٔ لتجـفّ، واضـطجع تحتها وغطفان ينظرون إليه، فقالوا لـدعثور وكان أشدّهم فتكاً: قد انفرد محمد فعليك به، فأقبل ومعه سـيف صارم حتى قام على رأسه (ص) فقال: من يدفعك منّى اليوم؟

فقال (ص): اللّه، ودفع جبرئيل فی صدره فوقع السيف من يده، فأخذه النبی (ص) وقام على رأسه وقال: من يمنعك منّی؟

قـال: لاـ أحـد، وأنا أشـهد أن لا إله إلاّ اللّه وأنّك محمـد رسول اللّه، ثم قال: واللّه لا أكثر عليك جمعاً أبـداً، فأعطاه رسول اللّه (ص) سيفه.

وعلى رواية: قال (ص) له: من يمنعك منّی؟ فقال: عفوك يا محمّد، فأعطاه (ص) سيفه، فأسلم الرجل.

ثم أتی قومه فدعاهم إلى الإسـلام، فأسلم منهم ناس كثير، وأنزل اللّه تعالى: (يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمهٔ اللّه عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم) الآيهٔ.

سريّهٔ محمد بن مسلمهٔ

ثم انه لمـا انتصـر المسـلمون فی غزوهٔ بـدر على أعـدائهم المشـركين وأسـروا منهم سـبعين، وقتلوا من صـناديدهم ورؤوسـهم سـبعين، وألقوهم فی القليب، قدم زيد بن حارثهٔ بشيراً إلى أهل السافلهٔ وعبداللّه بن رواحهٔ إلى أهل العاليهٔ يبشران بالفتح.

فقال كعب بن الأشـرف وهو من نبهان من طی وكانت اُمه من بنی النضـير: أترون محمداً قتل هؤلاء؟ ان هؤلاء أشراف العرب وملوك النـاس، واللّه إن كـان محمـد أصـاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها، فلما أيقن كعب الخبر خرج حتى قـدم مكـهٔ فنزل على المطلب بن أبی وداعـهٔ السـهمی، وجعـل يحرّض على رسول اللّه (ص) وينشـد الأشـعار ويبكی على أصـحاب القليب، ويشـبّب بنسـاء المسلمين حتى آذاهم، ثم انبعث يهجو رسول اللّه (ص) والمسلمين، ويمدح عدوّهم ويحرضهم عليهم.

فقال له أبو سفيان والمشركون: أديننا أحبّ إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأیّ ديننا أهدى فی رأيك وأقرب إلى الحق؟

فقال: أنتم أهدى منهم سبيلًا وأفضل.

ثم تحالف معهم وتعاقد على أن تكون كلمتهم واحدهٔ على محمد (ص) وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبهٔ.

ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينهٔ فنزل جبرئيل (ع) وأخبر النبی (ص) بما تعاقد عليه كعب وأبوسفيان وأمره بقتل كعب.

فقال رسول اللّه (ص) وقـد عاد كعب إلى المدينهٔ: من لنا بابن الأشـرف، فإنه قد آذى اللّه ورسوله، وقد اسـتعلن بعداوتنا وهجائنا، وقد خرج إلى قريش فـأجمعهم على قتالنـا، وقـد أخبرنی اللّه بـذلك، ثم قـدم بـأخبث مـا كـان ينتظر قريشـاً تقـدم عليه فيقتلنا، ثم قرأ على المسلمين ما أنزل اللّه فيه: (ألم تر إلى الّذين اُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلًا، اُولئك الذين لعنهم اللّه ومن يلعن اللّه فلن تجد له نصيراً)(۳).

فقام محمد بن مسلمهٔ فقال: يا رسول اللّه أتأذن لی أن أقتله؟

قال: نعم، إنّ اللّه قد أذن فی قتله.

فجاءه ليلًا ومعه أبو نائلهٔ وهو أخو كعب من الرضاعهٔ، فدعاه إلى الحصن، فنزل إليهم، فقتلوه، ثم أتوا النبیّ (ص) فأخبروه بقتله، وكفى اللّه المسلمين شرّ حرب كان يريد كعب ايقادها، وكان ذلك لأربع عشرهٔ ليلهٔ مضت من ربيع الأول.

سريهٔ زيد بن حارثهٔ

ثم بعث رسول اللّه (ص) زيـد بن حارثـة فى مائـة راكب إلى (القَرْدَة) (بالقاف المفتوحة والراء الساكنة) اسم ماء من مياه نجد، وذلك بعـد رجوعه من بـدر إلى المدينـة بستةأشـهر، أى أوائـل ربيع الثانى، وقيل: أوائل جمادى الآخرة على رأس سـبعة وعشـرين شـهراً من الهجرة النبوية المباركة.

وسـببه ان قريشـاً خـافوا من طرقهم التى كـانوا يسـلكون إلى الشام حين كان من وقعـة بـدر ما كان، فسـلكوا طريق العراق، وكان فيهم أبوسـفيان بن حرب ومعهم فضة كثيرة، وكانوا قد اسـتأجروا رجلًا من بكر بن وائل يقال له: فرات بن حيّان يدلّهم على الطريق، فلقيهم زيد ومن معه على ماء يقال له: (القَرْدَة)، فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزته الرجال هرباً، فقدم بها على رسول اللّه (ص) مع أسـير أو أسيرين كان أحدهم فرات بن حيان، فأسلم فترك، وأما الأموال فخمست وقسمت بقيّتها بين أهل السريّة.

وكانت هذه حملات تأديبية، ولكى يقابل قريش بالمثل حيث ضربوا على المدينة حصاراً اقتصادياً كما أشرنا إليه سابقاً.

سرية عبداللّه بن عتيک

لما قتل المسـلمون فى سـرية محمد بن مسلمة كعب بن الأشرف وكانوا من الأوس، قالت الخزرج: واللّه لاتذهب الأوس بهذه الفضيلة علينا، وأخذوا يتذاكرون من يعادى رسول اللّه (ص) كابن الأشرف، فذكروا أبا رافع سلام بن أبى الحقيق، وكان من يهود خيبر، وكان يظـاهر كعـب بن الأشـرف على رسـول اللّه (ص) ويحرض المشـركين عليه، ففكروا فى قتله ليضـاهوا فى الفضـل نظرائهم من الأـوس، فاستأذنوا رسول اللّه (ص) فى قتله، فأذن لهم.

فخرج إليهم من الخزرج: عبـداللّه بن عتيک، ومسـعود بن سـنان، وعبداللّه بن أنيس، وأبو قتادة، وخزاعى ابن الأسود حليف لهم، وأمّر عليهم عبداللّه بن عتيک، فخرجوا حتى قدموا خيبر، فأتوا دار أبى رافع، فدخلوا عليه فقتلوه وخرجوا وكان ذلک فى جمادى الآخرة.

١ آل عمران: ١٢ و ١٣. ٢ الأنفال: ٥٨. ٣ النساء: ٥١ و ٥٢.

غزوة اُحُد

و(اُحُـد) جبل مشـهور بالمدينة على أقل من فرسخ منها، ويسـمّى بذلک لانفراده وانقطاعه عن جبال اُخر هناک، ويقال له: (ذو عينين) أيضاً، وهو الذى قال فيه رسول اللّه (ص) حين وقع نظره إليه: اُحُد جبل يحبّنا ونحبّه، وكانت عنده الوقعة المشهورة فى شوال فى السنة الثالثة من الهجرة النبوية المباركة.

وذلک لأنّ قريشاً لما رجعوا من بدر إلى مكة وقد اُصـيبوا بأصـحاب القليب، منعهم أبوسفيان من البكاء والنوح على قتلاهم ليبقوا على حنقهم وغيظهم ويفكّروا فى الثأر لقتلاهم، وقال تأكيداً لذلک: الدهن والنساء علىَّ حرام حتّى أغزو محمداً.

وبقوا يسـتعدون لذلک، حتى قال صـفوان بن اُمية، وعكرمة بن أبى جهل فى جماعة ممن اُصيب آباؤهم وإخوانهم وأبناؤهم يوم بدر: يا معشـر قريش، إنّ محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه يعنون عير أبى سـفيان ومن كانت له فى تلک العير تجارة لعلنا أن ندرک منه ثأراً.

فأجابوا لـذلک فباعوها وكانت ألف بعير والمال خمسـين ألف دينار، وفيهم أنزل اللّه تعالى: (انّ الـذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل اللّه، فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرة ثمّ يغلبون والذين كفروا إلى جهنّم يحشرون)(١).

رسالة من مكة

ولما اجتمعت قريش لحرب رسول اللّه (ص) كتب العباس بن عبدالمطلب وهو فى مكّة كتاباً يخبر رسول اللّه (ص) بخبرهم، واسـتأجر رجلًا من بنى غفار واشترط عليه أن يقطع الطريق إلى المدينة فى ثلاثة أيام، ويوصل الرسالة إلى رسول اللّه (ص).

فلما قدم الغفارى المدينة كان رسول اللّه (ص) فى بعض حيطانها فقرأه ولم يخبر أصحابه وأمرهم أن يدخلوا المدينة، فلما دخلوا المدينة أخبرهم بالخبر.

النبى (ص) يستشير أصحابه

فلما فشى الخبر فى الناس جمع رسول اللّه (ص) أصحابه يستشيرهم فى مواجهة المشركين، فقال (ص): أشيروا علىّ، ورأى على رواية أن لايخرج من المدينة.

فقال بعضهم: يا رسول اللّه ان مدينتنا عذراء ما فضّت علينا قط، وما خرجنا إلى عدوّ منها قط إلا أصاب منا، وما دخل علينا قط إلا أصبناهم، يعنى بذلك: عدم الخروج من المدينة.

وقال بعضهم: يا رسول اللّه إنّا نخشى أن يظن عدوّنا انا نكره الخروج إليهم جبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا.

وقال حمزة: والذى أُنزل عليه الكتاب لا اطعم اليوم طعاماً حتى أُجالدهم بسيفى خارجاً من المدينة.

وكان هذا رأى الأكثرية، فعزم رسول اللّه (ص) على الخروج، فصلّى بالناس الجمعة ثم وعظهم وأمرهم بالجدّ والإجتهاد، وأخبر أنّ لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيّؤ لعدوّهم، ففرح الناس بذلك.

ثم صلّى (ص) بالناس العصر وقد تحشدوا، وحضر أهل العوالى، واصطف الناس ينتظرون خروجه، فلبس (ص) السلاح وخرج.

الخروج إلى اُحُد

ولما خرج (ص) إلى اُحُد عقد ثلاثة ألوية: لواء الأوس بيد اسيد بن حضير، ولواء المهاجرين بيد على بن أبى طالب (ع)، ولواء الخزرج بيد الحباب بن المنذر، وفى المسلمين مائة دارع، وخرج السعدان أمامه يعدوان دارعين، واستعمل على المدينة ابن أُمّ مكتوم، وعلى الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة، وأدلج (ص) فى السحر، وكان قد ردّ جماعة من المسلمين لصغرهم، منهم اُسامة بن زيد، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدرى، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزم.

وكان المسلمون ألف رجل ويقال: تسع مائة، والمشركون ثلاثة آلاف رجل، ويقال: أربعة آلاف أو خمسة آلاف، فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس، وخمس عشرة امرأة من بينهم هند، وهى ترتجز وتقول أشعاراً.

وكان أبو سفيان قد استأجر يوم اُحُد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم المسلمين.

ونزل (ص) بأُحُد، ورجع عنه عبداللّه بن اُبىّ بنحو ثلث العسكر فيمن تبعه من قومه وحلفائه، فتبعهم عبداللّه بن عمرو بن حرام والد جابر يوبّخهم ويحرضهم على الرجوع ويقول: تعالوا قاتلوا فى سبيل اللّه أو ادفعوا.

قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فرجع عنهم وتركهم.

التقاء الجمعين

ونفذ رسول اللّه (ص) حتى نزل الشعب من اُحُد فى عدوة الوادى، وجعل ظهره إلى اُحد مستقبلاً المدينة، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم.

وكان أبو سفيان قد نزل بطن الوادى من قبل اُحد مقابل المدينة، نزل بها يوم الخميس، بينما نزل رسول اللّه (ص) بأُحُد يوم الجمعة.

فلما أصبح يوم السبت تعبأ (ص) للقتال، وكان فيهم خمسون فارساً، فسوّى الصفوف، وبوّأ كلّاً منهم مكانه، وخطب فيهم خطبة بليغة حثهم فيها على الثبات وحرضهم على الجهاد والمقاومة، وكان ممّا جاء فيها: وما من ملك إلا وله حمى، ألا وان حمى اللّه محارمه، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى عليه سائر جسده.

ثم انه (ص) جعل علی ثغرة كانت فی جبل أُحُـد جماعـة من الرماة وكانوا خمسـین رجلًا، فأمّر علیهم عبداللّه بن جبیر وقال له: انضـح الخیل عنا بالنبل، واحموا لنا ظهورنا لایأتونا من خلفنا، فإن رأیتمونا قـد هزمناهم حتی أدخلناهم مكـة فلا تبرحوا من هـذا المكان، وإن رأیتموهم قد هزمونا حتی أدخلونا المدینة فلا تبرحوا والزموا مراكزكم.

وقیل: انه (ص) قال لهم: فإن رأیتمونا تخطفنا الطیر فلا تبرحوا مكانكم هـذا حتی اُرسل إلیكم، وإن رأیتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتی اُرسل إلیكم.

ثم جعل (ص) علی رایة المهاجرین علیاً (ع) وعلی رایة الأنصار سعد بن عبادة.

وتعبأت قریش فجعلوا علی میمنتهم خالد بن الولید، وعلی المیسرة عكرمة بن أبی جهل.

وقیل: انّ أبا سـفیان وضع خالـد بن الولیـد فی مائتی فارس كمیناً وقال له: إذا رأیتمونا قـد اشـتدّ القتال وحمی، واختلط بعضـنا ببعض، فأخرجوا علیهم من هذا الشعب حتی تكونوا من ورائهم.

بدء القتال

ولما اصـطف الجیشان كانت رایـة المشـركین مع طلحـة بن أبی طلحـة من بنی عبدالدار، فالتفت إلیه أبوسـفیان وقال له بعد أن عبأهم للقتال: إن كنتم ترون أنكم قد ضعفتم عنها، فادفعوها إلینا نكفكموها.

فغضب طلحة بن أبی طلحة وقال: ألنا تقول هذا؟ واللّه لأُوردنّكم بها الیوم حیاض الموت، وكان طلحة هذا یسمّی (كبش الكتیبة) فبرز ونـادی: یـا محمّـد تزعمون انكم تجهّزونـا بأسـیافكم إلی النار، ونجهّزكم بأسـیافنا إلی الجنّة، فمن شاء أن یلحق بجنّته فلیبرز إلیّ، فأنا كبش الكتیبة طلحة بن أبی طلحة.

فبرز إلیه علی (ع) وهو یقول:

یا طلح إن كنت كما تقول لكم خیولٌ ولنا نصولُ

فاثبت لننظر أیّنا المقتولُ وأیّنا أولی بما تقولُ

فقد أتاك الأسدُ الصؤولُ بصارم لیس به فلولُ

ینصره القاهر والرسول

فقال طلحة: من أنت؟

قال: أنا علی بن أبی طالب.

فقال طلحة: قد علمت یا قضم(۲) انه لا یجسر علیّ أحد غیرك، فشدّ علیه طلحة فضـربه، فأتقاه علی (ع) بالحجفة، ثم ضربه (ع) علی فخذیه فقطعهما جمیعاً فسقط علی ظهره، وسقطت الرایة، فذهب علی (ع) لیجهز علیه، فحلّفه بالرحم فانصرف (ع) عنه.

فقال المسلمون: الا أجهزت علیه؟

قال (ع): قد ضربته ضربة لا یعیش منها أبداً.

فسرّ رسول اللّه (ص) وكبّر تكبیراً عالیاً، وكبّر المسلمون.

ثم أخذ الرایة أبو سعد بن أبی طلحة فقتله علی (ع) وسقطت رایته علی الأرض.

فأخذها عثمان بن أبی طلحة فقتله علی (ع) وسقطت الرایة علی الأرض.

فأخذها مسافع بن أبی طلحة، فقتله علی (ع) وسقطت الرایة علی الأرض.

فأخذها الحارث بن أبی طلحة، فقتله علی (ع) وسقطت الرایة علی الأرض.

فأخذها أبو عزیز بن عثمان، فقتله علی (ع) وسقطت الرایة علی الأرض.

فأخذها عبداللّه بن أبی جمیلة، فقتله علی (ع) وسقطت الرایة علی الأرض.

فأخذها أرطاة بن شرحبیل فقتله علی (ع) وسقطت الرایة علی الأرض.

فأخذها مولاهم صوأب، فضربه علی (ع) علی یمینه فقطعها، فأخذها بشماله، فضربه (ع) علی شماله فقطعها، فأخذها علی صدره وجمع یدیه وهما مقطوعتان علیها، فضربه علی (ع) علی أم رأسه فسقط صریعاً.

...فاشتدّ القتال إلی أن انهزم القوم، وولّوا مدبرین حتّی انتهوا إلی نسائهم، وأکبّ المسلمون علی الغنائم.

المشرکون ینهزمون

فلما انهزم المشرکون، وأکبّ المسلمون علی جمع الغنائم، ورأی أصحاب الشعب الذین أوکلهم رسول اللّه (ص) بحفظ الثغرة من خلفهم ان الناس یغنمون، قالوا: نرید أن نغنم کما یغنم الناس!

قال لهم عبداللّه بن جبیر: انّ رسول اللّه (ص) أمرنی أن لا أبرح من مکانی هذا.

فقالوا له: أمرک بهذا ما لم یبلغ الأمر إلی ما نری، ومالوا إلی الغنائم وترکوه، ولم یبرح هو ونفر قلیل معه من موضعه، واشتغل الباقی بجمع الغنائم.

قالوا: ما ظفر اللّه نبیّه فی موطن قط بما ظفره وأصحابه یوم اُحُد، حتّی عصوا الرسول (ص) وتنازعوا فی الأمر.

المسلمون لما عصوا الرسول (ص)

ولما عصی المسلمون أمر رسول اللّه (ص) وترکوا الثغرة التی وکلهم بها، ولم یبق فیها سوی نفر قلیل، حمل علیهم خالد بن الولید فقتلهم، بعد أن تراموا بالنبال، وتطاعنوا بالرماح، وتقاتلوا بالسیوف، ثم جاء من ظهر رسول اللّه (ص) یریده، فنظر إلی النبی (ص) وهو فی قلّة من أصحابه فقال لمن معه: دونکم هذا الذی تطلبون فشأنکم به.

وبصرت قریش فی هزیمتها إلی الرایة قد رفعت فلاذوا بها، فحملوا علیه (ص) حملة رجل واحد ضرباً بالسیوف، وطعناً بالرماح، ورمیاً بالنبل، ورضخاً بالحجارة.

وجعل أصحاب رسول اللّه (ص) یقاتلون عنه حتی قتل منهم سبعون رجلًا، أربعة من المهاجرین: حمزة، ومصعب بن عمیر، وعثمان بن شماس، وعبداللّه بن جحش، وسائرهم من الأنصار، فانهزم علی أثره الباقون، ولم یثبت للقوم إلاّ علی (ع)، وأبو دجانة، وسهل بن حنیف، یدفعون عن النبی (ص) وقد کثر علیهم المشرکون.

فالتفت النبی (ص) إلی علی (ع) وقال: ما صنع الناس یا علی؟

قال (ع): کفروا یا رسول اللّه وولّوا الدبر من العدو واُسلموک.

قال: ما لک لاتذهب مع القوم؟

فقال: أذهب وأدعک یا رسول اللّه؟ أکُفر بعد ایمان؟! انّ لی بک اُسوة واللّه لابرحت حتی اُقتل، أو ینجز اللّه لک ما وعدک من النصر، فثبت معه یدفع عنه الکتائب.

فنظر رسول اللّه (ص) إلی کتیبة قد أقبلت إلیه، فقال لعلی (ع): ردّ عنی یا علی هذه الکتیبة، فحمل علیها وفرَّقها، وکلّما حملت طائفة علی رسول اللّه (ص) استقبلهم علی (ع) فیدفعهم عنه، ویقتلهم حتی تقطّع سیفه ثلاث قطع.

لا فتی إلّا علی لا سیف إلّا ذوالفقار

فلمّا انقطع سیف علی (ع) جاء إلی رسول اللّه (ص) فقال: یا رسول اللّه انقطع سیفی ولاسیف لی.

فخلع رسول اللّه (ص) سیفه ذا الفقار الـذی نزل من الجنّة(۳) وقلّده علیاً (ع)، فمشـی علی (ع) إلی المشـرکین وقتل کل من برز إلیه، وصـدّ کل کتیبـة أغارت علیهم، فلم یزل علی ذلک حتی وهت درعه، وأصابته تسعون جراحـة، وفی بعض جراحاته کان یسقط منها علی الأرض فیرفعه جبرئیل (ع).

فعرف رسول اللّه (ص) ذلک فرفع یدیه نحو السماء وقال: (ننشدک یا ربّ ما وعدتنی، فإنّک إن شئت لم تعبد).

وفی روایـة قال (ص) وهو یـدعو: (اللّهمّ إنّ محمـداً عبـدک ورسولک، جعلت لکلّ نبی وزیراً من أهله لتشـدّ به عضده، وتشـرکه فی أمره، وجعلت لی وزیراً من أهلی: علی بن أبی طالب أخی، فنعم الأخ ونعم الوزیر، اللّهمّ وعدتنی أن تمدّنی بأربعة آلاف من الملائکة مردفین، اللّهمّ وعدک وعدک انّک لا تخلف المیعاد، وعدتنی أن تظهر دینک علی الدین کلّه ولو کره المشرکون)(۴).

فبینما رسول اللّه (ص) یدعو ربّه ویتضـرّع إلیه إذ سمع دویّاً من السماء، فرفع رأسه فإذا جبرئیل (ع) علی کرسی، ومعه أربعة آلاف من الملائکة مردفین، وهو یقول: (لا فتی إلاّ علی، ولا سیف إلاّ ذو الفقار)، فهبط جبرئیل وحفّت الملائکة برسول اللّه (ص) وسلّموا علیه.

فقال جبرئیل (ع): یا رسول اللّه والذی أکرمک بالهدی لقد عجبت الملائکة المقرّبون من مواساة علی (ع) لک بنفسه.

فقال رسول اللّه (ص): یا جبرئیل وما یمنعه أن یواسینی بنفسه وهو منّی وأنا منه.

فقال جبرئیل (ع): وأنا منکما(۵).

فبکی علی (ع) سروراً وحمد اللّه علی نعمته.

مصرع حمزة سیّد الشهداء

ولما اقتتل الناس وحمیت الحرب کانت هنـد بنت عتبـة زوجـة أبی سـفیان وسط المعرکة، فکلما انهزم رجل من قریش دفعت إلیه میلاً ومکحلة وقالت: انما أنت امرأة فاکتحل بهذا.

وکان حمزة بن عبدالمطلب عم النبی (ص) یحمل علی القوم، فإذا رأوه انهزموا ولم یثبت له أحد، وکانت هند قد أعطت وحشیاً عهداً: بأنه إن قتل محمداً، أو علیاً، أو حمزة، لأعطته رضاه، وکان وحشی عبداً لجبیر بن مطعم حبشیاً.

فقـال وحشـی: أما محمـد فلا أقـدر علیه، وأما علی فرأیته رجلاً حـذراً کثیر الإلتفات فلم أطمع فیه، وأمّا حمزة فإنی أطمع فیه، لأنه إذا غضب لم یبصر بین یدیه.

قال: فکمنتُ لحمزة، فرأیته یهـدّ الناس هدّاً ما یقوم له شـیء، فمرّ بی فوطئ علی جرف نهر، فانهار به، فأخذت حربتی فهززتها ورمیته، فوقعت فی خاصرته وخرجت من ثنیته فسقط.

ثم جاءت هنـد وأخذت تمثّل بجسد حمزة فبقرت بطنه واستخرجت کبده فلاکتها فلم تستطع أن تسیغها فلفظتها، کما قطعت أصابعه وکل ما برز من جسمه وجعلتها قلادة لها.

وعلی روایة عن وحشـی انه قال: فأتیت حمزة فشققت بطنه، فأخذت کبده وجئت بها إلی هند، فقلت لها: هذه کبد حمزة، فأخذتها فی فمها فلاکتها، فجعلها اللّه فی فیها مثل الداغصة، فلفظتها ورمت بها، فبعث اللّه ملکاً فحمله وردّه إلی موضعه.

قال أبو عبداللّه (ع): أبی اللّه أن یدخل شیئاً من بدن حمزة النار.

ولما رأی رسول اللّه (ص) ما صنع بحمزة قال: (اللّهمّ لک الحمد وإلیک المشتکی، وأنت المستعان علی ما أری).

ثم قال علی روایة: (ولئن ظفرت لامثلنّ ولأمثلنّ).

فأنزل اللّه تعالی: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خیر للصّابرین)(۶).

فقال رسول اللّه (ص): أصبر، ثم صلّی علی حمزة سبعین صلاة، وکبر علیه سبعین تکبیرة، ودفنه فی ثیابه بدمائه التی اُصیب فیها.

دناءة بنی أمية وأتباعهم

وروی: ان الحليس بن علقمة وهو سيد الأحابيش يوم أُحُد، نظر إلی أبی سفيان وهو علی فرس وبيده رمح يجأ به فی شدق حمزة، فقال الحليس: انظروا يا معشر بنی كنانة إلی من يزعم انه سيد قريش ما يصنع بابن عمه الذی قد صار لحماً! وأبو سفيان يقول: ذق عقق.

فلما التفت أبو سفيان إلی الحليس وما يقوله قال له: صدقت، اكتمها علیَّ.

مع أبی دجانة

وكان أبو دجانة هو الآخر الذی كان يحمل علی القوم حتی أمعن فيهم، وقد جعل من نفسه ترساً يقی رسول اللّه (ص) من سيوف الكفّار ورماحهم حين انكشف أصحابه عنه فقد ثبت هو ولم يكن من المنكشفين.

فالتفت إليه رسول اللّه (ص) وقال: يا أبا دجانة أما تری قومک؟

قال: بلی.

قال: فالحق بقومک، وأنت فی حلّ من بيعتی.

فبكی أبو دجانة وقال: لا واللّه لا جعلتُ نفسی فی حلّ من بيعتی، إنّی بايعتک، فإلی من أنصرف يا رسول اللّه، إلی زوجة تموت، أو ولد يموت، أو دار تخرب، أو مال يفنی، أو أجل قد اقترب؟

فرقّ له رسول اللّه (ص).

فلم يزل يقاتل حتی أثخنته الجراحة وهو فی وجه، وعلی (ع) فی وجه، فلما سقط احتمله علی (ع) فجاء به إلی النبی (ص) فوضعه عنده فقال: يا رسول اللّه أوَفيتُ ببيعتی؟

قال: نعم، ودعا له بخير، فالتأمت جراحاته وعاش حتی كان يوم اليمامة، فاشترک فيها كما كان يشترک فی غيرها من قبل، وقاتل حتّی قُتِل شهيداً.

الثابتون مع الرسول (ص)

وكان ممّن قاتل مع رسول اللّه (ص) يوم أُحُد نسيبة المازنية أُم عمارة وابناها عبداللّه بن زيد، وعمارة بن غزية، وزوجها غزيّة.

يقول عبداللّه بن زيد: شهدتُ أُحُداً مع رسول اللّه (ص)، فلمّا تفرّق الناس عنه دنوتُ منه وأُمّی تذبّ عنه.

فقال (ص): يا ابن اُم عمارة؟

قلت: نعم.

قال: ارم، فرميت بين يديه رجلاً من المشركين بحجر وهو علی فرس، فأُصيب عين الفرس، فاضطرب الفرس حتی وقع هو وصاحبه.

ثم نظر (ص) إلی جرح بأُمّی علی عاتقها، فقال: اُمّک اُمّک، اعصب جرحها بارک اللّه عليكم، لمقامک ومقام أخيک ومقام اُمّک ومقام زوج اُمک خير من مقام المنكشفين والمنهزمين عنّی.

ثم قال (ص): رحمكم اللّه من أب وأُم واخوة.

قال: فقالت اُمّی وهی لا تملک نفسها فرحاً: ادع لنا يا رسول اللّه أن نرافقک فی الجنّة.

فقال: اللّهمّ اجعلهم رفقائی فی الجنّة.

فقالت: ما اُبالی بعدها ما أصابنی من الدنيا.

عمرو بن الجموح والشهادة

وكان عمرو بن الجموح رجلًا ذا عرج فى رجله، فلما كان يوم اُحُد شـهد مع النبى أربعة من ولده، أمّا هو فأراد قومه أن يحبسوه وقالوا له: انك ممّن لا حرج عليه، وقد ذهب بنوك الأربعة مع النبى (ص) فابق عندنا.

فأجابهم قائلًا: بخ لهم يذهبون إلى الجنّة، وأنا أجلس عندكم؟

فقالت امرأته: كأنّى أنظر إليه مولّياً قد أخذ درقته وهو يقول: اللّهمّ لا تردّنى إلى أهلى، فخرج ولحقه بعض قومه يكلّمونه فى القعود، فأبى.

ثم جاء إلى رسول اللّه (ص) فقال: يا رسول اللّه انّ قومى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك، واللّه انّى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنّة.

فقال له (ص): أمّا أنت فقد عذرك اللّه ولا جهاد عليك، فأبى.

فقال النبى (ص) لقومه وبنيه: (لا ـ عليكم أن لا ـ تمنعوه، لعلّ اللّه يرزقه الشهادة) فخلّوا عنه، فبقى فى صفوف المسلمين وقاتل فقتل يومئذ شهيداً.

وبعد شهادته، أقبلت إليه امرأته لتحمله مع ابنها خلّاد وأخيها عبداللّه والد جابر الأنصارى، فحملتهم على بعير تريد بهم المدينة.

فالتقى بها بعض النساء اللاتى خرجن يتفقّدن خبر رسول اللّه (ص) فسألنها عنه؟

فقالت: خيراً، أمّا رسول اللّه (ص) فصالح، وكلّ مصيبة بعده جلل، أى: قليل، واتّخذ اللّه من المؤمنين شهداء، وهؤلاء: ابنى وأخى وزوجى أحملهم لأدفنهم فى المدينة، فسارت بهم، فلما بلغت منقطع الحرّة برك البعير، فكانت كلما توجّهه إلى المدينة برك، وإذا وجّهته إلى اُحُد أسرع.

فرجعت إلى النبى (ص) فأخبرته بذلك.

فقال (ص): انّ الجمل لمأمور، هل قال عمرو بن الجموح شيئاً؟

قالت: نعم يا رسول اللّه، انه لما توجّه إلى اُحُد استقبل القبلة ثم قال: اللّهمّ لا تردّنى إلى أهلى وارزقنى الشهادة.

فقال (ص): (فلذلك الجمل لا يمضى، انّ منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على اللّه لأبرّه، منهم عمرو بن الجموح، يا هذه ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن)؟

ثم مكث رسول اللّه (ص) فى قبرهم ثم قال: انّهم قد ترافقوا فى الجنّة جميعاً: بعلكِ وابنكِ وأخوكِ.

فقالت امرأته: يا رسول اللّه فادع لى عسى أن يجعلنى معهم، فدعا لها بذلك.

الشهادة والمساهمة عليها

وكان خيثمة أبو سعد بن خيثمة ممّن قاتل بين يدى رسول اللّه (ص) فى اُحُد ونال الشهادة، فقد أشار على رسول اللّه (ص) بالخروج من المدينة لمجابهة قريش والتعرّض للنصر أو الشهادة قائلًا: لقد بلغ من حرصى على الشهادة أن ساهمت ابنى فى الخروج إلى بدر فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيته البارحة فى النوم وهو فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنّة وأنهارها، ويقول لى: ألحق بنا ترافقنا فى الجنّة، وقد كبرت سنّى، ورقّ عظمى، وأحببت لقاء ربّى، فادع اللّه أن يرزقنى الشهادة.

فدعا له رسول اللّه (ص) بذلك، فقاتل بين يديه حتى قتل بأُحد شهيداً.

غسيل الملائكة

وكان حنظلة غسيل الملائكة رجل من الخزرج تزوّج فى الليلة التى كانت صبيحتها حرب اُحُد، فلما أصبح خرج ولم يغتسل وحضر القتال.

فالتقى بأبى سفيان بن حرب وهو يجول بين العسكر، فحمل عليه فضرب عرقوب فرسه، فاكتسعت الفرس وسقط أبوسفيان إلى الأرض فصاح: يا معشر قريش أنا أبو سفيان وهذا حنظلة يريد قتلى، ثم عدا يركض نحو قومه وحنظلة فى طلبه.

فعرض له شداد بن الأسود الليثى فطعنه، فمشى حنظلة فى طعنته فضرب الليثى فقتله، وسقط حنظلة إلى الأرض بين حمزة وعمرو بن الجموح وعبداللّه بن حزام، وجماعة من الأنصار.

فقال رسول اللّه (ص): رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف من ذهب، فكان يسمّى (غسيل الملائكة) لأنه خرج من عند زوجته إلى القتال مسرعاً ولم يغتسل من جنابته.

وقال أبو سفيان: حنظلة هذا بحنظلة وهو يقصد ابنه حنظلة الذى قتل ببدر.

عين قتادة

وكان ممّن شهد اُحُد وقاتل دون رسول اللّه (ص) قتادة بن النعمان، فاُصيبت عينه حتى وقعت على وجنته، فأخذها بيده وجاء إلى النبى (ص) وقال: يا رسول اللّه انى جديد عهد بالزواج وامرأتى شابة اُحبّها وتحبّنى وأنا أخشى أن تكرهنى مكان عينى.

فأخذها رسول اللّه (ص) فردّها إلى مكانها، فأبصرت وعادت كما كانت لم تؤلمه ساعة من ليل ولا نهار.

فكان يقول بعد أن كبر وطعن فى السنّ: هى أقوى عينيَّ، وكانت أحسنهما.

يد ابن عتيک

وكان ممّن شهد اُحُد وأبلى مع رسول اللّه (ص) بلاءاً حسناً عبداللّه بن عتيك فاُصيب يده فاُبينت، فأخذها وجاء بها إلى رسول اللّه (ص) واشتكى له ما يلقاه من ألمها.

فأخذها رسول اللّه (ص) وأركبها فى محل قطعها ومسح عليها بيده الكريمة، فاستوت يد عبداللّه كأن لم يكن بها شيء.

نيف وسبعون جراحة

قال أنس بن مالك: اُتى رسول اللّه (ص) بعلى (ع) يوم اُحُد وعليه نيف وسبعون جراحة من طعنة وضربة ورمية، فجعل رسول اللّه (ص) يمسحها وهى تلتئم بإذن اللّه تعالى، كأن لم تكن.

وقيل: انّ رسول اللّه (ص) أخذ الماء بفمه فرشّه على جراحاته، فكأنّها لم تكن من وقتها.

المتجرئو على رسول اللّه (ص)

ورمى ابن قميئة الليثى رسول اللّه (ص) بقذافة فأصاب كفّه، وضربه عتبة بن أبى وقاص بالسيف حتى أدمى فاه، ورماه عبداللّه بن شهاب بقلاعة فأصاب مرفقه، وليس أحد من هؤلاء مات ميتة سوية:

فأما ابن قميئة، فقد سلّط اللّه عليه الشجر، فكان إذا مرّ بها وقع فى وسطها فتأخذ من لحمه، فلم يزل كذلك حتى صار مثل الصرّ ومات.

وقيل: انه أتاه تيس جبل وهو نائم بنجد، فوضع قرنه فى مراقّه ثم دعسه فجعل ينادى: واذلاّه حتى أخرج قرنيه من ترقوته ومات.

وأما عتبة بن أبى وقاص فمات على كفره قبل أن يحول عليه الحول، وكذلك كان مصير ابن شهاب.

ورمى المغيرة بن العاص رسول اللّه (ص) بحجر فأصاب جبهته (ص)، فضرب اللّه المغيرة بالتحيّر، فلما انكشف الناس تحيّر فلحقه

عمار بن ياسر فقتله.

مع أُبیّ بن خلف

وروی: ان أُبیّ بن خلف قال للنبی (ص) بمكة: انه يعلف فرساً له ليقتله يوماً عليها.

فقال له رسول اللّه (ص): لكن أنا إن شاء اللّه تعالی.

فأقبل أُبی يوم اُحد علی فرسه وحمل علی رسول اللّه (ص) وكان الرسول بين الحارث بن صمّة وسهل بن حنيف، فوقاه مصعب بن عمير بنفسه، فطعن مصعباً فقتله.

فأخذ رسول اللّه (ص) عنزة كانت فی يد سهل بن حنيف ثم طعن اُبيّاً فی جرّبان الدرع، فاعتنق فرسه وانتهی إلی عسكره وهو يخور خوار الثور.

فقال له أبو سفيان: ويلك ما أجزعك؟ انما هو خدش ليس بشیء.

فقال: ويلك يا ابن حرب أتدری من طعننی؟ انما طعننی محمد وهو قال لی بمكة: انی سأقتلك، فعلمت انه قاتلی، واللّه لو انّ ما بی كان بجميع أهل الحجاز لقضت عليهم، فلم يزل يخور حتی مات.

نماذج من الصحابة المؤمنين

فلما سكن القتال قال رسول اللّه (ص): من يطلب لنا سعد بن الربيع، وأشار بيده إلی موضع من المعركة.

فجاء رجل نحو الموضع يطلبه، فرآه صريعاً بين القتلی.

فقال: يا سعد، فلم يجبه، حتی قال له: يا سعد إنّ رسول اللّه (ص) يسأل عنك.

فرفع سعد رأسه وانتعش كما ينتعش الفرخ، ثم قال بصوت ضعيف: انّ رسول اللّه (ص) لحیّ؟

فقال له: نعم.

قال سعد: الحمد للّه، أبلغه عنّی السلام، وأبلغ قومی الأنصار عنّی السلام وقل لهم: واللّه ما لكم عند اللّه عذر ان تشوك رسول اللّه (ص) شوكة وفيكم عين تطرف، ثم تنفّس فخرج منه مثل دم الجزور وقضی نحبه شهيداً.

فجاء الرجل وأخبر بذلك رسول اللّه.

فقال (ص): (رحم اللّه سعداً نصرنا حيّاً، وأوصی بنا ميتاً).

يوم بلاء وتمحيص

ولما انكشف المسلمون يوم اُحد وانهزموا أصاب فيهم العدو، فكان يوم بلاء وتمحيص أكرم اللّه فيه من أكرم بالشهادة، وقد خلص العدو إلی رسول اللّه (ص) فدُق بالحجارة حتی شج فی وجهه وكلمت شفته السفلی، وكادوا أن يقتلوه (ص) لولا حفظ اللّه تعالی له، فقام رافعاً يديه إلی السماء وهو يقول: (إنّ اللّه اشتدّ غضبه علی اليهود حين قالوا: عزير ابن اللّه، واشتدّ غضبه علی النصاری ان قالوا: المسيح ابن اللّه، وان اللّه اشتدّ غضبه علی من أراق دمی، وآذانی فی عترتی)(٧).

وفی الحديث: انه كلما سال الدم علی وجهه المبارك (ص) تناوله بيده فرمی به فی الهواء، فلا يرجع منه شیء.

قال أبو عبداللّه (ع): واللّه لو سقط منه شیء علی الأرض لنزل العذاب.

وقيل له (ص): ألا تدعو عليهم؟

فقال (ص): (اللّهمّ اهد قومی فإنّهم لا يعلمون).

ثم كان يقول (ص) أسفاً عليهم: (كيف يفلح قوم خضّبوا وجه نبيّهم بالدم وهو يدعوهم إلى اللّه)؟

رجل من أهل الجنّة

وقيل: انه لما شج (ص) فى وجهه واختضبت وجنتاه بالدم، أقبل مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى فامتصّ الدم من وجنة رسول اللّه (ص) فاستساغه ولم يمجّه.

فقال (ص) له: مجّه.

فقال: واللّه لاأمجّه أبداً حتى يمتزج بلحمى ودمى فأكون عند اللّه من الفائزين بك.

ثم أدبر يقاتل، فقال النبى (ص): من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنّة فلينظر إلى هذا، فقاتل، فقتل شهيداً.

ابليس ينتهز الفرصة

وكان ممّن قاتل دون رسول اللّه (ص) حتى قُتل: مصعب بن عمير، وكان الذى قتله ابن قمئة وهو يظنه رسول اللّه، فصاح ابن قمئة: قتلت محمداً.

وصرخ الشيطان: ان محمداً قد قتل، فوقع ذلك فى قلوب كثير من المسلمين.

فقال بعضهم: نقاتل على ما قاتل عليه حتى نلحق به.

وقال آخرون: لو كان نبياً لما قتل، وارتد بعضهم، وانهزم بعضهم، وقال بعضهم: لو أرسلنا إلى أبى سفيان من يأخذ لنا أماناً منه، وبعضهم جلسوا وألقوا بأيديهم.

فمرّ أنس بن النضر بقوم قد ألقوا بأيديهم فقال: يا قوم ما تنتظرون؟

فقالوا: قتل رسول اللّه (ص).

قال: فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه.

ثم استقبل الناس، ولقى سعد بن معاذ فقال: يا سعد انى لأجد ريح الجنّة من دون اُحد.

ثم استقبل المشركين وقال: اللّهم إنّى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعنى بعض المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعنى المنافقين.

ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل.

وذهبت صيحة ابليس حتى دخلت بيوت المدينة، فبكت فاطمة(ع) ولم تبق هاشمية ولا قرشيّة إلا وضعت يدها على رأسها، وخرجت فاطمة(ع) باكية حتى انتهت هى وصفيّة إليه (ص).

فلما دنت فاطمة(ع) ورأت ما بأبيها (ص) من الجراحات خنقتها العبرة، وجعلت تمسح الدم وتقول: اشتدّ غضب اللّه على من أدمى وجه رسول اللّه (ص).

المسلمون يثوبون

ثم أقبل رسول اللّه (ص) نحو المسلمين، وكان أول من عرفه كعب بن مالك الشاعر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول اللّه (ص).

فأشار إليه رسول اللّه (ص) أن اصمت، فانحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم النبى (ص) على الفرار.

فقالوا: يا رسول اللّه فديناك بآبائنا واُمهاتنا أتانا الخبر بأنك قتلت، فرعبت قلوبنا فولّينا مدبرين، فأنزل اللّه تعالى: (وما محمّد إلاّ رسول

قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً وسيجزى اللّه الشاكرين)(۸).

وقيل: نزلت هذه الآية عندما رجع رسول اللّه (ص) من اُحد إلى المدينة، فاستقبله أهلها بأجمعهم وهم يبكون ويطلبون التوبة ويقرّون بالذنب، ونساء الأنصار قد خدشن الوجوه، ونشرن الشعور، وجززن النواصی، وخرقن الجيوب، وحزمن البطون على النبی (ص)، فلمّا رأينه قال لهنّ خيراً وأمرهنّ أن يتستّرن ويدخلن منازلهنّ، وقال: ان اللّه عزوجل وعدنی أن يظهر دينه على الأديان كلها، ثم قال لهم رسول اللّه (ص):

(أيها الناس انكم رغبتم بأنفسكم عنّی، ووازرنی علی وواسانی، فمن اطاعه فقد أطاعنی، ومن عصاه فقد عصانی وفارقنی فی الدنيا والآخرة)(۹).

صاحب المهراس

روی انه لما صاح ابليس بالمدينة: قتل محمد لم يبق أحد من نساء المهاجرين والأنصار إلاّ وخرجت، كما وخرجت فاطمة بنت رسول اللّه (ص) تعدو على قدميها، حتى وافته وقعدت بين يديه تبكی لما رأت ما أصاب أبيها رسول اللّه (ص) من الجراحات، وأقبل على بن أبی طالب (ع) وقد ملأ درقته بماء من المهراس(۱۰) فجاء به رسول اللّه (ص) ليشرب منه، ثم غسل به عن وجهه الدم، وإليه يشير قول على (ع) يوم الشورى: (نشدتكم باللّه هل فيكم أحد وقفت الملائكة معه يوم اُحد حين ذهب الناس غيری؟ قالوا: لا ـ قال: نشدتكم باللّه هل فيكم أحد سقى رسول اللّه (ص) من المهراس غيری؟ قالوا لا).

وعن سهل: انه سئل عن جرح رسول اللّه (ص) فقال: واللّه إنی لأعرف من كان يغسل جرح رسول اللّه (ص) ومن كان يسكب الماء؟ كانت فاطمة ابنته تغسله وعلى بن أبی طالب يسكب الماء، فلما رأت فاطمة أن الماء لايزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فاستمسك الدم.

الصلاة فی زوال اُحد

وذكر مولى عفرة: ان النبی (ص) صلّى الظهر يوم اُحد قاعداً من الجراح، وكذلك صلّى المسلمون خلفه قعوداً من شدة ما بهم، وقد انهزم قوم من المسلمين يومئذ فبلغ بعضهم إلى الحلوب دون الأعوص.

فلمّا قدموا بعد ثلاثة أيام من هزيمتهم قال لهم رسول اللّه (ص): إلى أين انتهيتم؟

قالوا: إلى الأعوص.

قال: لقد ذهبتم فيها عريضة، أی: واسعة.

دأب بنی اُمية وأتباعهم

ولما انكشف المسلمون عن رسول اللّه (ص) اشتغل المشركون ونساؤهم بقتلى المسلمين يمثلون بهم ويقطعون الآذان والاُنوف وغيرها، ويبقرون البطون، ويستخرجون منها الأكباد والكلى.. فلما تتبع المسلمون قتلاهم لم يجدوا قتيلاً إلاّ وقد مثلوا به، إلاّ حنظلة غسيل الملائكة، فإنّ أباه وهو أبو عامر الراهب الذی سماه رسول اللّه (ص) أبو عامر الفاسق وهو صاحب مسجد ضرار، كان مع المشركين فترك له، وكان حمزة عم النبی (ص) أكثر من مثّل به من بين القتلى.

۱ الأنفال: ۳۶.

۲ تفسير على بن إبراهيم قال: وحدّثنی أبی، عن ابن أبی عمير، عن هشام، عن أبی عبد الله (ع) انه سئل عن معنى قول طلحة بن أبی طلحة لما بارزه على (ع): يا قضم؟ قال (ع): إن رسول الله (ص) كان بمكة لم يجسر عليه أحد لموضع أبی طالب، فأغروا به الصبيان،

وكانوا إذا خرج رسول الله (ص) يرمونه بالحجارة والتراب، فشكى ذلك إلى على (ع) فقال: بأبى أنت وأُمى يا رسول الله إذا خرجت فأخرجنى معك، فخرج رسول الله (ص) ومعه على (ع) فتعرض الصبيان لرسول الله (ص) كعادتهم، فحمل عليهم على (ع) وكان يقضمهم فى وجوههم وآنافهم وآذانهم فكان الصبيان يرجعون باكين إلى آبائهم ويقولون: قضمنا على، قضمنا على، فسمى لذلك: القُضَم. (راجع بحار الأنوار: ج ۲۰ ص ۵۲ ب ۱۲ ح ۳).

۳ راجع بحار الأنوار: ج ۳۹ ص ۴۷ ب ۷۳ ح ۱۵ بيان، و: ج ۴۲ ص ۵۷ ب ۱۱۸ ح ۱.

۴ بحار الأنوار: ج ۲۰ ص ۱۰۵ ب ۱۲ ح ۳۰.

۵ الكافى: ج ۸ ص ۳۱۸ ب ۸ ح ۵۰۲ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد: ج ۱۰ ص ۱۸۲ ب ۱۹۰ و ج ۱۳ ص ۲۶۱ وج ۱۴ ص ۲۵۱ دار إحياء التراث العربى ط ۲.

۶ النحل: ۱۲۶. ۷ بحار الأنوار: ج ۲۷ ص ۲۰۶ ب ۸ ح ۱۴. ۸ آل عمران: ۱۴۴.

۹ بحار الأنوار: ج ۲۰ ص ۱۰۶ ب ۱۲ ح ۳۰.

۱۰ قيل: هو صخرة منقورة تسع كثيراً، وقيل: هو اسم ماء بأحد.

خاتمة القتال

ولما قتل جمع من المسلمين وفرّ آخرون، واضطربت الصفوف وتداخلت، جَمَع رسول اللّه (ص) من بقى معه من المسلمين ثم حمل هو (ص) وعلى (ع) والمسلمون معه حملة رجل واحد على القوم، فانهزم المشركون وتشتّت أمرهم وانصرفوا إلى مكة ولم يصلوا إلى ما أرادوا من قتل الرسول (ص) وابادة المسلمين، فكان النصر أخيراً للمسلمين وإن قتل منهم جمع كثير.

هتافات متقابلة

ولما أراد أبو سفيان الانصراف أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: انعمت فعال، ان الأيام دول، وان الحرب سجال، يوم بيوم بدر.

فقال رسول اللّه (ص): ألا تجيبونه؟

قالوا: يا رسول اللّه ما نقول؟

قال (ص): قولوا: لا سواء، قتلانا فى الجنّة وقتلاكم فى النار.

فقال أبو سفيان: لنا العزّى ولا عزّى لكم.

فقال رسول اللّه (ص): ألا تجيبونه؟

قالوا: يا رسول اللّه ما نقول؟

قال (ص): قولوا: اللّه مولانا ولا مولى لكم.

فقال أبو سفيان: اعل هبل.

فقال رسول اللّه (ص): ألا تجيبونه؟ قولوا: اللّه أعلى وأجلّ.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: أحيّ ابن أبى كبشة؟ فأما ابن أبى طالب فقد رأيناه مكانه.

فقال له على (ع): أى والذى بعثه بالحقّ انه (ص) ليسمع كلامك.

فقال أبو سفيان: لعن اللّه ابن قمئة زعم انه قتل محمداً، ثم قال: انه قد كانت فى قتلاكم مُثلة، وانّ موعدنا وموعدكم بدراً فى العام القابل.

فقال رسول اللّه (ص) لعلی (ع): قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

استطلاع أخبار القوم

ثم بعث رسول اللّه (ص) على بن أبى طالب (ع) وقال: اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأُناجزنهم.

قال على (ع): فخرجت فى أثرهم أنظر ما يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة، فلما وقع نظر أبى سفيان على على (ع) قال له: يا على ما تريد هو ذا نحن ذاهبون إلى مكة، فانصرف إلى صاحبك فأخبره.

فأتبعهم جبرئيل (ع)، فكلّما سمعوا حافر فرسه جدّوا فى السير، وكان يتلوهم فإذا ارتحلوا قالوا: هو ذا عسكر محمد قد أقبل، ومازالوا كذلك حتى دخلوا مكة منهزمين ومرعوبين.

انّ اللّه بالغ أمره

وروى: انه لما انصرف أبو سفيان ومن معه من غزاة أُحد وبلغوا الروحاء، ندموا على انصرافهم عن المسلمين وتلاوموا فقالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم.

فبلغ ذلك الخبر رسول اللّه (ص) فأراد أن يرهب العدوّ ويريهم من نفسه وأصحابه قوّة، فندب أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان وقال: (ألا عصابة تشدّد لأمر اللّه تطلب عدوّها، فإنها انكاء للعدوّ وأبعد للسمع) فانتدب عصابة منهم مع ما بهم من القرح والجرح الذى أصابهم يوم أُحُد وامتثلوا ما أمرهم به.

مدفن الشهداء

ولما وضعت الحرب أوزارها يوم أُحد، حمل كل واحد قتيله على جمل ليدفنوهم فى المدينة، فكانوا كلما توجّهوا بهم نحو المدينة بركت الجمال، وإذا توجّهوا بهم نحو المعركة أسرعت.

فشكوا ذلك إلى رسول اللّه (ص) فقال: ألم تسمعوا قول اللّه تعالى: (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)(۱) فأرجعهم (ص) إلى مكانهم ودفنهم بثيابهم الملطّخة بالدماء كل رجلين فى قبر على رواية الاّ ـ حمزة (ع) فإنه دفن وحده.

على مشارف المدينة

ثم انصرف المسلمون مع النبى (ص) إلى المدينة، فاستقبلته فاطمة(ع) ومعها اناء فيه ماء، فغسل به وجهه، فلمّا رأته فاطمة(ع)(۲) قد شجّ فى وجهه وأُدمى فوه ادماءاً بكت(ع) وجعلت تمسح الدم وتقول: اشتد غضب اللّه على من أدمى وجه رسول اللّه (ص).

وكان معه (ص) على (ع) وقد خضب الدم يده إلى كتفه، ومعه ذو الفقار، فناوله فاطمة(ع) وقال لها: خذى هذا السيف فقد صدقنى اليوم، وأنشأ يقول:

أفاطم هاك السيف غير ذميم فلست برعديد ولا بمليم

لعمرى لقد أعذرت فى نصر أحمد وطاعة ربٍ بالعباد عليم

اميطى دماء القوم عنه فإنه سقى آل عبدالدار كأس حميم

وقال رسول اللّه (ص): خذيه يا فاطمة فقد أدّى بعلك ما عليه، وقد قتل اللّه بسيفه صناديد قريش.

مع ابنة جحش

فلما ارتحل رسول اللّه (ص) ودخل المدينة، استقبلته النساء يولولن ويبكين، فاستقبلته زينب بنت جحش، فقال لها رسول اللّه (ص): احتسبى.

فقالت: من يا رسول اللّه؟

قال (ص): أخاك.

قالت: (إنّا للّه وإنّا إليه راجعون)(۳) هنيئاً له الجنّة.

ثم قال (ص) لها: احتسبى.

فقالت: من يا رسول اللّه؟

قال (ص): حمزة بن عبدالمطلب.

قالت: (إنّا للّه وإنّا إليه راجعون)(۴) هنيئاً له الشهادة.

ثم قال لها: احتسبى.

فقالت: من يا رسول اللّه؟

قال (ص): زوجك مصعب بن عمير.

قالت: واحزناه.

فقال رسول اللّه (ص): انّ للزوج عند المرأة لحدّاً ما لأحد مثله.

فقيل لها: لم قلت ذلك فى زوجك؟

قالت: ذكرت يتم ولده.

النساء المخلصات

وكانت امرأة من بنى النجار قتل أبوها وزوجها وأخوها مع رسول اللّه (ص)، فدنت من رسول اللّه (ص) والمسلمون قيام على رأسه، فقالت لرجل متسائلة بتلهّف: أحيّ رسول اللّه (ص)؟

قال: نعم.

قالت وهى مستبشرة: أستطيع أن أنظر إليه؟

قال: نعم.

فأوسعوا لها، فدنت منه (ص) وقالت: كل مصيبة جلل بعدك يا رسول اللّه، ثم انصرفت.

البكاء على حمزة

ولما انصرف رسول اللّه (ص) إلى المدينة بعد أن صلّى على القتلى ودفنهم بثيابهم ودمائهم، مرّ بدور فى المدينة، فسمع بكاء النوائح على قتلاهنّ، فترقرقت عينا رسول اللّه (ص) بالدموع وبكى ثم قال: لكن حمزة لا بواكى له.

فلمّا سمعها سعد بن معاذ واسيد بن حضير قالا: لا تبكينّ امرأة حميمها حتى تأتى فاطمة(ع) فتسعدها بالبكاء.

فلما سمع رسول اللّه (ص) الواعية على حمزة وهو عند فاطمة(ع) على باب المسجد قال: ارجعن يرحمكنّ اللّه فقد آسيتنّ بأنفسكنّ.

غزوة حمراء الأسد

ولما وافى اليوم الثانى من انتهاء معركة أُحد، أذّن مؤذّن رسول اللّه (ص) فى الطلب للعدو، وعهد رسول اللّه (ص) أن لا يخرج معه أحد إلا من حضر المعركة يوم اُحد، حيث قال: ألا لا يخرجنّ معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، ألا من كانت به جراحة فليخرج، ومن لم تكن به جراحة فليقم.

فخرج معه سبعون رجلًا ممّن أثقلهم الجراح وهم يأملون أن لا تفوتهم غزوة مع رسول اللّه (ص).

وقدّم (ص) علياً (ع) بين يديه براية المهاجرين، واستأذنه جابر بن عبداللّه فى أن يفسح له فى الخروج معه، ففسح له فى ذلك، فخرجوا على ما بهم من الجهد والجراح، وإنما خرج (ص) مرهباً للعدوّ ومتجلّداً، وذلك بعد أن استخلف على المدينة ابن اُمّ مكتوم، فبلغ حمراء الأسد، وهى على ثمانية أميال من المدينة.

وهناك مرّ برسول اللّه (ص) معبد بن أبى معبد الخزاعى، وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول اللّه (ص) مسلمهم وكافرهم، لايخفون عليه شيء، ومعبد يومئذ مشرك. فقال: يا محمد، أما واللّه لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك، ولوددنا أن اللّه عافاك فيهم.

ثم خرج معبد من عند رسول اللّه (ص) حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا على الرجعة إلى رسول اللّه (ص) وأصحابه وهم يقولون: أصبنا جلّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم؟ فلنكرنّ على بقيتهم فلنفرغن منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبداً، قال: ما وراءك يا معبد؟

قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقاً، وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ما ضيّعوا وفيهم من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط.

قال: ويلك ما تقول؟

قال: واللّه ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل.

فساء ذلك أبا سفيان ومن معه، ووقع فى قلوبهم الرعب مما دعاهم إلى الإنصراف عما عزموا عليه، والرجوع إلى مكة.

هذا ورسول اللّه (ص) لما نزل بحمراء الأسد أمر أصحابه فى الليل بأن يوقدوا حولهم نيراناً كثيرة، فأوقدوا خمسمائة نار كانت ترى من بعيد.

فتصوّر المشركون ان النبى (ص) يقفوا أثرهم فى عدد عظيم من أصحابه، فتشاوروا فيما بينهم ثم عزموا على الإنصراف إلى مكة.

وأقام رسول اللّه (ص) بأصحابه هناك ثلاثة أيام، فلما اطمئنّوا من انصراف المشركين عن الكرّة عليهم رجعوا إلى المدينة فوصلوها يوم الجمعة بعد أن غابوا عنها خمسة أيّام.

سرية الغنوىّ إلى الرجيع

والرجيع بفتح الراء وكسر الجيم اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان، وكانت الوقعة بالقرب منه.

وذلك انه قدم على رسول اللّه (ص) أوائل شهر صفر على رأس أربعة أشهر من اُحد نفر من عضل والقارة، وقيل: من عضل والديش، وهما بطنان من العرب، فذكروا للنبى (ص) أنّ فيهم إسلاماً، ورغبوا أن يبعث معهم نفراً من المسلمين يعلّمونهم القرآن ويفقّهونهم فى الدين.

فبعث رسول اللّه (ص) ستة رجال من أصحابه، وقيل: سبعة، وقيل: عشرة، فيهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى، فجعله أميراً عليهم حتى إذا صاروا بالرجيع غدروا بهم، واستصرخوا عليهم هذيلًا، فوقع بين الجانبين قتال شديد أسفر عن غلبة المشركين لكثرتهم، وانحدار المجموعة الصغيرة من المسلمين لقلّتهم وعدم تهيّئهم للحرب والقتال.

سرية منذر إلى بئر معونة

وبئر معونة بضم العين موضع ببلاد هذيل بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم، وهى الى حرة بنى سليم أقرب.

وذلک فى أواسط شهر صفر على رأس أربعة أشهر من اُحد أيضاً، ولکن قبل أن يصل إلى المدينة أنباء الغدر بسرية الغنوى إلى الرجيع.

وکان سببها: ان أبا البراء عامر بن مالک المعروف بملاعب الأسنة قدم على رسول اللّه (ص)، فعرض (ص) عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد: انّ أمرک هذا الذى تدعو إليه حسن جميل، فلو بعثت رجالاً من أصحابک إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرک رجوت أن يستجيبوا لک.

فقال رسول اللّه (ص): إنّى أخشى أهل نجد عليهم.

فقال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم.

فبعث (ص) المنذر بن عمرو فى بضعة وعشرين رجلاً وقيل: فى أربعين رجلاً وقيل: فى سبعين، وکانوا من خيار المسلمين ومن القرّاء، يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل، ويتدارسون القرآن.

فساروا حتى إذا نزلوا بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان بکتابه (ص) إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر فى کتابه حتى عدا على الرجل فقتله.

ثم استصرخ عليهم بنى عامر فلم يجيبوه وقالوا: نحن لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ قبائل من بنى سليم: عصيّة ورعلا وذکوان، فأجابوه إلى ذلک.

ثم خرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، إلا کعب بن زيد، فإنهم ترکوه وبه رمق، فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً.

وأسر عمرو بن اُمية الضمرىّ، فلما أخبرهم أنه من مضر أخذه عامر بن الطفيل وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها کانت على اُمه.

فقدم عمرو بن اُميّة الضمرى إلى رسول اللّه (ص) وأخبره الخبر، فنعاهم إلى أصحابه وقال: انّ أصحابکم قد اُصيبوا وانهم قد سألوا ربهم وقالوا: ربّنا أبلغ عنّا قومنا بأنا قد لقينا ربّنا فرضى عنّا ورضينا عنه.

ولما بلغ ذلک أبا براء، شقّ عليه اخفار عامر إياه وما أصاب أصحاب رسول اللّه (ص) بسببه وجواره، ونزل به الموت، فحمل ربيعة بن أبى براء لما وصله الخبر على عامر بن الطفيل وهو فى نادى قومه فأخطأ مقاتله فأصاب فخذه.

فقال عامر: هذا عمل عمى أبى براء، فلم يجرأ على الثأر منه.

وقيل: ان خبر بعث الرجيع، وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبى (ص) فى ليلة واحدة فحزّ ذلک فى قلبه وقلوب المسلمين، وعرف المسلمون ان الغدر والفتک من عادة الجاهلية والجاهليّين، ولايمکن قلعه ولا اجتثاث جذوره إلاّ بنشر الإسلام وابلاغ تعاليمه الأخلاقية إلى الناس کافة، فاندفعوا وبکل قوّة إلى نشر الإسلام وتبليغ أحکامه والإلتزام بإطاعة اللّه ورسوله (ص).

۱ آل عمران: ۱۵۴.

۲ قد سبق أنها (صلوات الله عليها) خرجت إلى اُحد بعدما سمعت النداء بقتل أبيها (ص) وذلک على رواية، أو أنها رجعت بعد ذلک ثم استقبلته (ص) عند رجوعه.

۳ البقرة: ۱۵۶. ۴ البقرة: ۱۵۶.

غزوة بنى النضير

مضـى فيما سـبق: انه لما دخل رسول اللّه (ص) المدينـة صالحه بنو النضـير كبقيّـة اليهود على أن لايقاتلوه، ولايقاتلوا معه، فقبل ذلك منهم.

فلما غزا رسول اللّه (ص) بدراً وظهر على المشركين قالوا: واللّه انه للنبيّ الذى وجدنا نعته فى التوراة لاتردّ له راية، فلما غزا اُحد وانهزم المسلمون ارتابوا ونقضوا العهد وأتوا قريشاً وحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد (ص)، فنزل جبرئيل وأخبر النبى (ص) بالخبر.

ولكى يظهر النبى (ص) نوايا بنى النضـير العدوانيـة التى أضـمروها للمسـلمين، ويكشف واقعهم السـيّء للرأى العام، خرج (ص) إليهم يوم السـبت فى شـهر ربيع الأول وصـلى فى مسـجد قبا ومعه نفر من أصـحابه دون العشرة، ثم أتاهم فكلّمهم أن يقرضوه فى دية بعض القتلى وكان الإستقراض جارياً بينهم فقالوا: نقرضك ما أحببت.

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحال. وكان (ص) إلى جنب جدار من بيوتهم.

فقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش، فقال: أنا لذلك.

فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا، واللّه ليخبرنّ بما هممتم به، وانه لنقض العهد الذى بيننا وبينه.

فجاء جبرئيل وأخبر رسول اللّه (ص) الخبر، فخرج راجعاً إلى المدينة، وذلك بعد أن أوصـى علياً (ع) بأن لايبرح من مكانه، وأن يخبر من سأله عنه من أصحابه بتوجّهه إلى المدينة، ففعل ذلك، ثم لحقوا به فقالوا: قمت يا رسول اللّه ولم نشعر.

فقال: همّت اليهود بالغدر فأخبرنى اللّه بذلك فقمت.

ثم أرسـل (ص) إليهم من يـأمرهم بالجلاء من منازلهم، وكانت منازلهم بناحيـة الفرع وما والاها بقريـة يقال لها: زهرة، وأمهلهم عشـرة أيام.

فوصل الخبر إلى ابن اُبى فأرسل إليهم من ينهاهم عن الخروج ويعـدهم نصـرة قومه لهم، وامـداد قريظة وحلفاءهم من غطفان، فطمعوا فى ذلك.

فخرج إليهم رسول اللّه (ص) فصلّى العصر بفناء بنى النضير وعلى (ع) يحمل رايته واستخلف على المدينة ابن اُمّ مكتوم.

فلما رأوا رسول اللّه (ص) قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارة، فاعتزلتهم قريظـة، وخفرهم ابن اُبىّ، فحاصـرهم رسول اللّه (ص) إحدى وعشرين ليلة، وقذف اللّه الرعب فى قلوبهم فعزموا على الخروج من المدينة من دون قتال.

فقال لهم رسول اللّه (ص): اُخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة وهى السلاح.

فخرجوا بالنساء والصبيان يزمّرون ويضـربون بالدفوف، وتحمّلوا على ستمائة بعير حتى ان الرجل منهم يقلع باب بيته ويضعه على بعيره، ثم يخربون بيوتهم بأيديهم ويخرجون، فمنهم من صار إلى خيبر، ومنهم من صار إلى الشام، ومنهم من صار إلى الحيرة.

أموال بنى النضير

وقبض رسول اللّه (ص) السـلاح والأموال صافيـة له، لأن المسـلمين لم يوجفوا عليهـا بخيـل ولا ركـاب، وانمـا قـذف اللّه فى قلوبهم الرعب، فسلّموا بدون قتال ولا اراقة دماء، فكان ممّا أفاءه اللّه على رسوله.

فـدعى رسول اللّه (ص) حينئـذ الأنصـار كلها الأوس والخزرج، فحمـد اللّه وأثنى عليه وذكر الأنصار وما صـنعوا بالمهاجرين، وانزالهم إيّاهم فى منـازلهم، واثرتهم على أنفسـهم، ثم قـال (ص): ان أحببتم قسّـمت بينكم وبين المهـاجرين مـا أفاء اللّه علىّ من بنى النضـير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم.

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: يا رسول اللّه بل تقسّمه للمهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا.

ونادت الأنصار: رضينا وسلّمنا يا رسول اللّه.

فقال رسول اللّه (ص): (اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار) وقسّم ما أفاء اللّه عليه بين المهاجرين دون الأنصار إلا رجلين من الأنصار كانا محتاجين، ووسّع (ص) فى الناس فى أموال بنى النضير، وأنزل اللّه تعالى فى قصة بنى النضير سورة الحشر، ومدح الأنصار على رواية بقوله: (ويؤثرون على أنفسهم)(۱).

وفى مجمع البيان عن أبى هريرة: ان الآية نزلت فى شأن على (ع) وفاطمة(ع) فى ضيافة كانت لهما قد آثرا ضيفهما على أنفسهما.

وفى هذه الغزوة أبلى على (ع) بلاءاً حسناً حيث قتل اليهود العشرة بقيادة رئيسهم عازورا الذين خرجوا من الحصن فى ظلام الليل لعمليات تخريبية واغتيال النبى (ص) وكفى اللّه المؤمنين به شرهم، وفيه يقول حسّان بن ثابت:

اللّه أىّ كريهة أبليتها ببنى نضير والنفوس تطلّع

أردى رئيسهم وآب بتسعة طوراً يشلّهم وطوراً يدفع

من أسلم من بنى النضير

ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان: يامين بن عمير، وهو ابن عم عمرو بن جحاش الذى انتدب لإلقاء الصخرة على رسول اللّه (ص)، وأبو سعد بن وهب.

أسلما على أموالهما، واحرازها، وحسن اسلامهما، حتى أن يامين على ما قيل: جعل لرجل جعلاً على أن يقتل له ابن عمه عمرو بن جحاش على ما أراده من اغتيال رسول اللّه (ص) ففعل الرجل ذلك.

غزوة بنى لحيان

ثم كانت بعد غزوة بنى النضير غزوة بنى لحيان، فقد خرج اليهم رسول اللّه (ص) يطلب بأصحاب الرجيع الذين غدر بهم بنو لحيان وقتلوهم عن آخرهم.

وأظهر (ص) عند خروجه إليهم انه يريد الشام ليصيب من القوم غرة يفاجئهم بها فيستسلموا من دون حرب فيقل القتل وسفك الدماء، ولذلك خرج (ص) وأخذ فى السير حتى نزل على منازل بنى لحيان بين أمَج وعسفان، فوجدهم قد حذروا وتمنّعوا فى رؤس الجبال، فتركهم.

عندها قال المسلمون: لو انا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة انا قد جئنا مكة، فسار (ص) وهو فى مائتى راكب حتى نزل عسفان تخويفاً لمشركى مكة، وجاز على قبر اُمه فزارها، وأرسل فارسين من الصحابة حتى بلغا كراع الغميم، ثم عادَ ولم يلق حرباً.

غزوة ذات الرقاع

وبعد مضى شهرين من غزوة بنى النضير(۲) كانت غزوة ذات الرقاع، وسمّيت ذات الرقاع لأنهم رقعوا راياتهم.

وقيل: لأنهم كانوا بقرب جبل فيه بقعٌ بياض وسواد وحمرة.

وقيل: لأن أقدامهم نقبت فيها، فكانوا يلفّون على أقدامهم الخِرق.

وقيل: لوقوع صلاة الخوف فيها وصلاة الخوف ترقيع للصلاة.

وكان سببها: ان قادماً قدم المدينة بمتاع له، فأخبر رسول اللّه (ص) بأن انماراً وثعلبة قد جمّعوا له الجموع يريدون اجتياح المدينة.

فخرج (ص) اليهم ليلة السبت لعشر خلون من المحرم فى أربعمائة رجل، وقيل: فى سبعمائة، وقيل: فى ثمانمائة من أصحابه، فسار حتى نزل فى محالّهم بذات الرقاع وهى جبل، فلقى المشركين ولم يقع بينهم حرب، ولكن خاف المسلمون أن يُغير المشركون عليهم،

فنزلت صلاة الخوف، فصلّى رسول اللّه (ص) بأصحابه صلاة الخوف، وكان أول ما صلّاها.

كرم رسول اللّه (ص) وحلمه

ونزل رسول اللّه (ص) فى غزوة ذات الرقاع تحت شجرة على شفير واد، فأقبل سيل فحال بينه وبين أصحابه، فرآه رجل من المشركين، فقال لقومه: أنا أقتل محمداً فجاء وشدّ على رسول اللّه (ص) بالسيف وقال: من ينجيك منّى؟

فقال (ص): ربّى وربّك، فنسفه جبرئيل عن فرسه فسقط، فقام رسول اللّه (ص) فأخذ السيف وجلس على صدره وقال: من ينجيك منّى؟

قال: جودك وكرمك، فتركه (ص)، وقام الرجل فجاء إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس، فأسلم بسببه جماعة.

وفى رواية: انه عندما جلس (ص) على صدره قال له: تشهد أن لا إله إلا اللّه وانى رسول اللّه؟ فقال الرجل: اعاهدك أن لا اُقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى (ص) سبيله، فجاء الرجل إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس...

ثبات وصمود

ثم انصرف رسول اللّه (ص) بأصحابه راجعاً إلى المدينة، وذلك بعد أن أصابوا بعض الغنائم، وفى الطريق باتوا فى فم شعب، فانتدب عباد بن بشير وعمار بن ياسر للحراسة يتناوبانها بينهما.

فنام عمّار وقام عباد للحراسة واشتغل بالصلاة، وفى الأثناء جاء رجل من الأعداء وهو يريد اصابة شىء أو اراقة دم، فلما رأى طليعتهم عباد أخذ يرميه بالسهم تلو الآخر وعباد صامد لا يتحرك حتى إذا غلبه الدم ركع وسجد وأتمّ صلاته ثم أيقظ صاحبه وأخبره الخبر.

فقال له عمار: ألا أخبرتنى أول ما رماك!

قال: كنت فى سورة أقرؤها فلم اُحب أن أقطعها، وأيم اللّه لولا خوفى أن اُضيّع ثغراً أمرنى رسول اللّه (ص) بحفظه لقطع نفسى قبل أن أقطعها.

تفقّد الرسول (ص) أصحابه

وكان رسول اللّه (ص) يسير فى مؤخّر القوم ليسعف الضعيف منهم، ويحمل معه من قعد به مركبه وعجز به عن حمله، وفى هذه المرّة وفى طريق العودة من ذات الرقاع التقى بجابر بن عبداللّه الأنصارى وقد تخلّف عن القوم فقال له:

ما لك يا جابر؟

قال جابر وهو يشير إلى جمله: أبطأ بى هذا.

فدنى رسول اللّه (ص) إلى الجمل، ومسح يده عليه فقوى الجمل وأخذ يواهق ناقته مواقهة، ثم قال لجابر: يا جابر أتبيعنى جملك هذا؟

قال: بل أهبه لك يا رسول اللّه.

قال (ص): لا، ولكن بعنيه.

قال: اذن فساوِمنى عليه يا رسول اللّه.

قال (ص): قد أخذته بدرهم.

قال: إذن تغبننى يا رسول اللّه.

قال (ص): فبدرهمين.

قال جابر: لا.

فلم يزل يرفع له رسول اللّه (ص) فى ثمنه حتى بلغ الأوقية. فقال (ص): أرضيت يا جابر؟

قال جابر: نعم رضيت يا رسول اللّه فهو لك.

قال (ص): قد أخذته ولك ظهره إلى المدينة.

ثم قال له رسول اللّه (ص): هل تزوّجت يا جابر؟

قال: نعم يا رسول اللّه (ص).

قال (ص): ثيباً أم بكراً؟

قال: بل ثيباً، فابتسم رسول اللّه (ص) وقال: أفلا جارية؟

قال جابر وقد تنفّس الصعداء: يا رسول اللّه إنّ أبى اُصيب يوم اُحد وترك سبع بنات فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤسهنّ وتقوم عليهنّ.

وهنا تأثّر رسول اللّه (ص) حتى ظهر على قسمات وجهه الشريف آثاره وقال مستحسناً عمل جابر: أحسنت وأصبت يا جابر.

ثم سأله عن دَين أبيه فأخبره. فقال (ص) له: إذا دخلت المدينة وأردت أن تجذّ نخلك وتأخذ تمرها فأخبرنى.

قال جابر: فدخلت المدينة وحدثت زوجتى الحديث وما قال لى رسول اللّه(ص). فقالت مستبشرة: فدونك، سمع وطاعة.

قال: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل حتى أنخته على باب المسجد، ثم جلست فى المسجد قريباً منه، فخرج رسول اللّه (ص) إلى المسجد فرأى الجمل فقال: ما هذا؟

قالوا: يا رسول اللّه هذا جمل جابر.

قال (ص): وأين جابر هو؟ فدُعى له، فلما مثل بين يديه قال (ص) له: ياابن أخى خذ برأس جملك فهو لك، ثم دعا بلالاً وقال له: اذهب بجابر فاعطيه اوقية.

قال جابر: فذهبت معه فأعطانى اوقية وزادنى.

اللّه أرحم بكم

ومما يذكر وقوعه فى غزوة ذات الرقاع: انّ رجلاً جاء وفى يده فرخ طائر حتى إذا وصل إليهم رأوا انّ أبوى هذا الفرخ يرفرفان فوق رأسه، فلما استقرّ الرجل بينهم طرحا أنفسهما على فرخهما ولم يعبئا بالخطر شفقة ورحمة بفرخهما، فتعجّب الناس من ذلك.

فالتفت إليهم رسول اللّه (ص) وقال: أتعجبون من هذا الطائر، أخذتم فرخه، فطرح نفسه رحمة بفرخه؟ واللّه لربّكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه. ثم التفت (ص) بعد ذلك إلى الرجل وأمره بإطلاقه.

غزوة بدر الأخيرة

ولما قدم رسول اللّه (ص) من غزوة ذات الرقاع إلى المدينة أقام بها جمادى الاُولى إلى آخر رجب، ثم خرج فى شعبان وقيل: أقام بها إلى آخر شوّال، ثم خرج فى هلال ذى القعدة فى السنة الرابعة من الهجرة النبوية المباركة إلى بدر لميعاد أبى سفيان.

وذلك انّ أبا سفيان قال يوم اُحد عند انصرافه منهزماً إلى مكة: الموعد بيننا وبينكم بدر العام القابل.

فقال رسول اللّه (ص) لعلى (ع) قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

فخرج رسول اللّه (ص) وحمل لوائه على (ع) وسار معه ألف وخمسمائة من أصحابه، والخيل عشرة أفراس، وذلك بعد أن استعمل على المدينة عبداللّه بن رواحة.

فلمـا وصـلوا إلی بـدر الصـغری وكـانت موضع سوق لهم فی الجاهلیـة یجتمعون إلیهـا فی كل عام ثمانیـة أیام أقاموا علیها ینتظرون أبا سفیان.

وخرج أبو سـفیان من مكّة ومعه ألفان وخمسون فرساً حتی نزل مجنّة من ناحیة مرّ الظهران ثم بدا له الرجوع، فبعث من یثبّط المسلمین عن الخروج إلیهم ووعده علی ذلك عشرة من الإبل یضعها له علی یدی سهیل بن عمرو إن هو فعل ذلك.

ثم التفت أبو سـفیان إلی مَن معه وقـال: یـا معشـر قریش انه لاـ یصـلحكم إلاـ عـام خصب، وإن عـامكم هـذا عـام جـدب، وانی راجع فارجعوا، فرجع ورجع من كان معه.

فسمّاهم أهل مكة: جیش السویق یقولون: انما خرجتم تشربون السویق.

وأقـام رسول اللّه (ص) وأصـحابه ببـدر ثمانیـة أیـام لم یلقوا فیهـا أحـداً من المشـركین، ووافقوا السوق وكـانت لهم تجـارات فباعوها وأصابوا الدرهم درهمین، وانصرفوا إلی المدینة سالمین غانمین.

مع أشجع وبنی ضمرة

وفی الطریق مرّ رسول اللّه (ص) ومعه أصحابه قریباً من بلاد أشجع وبنی ضمرة، وكان قد هادن بنی ضمرة ووادعهم من قبل.

فقال أصـحاب رسول اللّه (ص): یا رسول اللّه هذه بنو ضمرة قریباً منّا، ونخاف أن یخالفونا إلی المدینة، أو یعینوا علینا قریشاً، فلو بدأنا بهم؟

فقال رسول اللّه (ص): كلا انهم أبرّ العرب بالوالدین، وأوصلهم للرحم، وأوفاهم بالعهد.

وكـانت (أشـجع) بلاـدهم قریبـاً من بلاـد بنی ضـمرة وهم بطن من كنانـة، وكـان بین أشـجع وبنی ضـمرة حلف فی المراعـاة والأمان، فاُجدبت بلاد أشـجع، واُخصبت بلاد بنی ضمرة، فصارت أشجع إلی بلاد بنی ضمرة، فكان محالّها البیضاء والجبل والمستباح، وبذلك كانوا قد قربوا من رسول اللّه (ص) فهابوا لقربهم منه وخطرهم علیه، أن یبعث إلیهم رسول اللّه (ص) من یغزوهم.

كمـا انّ رسول اللّه (ص) خـافهم بسـبب قربهم أن یصـیبوا من أطرافه شـیئاً، فهمّ بالمسـیر إلیهم، فبینـا هو علی ذلك، إذ جاءت أشـجع ورئیسـها مسـعود بن رخیلة وهم سـبعمائة فنزلوا شـعب سلع، عندها دعی رسول اللّه (ص) اُسید بن حضیر وقال له: اذهب أنت ونفر من أصحابك حتی تنظر ما أقدم أشجع؟

فخرج اسید ومعه ثلاثة من أصحابه، فوقف علیهم وقال: ما أقدمكم؟

فقام إلیه رئیس أشـجع مسـعود بن رخیلة فسـلّم علی اسـید وعلی أصـحابه وقال: جئنا لنوادع محمداً، فرجع اسـید إلی رسول اللّه (ص) وأخبره بالخبر.

فقال رسول اللّه (ص): خاف القوم أن أغزوهم فأرادوا الصلح بینی وبینهم، ثم بعث إلیهم بعشرة أحمال تمر فقدّمها أمامه ثم قال: (نعم الشیء الهدیة أمام الحاجة) ثم أتاهم (ص) فقال: یا معشر أشجع ما أقدمكم؟

قـالوا: قربت دارنـا منـك، ولیس فی قومنـا أقـلّ عـدداً منّا، فضـقنا بحربـك لقرب دارنـا منـك، وضـقنا بحرب قومنا لقلّتنا فیهم، فجئنا لنوادعك.

فقبل النبی (ص) ذلك منهم ووادعهم فأقاموا یومهم ثم رجعوا إلی بلادهم، وفیهم نزلت هـذه الآیة: (إلّا الذین یصـلون إلی قوم بینكم وبینهم میثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم ان یقاتلوكم أو یقاتلوا قومهم)(۳).

غزوة دومة الجندل

و(دومة الجندل) مدینة بینها وبین دمشق خمس لیال، وبعدها من المدینة خمس عشرة لیلة أو ست عشرة.

وكان سببها أنه بلغه (ص) أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مرّ بهم، من المسافرين والتجّار، وانهم يريدون الإغارة على المدينة، فخرج لخمس ليال بقين من ربيع سنة خمس للهجرة النبوية المباركة، وذلك فى ألف من أصحابه، فكان يسير الليل ويكمن النهار، حتى إذا دنا من دومة الجندل بلغ أهلها خبره فتفرّقوا من فورهم.

فنزل (ص) بساحتهم فلم يلق بها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا وفرقها، فرجعوا بعد يوم ولم يصادفوا منهم أحداً.

ثم عاد رسول اللّه (ص) إلى المدينة ولم يلق كيداً. وكان ذلك تمهيداً لما حدث بعد ذلك من فتح الشام.

۱ الحشر: ۹. ۲ وقيل: بعد فتح بنى قريضة. ۳ النساء: ۹۰.

غزوة الخندق (الأحزاب)

وكانت فى شوال سنة خمس من الهجرة النبوية المباركة.

وذلك ان نفراً من اليهود منهم: سلام بن أبى الحقيق النضيرىّ، وحييّ بن أخطب، وكنانة بن الربيع، وهوذة بن قيس الوالبى، وأبو عمارة الوالبى فى نفر من بنى النضير، ونفر من بنى وائل، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فقالوا لهم: انّ محمداً قد وترنا ووتركم، وأجلانا من المدينة من ديارنا وأموالنا، وأجلا بنى عمنا بنى قينقاع، فسيروا فى الأرض وأجمعوا حلفاءكم وغيرهم حتى نسير إليهم، فإنه قد بقى من قومنا بيثرب سبعمائة مقاتل وهم بنو قريظة وبينهم وبين محمد عهد وميثاق، وإنّا نحملهم على نقض العهد بينهم وبين محمد ويكونون معنا عليهم، فتأتونه أنتم من فوق، وهم من أسفل، وكان موضع بنى قريظة من المدينة على قدر ميلين وهو الموضع الذى يسمىّ ببئر بنى المطّلب، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وانكم أولى بالحق منه.

فأنزل اللّه تعالى فيهم على رواية: (ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا)(۱) إلى قوله: (وكفى بجهنّم سعيراً)(۲).

فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول اللّه(ص).

وجاءهم أبو سفيان فقال لهم: قد مكّنكم اللّه من عدوّكم، هذه اليهود تقاتل معكم ولن تنفك عنكم حتى نأتى على جميعهم، أو نستأصلهم، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له.

ثم خرج ذلك النفر من اليهود حتى أتوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول اللّه (ص) وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأنّ قريشاً قد تابعوهم على ذلك.

فخرجت قريش وقائدهم إذ ذاك أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن فى بنى قرارة، والحارث بن عوف فى بنى مرة، ومسعر بن دخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع، وتوجّهوا فى عشرة آلاف، وقيل: فى ثمانية عشر ألف رجل، نحو المدينة.

المشورة تهدى إلى الظفر

فلما سمع بهم رسول اللّه (ص) استشار أصحابه، فكان رأيهم على المقام فى المدينة وحرب القوم إن جاءوا إليهم على أنقابها.

فأشار سلمان الفارسى بالخندق واستحسنه القوم، ونزل جبرئيل على رسول اللّه (ص) بصواب رأى سلمان.

فخرج رسول اللّه (ص) فحدّد حفر الخندق من ناحية اُحد إلى راتج، حيث كان سائر أنحاء المدينة مشبك بالنخيل والبنيان، وخطّ موضع الحفر بخط على الأرض، فضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول اللّه (ص) ترغيباً للمسلمين فى الأجر فحفر بنفسه فى موضع المهاجرين، وعلى (ع) ينقل التراب من الحفرة، حتى عرق رسول اللّه (ص) وعيى وقال: (لا عيش إلا عيش الآخرة، اللّهم اغفر

للأنصار والمهاجرين).

فقالوا مجيبين له:

(نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا)

وكان سلمان رجلاً قويّاً، فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقالت الأنصار: سلمان منّا، فقال النبى (ص): (سلمان منّا أهل البيت).

وكان لكل عشرة منهم أربعون ذراعاً يحفرونها، فبدأ رسول اللّه (ص) فعمل فيه وعمل فيه المسلمون، فدأب فيه فدأبوا.

وأبطأ عن رسول اللّه (ص) وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورّون بالضعف عن العمل، ويتسلّلون إلى أهليهم بغير علم من رسول اللّه (ص) ولا إذن.

وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة من الحاجة التى لابدّ منها ذكرها لرسول اللّه (ص) واستأذنه باللحوق بحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبةً فى الخير واحتساباً له، فأنزل اللّه فى أُولئك المؤمنين: (إنّما المؤمنون الذين آمنوا باللّه ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه)(۳).

ثم قال تعالى فى المنافقين الذين كانوا يتسلّلون من العمل ويذهبون بغير إذن: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً، قد يعلم اللّه الذين يتسلّلون منكم لواذاً)(۴).

وكان الذى أشار بالخندق سلمان فقال: يا رسول اللّه، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، ولم تكن تعرفه العرب قبل ذلك، ولذا قال المشركون لما رأوا الخندق: انها مكيدة فارسية ما كانت العرب تكيدها.

النبى (ص) يجوع ليَشبع الآخرون

قال على (ع): كنا مع النبى (ص) فى حفر الخندق إذ جاءته فاطمة(ع) ومعها كسرة من خبز، فدفعتها إلى النبى (ص) فقال: يا فاطمة ما هذه؟

قالت (ص): قرص خَبَزته للحسن والحسين (عليه السلام) جئتك منه بهذه الكسرة.

فقال النبى (ص): أما إنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث.

بوارق الفتح

وبينا المهاجرون والأنصار يحفرون إذ عرض لهم جبل لم تعمل فيه المعاول، فبعثوا جابر بن عبداللّه الأنصارى إلى رسول اللّه (ص) يعلمه بذلك.

قال جابر: فجئت إلى رسول اللّه (ص) وقد شدّ على بطنه حجر المجاعة، وأخبرته بالخبر.

فأقبل (ص) ودعا بماء فى اناء، فشرب منه ثم مجّ ذلك الماء فى فيه، ثم صبه على ذلك الحجر، ثم أخذ معولاً فقال: بسم اللّه، فضرب ضربة، فبرقت برقة، فنظرنا فيها إلى قصور الشام، ثم ضرب أُخرى فبرقت برقة فنظرنا فيها إلى قصور المدائن، ثم ضرب أُخرى فبرقت برقة أُخرى فنظرنا فيها إلى قصور اليمن.

فقال رسول اللّه (ص): أما انه سيفتح اللّه عليكم هذه المواطن التى برقت فيها البرقة، ثم انهال علينا الجبل كما ينهال الرمل.

فى ضيافة جابر

قال جابر: فلما رأيت رسول اللّه (ص) قد شدّ على بطنه حجراً علمتُ بأنه جائع، فقلت له: يا رسول اللّه هل لك فى الغداء؟

قال (ص): ما عندك يا جابر؟

قلت: عناق وصاع من شعير.

قال (ص) تقدّم وأصلح ما عندك.

قال جابر: فجئتُ إلى أهلى فأمرتها فطحنت الشعير، وذبحت العنز وسلختها، وأمرتها أن تخبز وتطبخ وتشوّى، فلما فرغت من ذلك، جئت إلى رسول اللّه (ص) فقلت: بأبى وأُمّى أنت يا رسول اللّه قد فرغنا، فاحضر مع من أحببت.

فقام رسول اللّه (ص) إلى شفير الخندق ثم قال: يا معاشر المهاجرين والأنصار أجيبوا جابراً، وكان فى الخندق سبعمائة رجل، فخرجوا كلّهم! ثم لم يمرّ (ص) بأحد من المهاجرين والأنصار إلا قال: أجيبوا جابراً!

قال جابر: فأسرعت إلى البيت وقلت لأهلى: قد واللّه أتاك رسول اللّه (ص) بما لاقبل لك به.

فقالت: هل أنت أعلمته بما عندنا؟

قال: نعم.

قالت: هو أعلم بما أتى.

قال جابر: فدخل رسول اللّه (ص) فنظر فى القدر، ثم نظر فى التنور، ثم دعى بصحفة فثرد فيها وغرف، فقال: يا جابر أدخل علىّ عشرة، فأدخلت عشرة، فأكلوا حتى نهلوا، وما يرى فى القصعة إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر علىّ بالذراع، فأتيته بالذراع فأكلوه.

ثم قال: أدخل علىّ عشرة، فدخلوا فأكلوا حتى نهلوا وما يرى فى القصعة إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر علىّ بالذراع، فأتيته فأكلوا وخرجوا.

ثم قال: أدخل علىّ عشرة، فأدخلتهم فأكلوا حتى نهلوا ولم ير فى القصعة إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر علىّ بالذراع، فأتيته بالذراع فتعجّبت وقلت: يا رسول اللّه كم للشاة من ذراع؟

قال (ص): ذراعان.

قلت: والذى بعثك بالحقّ نبيّاً لقد أتيتك بثلاثة.

فقال: أما لو سكتّ يا جابر لأكلوا كلهم من الذراع.

قال جابر: فأقبلت أُدخل عليه عشرة عشرة فيأكلون حتى أكلوا كلهم، وبقى واللّه لنا من ذلك الطعام ما عشنا به أياماً.

المشركون ومحاصرة المدينة

قال: وحفر رسول اللّه (ص) الخندق وأتمّه قبل قدوم قريش بثلاثة أيام، وقد طال حفره مايقارب من شهر واحد، وذلك بعد أن جعل له ثمانية أبواب، وجعل على كل باب رجلاً من المهاجرين ورجلاً من الأنصار مع جماعة يحفظونه.

ثم ضرب (ص) عسكره هناك وكانوا ثلاثة آلاف، فجعل الخندق أمامه، وجعل ظهره إلى سلع وهو جبل بالمدينة، وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا فى الآطام، وذلك بعد أن استعمل ابن أُمّ مكتوم على المدينة.

وقدمت الأحزاب وعلى رأسهم قريش ومعهم حيىّ بن أخطب، فلما نزلوا العقيق جاء حيىّ بن أخطب إلى بنى قريظة فى جوف الليل، وكانوا فى حصنهم وقد تمسّكوا بما عاهدوا عليه رسول اللّه (ص) فدقّ باب الحصن، فسمعه كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم، وكان هو بنفسه الذى وادع رسول اللّه (ص) على قومه وعاقده على ذلك، فعرف انه حيىّ بن أخطب، فأغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له.

فناداه حيىّ: ويحك يا كعب افتح لى.

قال: ويحك يا حيى إنك امرؤ مشؤوم، وانى قد عاهدت محمداً، وانك لست بناقض مابينى وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً.

قال: ويحك افتح لى أُكلّمك.

فقال: ما أنا بفاعل.

قال حيىّ، وقد فكّر فى كلام يثير به كعب: واللّه ما أغلقت الباب دونى إلا عن جشيشتك التى فى التنور تخاف أن آكل منها.

فأحفظ الرجل ففتح له وقال: لعنك اللّه لقد دخلت علىّ من باب دقيق.

فقال حيىّ: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومهٔ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نَقَمى إلى جانب اُحد قد عاهدونى وعاقدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

قال كعب: جئتنى واللّه بذلّ الدهر وبجهام قد هرق ماؤه، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شىء، ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه، فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً.

فلم يزل حيى يفتله فى الذروهٔ والغارب ويقول له: بأن محمداً لا يفلت من هذا الجمع أبداً، وان فاتك هذا الوقت لاتدرك مثله أبداً، حتى سمع له على أن أعطاه عهداً من اللّه وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك.

وبهذا تمكّن حيى من اقناع كعب، فلما اقتنع كعب بذلك أرسل إلى كل من كان فى الحصن من رؤساء اليهود وقال لهم: ما ترون؟

قالوا: أنت سيّدنا وصاحب عهدنا فإن نقضت نقضنا معك، وإن أقمت أو خرجت كنا معك.

فقال لهم (ابن باطا) وكان أحد رؤسائهم: انه قرأ فى التوراهٔ وصف هذا النبى وانه لو ناوته الجبال الرواسى لغلبها، فلا يهولنّه هؤلاء وجمعهم، وحذرهم مغبّهٔ نقضهم العهد معه.

وهنا انبرى حيى وقال: ليس هذا ذاك، ذلك النبى من بنى إسرائيل، وهذا من العرب، ومازال يقلّبهم عن رأيهم حتى أجابوه، ثم طلب حيىّ الكتاب الذى كان بينهم وبين رسول اللّه (ص) فمزّقه وقال: قد وقع الأمر فتجهّزوا للقتال، فنقضوا عهدهم وعزموا على القتال.

وجاء حيىّ بن أخطب إلى أبى سفيان والأحزاب فأخبرهم بنقض بنى قريظهٔ عهدهم ففرحوا بذلك.

بنى قريظهٔ يعلنون خيانتهم

ثم بدأ بنو قريظهٔ يظهرون خيانتهم ونقضهم للعهد، وحاولوا أن يغيروا على المدينهٔ من منافذها المؤديهٔ إلى مساكن النساء والأطفال فبعثوا أحدهم ليطّلع على المنافذ ويخبرهم بها.

وفى أثناء استطلاعه بصرت به صفيهٔ بنت عبدالمطلب وهى مع جماعهٔ من النسوهٔ والأطفال وفيهم حسان بن ثابت كانوا فى حصن فارع حصن حسّان بن ثابت، فقالت لحسّان: لو نزلت إلى هذا اليهودى لتقتله، فإنه يريد أن يدلّ بنى قريظهٔ على المنافذ المؤديهٔ إلى الحصن.

فقال حسّان: يا بنت عبدالمطلب لقد علمت ما أنا بصاحب هذا.

وهنا تحزّمت صفيهٔ ثم نزلت وأخذت عموداً وقتلته به، ثم عادت إلى الحصن وقالت لحسّان: الآن فاخرج واسلبه.

أجابها حسّان: لا حاجهٔ لى فى سلبه.

النبى (ص) وأخبار بنى قريظهٔ

ولما نقض بنو قريظهٔ عهدهم، انتهى خبرهم إلى رسول اللّه (ص) فبعث إليهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادهٔ وعبداللّه بن رواحهٔ وخوّات بن جُبير وقال: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟ فإن كان حقاً فالحنوا لى لحناً أعرفه ولا تفتّوا فى أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول اللّه (ص) وقالوا: من رسول اللّه؟ لاعهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلًا فيه حدة.

فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

ثم أقبل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومن معهما إلى رسول اللّه (ص) فسلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة. أى: كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع.

فقال رسول اللّه (ص): اللّه أكبر أبشروا بنصر اللّه يا معشر المسلمين، وكان (ص) يبعث الحرس إلى المدينة خوفاً على الذرارى من بنى قريظة.

لكن عظم على المسلمين البلاء واشتدّ الخوف عندما أتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم وحاصروهم حول الخندق حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال بعضهم: قد كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب لقضاء حاجته. وأنزل اللّه تعالى: (وإذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا اللّه ورسوله إلّا غروراً)(۵).

وقال رجال معه: (يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا).

وقال بعضهم: يا رسول اللّه ان بيوتنا عورة من العدو، فائذن لنا فنرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة، فأنزل اللّه سبحانه: (وما هى بعورة إن يريدوا إلّا فراراً).

مفاوضات عسكرية

فلمّا اشتدّ البلاء على المسلمين من كثرة الأحزاب وطول محاصرتهم، بعث رسول اللّه (ص) إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان، ففاوضهما بأن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا بمن معهما عنه وعن أصحابه، وذلك ليفتّ فى عضد المشركين، فجرى بينه وبينهما مذاكرة الصلح، ولم تقم الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة فى ذلك.

فبعث رسول اللّه إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول اللّه أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك اللّه به لابدّ لنا من العمل به فافعله، أم شيئاً تصنعه لنا؟

قال (ص): بل شىء أصنعه لكم، وما أصنع ذلك إلا لأنّى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وجاؤوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرمّا.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول اللّه قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك باللّه وعبادة الأوثان ولا نعبد اللّه ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من ثمرنا تمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا اللّه بالإسلام وهدانا به نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، واللّه لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم بحكمه.

فقال رسول اللّه (ص): الآن قد عرفت ما عندكم، فكونوا على ما أنتم عليه، فإن اللّه تعالى لن يخذل نبيّه ولن يسلمه حتى ينجز له ما وعده.

وكان هذا بالإضافة إلى الفتّ فى أعضاد المشركين، واستخبار معنويات المسلمين، تعليماً من الرسول (ص) فى استشارة الحكام أهل الخبرة أيضاً.

بدء القتال

ولما علم رسول اللّه (ص) عزم أصحابه وعلوّ معنوياتهم رغم طول المحاصرة حيث دامت بضعاً وعشرين ليلة ولم يكن بينهم حرب إلا الرمى بالنبل والحصى، قام (ص) يشجّع اُولئك الذين أصابهم الضعف والوهن خوفاً من المشركين، ويحرّضهم على جهادهم، ويعدهم النصر من اللّه تعالى، ويحثهم بذلك على المجابهة إذا نشب القتال.

وفى هذه الأثناء انتدبت فوارس من قريش، وعلى رأسهم فارس يليل: عمرو بن عبدود العامرى، خرج مُعلماً ليرى مشهده، وكان يعدّ بألف فارس، فأقبلوا على خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: واللّه إنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق وسلع، وكان عمرو العامرى هذا ومن معه أول من عبر الخندق.

فخرج على بن أبى طالب (ع) فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى اقتحموا منها ومنعوا من عبور الآخرين، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم.

وكان عمرو بن عبدود ينادى تارة: ألا رجل يبارزنى؟

ويصرخ اُخرى: أين جنّتكم التى تزعمون انّ من قتل منكم دخلها؟ ويرتجز ثالثة ويقول:

ولقد بُححت من النداء بجمعكم هل من مبارز؟

ووقفت إذ جبن الشجاع مواقف البطل المناجز

انى كذلك لم أزل متسرّعاً نحو الهزاهز

إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

الايمان كله مع الشرك كله

وفى كل مرة يطلب عمرو المبارزة، كان رسول اللّه (ص) يقول لأصحابه: أيّكم يبرز إلى عمرو؟ وأضمن له على اللّه الجنّة؟

وفى كل مرة يقوم على بن أبى طالب (ع) ويقول: أنا له يا رسول اللّه، فيأمره بالجلوس انتظاراً منه ليتحرّك غيره، والمسلمون ناكسوا رؤوسهم كأنّ على رؤوسهم الطير، لمكان عمرو بن عبدود.

فلما طال نداء عمرو بالبراز وتتابع قيام على (ع) قال له رسول اللّه (ص): يا على هذا عمرو بن عبدود فارس يليل.

قال: وأنا على بن أبى طالب.

فقال (ص): إذن اُدن منّى يا على، فدنى منه، فنزع (ص) عمامته من رأسه وعمّمه بها، وأعطاه سيفه ذاالفقار وقال له: (اذهب وقاتل بهذا).

ثم رفع (ص) يديه نحو السماء وقال: (لااللّهمّ انّك أخذت منّى عبيدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة بن عبدالمطلب يوم اُحُد، وهذا أخى على بن أبى طالب، ربّ لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين، اللّهمّ أعنه، اللّهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته).

فلما برز على (ع) قال (ص): (برز الايمان كله إلى الشرك كله)(۶).

ولما برز على بن أبى طالب (ع) إلى عمرو، برز وهو يهرول فى مشيته ويرتجز ويقول مجيباً لعمرو:

لاتعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيّة وبصيرة والصدق منجى كلّ فائز

انى لأرجو أن اُقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

على أعتاب المصاولة

ولما اقترب على (ع) من عمرو، قال له عمرو: من أنت؟

قال: أنا على بن أبى طالب ابن عم رسول اللّه (ص) وختنه.

قال: واللّه انّ أباك كان لى صديقاً، وانى أكره أن أقتلك، ما أمن ابن عمّك حين بعثك إلىّ أن اختطفك برمحى هذا، فأتركك بين السماء والأرض لا حيّاً ولا ميّتاً؟

فأجابه على (ع) قائلًا: قد علم ابن عمّى انك إن قتلتنى دخلتُ الجنّة وأنت فى النار، وإن قتلتك فأنت فى النار وأنا فى الجنّة.

فقال عمرو: كلتاهما لك يا على، تلك إذن قسمةٌ ضيزى.

فقال على (ع): دع هذا يا عمرو، انى سمعتك تقول: لا ـ يعرض علىّ أحد فى الحرب ثلاث خصال إلا أجبته إلى واحدة منها، وأنا أعرض عليك ثلاث خصال فأجبنى إلى واحدة.

قال عمرو: هات يا على.

قال (ع): تشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمداً رسول اللّه.

قال: نحّ عنى هذا، فأين ما أنفقت فيكم مالاً ـ لبداً؟ وكان قد أنفق مالاً ـ فى الصدّ عن سبيل اللّه فأنزل اللّه فيه: (يقول أهلكت مالاً لبداً)(۷).

قال (ع): فالثانية: أن ترجع من حيث جئت وترد هذا الجيش عن رسول اللّه (ص)، فإن يك صادقاً فأنتم أعلى به عيناً، وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره.

قال: إذن تتحدّث نساء قريش بأنى جبنت ورجعت.

قال (ع): فالثالثة: أن تنزل إلىّ وتقاتلنى، فإنى راجل وأنت راكب.

فنزل عمرو عن فرسه وعرقبه وقال: هذه خصلة ما كنت أظن انّ أحداً من العرب يسومنى عليها، وانى لأكره أن أقتل رجلاً ـ كريماً مثلك، وقد كان أبوك لى صديقاً.

قال على (ع): لكنى اُحبّ أن أقتلك.

فغضب عندها عمرو وبدأ بالقتال فضرب علياً (ع) بالسيف على رأسه، فاتقاه بالدرقة فقطعها، وثبت السيف على رأسه (ع).

ثم بدره على (ع) فضربه على ساقيه فقطعهما جميعاً، وارتفعت بينهما عجاجة، وكبّر على (ع).

فانكشف من كان مع عمرو حتى عبروا الخندق منهزمين، فوقع نوفل بن عبدالعزّى فى الخندق، فطعنه على (ع) فى ترقوته فمات فى الخندق.

ضربة على (ع) يوم الخندق

ولما انكشفت العجاجة نظروا فإذا بعلى (ع) على صدر عمرو قد أخذ بلحيته يريد أن يذبحه، فلمّا همّ أن يذبحه تركه وقام فخطا خطوات ثم رجع إليه وأخذ بلحيته ثانية ليذبحه وهو يكبّر اللّه ويمجّده، فقال له عمرو: يا على إذا قتلتنى فلا تسلبنى حلّتى.

فقال (ع): هى أهون علىّ من ذلك، فذبحه وتركه، ثم أخذ رأسه وأقبل نحو رسول اللّه (ص) والدماء تسيل على رأس على (ع) من ضربة عمرو، وسيفه يقطر منه الدم، وهو يقول والرأس بيده:

أنا على وابن عبدالمطلب الموت خير للفتى من الهرب

يقول ذلك وهو يخطر فى مشيته.

فقال بعض: ألا ترى يا رسول اللّه إلى علىّ كيف يتبختر فى مشيه؟

فقال رسول اللّه (ص): انها لمشية لا يمقتها اللّه فى هذا المقام.

ثم استقبله رسول اللّه (ص) ومسح الغبار عن عينيه وقال له: أبشر يا على فلو وزن اليوم عملك بعمل اُمّة محمد لرجح عملك بعملهم، وذاك انه لم يبق بيت من المشركين إلّا وقد دخله ذلّ بقتل عمرو، ولم يبق بيت من المسلمين إلّا وقد دخله عزّ بقتل عمرو.

ثم قال (ص): ضربة على (ع) يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين.

وسُمع منادياً ينادى ولا يرى شخصه يقول:

قتل على عمرا قصم على ظهراً

ابرم على أمراً

ووقعت الهزيمة بالمشركين وتفرّقت الأحزاب خائفين مرعوبين.

فقال رسول اللّه (ص): الآن نغزوهم ولا يغزونا، فكان كما قال (ص) فلم يغزهم قريش بعد ذلك، وكان هو يغزوهم حتى فتح اللّه عليهم مكّة.

ولما سألوا علياً (ع) عن سبب قيامه عن صدر عمرو ثم العود إليه ثانية، وعن تركه سلبه؟

قال (ع): ان عمرواً تجاسر عليه مما أثار غضبه، فقام يخطو خطوات يطفىء بها غضبه ليكون قتله إيّاه خالصاً لوجه اللّه تعالى لا يشوبه شيء من التشفى والإنتقام لنفسه، كما انه ترك سلبه، لأن عمرواً قد سأله ذلك وطلب منه أن لايسلبه بعد قتله.

ضربتان: أعزّ وأشأم

روى الأودى قال: سمعت ابن عياش يقول: لقد ضَرب علىّ (ع) ضربة ما كان فى الإسلام ضربة أعزّ منها، يعنى بها ضربة عمرو بن عبدود العامرى، ولقد ضُرب على (ع) ضربة ما كان فى الإسلام أشأم منها، يعنى بها ضربة ابن ملجم المرادى، وفى قتل عمرو بن عبدود يقول حسّان بن ثابت:

أمسى الفتى عمرو بن عبد يبتغى بجنوب يثرب غارة لم تنظر

ولقد وجدت سيوفنا مشهورة ولقد وجدت جيادنا لم تقصر

ولقد رأيت غداة بدر عصبة ضربوك ضرباً غير ضرب المخسر

أصبحت لا تدعى ليوم عظيمة يا عمرو أو لجسيم أمر منكر

فسمعه أحد بنى عامر فأجابه وهو يرد عليه افتخاره بالأنصار قائلاً:

كذبتم وبيت اللّه لم تقتلوننا ولكن بسيف الهاشميين فافخروا

بسيف ابن عبداللّه أحمد فى الوغا بكف علىّ نلتمُ ذاك فاقصروا

فلم تقتلوا عمرو بن عبد بيأسكم ولكنه الكفو الهزبر الغضنفر

علىّ الذى فى الفخر طال بناؤه ولا تكثتروا الدعوى علينا فتحقروا

مع ابنة عبدود

وروى انه لما قتل على (ع) عمرو بن عبدودّ نعى إلى اُخته عمرة بنت عبدود، فلما جاءت إليه ورأته على حلّته لم يسلبه قاتله، قالت: من ذا الذى اجترأ عليه؟

قالوا لها: على بن أبى طالب.

قالت: لم يعد موته إلا على يد كفو كريم، لا رقأت دمعتى ان هرقتها عليه، قتل الأبطال، وبارز الأقران، وكانت منيته على يد كفو كريم من قومه، ما سمعت بأفخر من هذا يا بنى عامر، ثم أنشأت تقول:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنتُ أبكى عليه آخر الأبد

لكن قاتل عمرو لا يعاب به من كان يدعى قديماً بيضة البلد

ثم قالت: واللّه لا ثأرت قريش بأخى ما حنّت النيب والنيب جمع ناب وهى المسنّة من النوق كناية عن انها لاتستطيع ذلك أبداً.

فى الحرب ومع المشركين فقط

كان نعيم بن مسعود الأشجعى ممن يجيد فنّ الشغب والفتنة، فأتى رسول اللّه (ص) فى جوف الليل وكان قد أسلم قبل قدوم قريش بثلاثة أيام، فقال: يا رسول اللّه انى قد آمنتُ باللّه وصدقتك، وكتمتُ ايمانى عن الكفرة، فإن أمرتنى أن آتيك وأنصرك بنفسى فعلت، وإن أمرتنى ان اُخذّل بين اليهود وبين قريش فعلت حتى لايخرجوا من حصنهم.

فقال رسول اللّه (ص): خذّل بين اليهود وبين قريش، فإنه أوقع عندى.

فجاء إلى أبى سفيان وقال له: انك تعرف مودّتى لكم ونصحى، وقد بلغنى انّ محمداً قد وافق اليهود على أن يأخذوا رهائن من أشرافكم ليسلّموهم إلى محمد يضرب أعناقهم، ثم يدخلوا بين عسكركم ويميلوا عليكم، ووعدهم إذا فعلوا ذلك أن يردّ عليهم جناحهم الذى قطعه بنى النضير وقينقاع، فلا أرى أن تدعوهم يدخلوا عسكركم حتى تأخذوا منهم رهناً تبعثوا بهم إلى مكّة، فتأمنوا مكرهم وغدرهم.

فقال له أبو سفيان: وفّقك اللّه وأحسن جزاءك، مثلك من أهدى النصائح.

ثم جاء نعيم من فوره ذلك إلى بنى قريظة وقال لكعب وكان نديماً له فى الجاهلية: يا كعب انّك تعلم مودّتى لكم ونصحى، وقد بلغنى انّ أبا سفيان قال: نخرج هؤلاء اليهود فنضعهم فى نحر محمّد، فإن ظفروا كان الفخر لنا، وإن خسروا كانوا هؤلاء مقاديم الحرب، فلا أرى لكم أن تدعوهم يدخلوا عسكركم حتى تأخذوا منهم عشرة من أشرافهم يكونون فى حصنكم، فإنهم إن لم يظفروا بمحمد رجعوا إلى مكة وغزاكم محمد فقتلكم، لكن إن أخذتم رهائن منهم، لم يذهبوا حتّى يردّوا عليكم عهدكم الذى جعلتموه بينكم وبين محمد.

فقال له كعب: أحسنت وأبلغت فى النصيحة لانخرج من حصننا حتى نأخذ منهم رهناً يكونون فى حصننا.

وكان كذلك، فإنهم طلبوا رهناً حينما طلب منهم أبوسفيان أن يبدأوا القتال، فقال أبوسفيان: صدق نعيم، فاختلفت كلمتهم.

الأحزاب ينهزمون

لما قَتل على (ع) عمرو بن عبدود دخل الوهن والذلّ معسكر الأحزاب، واضطربوا أشدّ اضطراب، فلما جنّ اللّيل قام رسول اللّه (ص) على التلّ الذى عليه مسجد الفتح، وكانت ليلة ظلماء قرّة فقال: من يذهب فيأتينا بخبرهم وله الجنّة؟ أعادها فلم يقم أحد، ثم قال: من هذا؟ وكان حذيفة قريباً منه، فقال: أنا حذيفة يا رسول اللّه.

فقال: اقترب يا حذيفة أما تسمع كلامى؟

فقام حذيفة وهو يقول: القرّ والضرّ جعلنى اللّه فداك منعانى أن اُجيبك.

فقال رسول اللّه (ص): انطلق حتى تسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم.

فقال حذيفة: نعم يا رسول اللّه، ثم قام فأخذ سيفه وقوسه وترسه، وليس به ضرّ ولا قرّ واتّجه نحوهم.

فقال له رسول اللّه (ص) بعد أن دعا له: يا حذيفة لاتحدث شيئاً حتى تأتينى، فلما ذهب حذيفة رفع رسول اللّه (ص) يديه إلى السماء

ودعا قائلاً: (يا صريخ المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرّين، ويا مغيث المهمومين، اكشف همّى وغمّى وكربى، فقد ترى حالى وحال أصحابى) وما أن تمّ دعاؤه حتى نزل جبرئيل وهو يقول: يا رسول اللّه انّ اللّه عزّ ذكره قد سمع مقالتك ودعاءك وقد أجابك وكفاك هول عدوّك، فجثا رسول اللّه (ص) على ركبتيه، وبسط يديه، وأرسل عينيه، ثم قال: (شكراً شكراً، كما رحمتنى ورحمت أصحابى).

ثم قال: ان اللّه عزّ وجل قد بعث عليهم ريحاً من السماء الدنيا فيها حصى وأرسل عليهم ريحاً من السماء الرابعة فيها جندل.

حذيفة ودعاء الرسول (ص)

قال حذيفة: خرجت فلما وصلت إليهم، أقبل جند اللّه الأول ريح فيها حصى، فما تركت لهم ناراً إلّا أذرّتها، ولا خباءاً إلّا طرحته، ولا رمحاً إلا ألقته، حتى جعلوا يتترّسون من الحصى.

فجلست بين رجلين من المشركين، فقام أبو سفيان وقال: إن كنّا نقاتل أهل الأرض فنحن بالقدرة عليه، وإن كنّا نقاتل أهل السماء كما يقول محمد فلا طاقة لنا بأهل السماء، انظروا بينكم لا يكون لمحمد عين بيننا، فليسأل بعضكم بعضاً.

قال حذيفة: فبادرتُ إلى الذى عن يمينى وقلت له: من أنت؟

قال معاوية.

وقلت للذى عن يسارى: من أنت؟

فقال: عمرو بن سهيل، ولم يسألانى عن اسمى.

ثم أقبل جند اللّه الأعظم. ريح فيها جندل، فقام أبو سفيان إلى راحلته، ثم صاح فى قريش: النجاء النجاء، ولما أراد أن يركب راحلته أمكننى قتله، فلما هممت بذلك تذكرت قول رسول اللّه (ص): (لا ـ تحدثن حدثاً حتى ترجع إلىّ) فكففت ورجعت بعد أن انهزم المشركون وذهب الأحزاب.

فأخبرتُ رسول اللّه (ص) الخبر وقد طلع الفجر، فتهيّأ وتهيّئنا معه للصلاة، فصلّى بنا الفجر ثم نادى مناديه: لا يبرحنّ أحد مكانه إلى أن تطلع الشمس، فلما طلعت الشمس انصرفنا مع رسول اللّه (ص) إلى داخل المدينة وهو يقول على رواية: (لا إله إلّا اللّه وحده وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فله الملك وله الحمد، يحيى ويميت، ويميت ويحيى، وهو حىّ لا يموت بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير).

القرآن وغزوة الأحزاب

ثم انّ اللّه تعالى أوحى إلى نبيّه (ص) سورة الأحزاب يذكّر المسلمين فيها بما أصابهم ذلك اليوم من ضرّ، وبما منّ عليهم من الفتح وبما أنزل عليهم من النصر، اضافة إلى ما فى تسمية السورة بالأحزاب من اشارة إلى أهمية الأمر وعظم الواقعة حيث يقول تعالى:

(يا أيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة اللّه عليكم، إذ جاءتكم جنود، فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وكان اللّه بما تعملون بصيراً، إذ جاءوكم من فوقكم، ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنّون باللّه الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً)(۸) إلى قوله تعالى: (وردّ اللّه الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى اللّه المؤمنين القتال، وكان اللّه قويّاً عزيزاً)(۹).

ثمّ بشّرهم بفتح حصون اليهود حيث يقول تعالى: (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها، وكان اللّه على كلّ شيء قديراً)(۱۰).

۱ النساء: ۵۱. ۲ النساء: ۵۵. ۳ النور: ۶۲.

۴ النور: ۶۳. ۵ الأحزاب: ۱۲.

۶ راجع شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید المعتزلی ج ۱۳ ص ۲۶۱ ط دار إحیاء التراث العربی.

۷ البلد: ۶. ۸ الأحزاب: ۹ ۱۱. ۹ الأحزاب: ۲۵.

۱۰ الأحزاب: ۲۶ ۲۷.

غزوة بنی قریظة

لما انصرف رسول اللّه (ص) من الخندق ودخل المدینة واللواء معقود، أراد أن یغتسل من الغبار، فناداه جبرئیل: عذیرک من محارب، واللّه ما وضعت الملائکة لامتها، فکیف تضع لامتک؟ ان اللّه یأمرک أن لا تصلّی العصر إلا ببنی قریظة، فإنی متقدّمک ومزلزل بهم حصنهم.

فخرج رسول اللّه (ص) وقال: ادعوا لی علیاً، فجاء علی (ع) فقال له: ناد فی الناس أن لایصلینّ أحد العصر إلا فی بنی قریظة، فنادی فیهم، فخرج الناس، فبادروا إلی بنی قریظة، وخرج رسول اللّه (ص) وعلی (ع) بین یدیه مع الرایة العظمی فی ثلاثة آلاف رجل وثلاثین فرساً، وذلک یوم الأربعاء لسبع بقین من ذی القعدة.

وکان حییّ بن أخطب لما انهزم الأحزاب جاء فدخل حصن بنی قریظة، فجاء علی (ع) فأحاط بحصنهم، فأشرف علیهم کعب بن أسد من الحصن یشتمهم ویشتم نبیّهم.

فأقبل رسول اللّه (ص) وأنزل العسکر حول حصنهم فحاصرهم ثلاثة أیام، فنزل بعدها أحدهم إلیه وقال: یا محمد تعطینا ما أعطیت إخواننا من بنی النضیر؟

فقال: لا، أو تنزلون علی حکمی.

فرجع، واستمر الحصار خمساً وعشرین لیلة.

فلما اشتد علیهم ذلک وأیقنوا انّ رسول اللّه (ص) غیر منصرف عنهم، قام سیّدهم کعب بن أسد وعرض علیهم ثلاث خصال: اما الإسلام، وإما قتل ذراریهم ونسائهم ثم القتال حتی یموتوا، وإما تبییت النبی (ص) وأصحابه لیلة السبت، فإن المسلمین قد أمنوا منهم.

فأبوا کل ذلک، فأرسلوا إلی رسول اللّه (ص) أن یبعث إلیهم أبا لبابة بن عبدالمنذر أخا بنی عمرو بن عوف، وکانوا حلفاء الأوس، لیستشیروه فی أمرهم، فأرسله إلیهم.

زلة أبی لبابة وتوبته

فلما جاء أبو لبابة إلی بنی قریظة أحاطوا به وقالوا له: یا أبا لبابة، أتری أن ننزل علی حکم محمد؟

قال: نعم، وأشار بیده إلی حلقه أنه الذبح.

قال أبو لبابة: فواللّه ما زالت قدمای من مکانهما حتی عرفت أنی قد خنتُ اللّه ورسوله.

ثم انطلق أبو لبابة علی وجهه فلم یأت رسول اللّه (ص) حتی ارتبط فی المسجد إلی عمود من عمده وقال: لا أبرح من مکانی هذا حتی یتوب اللّه علیَّ مما صنعت، وعاهد اللّه أن لا یطأ بنی قریظة أبداً، ولا یراه اللّه فی بلد خان اللّه ورسوله فیه أبداً.

فلما سمع رسول اللّه (ص) خبره وکان قد استبطأه قال: أما لو جاءنی لاستغفرتُ له، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذی أطلقه من مکانه حتی یتوب اللّه علیه.

فنزلت توبة أبی لبابة علی رسول اللّه (ص)، فتولّی رسول اللّه (ص) إطلاقه بیده الکریمة، فنزلت بنو قریظة علی حکم رسول اللّه (ص).

حكمية سعد بن معاذ

فلما نزلت بنو قريظة على حكم رسول اللّه (ص) قالت الأوس: يا رسول اللّه قد فعلت فى بنى قينقاع ما قد فعلت وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا.

فقال رسول اللّه (ص): ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟

قالوا: بلى فمن هو؟

قال (ص): فذلك سعد بن معاذ.

قالوا: قد رضينا بحكمه.

وكان رسول اللّه (ص) قد جعل سعد بن معاذ لما به من الجراح الذى أصابه من وقعة الأحزاب فى خيمة فى المسجد تسكنها رفيدة امرأة صالحة تقوم على المرضى وتداوى الجرحى تحتسب بذلك الأجر، ليعوده من قريب، فأرسل رسول اللّه (ص) إلى سعد ليؤتى به ليحكم فى بنى قريظة، فأُتى به فى محفّة وهو سرير يحمل عليه المريض، وأحاط به قومه وهم يقولون: يا أباعمرو، أحسن فى مواليك، فإنما ولاّك رسول اللّه (ص) ذلك لتحسن فيهم.

فقال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى اللّه لومة لائم، فأحسّ قومه من كلامه هذا، انه يريد أن يحكم فيهم بما حكم به اليهود أنفسهم: من الحكم بقتل المحاربين وسبى ذراريهم ونسائهم ومصادرة أموالهم إذا كان الفتح لهم، وبما عاهد اليهود أنفسهم رسول اللّه (ص): من انهم لو نقضوا عهدهم معه كان له الحق فى قتلهم ومصادرة أموالهم وسبى ذراريهم ونسائهم، ولذلك قالوا: واقوماه ذهب واللّه بنو قريظة.

فلما استقرّ بسعد المجلس، التفت إلى اليهود وقال لهم: يا معشر اليهود أرضيتم بحكمى فيكم؟

قالوا: بلى قد رضينا بحكمك، فأعاد عليهم القول.

فقالوا: بلى يا أبا عمرو.

عندها التفت سعد إلى رسول اللّه (ص) وقال اجلالاً له: بأبى أنت وأُمّى يا رسول اللّه ما ترى؟

قال (ص): احكم فيهم يا سعد، فقد رضيت بحكمك فيهم.

فقال سعد: قد حكمت يا رسول اللّه أن تقتل رجالهم، وتسبى نساءهم وذراريهم، وتقسّم غنائمهم وأموالهم بين المهاجرين والأنصار.

فنفّذ المسلمون حكم سعد فيهم فساقوا الأُسارى إلى المدينة، وأمر رسول اللّه (ص) بأن يحفروا حفراً فى البقيع، فلما أمسى أمر بإخراج رجل رجل، فأُخرج كعب بن أسد، فلما نظر إليه رسول اللّه (ص) قال له: يا كعب أما نفعك وصية ابن حواش الحبر الذى أقبل من الشام وقال: تركت الخمر والخمير، وجئت إلى البؤس والتمور، لنبى يبعث، هذا أوان خروجه، يكون مخرجه بمكّة، وهذه دار هجرته، وهو الضحوك الذى يجتزئ بالكسرة والتميرات، ويركب الحمار العارى، فى عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوّة، يضع سيفه على عاتقه لا يبالى من لاقى منكم، يبلغ سلطانه منقطع الخف والحافر؟

فقال كعب: قد كان ذلك يا محمد، ولولا أن اليهود يعيّرونى انى جزعت عند القتل لآمنتُ بك وصدقتك، ولكنى على دين اليهود عليه أحيا وعليه أموت.

فأمر رسول اللّه (ص) بضرب عنقه، فضربت.

ثم قدّم حييّ بن أخطب فضربت عنقه، ثم ضربت أعناق الباقين، وكانوا قليلين جداً.

ويؤيّد ذلك سيرة الرسول (ص) فى التقليل من القتل حسب الإمكان.

واصطفى (ص) لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو ثم قسم رسول اللّه (ص) بين المسلمين الأموال والنساء والذرارى، وذلك بعد أن أخرج خمسها.

شهداء الخندق وقريظة

وكان قد استشهد من المسلمين يوم الخندق وقريظة: سعد بن معاذ، فإنه بعد أن حكم فى بنى قريظة، انفجر جرحه بالدم فأرجعوه إلى خيمته الذى ضربت عليه فى المسجد، فما لبث أن نزل جبرئيل على رسول اللّه (ص) وقال: من هذا العبد الصالح الذى مات، فقد فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش.

فخرج رسول اللّه (ص) إلى المسجد فإذا بسعد بن معاذ قد قبض.

وممن استشهد يوم الخندق وقريظة: الطفيل بن النعمان، وأنس به اوس، وعبداللّه بن سهل، وثعلبة بن غنمة، وكعب بن زيد، وخلاد بن سويد الذى طرحت عليه امرأة من بنى قريظة رحى فقتلته به، ومات فى الحصار أبوسنان بن محصن أخو عكاشة بن محصن.

مع ابن باطا

وكان لابن باطا وهو من رؤساء بنى قريظة يد عند ثابت بن قيس، فأتى ثابت رسول اللّه (ص) وقال: يا رسول اللّه كان لابن باطا عندى يد وقد أحببتُ أن أجزيه بها فهب لى دمه.

فقال رسول اللّه (ص): هو لك.

فأتاه فأخبره بذلك.

فقال ابن باطا: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟

فأتى ثابت إلى رسول اللّه (ص) وقال: يا رسول اللّه أهله وولده.

قال (ص): هم لك.

فأتاه فأخبره بذلك.

فقال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك؟

فأتى ثابت إلى رسول اللّه (ص) وقال: ماله يا رسول اللّه.

قال (ص): هو لك.

فأتاه فأخبره بأنّ ماله له وفاءاً.

عند ذلك قال ابن باطا لثابت: أين كعب بن أسد؟

قال ثابت: قتل.

قال: فما فعل حيىّ بن أخطب؟

قال: قتل.

قال: وما هى حال غزال بن شمول؟

قال: قتل.

فلما سمع ابن باطا بقتل هؤلاء قال لثابت: أسألك بيدى عندك يا ثابت إلّا ما ألحقتنى بالقوم، فواللّه ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر حتى ألقى الأحبّة، فلمّا رأى ثابت هذه اللجاجة من ابن باطا مع ما منّ عليه رسول اللّه(ص) من العفو عنه وعن أهله وأولاده وماله غضب وقال: لا بأس، ثم قدمه وضرب عنقه.

سرية ابن مسلمة إلى نجد

ثم بعث رسول اللّه (ص) خيلاً قبل نجد وجعل عليهم محمد بن مسلمة، فظفروا برجل من بنى حنيفة يقال له: ثمامة بن اُثال، وكان قد قتل من المسلمين، فأسروه وجاءوا به إلى المدينة فربطوه بسارية من سوارى المسجد، وقيل: أودعوه فى غرفة على باب المسجد.

فخرج إليه رسول اللّه (ص) وقال له: ما عندك يا ثمامة؟

فقال: عندى خير يا محمد، إن تقتلنى تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فاسأل منه ما شئت.

فتركه حتى كان الغد، ثم قال (ص) له: ما عندك يا ثمامة؟

قال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر إلى آخره.

فتركه حتى كان بعد الغد فقال (ص) له: ما عندك يا ثمامة؟

قال: عندى ما قلت.

قال (ص): أطلقوا ثمامة.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لاإله إلاّ اللّه وأنّ محمّداً رسول اللّه، يا محمد، واللّه ما كان على الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك، وأما الآن فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إلىّ، واللّه ما كان من دين أبغض إلىَّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين إلىَّ، واللّه ما كان من بلد أبغض إلىَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إلىّ، وإن خيلك أخذتنى وأنا اُريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشّره رسول اللّه (ص) وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟

قال: لا ولكن أسلمت مع محمّد رسول اللّه (ص)، ولا واللّه لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى (ص)، وكانت اليمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش، فكتبوا إلى رسول اللّه (ص) يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى لهم حمل الطعام، ففعل رسول اللّه(ص) ذلك.

غزوة الغابة

وتعرف بذى قرَد بفتح القاف والراء، وهو ماء على بريد من المدينة بطريق الشام، وكانت هذه الغزوة فى ربيع الأول سنة ست من الهجرة النبويّة المباركة.

وسببها: أنه كان لرسول اللّه (ص) عشرون لقحة وهى ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة ترعى بالغابة فأغار عليها عيينة بن حصن الفزارى ليلة الأربعاء فى أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا الراعى، وكان فيهم رجل من غفار وامرأته، قتلوا الرجل وسبوا المرأة.

ونودى: يا خيل اللّه اركبى، وكان أول ما نودى بها، كما انه كان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمى، كان ناهضاً إلى الغابة، فلما علا ثنية الوداع نظر إلى خيل الكفار فصاح، فأنذر المسلمين، ثم نهض فى آثارهم فأبلى بلاء حسناً عظيماً، ورماهم بالنبل حتى استنقذ ما كان بأيديهم من اللقاح، واستخلص المرأة، واستلب منهم ثلاثين بردة.

فلما وقعت الصيحة بالمدينة كان أول من أتى إلى رسول اللّه (ص) من الفرسان المقداد بن عمرو، ثم عباد بن بشر الأشهلى، واُسيد بن حضير أخو بنى حارثة، وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة الأسدى الأخرم، وأبو قتادة الحارث بن ربعى، وأبو عياش عبيد بن زيد بن صامت الزرقى.

فلما اجتمعوا خرج رسول اللّه (ص) حتى أدرك ابن الأكوع.

فلما رأى ابن الأكوع رسول اللّه (ص) قال: يا رسول اللّه قد حميت القوم الماء فابعث إليهم الساعة.

فقال (ص): يابن الأكوع إذا ملكت فاسجح، أى: سهّل وحسّن العفو.

ثم ان أول من لحق بهم محرز بن نضلة الأخرم، فأخذ ابن الأكوع بعنان فرسه، وقال: يا أخرم ان القوم قليل فاحذرهم لايقتطعوك حتى

يلحق بنا أصحابنا.

فقال الأخرم: يابن الأكوع لا تحل بيني وبين الشهادة، فخلّى سبيله، فالتقى هو والفزارى فعقر الأخرم فرسه، فطعنه الفزارى فقتل رحمه اللّه، ولحق أبو قتادة فقتل قاتل الأخرم، وولّى المشركون منهزمين.

وبلغ رسول اللّه (ص) ماء يقال له ذو قرد، ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة، وأقام (ص) يوماً وليلة ثم رجع إلى المدينة، وأقبلت امرأة الغفارى على ناقة رسول اللّه (ص)، فلما أتت المدينة نذرت أن تنحرها، فأخبرها رسول اللّه (ص) انه لانذر لأحد فيما لا يملك، كما لا نذر فى معصية.

سرية عكاشة إلى الغمرة

والغمرة: ماء لبنى أسد، على ليلتين من فيد، أرسل إليهم رسول اللّه (ص) حين سمع بأنهم يريدون الإغارة على المدينة عكاشة بن محصن فى أربعين رجلًا، وذلك فى آخر شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة النبوية المباركة.

فلما أحسّ القوم بهم بكّروا فى الهروب وتركوا مكانهم مائتى بعير، فساقها عكاشة إلى المدينة.

سرية زيد الى العيص

والعيص هى: منطقة على أربعة أميال من المدينة، خرج إليها فى جمادى الأُولى زيد بن حارثة فى مائة وسبعين راكباً ليأخذوا عيراً لقريش قد أخذت طريق العراق.

فالتقوا بأبى العاص ابن الربيع زوج زينب بنت رسول اللّه (ص)، وذلك عند مرجعه من الشام، وكان رجلًا مأموناً، وكانت معه بضائع لقريش، فاستاقوا عيره وأفلت، وقدموا على رسول اللّه (ص) بما أصابوا، فقسّمه بينهم.

وأتى أبو العاص المدينة فدخل على زينب بنت رسول اللّه (ص) مستجيراً بها وسألها أن تطلب من رسول اللّه (ص) ردّ ماله عليه، وما كان معه من أموال الناس.

فدعا رسول اللّه (ص) السرية وقال: إنّ هذا الرجل منا بحيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً ولغيره، وهو فىء اللّه الذى أفاء عليكم، فإن رأيتم أن تردوا عليه فافعلوا، وإن كرهتم فأنتم وحقكم.

قالوا: بل نرد عليه يا رسول اللّه، فردوا عليه ما أصابوا، حتى إن الرجل يأتى بالشىء والرجل يأتى بالإداوة والرجل بالحبل، فما تركوا قليلًا مما أصابوا ولا كثيراً إلا ردوه عليه.

ثم خرج أبو العاص بالبضائع حتى قدم مكة فأدّى إلى الناس بضائعهم، حتى إذا فرغ قال: يا معشر قريش، هل بقى لأحد منكم مال لم أرده عليه؟

قالوا: لا، فجزاك اللّه خيراً، قد وجدناك وفياً كريماً.

قال: واللّه ما منعنى أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا توقّياً أن تظنّوا انى أسلمت لأذهب بأموالكم، ثم قال معلناً: انى أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمّداً عبده ورسوله.

سرية ابن حارثة إلى بنى فزارة

وفى شهر رجب سنة ست من الهجرة النبوية المباركة بعث رسول اللّه (ص) زيد بن حارثة على رأس جماعة إلى وادى القرى وذلك لأن زيداً كان يذهب إلى الشام فى تجارة ومعه بضائع من أصحاب النبى (ص)، فلما قربوا من وادى القرى أغار عليهم قوم من فزارة، فقتلوا المسلمين، ونجى زيد بنفسه، فلما قدم زيد المدينة وقد خلص بنفسه، بعثه رسول اللّه (ص) مع جماعة إلى بنى فزارة، فلقيهم

بوادى القرى فأصاب منهم أموالاً وقتل منهم رجالاً ورجع إلى المدينة بعد أن وطّد الأمن فى الطريق.

غزوة بنى المصطلق

ثم كانت غزوة بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة، ورأسهم الحارث بن أبى ضرار، وقد تهيّأ للزحف على المدينة حيث سار الحارث فى قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول اللّه (ص) فأجابوه.

فلما سمع بهم رسول اللّه (ص) خرج إليهم فى بشر كثير لليلتين خلتا من شعبان سنة ست من الهجرة النبوية المباركة، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى وقيل: نميلة بن عبداللّه الليثى، فلقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول اللّه (ص) أصحابه أن يحملوا عليهم حملة رجل واحد، فما أفلت منهم انسان، وقتل عشرة منهم وأسر سائرهم، وسبى رسول اللّه (ص) النساء والذرارى، وغنم الأموال والشاء والنعم.

وكان من السبى أُم المؤمنين (جويرية) بنت الحارث بن أبى ضرار سيّد بنى المصطلق، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها، فأدّى رسول اللّه (ص) عنها وأعتقها فتزوّجها وسمّاها برّة، فلما بلغ المسلمون ذلك أعتقوا إجلالاً لرسول اللّه (ص) ما كان فى أيديهم من السبايا وكانوا مائة أهل بيت من بنى المصطلق وقالوا: أصهار رسول اللّه (ص)، فما علم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

فى طريق المدينة

وفى رجوع رسول اللّه (ص) من هذه الغزوة قال عبداللّه بن أُبىّ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، وذلك لشرّ وقع بين جهجاه بن مسعود الغفارى من المهاجرين وبين سنان بن وبر الجهنى من الأنصار.

فنادى الغفارى: يا للمهاجرين.

ونادى الجهنى: يا للأنصار.

فقال رسول اللّه (ص): أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟

وبلّغ زيد بن أرقم رسول اللّه (ص) مقالة عبداللّه بن أُبى فنزل فى ذلك من عند اللّه سورة المنافقين، وتبرأ عبداللّه بن عبداللّه بن أُبى من أبيه، وأتى رسول اللّه (ص) فقال له: يا رسول اللّه أنت واللّه الأعزّ وهو الأذلّ، واللّه لئن شئت لنخرجنّه يا رسول اللّه، ووقف لأبيه قرب المدينة فقال: لا تدخلها حتى يأذن لك رسول اللّه (ص) فى الدخول.

فشكى الأب ابنه إلى رسول اللّه (ص) فأرسل إليه: أن خلّ عنه يدخل.

فقال: الآن وقد جاء الإذن فنعم.

وقال أيضاً: بلغنى أنك يا رسول اللّه تريد قتل أبى وانى أخشى إن أمرتَ بذلك غيرى ألا تدعنى نفسى أرى قاتل عبداللّه يمشى على الأرض فأقتله وأدخل النار إذا قتلت مؤمناً بكافر، وقد علمت الأنصار أنى من أبرّها لأبيه، ولكن يا رسول اللّه إن أردت قتله فمرنى بذلك فأنا واللّه أحمل إليك رأسه.

فقال له رسول اللّه (ص) خيراً، وأخبره أنه يحسن صحبة أبيه مادام هو معهم.

سرية الفهرى إلى عرينة

وفى شهر شوّال سنة ست من الهجرة النبوية المباركة كانت قصة العرينيين، وذلك انه قدم على رسول اللّه (ص) عرينة وكانوا ثمانية أشخاص فأسلموا، فاستوبأوا المدينة واستوخموها.

فأمر رسول اللّه (ص) بهم إلى لقاحه وكانت خمس عشرة لقحة واللقحة ذات اللبن القريبة العهد بالولادة وقال: (لو خرجتم إلى ذود لنا

فشربتم من ألبانها).

فلما خرجوا إليها قتلوا الراعى وقطعوا يده ورجله، وغرسوا الشوك فى لسانه وعينه حتى مات، واستاقوا الإبل.

فبلغ ذلك إلى رسول اللّه (ص) فبعث فى اثرهم عشرين فارساً واستعمل عليهم ابن جابر الفهرى، فعقّبوهم حتى أدركوهم، فلما أدركوهم أحاطوا بهم وأسروهم واستردّوا الإبل وقدموا بهم المدينة.

قال جابر بن عبداللّه ان رسول اللّه (ص) كان قد دعا لما بعث إليهم وقال: (اللّهمّ اعم عليهم الطريق) فعمى عليهم الطريق، فلما اُتى بهم، أمر (ص) بقتلهم.

الجزء الثانى

الجزء الثانى

المسلمون يثوبون

ثم أقبل رسول اللّه (ص) نحو المسلمين، وكان أول من عرفه كعب بن مالك الشاعر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول اللّه (ص).

فأشار إليه رسول اللّه (ص) أن اصمت، فانحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم النبى (ص) على الفرار.

فقالوا: يا رسول اللّه فديناك بآبائنا واُمهاتنا أتانا الخبر بأنك قتلت، فرعبت قلوبنا فولّينا مدبرين، فأنزل اللّه تعالى: (وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً وسيجزى اللّه الشاكرين)(٨).

وقيل: نزلت هذه الآية عندما رجع رسول اللّه (ص) من اُحد إلى المدينة، فاستقبله أهلها بأجمعهم وهم يبكون ويطلبون التوبة ويقرّون بالذنب، ونساء الأنصار قد خدشن الوجوه، ونشرن الشعور، وجززن النواصى، وخرقن الجيوب، وحزمن البطون على النبى (ص)، فلمّا رأينه قال لهنّ خيراً وأمرهنّ أن يتستّرن ويدخلن منازلهنّ، وقال: ان اللّه عزوجل وعدنى أن يظهر دينه على الأديان كلها، ثم قال لهم رسول اللّه (ص):

(أيها الناس انكم رغبتم بأنفسكم عنّى، ووازرنى على وواسانى، فمن اطاعه فقد أطاعنى، ومن عصاه فقد عصانى وفارقنى فى الدنيا والآخرة)(٩).

صاحب المهراس

روى انه لما صاح ابليس بالمدينة: قتل محمد لم يبق أحد من نساء المهاجرين والأنصار إلّا وخرجت، كما وخرجت فاطمة بنت رسول

اللّه (ص) تعدو على قدميها، حتى وافته وقعدت بين يديه تبكى لما رأت ما أصاب أبيها رسول اللّه (ص) من الجراحات، وأقبل على بن أبى طالب (ع) وقد ملأ درقته بماء من المهراس(۱۰) فجاء به رسول اللّه (ص) ليشرب منه، ثم غسل به عن وجهه الدم، وإليه يشير قول على (ع) يوم الشورى: (نشدتكم باللّه هل فيكم أحد وقفت الملائكة معه يوم اُحد حين ذهب الناس غيرى؟ قالوا: لا ـ قال: نشدتكم باللّه هل فيكم أحد سقى رسول اللّه (ص) من المهراس غيرى؟ قالوا لا).

وعن سهل: انه سئل عن جرح رسول اللّه (ص) فقال: واللّه إنى لأعرف من كان يغسل جرح رسول اللّه (ص) ومن كان يسكب الماء؟ كانت فاطمة ابنته تغسله وعلى بن أبى طالب يسكب الماء، فلما رأت فاطمة أن الماء لايزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فاستمسک الدم.

الصلاة فى زوال اُحد

وذكر مولى عفرة: ان النبى (ص) صلّى الظهر يوم اُحد قاعداً من الجراح، وكذلك صلّى المسلمون خلفه قعوداً من شدة ما بهم، وقد انهزم قوم من المسلمين يومئذ فبلغ بعضهم إلى الحلوب دون الأعوص.

فلمّا قدموا بعد ثلاثة أيام من هزيمتهم قال لهم رسول اللّه (ص): إلى أين انتهيتم؟

قالوا: إلى الأعوص.

قال: لقد ذهبتم فيها عريضة، أى: واسعة.

دأب بنى اُمية وأتباعهم

ولما انكشف المسلمون عن رسول اللّه (ص) اشتغل المشركون ونساؤهم بقتلى المسلمين يمثلون بهم ويقطعون الآذان والاُنوف وغيرها، ويبقرون البطون، ويستخرجون منها الأكباد والكلى.. فلما تتبع المسلمون قتلاهم لم يجدوا قتيلاً إلاّ وقد مثلوا به، إلاّ حنظلة غسيل الملائكة، فإنّ أباه وهو أبو عامر الراهب الذى سماه رسول اللّه (ص) أبو عامر الفاسق وهو صاحب مسجد ضرار، كان مع المشركين فترك له، وكان حمزة عم النبى (ص) أكثر من مثّل به من بين القتلى.

۱ الأنفال: ۳۶.

۲ تفسير على بن إبراهيم قال: وحدّثنى أبى، عن ابن أبى عمير، عن هشام، عن أبى عبد الله (ع) انه سئل عن معنى قول طلحة بن أبى طلحة لما بارزه على (ع): يا قضم؟ قال (ع): إن رسول الله (ص) كان بمكة لم يجسر عليه أحد لموضع أبى طالب، فأغروا به الصبيان، وكانوا إذا خرج رسول الله (ص) يرمونه بالحجارة والتراب، فشكى ذلک إلى على (ع) فقال: بأبى أنت واُمى يا رسول الله إذا خرجت فأخرجنى معک، فخرج رسول الله (ص) ومعه على (ع) فتعرض الصبيان لرسول الله (ص) كعادتهم، فحمل عليهم على (ع) وكان يقضمهم فى وجوههم وآنافهم وآذانهم فكان الصبيان يرجعون باكين إلى آبائهم ويقولون: قضمنا على، قضمنا على، فسمى لذلک: القُضَم. (راجع بحار الأنوار: ج ۲۰ ص ۵۲ ب ۱۲ ح ۳).

۳ راجع بحار الأنوار: ج ۳۹ ص ۴۷ ب ۷۳ ح ۱۵ بيان، و: ج ۴۲ ص ۵۷ ب ۱۱۸ ح ۱.

۴ بحار الأنوار: ج ۲۰ ص ۱۰۵ ب ۱۲ ح ۳۰.

۵ الكافى: ج ۸ ص ۳۱۸ ب ۸ ح ۵۰۲ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد: ج ۱۰ ص ۱۸۲ ب ۱۹۰ و ج ۱۳ ص ۲۶۱ وج ۱۴ ص ۲۵۱ دار إحياء التراث العربى ط ۲.

۶ النحل: ۱۲۶. ۷ بحار الأنوار: ج ۲۷ ص ۲۰۶ ب ۸ ح ۱۴. ۸ آل عمران: ۱۴۴.

۹ بحار الأنوار: ج ۲۰ ص ۱۰۶ ب ۱۲ ح ۳۰.

۱۰ قيل: هو صخرة منقورة تسع كثيراً، وقيل: هو اسم ماء بأحد.

خاتمة القتال

ولما قتل جمع من المسلمين وفرّ آخرون، واضطربت الصفوف وتداخلت، جَمَع رسول اللّه (ص) من بقى معه من المسلمين ثم حمل هو (ص) وعلى (ع) والمسلمون معه حملة رجل واحد على القوم، فانهزم المشركون وتشتّت أمرهم وانصرفوا إلى مكة ولم يصلوا إلى ما أرادوا من قتل الرسول (ص) وابادة المسلمين، فكان النصر أخيراً للمسلمين وإن قتل منهم جمع كثير.

هتافات متقابلة

ولما أراد أبو سفيان الانصراف أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: انعمت فعال، ان الأيام دول، وان الحرب سجال، يوم بيوم بدر.

فقال رسول اللّه (ص): ألا تجيبونه؟

قالوا: يا رسول اللّه ما نقول؟

قال (ص): قولوا: لا سواء، قتلانا فى الجنّة وقتلاكم فى النار.

فقال أبو سفيان: لنا العزّى ولا عزّى لكم.

فقال رسول اللّه (ص): ألا تجيبونه؟

قالوا: يا رسول اللّه ما نقول؟

قال (ص): قولوا: اللّه مولانا ولا مولى لكم.

فقال أبو سفيان: اعل هبل.

فقال رسول اللّه (ص): ألا تجيبونه؟ قولوا: اللّه أعلى وأجلّ.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: أحىّ ابن أبى كبشة؟ فأما ابن أبى طالب فقد رأيناه مكانه.

فقال له على (ع): أى والذى بعثه بالحقّ انه (ص) ليسمع كلامك.

فقال أبو سفيان: لعن اللّه ابن قمئة زعم انه قتل محمداً، ثم قال: انه قد كانت فى قتلاكم مُثلة، وانّ موعدنا وموعدكم بدراً فى العام القابل.

فقال رسول اللّه (ص) لعلى (ع): قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

استطلاع أخبار القوم

ثم بعث رسول اللّه (ص) على بن أبى طالب (ع) وقال: اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأُناجزنهم.

قال على (ع): فخرجت فى أثرهم أنظر ما يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة، فلما وقع نظر أبى سفيان على على (ع) قال له: يا على ما تريد هو ذا نحن ذاهبون إلى مكة، فانصرف إلى صاحبك فأخبره.

فأتبعهم جبرئيل (ع)، فكلّما سمعوا حافر فرسه جدّوا فى السير، وكان يتلوهم فإذا ارتحلوا قالوا: هو ذا عسكر محمد قد أقبل، ومازالوا كذلك حتى دخلوا مكة منهزمين ومرعوبين.

انّ اللّه بالغ أمره

وروی: انه لما انصرف أبو سفیان ومن معه من غزاة اُحد وبلغوا الروحاء، ندموا علی انصرافهم عن المسلمین وتلاوموا فقالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الکواعب أردفتم، قتلتموهم حتی إذا لم یبق إلا الشرید ترکتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم.

فبلغ ذلک الخبر رسول اللّه (ص) فأراد أن یرهب العدوّ ویریهم من نفسه وأصحابه قوّة، فندب أصحابه للخروج فی طلب أبی سفیان وقال: (ألا عصابة تشدّد لأمر اللّه تطلب عدوّها، فإنها انکاء للعدوّ وأبعد للسمع) فانتدب عصابة منهم مع ما بهم من القرح والجرح الذی أصابهم یوم اُحُد وامتثلوا ما أمرهم به.

مدفن الشهداء

ولما وضعت الحرب أوزارها یوم اُحد، حمل کل واحد قتیله علی جمل لیدفنوهم فی المدینة، فکانوا کلما توجّهوا بهم نحو المدینة برکت الجمال، وإذا توجّهوا بهم نحو المعرکة أسرعت.

فشکوا ذلک إلی رسول اللّه (ص) فقال: ألم تسمعوا قول اللّه تعالی: (قل لو کنتم فی بیوتکم لبرز الذین کتب علیهم القتل إلی مضاجعهم)(۱) فأرجعهم (ص) إلی مکانهم ودفنهم بثیابهم الملطّخة بالدماء کل رجلین فی قبر علی روایة الاّ حمزة (ع) فإنه دفن وحده.

علی مشارف المدینة

ثم انصرف المسلمون مع النبی (ص) إلی المدینة، فاستقبلته فاطمة(ع) ومعها اناء فیه ماء، فغسل به وجهه، فلمّا رأته فاطمة(ع)(۲) قد شجّ فی وجهه واُدمی فوه ادماءاً بکت(ع) وجعلت تمسح الدم وتقول: اشتد غضب اللّه علی من أدمی وجه رسول اللّه (ص).

وکان معه (ص) علی (ع) وقد خضب الدم یده إلی کتفه، ومعه ذو الفقار، فناوله فاطمة(ع) وقال لها: خذی هذا السیف فقد صدقنی الیوم، وأنشأ یقول:

أفاطم هاک السیف غیر ذمیم فلست برعدید ولا بملیم

لعمری لقد أعذرت فی نصر أحمد وطاعة ربٍ بالعباد علیم

امیطی دماء القوم عنه فإنه سقی آل عبدالدار کأس حمیم

وقال رسول اللّه (ص): خذیه یا فاطمة فقد أدّی بعلک ما علیه، وقد قتل اللّه بسیفه صنادید قریش.

مع ابنة جحش

فلما ارتحل رسول اللّه (ص) ودخل المدینة، استقبلته النساء یولولن ویبکین، فاستقبلته زینب بنت جحش، فقال لها رسول اللّه (ص): احتسبی.

فقالت: من یا رسول اللّه؟

قال (ص): أخاک.

قالت: (إنّا للّه وإنّا إلیه راجعون)(۳) هنیئاً له الجنّة.

ثم قال (ص) لها: احتسبی.

فقالت: من یا رسول اللّه؟

قال (ص): حمزة بن عبدالمطلب.

قالت: (إنّا للّه وإنّا إليه راجعون)(۴) هنيئاً له الشهادة.

ثم قال لها: احتسبى.

فقالت: من يا رسول اللّه؟

قال (ص): زوجك مصعب بن عمير.

قالت: واحزناه.

فقال رسول اللّه (ص): انّ للزوج عند المرأة لحدّاً ما لأحد مثله.

فقيل لها: لم قلت ذلك فى زوجك؟

قالت: ذكرت يتم ولده.

النساء المخلصات

وكانت امرأة من بنى النجار قتل أبوها وزوجها وأخوها مع رسول اللّه (ص)، فدنت من رسول اللّه (ص) والمسلمون قيام على رأسه، فقالت لرجل متسائلة بتلهّف: أحيّ رسول اللّه (ص)؟

قال: نعم.

قالت وهى مستبشرة: أستطيع أن أنظر إليه؟

قال: نعم.

فأوسعوا لها، فدنت منه (ص) وقالت: كل مصيبة جلل بعدك يا رسول اللّه، ثم انصرفت.

البكاء على حمزة

ولما انصرف رسول اللّه (ص) إلى المدينة بعد أن صلّى على القتلى ودفنهم بثيابهم ودمائهم، مرّ بدور فى المدينة، فسمع بكاء النوائح على قتلاهنّ، فترقرقت عينا رسول اللّه (ص) بالدموع وبكى ثم قال: لكن حمزة لا بواكى له.

فلمّا سمعها سعد بن معاذ واسيد بن حضير قالا: لا تبكينّ امرأة حميمها حتى تأتى فاطمة(ع) فتسعدها بالبكاء.

فلما سمع رسول اللّه (ص) الواعية على حمزة وهو عند فاطمة(ع) على باب المسجد قال: ارجعن يرحمكنّ اللّه فقد آسيتنّ بأنفسكنّ.

غزوة حمراء الأسد

ولما وافى اليوم الثانى من انتهاء معركة اُحد، أذّن مؤذّن رسول اللّه (ص) فى الطلب للعدو، وعهد رسول اللّه (ص) أن لا يخرج معه أحد إلا من حضر المعركة يوم اُحد، حيث قال: ألا لا يخرجنّ معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، ألا من كانت به جراحة فليخرج، ومن لم تكن به جراحة فليقم.

فخرج معه سبعون رجلاً ممّن أثقلهم الجراح وهم يأملون أن لا تفوتهم غزوة مع رسول اللّه (ص).

وقدّم (ص) علياً (ع) بين يديه براية المهاجرين، واستأذنه جابر بن عبداللّه فى أن يفسح له فى الخروج معه، ففسح له فى ذلك، فخرجوا على ما بهم من الجهد والجراح، وإنما خرج (ص) مرهباً للعدوّ ومتجلّداً، وذلك بعد أن استخلف على المدينة ابن اُمّ مكتوم، فبلغ حمراء الأسد، وهى على ثمانية أميال من المدينة.

وهناك مرّ برسول اللّه (ص) معبد بن أبى معبد الخزاعى، وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول اللّه (ص) مسلمهم وكافرهم، لايخفون عليه

شيء، ومعبد يومئذ مشرك. فقال: يا محمد، أما واللّه لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك، ولوددنا أن اللّه عافاك فيهم.

ثم خرج معبد من عند رسول اللّه (ص) حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا على الرجعة إلى رسول اللّه (ص) وأصحابه وهم يقولون: أصبنا جلّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم؟ فلنكرنّ على بقيتهم فلنفرغن منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبداً، قال: ما وراءك يا معبد؟

قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقاً، وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ما ضيّعوا وفيهم من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط.

قال: ويلك ما تقول؟

قال: واللّه ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل.

فساء ذلك أبا سفيان ومن معه، ووقع فى قلوبهم الرعب مما دعاهم إلى الإنصراف عما عزموا عليه، والرجوع إلى مكة.

هذا ورسول اللّه (ص) لما نزل بحمراء الأسد أمر أصحابه فى الليل بأن يوقدوا حولهم نيراناً كثيرة، فأوقدوا خمسمائة نار كانت ترى من بعيد.

فتصوّر المشركون ان النبى (ص) يقفوا أثرهم فى عدد عظيم من أصحابه، فتشاوروا فيما بينهم ثم عزموا على الإنصراف إلى مكة.

وأقام رسول اللّه (ص) بأصحابه هناك ثلاثة أيام، فلما اطمئنّوا من انصراف المشركين عن الكرّة عليهم رجعوا إلى المدينة فوصلوها يوم الجمعة بعد أن غابوا عنها خمسة أيّام.

سرية الغنوىّ إلى الرجيع

والرجيع بفتح الراء وكسر الجيم اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان، وكانت الوقعة بالقرب منه.

وذلك انه قدم على رسول اللّه (ص) أوائل شهر صفر على رأس أربعة أشهر من اُحد نفر من عضل والقارة، وقيل: من عضل والديش، وهما بطنان من العرب، فذكروا للنبى (ص) أنّ فيهم إسلاماً، ورغبوا أن يبعث معهم نفراً من المسلمين يعلّمونهم القرآن ويفقّهونهم فى الدين.

فبعث رسول اللّه (ص) ستة رجال من أصحابه، وقيل: سبعة، وقيل: عشرة، فيهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى، فجعله أميراً عليهم حتى إذا صاروا بالرجيع غدروا بهم، واستصرخوا عليهم هذيلاً، فوقع بين الجانبين قتال شديد أسفر عن غلبة المشركين لكثرتهم، وانحدار المجموعة الصغيرة من المسلمين لقلّتهم وعدم تهيّئهم للحرب والقتال.

سرية منذر إلى بئر معونة

وبئر معونة بضم العين موضع ببلاد هذيل بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم، وهى الى حرة بنى سليم أقرب.

وذلك فى أواسط شهر صفر على رأس أربعة أشهر من اُحد أيضاً، ولكن قبل أن يصل إلى المدينة أنباء الغدر بسرية الغنوى إلى الرجيع.

وكان سببها: ان أبا البراء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة قدم على رسول اللّه (ص)، فعرض (ص) عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد: انّ أمرك هذا الذى تدعو إليه حسن جميل، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك.

فقال رسول اللّه (ص): إنّى أخشى أهل نجد عليهم.

فقال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم.

فبعث (ص) المنـذر بن عمرو فی بضـعهٔ وعشـرين رجلاً وقيـل: فی أربعين رجلاً وقيل: فی سـبعين، وكانوا من خيار المسـلمين ومن القرّاء، يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل، ويتدارسون القرآن.

فسـاروا حتى إذا نزلوا بئر معونـهٔ بعثوا حرام بن ملحـان بكتـابه (ص) إلى عـامر بن الطفيـل، فلمـا أتـاه لم ينظر فی كتابه حتى عـدا على الرجل فقتله.

ثم استصـرخ عليهم بنی عامر فلم يجيبوه وقالوا: نحن لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ قبائل من بنی سليم: عصيّهٔ ورعلا وذكوان، فأجابوه إلى ذلك.

ثم خرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فی رحالهم، فلما رأوهم أخـذوا سـيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيـد، فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً.

وأسر عمرو بن اُميهٔ الضمریّ، فلما أخبرهم أنه من مضر أخذه عامر بن الطفيل وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبهٔ زعم أنها كانت على اُمه.

فقـدم عمرو بن اُميّـهٔ الضـمری إلى رسول اللّه (ص) وأخبره الخبر، فنعاهم إلى أصـحابه وقال: انّ أصـحابكم قد اُصـيبوا وانهم قد سألوا ربهم وقالوا: ربّنا أبلغ عنّا قومنا بأنا قد لقينا ربّنا فرضى عنّا ورضينا عنه.

ولما بلغ ذلك أبا براء، شقّ عليه اخفار عامر إياه وما أصاب أصـحاب رسول اللّه (ص) بسـببه وجواره، ونزل به الموت، فحمل ربيعهٔ بن أبی براء لما وصله الخبر على عامر بن الطفيل وهو فی نادی قومه فأخطأ مقاتله فأصاب فخذه.

فقال عامر: هذا عمل عمی أبی براء، فلم يجرأ على الثأر منه.

وقيـل: ان خـبر بعث الرجيع، وخـبر أصـحاب بئر معونـهٔ أتى النبی (ص) فی ليلـهٔ واحـدهٔ فحزّ ذلـك فی قلبه وقلوب المسـلمين، وعرف المسـلمون ان الغدر والفتك من عادهٔ الجاهليهٔ والجاهليّين، ولايمكن قلعه ولا اجتثاث جذوره إلاّ بنشر الإسلام وابلاغ تعاليمه الأخلاقيهٔ إلى الناس كافهٔ، فاندفعوا وبكل قوّهٔ إلى نشر الإسلام وتبليغ أحكامه والإلتزام بإطاعهٔ اللّه ورسوله (ص).

۱ آل عمران: ۱۵۴.

۲ قد سـبق أنها (صـلوات الله عليها) خرجت إلى اُحد بعدما سمعت النداء بقتل أبيها (ص) وذلك على روايهٔ، أو أنها رجعت بعد ذلك ثم استقبلته (ص) عند رجوعه.

۳ البقرهٔ: ۱۵۶. ۴ البقرهٔ: ۱۵۶.

غزوهٔ بنی النضير

مضـى فيما سـبق: انه لما دخل رسول اللّه (ص) المدينـهٔ صالحه بنو النضـير كبقيّـهٔ اليهود على أن لايقاتلوه، ولايقاتلوا معه، فقبل ذلك منهم.

فلما غزا رسول اللّه (ص) بدراً وظهر على المشركين قالوا: واللّه انه للنبیّ الذی وجدنا نعته فی التوراهٔ لاتردّ له رايهٔ، فلما غزا اُحد وانهزم المسلمون ارتابوا ونقضوا العهد وأتوا قريشاً وحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدهٔ على محمد (ص)، فنزل جبرئيل وأخبر النبی (ص) بالخبر.

ولكی يظهر النبی (ص) نوايا بنی النضـير العدوانيـهٔ التی أضـمروها للمسـلمين، ويكشف واقعهم السـیّء للرأی العام، خرج (ص) إليهم يوم السـبت فی شـهر ربيع الأول وصـلى فی مسـجد قبا ومعه نفر من أصـحابه دون العشرهٔ، ثم أتاهم فكلّمهم أن يقرضوه فی ديهٔ بعض القتلى وكان الإستقراض جارياً بينهم فقالوا: نقرضك ما أحببت.

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحال. وكان (ص) إلى جنب جدار من بيوتهم.

فقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى هذه الصخرهٔ عليه فيقتله ويريحنا منه؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش، فقال: أنا لذلك.

فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا، واللّه ليخبرنّ بما هممتم به، وانه لنقض العهد الذى بيننا وبينه.

فجاء جبرئيل وأخبر رسول اللّه (ص) الخبر، فخرج راجعاً إلى المدينة، وذلك بعد أن أوصـى علياً (ع) بأن لايبرح من مكانه، وأن يخبر من سأله عنه من أصحابه بتوجّهه إلى المدينة، ففعل ذلك، ثم لحقوا به فقالوا: قمت يا رسول اللّه ولم نشعر.

فقال: همّت اليهود بالغدر فأخبرنى اللّه بذلك فقمت.

ثم أرسـل (ص) إليهم من يـأمرهم بالجلاء من منازلهم، وكانت منازلهم بناحيـة الفرع وما والاها بقريـة يقال لها: زهرة، وأمهلهم عشـرة أيام.

فوصل الخبر إلى ابن اُبى فأرسل إليهم من ينهاهم عن الخروج ويعـدهم نصـرة قومه لهم، وامـداد قريظة وحلفاءهم من غطفان، فطمعوا فى ذلك.

فخرج إليهم رسول اللّه (ص) فصلّى العصر بفناء بنى النضير وعلى (ع) يحمل رايته واستخلف على المدينة ابن اُمّ مكتوم.

فلما رأوا رسول اللّه (ص) قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارة، فاعتزلتهم قريظـة، وخفرهم ابن اُبىّ، فحاصـرهم رسول اللّه (ص) إحدى وعشرين ليلة، وقذف اللّه الرعب فى قلوبهم فعزموا على الخروج من المدينة من دون قتال.

فقال لهم رسول اللّه (ص): اُخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة وهى السلاح.

فخرجوا بالنساء والصبيان يزمّرون ويضـربون بالدفوف، وتحمّلوا على ستمائة بعير حتى ان الرجل منهم يقلع باب بيته ويضعه على بعيره، ثم يخربون بيوتهم بأيديهم ويخرجون، فمنهم من صار إلى خيبر، ومنهم من صار إلى الشام، ومنهم من صار إلى الحيرة.

أموال بنى النضير

وقبض رسول اللّه (ص) السـلاح والأـموال صافيـة له، لأـن المسـلمين لم يوجفوا عليهـا بخيـل ولاـ ركـاب، وانمـا قـذف اللّه فى قلوبهم الرعب، فسلّموا بدون قتال ولا اراقة دماء، فكان ممّا أفاءه اللّه على رسوله.

فـدعى رسول اللّه (ص) حينئـذ الأنصـار كلها الأوس والخزرج، فحمـد اللّه وأثنى عليه وذكر الأنصار وما صـنعوا بالمهاجرين، وانزالهم إيّاهم فى منـازلهم، واثرتهم على أنفسـهم، ثم قـال (ص): ان أحببتم قسّـمت بينكم وبين المهـاجرين مـا أفاء اللّه علىّ من بنى النضـير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم.

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: يا رسول اللّه بل تقسّمه للمهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا.

ونادت الأنصار: رضينا وسلّمنا يا رسول اللّه.

فقـال رسول اللّه (ص): (اللّهمّ ارحم الأنصـار وأبناء الأنصار) وقسّم ما أفاء اللّه عليه بين المهاجرين دون الأنصار إلا رجلين من الأنصار كانا محتاجين، ووسّع (ص) فى الناس فى أموال بنى النضـير، وأنزل اللّه تعالى فى قصـة بنى النضـير سورة الحشـر، ومـدح الأنصار على رواية بقوله: (ويؤثرون على أنفسهم)(١).

وفى مجمع البيان عن أبى هريرة: ان الآية نزلت فى شأن على (ع) وفاطمة(ع) فى ضيافة كانت لهما قد آثرا ضيفهما على أنفسهما.

وفى هـذه الغزوة أبلى على (ع) بلاـءاً حسـناً حيث قتـل اليهود العشـرة بقيـادة رئيسـهم عازورا الـذين خرجوا من الحصن فى ظلام الليل لعمليات تخريبية واغتيال النبى (ص) وكفى اللّه المؤمنين به شرهم، وفيه يقول حسّان بن ثابت:

اللّه أىّ كريهة أبليتها ببنى نضير والنفوس تطلّع

أردى رئيسهم وآب بتسعة طوراً يشلّهم وطوراً يدفع

من أسلم من بنى النضير

ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان: يامين بن عمير، وهو ابن عم عمرو بن جحاش الذى انتدب لإلقاء الصخرة على رسول اللّه (ص)، وأبو سعد بن وهب.

أسلما على أموالهما، واحرازها، وحسن اسلامهما، حتى أن يامين على ما قيل: جعل لرجل جعلاً على أن يقتل له ابن عمه عمرو بن جحاش على ما أراده من اغتيال رسول اللّه (ص) ففعل الرجل ذلك.

غزوة بنى لحيان

ثم كانت بعد غزوة بنى النضير غزوة بنى لحيان، فقد خرج اليهم رسول اللّه (ص) يطلب بأصحاب الرجيع الذين غدر بهم بنو لحيان وقتلوهم عن آخرهم.

وأظهر (ص) عند خروجه إليهم انه يريد الشام ليصيب من القوم غرة يفاجئهم بها فيستسلموا من دون حرب فيقل القتل وسفك الدماء، ولذلك خرج (ص) وأخذ فى السير حتى نزل على منازل بنى لحيان بين أَمَج وعسفان، فوجدهم قد حذروا وتمنّعوا فى رؤس الجبال، فتركهم.

عندها قال المسلمون: لو انا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة انا قد جئنا مكة، فسار (ص) وهو فى مائتى راكب حتى نزل عسفان تخويفاً لمشركى مكة، وجاز على قبر اُمه فزارها، وأرسل فارسين من الصحابة حتى بلغا كراع الغميم، ثم عادَ ولم يلق حرباً.

غزوة ذات الرقاع

وبعد مضى شهرين من غزوة بنى النضير(۲) كانت غزوة ذات الرقاع، وسمّيت ذات الرقاع لأنهم رقعوا راياتهم.

وقيل: لأنهم كانوا بقرب جبل فيه بقعُ بياض وسواد وحمرة.

وقيل: لأن أقدامهم نقبت فيها، فكانوا يلفّون على أقدامهم الخِرق.

وقيل: لوقوع صلاة الخوف فيها وصلاة الخوف ترقيع للصلاة.

وكان سببها: ان قادماً قدم المدينة بمتاع له، فأخبر رسول اللّه (ص) بأن انماراً وثعلبة قد جمّعوا له الجموع يريدون اجتياح المدينة.

فخرج (ص) اليهم ليلة السبت لعشر خلون من المحرم فى أربعمائة رجل، وقيل: فى سبعمائة، وقيل: فى ثمانمائة من أصحابه، فسار حتى نزل فى محالّهم بذات الرقاع وهى جبل، فلقى المشركين ولم يقع بينهم حرب، ولكن خاف المسلمون أن يُغير المشركون عليهم، فنزلت صلاة الخوف، فصلّى رسول اللّه (ص) بأصحابه صلاة الخوف، وكان أول ما صلّاها.

كرم رسول اللّه (ص) وحلمه

ونزل رسول اللّه (ص) فى غزوة ذات الرقاع تحت شجرة على شفير واد، فأقبل سيل فحال بينه وبين أصحابه، فرآه رجل من المشركين، فقال لقومه: أنا أقتل محمداً فجاء وشدّ على رسول اللّه (ص) بالسيف وقال: من ينجيك منّى؟

فقال (ص): ربّى وربّك، فنسفه جبرئيل عن فرسه فسقط، فقام رسول اللّه (ص) فأخذ السيف وجلس على صدره وقال: من ينجيك منّى؟

قال: جودك وكرمك، فتركه (ص)، وقام الرجل فجاء إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس، فأسلم بسببه جماعة.

وفى رواية: انه عندما جلس (ص) على صدره قال له: تشهد أن لا إله إلا اللّه وانى رسول اللّه؟ فقال الرجل: اعاهدك أن لا اُقاتلك ولا

أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى (ص) سبيله، فجاء الرجل إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس...

ثبات وصمود

ثم انصرف رسول اللّه (ص) بأصحابه راجعاً إلى المدينة، وذلك بعد أن أصابوا بعض الغنائم، وفى الطريق باتوا فى فم شعب، فانتدب عباد بن بشير وعمار بن ياسر للحراسة يتناوبانها بينهما.

فنام عمّار وقام عباد للحراسة واشتغل بالصلاة، وفى الأثناء جاء رجل من الأعداء وهو يريد اصابة شىء أو اراقة دم، فلما رأى طليعتهم عباد أخذ يرميه بالسهم تلو الآخر وعباد صامد لا يتحرك حتى إذا غلبه الدم ركع وسجد وأتمّ صلاته ثم أيقظ صاحبه وأخبره الخبر.

فقال له عمار: ألا أخبرتنى أول ما رماك!

قال: كنت فى سورة أقرؤها فلم اُحب أن أقطعها، وأيم اللّه لولا خوفى أن اُضيّع ثغراً أمرنى رسول اللّه (ص) بحفظه لقطع نفسى قبل أن أقطعها.

تفقّد الرسول (ص) أصحابه

وكان رسول اللّه (ص) يسير فى مؤخّر القوم ليسعف الضعيف منهم، ويحمل معه من قعد به مركبه وعجز به عن حمله، وفى هذه المرّة وفى طريق العودة من ذات الرقاع التقى بجابر بن عبداللّه الأنصارى وقد تخلّف عن القوم فقال له:

ما لک يا جابر؟

قال جابر وهو يشير إلى جمله: أبطأ بى هذا.

فدنى رسول اللّه (ص) إلى الجمل، ومسح يده عليه فقوى الجمل وأخذ يواهق ناقته مواقهة، ثم قال لجابر: يا جابر أتبيعنى جملک هذا؟

قال: بل أهبه لک يا رسول اللّه.

قال (ص): لا، ولكن بعنيه.

قال: اذن فساوِمنى عليه يا رسول اللّه.

قال (ص): قد أخذته بدرهم.

قال: إذن تغبننى يا رسول اللّه.

قال (ص): فبدرهمين.

قال جابر: لا.

فلم يزل يرفع له رسول اللّه (ص) فى ثمنه حتى بلغ الأوقية. فقال (ص): أرضيت يا جابر؟

قال جابر: نعم رضيت يا رسول اللّه فهو لک.

قال (ص): قد أخذته ولک ظهره إلى المدينة.

ثم قال له رسول اللّه (ص): هل تزوّجت يا جابر؟

قال: نعم يا رسول اللّه (ص).

قال (ص): ثيباً أم بكراً؟

قال: بل ثيباً، فابتسم رسول اللّه (ص) وقال: أفلا جارية؟

قال جابر وقد تنفّس الصعداء: يا رسول اللّه إنّ أبى اُصيب يوم اُحد وترک سبع بنات فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤسهنّ وتقوم

عليهنّ.

وهنا تأثّر رسول اللّه (ص) حتى ظهر على قسمات وجهه الشريف آثاره وقال مستحسناً عمل جابر: أحسنت وأصبت يا جابر.

ثم سأله عن دَين أبيه فأخبره. فقال (ص) له: إذا دخلت المدينهٔ وأردت أن تجذّ نخلك وتأخذ تمرها فأخبرنى.

قال جابر: فدخلت المدينهٔ وحدثت زوجتى الحديث وما قال لى رسول اللّه(ص). فقالت مستبشرهٔ: فدونك، سمع وطاعهٔ.

قال: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل حتى أنخته على باب المسجد، ثم جلست فى المسجد قريباً منه، فخرج رسول اللّه (ص) إلى المسجد فرأى الجمل فقال: ما هذا؟

قالوا: يا رسول اللّه هذا جمل جابر.

قال (ص): وأين جابر هو؟ فدُعى له، فلما مثل بين يديه قال (ص) له: ياابن أخى خذ برأس جملك فهو لك، ثم دعا بلالاً وقال له: اذهب بجابر فاعطيه اوقيهٔ.

قال جابر: فذهبت معه فأعطانى اوقيهٔ وزادنى.

اللّه أرحم بكم

ومما يذكر وقوعه فى غزوهٔ ذات الرقاع: انّ رجلاً جاء وفى يده فرخ طائر حتى إذا وصل إليهم رأوا انّ أبوى هذا الفرخ يرفرفان فوق رأسه، فلما استقرّ الرجل بينهم طرحا أنفسهما على فرخهما ولم يعبئا بالخطر شفقهٔ ورحمهٔ بفرخهما، فتعجّب الناس من ذلك.

فالتفت إليهم رسول اللّه (ص) وقال: أتعجبون من هذا الطائر، أخذتم فرخه، فطرح نفسه رحمهٔ بفرخه؟ واللّه لربّكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه. ثم التفت (ص) بعد ذلك إلى الرجل وأمره بإطلاقه.

غزوهٔ بدر الأخيرهٔ

ولما قدم رسول اللّه (ص) من غزوهٔ ذات الرقاع إلى المدينهٔ أقام بها جمادى الأُولى إلى آخر رجب، ثم خرج فى شعبان وقيل: أقام بها إلى آخر شوّال، ثم خرج فى هلال ذى القعدهٔ فى السنهٔ الرابعهٔ من الهجرهٔ النبويهٔ المباركهٔ إلى بدر لميعاد أبى سفيان.

وذلك انّ أبا سفيان قال يوم اُحد عند انصرافه منهزماً إلى مكهٔ: الموعد بيننا وبينكم بدر العام القابل.

فقال رسول اللّه (ص) لعلى (ع) قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

فخرج رسول اللّه (ص) وحمل لوائه على (ع) وسار معه ألف وخمسمائهٔ من أصحابه، والخيل عشرهٔ أفراس، وذلك بعد أن استعمل على المدينهٔ عبداللّه بن رواحهٔ.

فلما وصلوا إلى بدر الصغرى وكانت موضع سوق لهم فى الجاهليهٔ يجتمعون إليها فى كل عام ثمانيهٔ أيام أقاموا عليها ينتظرون أبا سفيان.

وخرج أبو سفيان من مكّهٔ ومعه ألفان وخمسون فرساً حتى نزل مجنّهٔ من ناحيهٔ مرّ الظهران ثم بدا له الرجوع، فبعث من يثبّط المسلمين عن الخروج إليهم ووعده على ذلك عشرهٔ من الإبل يضعها له على يدى سهيل بن عمرو إن هو فعل ذلك.

ثم التفت أبو سفيان إلى مَن معه وقال: يا معشر قريش انه لا يصلحكم إلا عام خصب، وإن عامكم هذا عام جدب، وانى راجع فارجعوا، فرجع ورجع من كان معه.

فسمّاهم أهل مكهٔ: جيش السويق يقولون: انما خرجتم تشربون السويق.

وأقام رسول اللّه (ص) وأصحابه ببدر ثمانيهٔ أيام لم يلقوا فيها أحداً من المشركين، ووافقوا السوق وكانت لهم تجارات فباعوها وأصابوا الدرهم درهمين، وانصرفوا إلى المدينهٔ سالمين غانمين.

مع أشجع وبنى ضمرة

وفى الطريق مرّ رسول اللّه (ص) ومعه أصحابه قريباً من بلاد أشجع وبنى ضمرة، وكان قد هادن بنى ضمرة ووادعهم من قبل.
فقال أصحاب رسول اللّه (ص): يا رسول اللّه هذه بنو ضمرة قريباً منّا، ونخاف أن يخالفونا إلى المدينة، أو يعينوا علينا قريشاً، فلو بدأنا بهم؟
فقال رسول اللّه (ص): كلا انهم أبرّ العرب بالوالدين، وأوصلهم للرحم، وأوفاهم بالعهد.
وكانت (أشجع) بلادهم قريباً من بلاد بنى ضمرة وهم بطن من كنانة، وكان بين أشجع وبنى ضمرة حلف فى المراعاة والأمان، فأُجدبت بلاد أشجع، وأُخصبت بلاد بنى ضمرة، فصارت أشجع إلى بلاد بنى ضمرة، فكان محالّها البيضاء والجبل والمستباح، وبذلك كانوا قد قربوا من رسول اللّه (ص) فهابوا لقربهم منه وخطرهم عليه، أن يبعث إليهم رسول اللّه (ص) من يغزوهم.
كما انّ رسول اللّه (ص) خافهم بسبب قربهم أن يصيبوا من أطرافه شيئاً، فهمّ بالمسير إليهم، فبينا هو على ذلك، إذ جاءت أشجع ورئيسها مسعود بن رخيلة وهم سبعمائة فنزلوا شعب سلع، عندها دعى رسول اللّه (ص) أُسيد بن حضير وقال له: اذهب أنت ونفر من أصحابك حتى تنظر ما أقدم أشجع؟
فخرج اسيد ومعه ثلاثة من أصحابه، فوقف عليهم وقال: ما أقدمكم؟
فقام إليه رئيس أشجع مسعود بن رخيلة فسلّم على اسيد وعلى أصحابه وقال: جئنا لنوادع محمداً، فرجع اسيد إلى رسول اللّه (ص) وأخبره بالخبر.
فقال رسول اللّه (ص): خاف القوم أن أغزوهم فأرادوا الصلح بينى وبينهم، ثم بعث إليهم بعشرة أحمال تمر فقدّمها أمامه ثم قال: (نعم الشيء الهدية أمام الحاجة) ثم أتاهم (ص) فقال: يا معشر أشجع ما أقدمكم؟
قالوا: قربت دارنا منك، وليس فى قومنا أقلّ عدداً منّا، فضقنا بحربك لقرب دارنا منك، وضقنا بحرب قومنا لقلّتنا فيهم، فجئنا لنوادعك.
فقبل النبى (ص) ذلك منهم ووادعهم فأقاموا يومهم ثم رجعوا إلى بلادهم، وفيهم نزلت هذه الآية: (إلّا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم ان يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم)(۳).

غزوة دومة الجندل

و(دومة الجندل) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة أو ست عشرة.
وكان سببها أنه بلغه (ص) أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مرّ بهم، من المسافرين والتجّار، وانهم يريدون الإغارة على المدينة، فخرج لخمس ليال بقين من ربيع سنة خمس للهجرة النبوية المباركة، وذلك فى ألف من أصحابه، فكان يسير الليل ويكمن النهار، حتى إذا دنا من دومة الجندل بلغ أهلها خبره فتفرّقوا من فورهم.
فنزل (ص) بساحتهم فلم يلق بها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا وفرقها، فرجعوا بعد يوم ولم يصادفوا منهم أحداً.
ثم عاد رسول اللّه (ص) إلى المدينة ولم يلق كيداً. وكان ذلك تمهيداً لما حدث بعد ذلك من فتح الشام.
۱ الحشر: ۹. ۲ وقيل: بعد فتح بنى قريضة. ۳ النساء: ۹۰.

غزوة الخندق (الأحزاب)

وكانت فى شوال سنة خمس من الهجرة النبوية المباركة.

وذلك ان نفراً من اليهود منهم: سلام بن أبى الحقيق النضيرىّ، وحيىّ بن أخطب، وكنانة بن الربيع، وهوذة بن قيس الوالبى، وأبو عمارة الوالبى فى نفر من بنى النضير، ونفر من بنى وائل، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فقالوا لهم: انّ محمداً قد وترنا ووتركم، وأجلانا من المدينة من ديارنا وأموالنا، وأجلا بنى عمنا بنى قينقاع، فسيروا فى الأرض وأجمعوا حلفاءكم وغيرهم حتى نسير إليهم، فإنه قد بقى من قومنا بيثرب سبعمائة مقاتل وهم بنو قريظة وبينهم وبين محمد عهد وميثاق، وإنّا نحملهم على نقض العهد بينهم وبين محمد ويكونون معنا عليهم، فتأتونه أنتم من فوق، وهم من أسفل، وكان موضع بنى قريظة من المدينة على قدر ميلين وهو الموضع الذى يسمىّ ببئر بنى المطّلب، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وانكم أولى بالحق منه.

فأنزل اللّه تعالى فيهم على رواية: (ألم تر إلى الذين اُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا)(١) إلى قوله: (وكفى بجهنّم سعيراً)(٢).

فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول اللّه(ص).

وجاءهم أبو سفيان فقال لهم: قد مكّنكم اللّه من عدوّكم، هذه اليهود تقاتل معكم ولن تنفك عنكم حتى نأتى على جميعهم، أو نستأصلهم، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له.

ثم خرج ذلك النفر من اليهود حتى أتوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول اللّه (ص) وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأنّ قريشاً قد تابعوهم على ذلك.

فخرجت قريش وقائدهم إذ ذاك أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن فى بنى قرارة، والحارث بن عوف فى بنى مرة، ومسعر بن دخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع، وتوجّهوا فى عشرة آلاف، وقيل: فى ثمانية عشر ألف رجل، نحو المدينة.

المشورة تهدى إلى الظفر

فلما سمع بهم رسول اللّه (ص) استشار أصحابه، فكان رأيهم على المقام فى المدينة وحرب القوم إن جاءوا إليهم على أنقابها.

فأشار سلمان الفارسى بالخندق واستحسنه القوم، ونزل جبرئيل على رسول اللّه (ص) بصواب رأى سلمان.

فخرج رسول اللّه (ص) فحدّد حفر الخندق من ناحية اُحد إلى راتج، حيث كان سائر أنحاء المدينة مشبك بالنخيل والبنيان، وخطّ موضع الحفر بخط على الأرض، فضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول اللّه (ص) ترغيباً للمسلمين فى الأجر فحفر بنفسه فى موضع المهاجرين، وعلى (ع) ينقل التراب من الحفرة، حتى عرق رسول اللّه (ص) وعيى وقال: (لا عيش إلا عيش الآخرة، اللّهم اغفر للأنصار والمهاجرين).

فقالوا مجيبين له:

(نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا)

وكان سلمان رجلًا قويّاً، فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقالت الأنصار: سلمان منّا، فقال النبى (ص): (سلمان منّا أهل البيت).

وكان لكل عشرة منهم أربعون ذراعاً يحفرونها، فبدأ رسول اللّه (ص) فعمل فيه وعمل فيه المسلمون، فدأب فيه فدأبوا.

وأبطأ عن رسول اللّه (ص) وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورّون بالضعف عن العمل، ويتسلّلون إلى أهليهم بغير علم من رسول اللّه (ص) ولا إذن.

وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة من الحاجة التى لابدّ منها ذكرها لرسول اللّه (ص) واستأذنه باللحوق بحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبةً فى الخير واحتساباً له، فأنزل اللّه فى اُولئك المؤمنين: (إنّما المؤمنون الذين آمنوا باللّه

ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه)(۳).
ثم قال تعالى فى المنافقين الذين كانوا يتسلّلون من العمل ويذهبون بغير إذن: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً، قد يعلم اللّه الذين يتسلّلون منكم لواذاً)(۴).
وكان الذى أشار بالخندق سلمان فقال: يا رسول اللّه، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، ولم تكن تعرفه العرب قبل ذلك، ولذا قال المشركون لما رأوا الخندق: انها مكيدة فارسية ما كانت العرب تكيدها.

النبى (ص) يجوع ليَشبع الآخرون

قال على (ع): كنا مع النبى (ص) فى حفر الخندق إذ جاءته فاطمة(ع) ومعها كسرة من خبز، فدفعتها إلى النبى (ص) فقال: يا فاطمة ما هذه؟
قالت (ص): قرص خَبَزته للحسن والحسين (عليه السلام) جئتك منه بهذه الكسرة.
فقال النبى (ص): أما إنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث.

بوارق الفتح

وبينا المهاجرون والأنصار يحفرون إذ عرض لهم جبل لم تعمل فيه المعاول، فبعثوا جابر بن عبداللّه الأنصارى إلى رسول اللّه (ص) يعلمه بذلك.
قال جابر: فجئت إلى رسول اللّه (ص) وقد شدّ على بطنه حجر المجاعة، وأخبرته بالخبر.
فأقبل (ص) ودعا بماء فى اناء، فشرب منه ثم مجّ ذلك الماء فى فيه، ثم صبه على ذلك الحجر، ثم أخذ معولاً فقال: بسم اللّه، فضرب ضربة، فبرقت برقة، فنظرنا فيها إلى قصور الشام، ثم ضرب اُخرى فبرقت برقة فنظرنا فيها إلى قصور المدائن، ثم ضرب اُخرى فبرقت برقة اُخرى فنظرنا فيها إلى قصور اليمن.
فقال رسول اللّه (ص): أما انه سيفتح اللّه عليكم هذه المواطن التى برقت فيها البرقة، ثم انهال علينا الجبل كما ينهال الرمل.

فى ضيافة جابر

قال جابر: فلما رأيت رسول اللّه (ص) قد شدّ على بطنه حجراً علمتُ بأنه جائع، فقلت له: يا رسول اللّه هل لك فى الغداء؟
قال (ص): ما عندك يا جابر؟
قلت: عناق وصاع من شعير.
قال (ص) تقدّم وأصلح ما عندك.
قال جابر: فجئتُ إلى أهلى فأمرتها فطحنت الشعير، وذبحت العنز وسلختها، وأمرتها أن تخبز وتطبخ وتشوّى، فلما فرغت من ذلك، جئت إلى رسول اللّه (ص) فقلت: بأبى واُمّى أنت يا رسول اللّه قد فرغنا، فاحضر مع من أحببت.
فقام رسول اللّه (ص) إلى شفير الخندق ثم قال: يا معاشر المهاجرين والأنصار أجيبوا جابراً، وكان فى الخندق سبعمائة رجل، فخرجوا كلّهم! ثم لم يمرّ (ص) بأحد من المهاجرين والأنصار إلا قال: أجيبوا جابراً!
قال جابر: فأسرعت إلى البيت وقلت لأهلى: قد واللّه أتاك رسول اللّه (ص) بما لاقبل لك به.
فقالت: هل أنت أعلمته بما عندنا؟
قال: نعم.

قالت: هو أعلم بما أتى.

قال جابر: فدخل رسول اللّه (ص) فنظر فى القدر، ثم نظر فى التنور، ثم دعى بصحفهٔ فثرد فيها وغرف، فقال: يا جابر أدخل عليّ عشرهٔ، فأدخلت عشرهٔ، فأكلوا حتى نهلوا، وما يرى فى القصعهٔ إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر عليّ بالذراع، فأتيته بالذراع فأكلوه.

ثم قال: أدخل عليّ عشرهٔ، فدخلوا فأكلوا حتى نهلوا وما يرى فى القصعهٔ إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر عليّ بالذراع، فأتيته فأكلوا وخرجوا.

ثم قال: أدخل عليّ عشرهٔ، فأدخلتهم فأكلوا حتى نهلوا ولم ير فى القصعهٔ إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر عليّ بالذراع، فأتيته بالذراع فتعجّبت وقلت: يا رسول اللّه كم للشاهٔ من ذراع؟

قال (ص): ذراعان.

قلت: والذى بعثك بالحقّ نبيّاً لقد أتيتك بثلاثهٔ.

فقال: أما لو سكتّ يا جابر لأكلوا كلهم من الذراع.

قال جابر: فأقبلت اُدخل عليه عشرهٔ عشرهٔ فيأكلون حتى أكلوا كلهم، وبقى واللّه لنا من ذلك الطعام ما عشنا به أياماً.

المشركون ومحاصرهٔ المدينهٔ

قال: وحفر رسول اللّه (ص) الخندق وأتمّه قبل قدوم قريش بثلاثهٔ أيام، وقد طال حفره مايقارب من شهر واحد، وذلك بعد أن جعل له ثمانيهٔ أبواب، وجعل على كل باب رجلاً من المهاجرين ورجلاً من الأنصار مع جماعهٔ يحفظونه.

ثم ضرب (ص) عسكره هناك وكانوا ثلاثهٔ آلاف، فجعل الخندق أمامه، وجعل ظهره إلى سلع وهو جبل بالمدينهٔ، وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا فى الآطام، وذلك بعد أن استعمل ابن اُمّ مكتوم على المدينهٔ.

وقدمت الأحزاب وعلى رأسهم قريش ومعهم حييّ بن أخطب، فلما نزلوا العقيق جاء حييّ بن أخطب إلى بنى قريظهٔ فى جوف الليل، وكانوا فى حصنهم وقد تمسّكوا بما عاهدوا عليه رسول اللّه (ص) فدقّ باب الحصن، فسمعه كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظهٔ وعهدهم، وكان هو بنفسه الذى وادع رسول اللّه (ص) على قومه وعاقده على ذلك، فعرف انه حييّ بن أخطب، فأغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له.

فناداه حييّ: ويحك يا كعب افتح لى.

قال: ويحك يا حيى إنك امرؤ مشؤوم، وانى قد عاهدت محمداً، وانك لست بناقض مابينى وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً.

قال: ويحك افتح لى اُكلّمك.

فقال: ما أنا بفاعل.

قال حييّ، وقد فكّر فى كلام يثير به كعب: واللّه ما أغلقت الباب دونى إلا عن جشيشتك التى فى التنور تخاف أن آكل منها.

فأحفظ الرجل ففتح له وقال: لعنك اللّه لقد دخلت عليّ من باب دقيق.

فقال حييّ: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومهٔ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نَقَمى إلى جانب اُحد قد عاهدونى وعاقدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

قال كعب: جئتنى واللّه بذلّ الدهر وبجهام قد هرق ماؤه، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شىء، ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه، فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً.

فلم يزل حيي يفتله في الـذروة والغارب ويقول له: بأن محمـداً لا يفلت من هـذا الجمع أبداً، وان فاتك هذا الوقت لاتدرك مثله أبداً، حتى سـمع له على أن أعطـاه عهـداً من اللّه وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصـيبوا محمـداً أن أدخل معك في حصـنك حتى يصيبني ما أصابك.

وبهذا تمكّن حيي من اقناع كعب، فلما اقتنع كعب بذلك أرسل إلى كل من كان في الحصن من رؤساء اليهود وقال لهم: ما ترون؟

قالوا: أنت سيّدنا وصاحب عهدنا فإن نقضت نقضنا معك، وإن أقمت أو خرجت كنا معك.

فقـال لهم (ابن باطـا) وكـان أحـد رؤسـائهم: انه قرأ في التوراة وصف هـذا النبي وانه لو ناوته الجبال الرواسـي لغلبها، فلا يهولنّه هؤلاء وجمعهم، وحذرهم مغبّة نقضهم العهد معه.

وهنا انبرى حيي وقال: ليس هذا ذاك، ذلك النبي من بني إسـرائيل، وهذا من العرب، ومازال يقلّبهم عن رأيهم حتى أجابوه، ثم طلب حييّ الكتاب الذي كان بينهم وبين رسول اللّه (ص) فمزّقه وقال: قد وقع الأمر فتجهّزوا للقتال، فنقضوا عهدهم وعزموا على القتال.

وجاء حييّ بن أخطب إلى أبي سفيان والأحزاب فأخبرهم بنقض بني قريظة عهدهم ففرحوا بذلك.

بني قريظة يعلنون خيانتهم

ثم بـدأ بنو قريظـة يظهرون خيانتهم ونقضـهم للعهـد، وحاولوا أن يغيروا على المدينـة من منافذها المؤدية إلى مساكن النساء والأطفال فبعثوا أحدهم ليطّلع على المنافذ ويخبرهم بها.

وفي أثناء استطلاعه بصرت به صفية بنت عبدالمطلب وهي مع جماعة من النسوة والأطفال وفيهم حسان بن ثابت كانوا في حصن فارع حصن حسّان بن ثابت، فقالت لحسّان: لو نزلت إلى هذا اليهودي لتقتله، فإنه يريد أن يدلّ بني قريظة على المنافذ المؤدية إلى الحصن.

فقال حسّان: يا بنت عبدالمطلب لقد علمت ما أنا بصاحب هذا.

وهنا تحزّمت صفية ثم نزلت وأخذت عموداً وقتلته به، ثم عادت إلى الحصن وقالت لحسّان: الآن فاخرج واسلبه.

أجابها حسّان: لا حاجة لي في سلبه.

النبي (ص) وأخبار بني قريظة

ولمـا نقض بنـو قريظـة عهـدهم، انتهى خـبرهم إلى رسـول اللّه (ص) فبعث إليهم سـعد بن معـاذ وسـعد بن عبـادة وعبـداللّه بن رواحة وخوّات بن جُبير وقـال: انطلقوا حتى تنظروا أحق مـا بلغنـا عن هؤلاـء القوم؟ فـإن كـان حقـاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم فوجـدوهم على أخبث مـا بلغهم عنهم، ونالوا من رسول اللّه (ص) وقالوا: من رسول اللّه؟ لاعهـد بيننا وبين محمد ولا عقد.

فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلاً فيه حدة.

فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

ثم أقبل سـعد بن معاذ وسـعد بن عبادة ومن معهما إلى رسول اللّه (ص) فسـلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة. أي: كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع.

فقال رسول اللّه (ص): اللّه أكبر أبشـروا بنصـر اللّه يا معشـر المسـلمين، وكان (ص) يبعث الحرس إلى المدينـة خوفاً على الذراري من بني قريظة.

لكن عظم على المسـلمين البلاء واشـتدّ الخوف عندما أتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسـفل منهم وحاصـروهم حول الخندق حتى ظن

المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال بعضهم: قد كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يـذهب لقضاء حاجته. وأنزل اللّه تعالى: (وإذ يقول المنافقون والّـذين فى قلوبهم مرض ما وعـدنا اللّه ورسوله إلاّ غروراً)(۵).

وقال رجال معه: (يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا).

وقال بعضهم: يا رسول اللّه ان بيوتنا عورهٔ من العدو، فائذن لنا فنرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينهٔ، فأنزل اللّه سبحانه: (وما هى بعورهٔ إن يريدوا إلاّ فراراً).

مفاوضات عسكريهٔ

فلمّـا اشتدّ البلاء على المسلمين من كثرهٔ الأحزاب وطول محاصرتهم، بعث رسول اللّه (ص) إلى عيينـهٔ بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهمـا قائـدا غطفـان، ففاوضـهما بأن يعطيهما ثلث ثمار المدينـهٔ على أن يرجعوا بمن معهما عنه وعن أصـحابه، وذلك ليفتّ فى عضد المشركين، فجرى بينه وبينهما مذاكرهٔ الصلح، ولم تقم الشهادهٔ ولا عزيمهٔ الصلح، إلا المراوضهٔ فى ذلك.

فبعث رسول اللّه إلى سـعد بن معاذ وسـعد بن عبادهٔ فذكر ذلك لهما واسـتشارهما فيه، فقالا: يا رسول اللّه أمراً تحبه فنصـنعه، أم شـيئاً أمرك اللّه به لابدّ لنا من العمل به فافعله، أم شيئاً تصنعه لنا؟

قال (ص): بل شـىء أصـنعه لكم، وما أصنع ذلك إلا لأنّى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدهٔ وجاؤوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرمّا.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول اللّه قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك باللّه وعبادهٔ الأوثان ولا نعبد اللّه ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من ثمرنا تمرهٔ إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا اللّه بالإسلام وهدانا به نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجهٔ، واللّه لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم بحكمه.

فقـال رسول اللّه (ص): الآن قـد عرفت ما عنـدكم، فكونوا على ما أنتم عليه، فإن اللّه تعالى لن يخـذل نبيّه ولن يسـلمه حتى ينجز له ما وعده.

وكان هذا بالإضافهٔ إلى الفتّ فى أعضاد المشـركين، واسـتخبار معنويات المسـلمين، تعليماً من الرسول (ص) فى استشارهٔ الحكام أهل الخبرهٔ أيضاً.

بدء القتال

ولما علم رسول اللّه (ص) عزم أصـحابه وعلوّ معنوياتهم رغم طول المحاصرهٔ حيث دامت بضعاً وعشرين ليلهٔ ولم يكن بينهم حرب إلا الرمى بالنبل والحصى، قام (ص) يشجّع أُولئك الذين أصابهم الضعف والوهن خوفاً من المشركين، ويحرّضهم على جهادهم، ويعدهم النصر من اللّه تعالى، ويحثهم بذلك على المجابهٔ إذا نشب القتال.

وفى هـذه الأثناء انتدبت فوارس من قريش، وعلى رأسـهم فارس يليل: عمرو بن عبدود العامرى، خرج مُعلماً ليرى مشـهده، وكان يعدّ بـألف فـارس، فأقبلوا على خيلهم حتى وقفوا على الخنـدق، فلما رأوه قالوا: واللّه إنّ هـذه لمكيـدهٔ ما كانت العرب تكيـدها، ثم تيمموا مكاناً ضـيقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم خيلهم فى السبخهٔ بين الخندق وسلع، وكان عمرو العامرى هذا ومن معه أول من عبر الخندق.

فخرج على بن أبى طـالب (ع) فى نفر من المسـلمين حـتى أخـذوا عليهم الثغرهٔ الـتى اقتحمـوا منهـا ومنعوا من عبور الآخرين، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم.

وكان عمرو بن عبدود ينادى تارة: ألا رجل يبارزنى؟

ويصرخ أُخرى: أين جنّتكم التى تزعمون انّ من قتل منكم دخلها؟ ويرتجز ثالثة ويقول:

ولقد بُححت من النداء بجمعكم هل من مبارز؟

ووقفت إذ جبن الشجاع مواقف البطل المناجز

انى كذلك لم أزل متسرّعاً نحو الهزاهز

إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

الايمان كله مع الشرك كله

وفى كل مرة يطلب عمرو المبارزة، كان رسول اللّه (ص) يقول لأصحابه: أيّكم يبرز إلى عمرو؟ وأضمن له على اللّه الجنّة؟

وفى كل مرة يقوم على بن أبى طالب (ع) ويقول: أنا له يا رسول اللّه، فيأمره بالجلوس انتظاراً منه ليتحرّك غيره، والمسلمون ناكسوا رؤوسهم كأنّ على رؤوسهم الطير، لمكان عمرو بن عبدود.

فلما طال نداء عمرو بالبراز وتتابع قيام على (ع) قال له رسول اللّه (ص): يا على هذا عمرو بن عبدود فارس يليل.

قال: وأنا على بن أبى طالب.

فقال (ص): إذن اُدن منّى يا على، فدنى منه، فنزع (ص) عمامته من رأسه وعمّمه بها، وأعطاه سيفه ذاالفقار وقال له: (اذهب وقاتل بهذا).

ثم رفع (ص) يديه نحو السماء وقال: (اللّهمّ انّك أخذت منّى عبيدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة بن عبدالمطلب يوم اُحُد، وهذا أخى على بن أبى طالب، ربّ لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين، اللّهمّ أعنه، اللّهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته).

فلما برز على (ع) قال (ص): (برز الايمان كله إلى الشرك كله)(۶).

ولما برز على بن أبى طالب (ع) إلى عمرو، برز وهو يهرول فى مشيته ويرتجز ويقول مجيباً لعمرو:

لاتعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيّة وبصيرة والصدق منجى كلّ فائز

انى لأرجو أن اُقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

على أعتاب المصاولة

ولما اقترب على (ع) من عمرو، قال له عمرو: من أنت؟

قال: أنا على بن أبى طالب ابن عم رسول اللّه (ص) وختنه.

قال: واللّه انّ أباك كان لى صديقاً، وانى أكره أن أقتلك، ما أمن ابن عمّك حين بعثك إليّ أن اختطفك برمحى هذا، فأتركك بين السماء والأرض لا حيّاً ولا ميّتاً؟

فأجابه على (ع) قائلًا: قد علم ابن عمّى انك إن قتلتنى دخلتُ الجنّة وأنت فى النار، وإن قتلتك فأنت فى النار وأنا فى الجنّة.

فقال عمرو: كلتاهما لك يا على، تلك إذن قسمةٌ ضيزى.

فقال على (ع): دع هذا يا عمرو، انى سمعتك تقول: لا ـ يعرض عليّ أحد فى الحرب ثلاث خصال إلا أجبته إلى واحدة منها، وأنا

أعرض عليك ثلاث خصال فأجبنى إلى واحدة.

قال عمرو: هات يا على.

قال (ع): تشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمداً رسول اللّه.

قال: نحّ عنى هذا، فأين ما أنفقت فيكم مالاً ـ لبداً؟ وكان قد أنفق مالاً ـ فى الصدّ عن سبيل اللّه فأنزل اللّه فيه: (يقول أهلكت مالاً لبداً)(۷).

قال (ع): فالثانية: أن ترجع من حيث جئت وترد هذا الجيش عن رسول اللّه (ص)، فإن يك صادقاً فأنتم أعلى به عيناً، وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره.

قال: إذن تتحدّث نساء قريش بأنى جبنت ورجعت.

قال (ع): فالثالثة: أن تنزل إلىّ وتقاتلنى، فإنى راجل وأنت راكب.

فنزل عمرو عن فرسه وعرقبه وقال: هذه خصلة ما كنت أظن انّ أحداً من العرب يسومنى عليها، وانى لأكره أن أقتل رجلاً ـ كريماً مثلك، وقد كان أبوك لى صديقاً.

قال على (ع): لكنى اُحبّ أن أقتلك.

فغضب عندها عمرو وبدأ بالقتال فضرب علياً (ع) بالسيف على رأسه، فاتقاه بالدرقة فقطعها، وثبت السيف على رأسه (ع).

ثم بدره على (ع) فضربه على ساقيه فقطعهما جميعاً، وارتفعت بينهما عجاجة، وكبّر على (ع).

فانكشف من كان مع عمرو حتى عبروا الخندق منهزمين، فوقع نوفل بن عبدالعزّى فى الخندق، فطعنه على (ع) فى ترقوته فمات فى الخندق.

ضربة على (ع) يوم الخندق

ولما انكشفت العجاجة نظروا فإذا بعلى (ع) على صدر عمرو قد أخذ بلحيته يريد أن يذبحه، فلمّا همّ أن يذبحه تركه وقام فخطا خطوات ثم رجع إليه وأخذ بلحيته ثانية ليذبحه وهو يكبّر اللّه ويمجّده، فقال له عمرو: يا على إذا قتلتنى فلا تسلبنى حلّتى.

فقال (ع): هى أهون علىّ من ذلك، فذبحه وتركه، ثم أخذ رأسه وأقبل نحو رسول اللّه (ص) والدماء تسيل على رأس على (ع) من ضربة عمرو، وسيفه يقطر منه الدم، وهو يقول والرأس بيده:

أنا على وابن عبدالمطلب الموت خير للفتى من الهرب

يقول ذلك وهو يخطر فى مشيته.

فقال بعض: ألا ترى يا رسول اللّه إلى علىّ كيف يتبختر فى مشيه؟

فقال رسول اللّه (ص): انها لمشية لا يمقتها اللّه فى هذا المقام.

ثم استقبله رسول اللّه (ص) ومسح الغبار عن عينيه وقال له: أبشر يا على فلو وزن اليوم عملك بعمل اُمّة محمد لرجح عملك بعملهم، وذاك انه لم يبق بيت من المشركين إلاّ وقد دخله ذلّ بقتل عمرو، ولم يبق بيت من المسلمين إلاّ وقد دخله عزّ بقتل عمرو.

ثم قال (ص): ضربة على (ع) يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين.

وسُمع منادياً ينادى ولا يرى شخصه يقول:

قتل على عمرا قصم على ظهراً

ابرم على أمراً

ووقعت الهزيمة بالمشركين وتفرّقت الأحزاب خائفين مرعوبين.

فقـال رسول اللّه (ص): الآـن نغزوهم ولاـ يغزونـا، فكـان كما قال (ص) فلم يغزهـم قريش بعـد ذلك، وكان هو يغزوهم حتى فتـح اللّه عليهم مكّة.

ولما سألوا علياً (ع) عن سبب قيامه عن صدر عمرو ثم العود إليه ثانية، وعن تركه سلبه؟

قال (ع): ان عمرواً تجاسـر عليه مما أثار غضـبه، فقام يخطو خطوات يطفىء بها غضـبه ليكون قتله إيّاه خالصاً لوجه اللّه تعالى لا يشوبه شيء من التشفى والإنتقام لنفسه، كما انه ترك سلبه، لأن عمرواً قد سأله ذلك وطلب منه أن لايسلبه بعد قتله.

ضربتان: أعزّ وأشأم

روى الأودى قال: سـمعت ابن عياش يقول: لقـد ضَرب علىّ (ع) ضـربة ما كان فى الإسـلام ضـربة أعزّ منها، يعنى بها ضـربة عمرو بن عبـدود العـامرى، ولقـد ضُـرب على (ع) ضـربة مـا كان فى الإسـلام أشأم منها، يعنى بها ضـربة ابن ملجم المرادى، وفى قتل عمرو بن عبدود يقول حسّان بن ثابت:

أمسى الفتى عمرو بن عبد يبتغى بجنوب يثرب غارة لم تنظر

ولقد وجدت سيوفنا مشهورة ولقد وجدت جيادنا لم تقصر

ولقد رأيت غداة بدر عصبة ضربوك ضرباً غير ضرب المخسر

أصبحت لا تدعى ليوم عظيمة يا عمرو أو لجسيم أمر منكر

فسمعه أحد بنى عامر فأجابه وهو يرد عليه افتخاره بالأنصار قائلًا:

كذبتم وبيت اللّه لم تقتلوننا ولكن بسيف الهاشميين فافخروا

بسيف ابن عبداللّه أحمد فى الوغا بكف علىّ نلتمُ ذاك فاقصروا

فلم تقتلوا عمرو بن عبد بأسكم ولكنه الكفو الهزبر الغضنفر

علىّ الذى فى الفخر طال بناؤه ولا تكثتروا الدعوى علينا فتحقروا

مع ابنة عبدود

وروى انه لما قتل على (ع) عمرو بن عبدودّ نعى إلى اُخته عمرة بنت عبدود، فلما جاءت إليه ورأته على حلّته لم يسلبه قاتله، قالت: من ذا الذى اجترأ عليه؟

قالوا لها: على بن أبى طالب.

قالت: لم يعد موته إلا على يد كفو كريم، لا رقأت دمعتى ان هرقتها عليه، قتل الأبطال، وبارز الأقران، وكانت منيته على يد كفو كريم من قومه، ما سمعت بأفخر من هذا يا بنى عامر، ثم أنشأت تقول:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنتُ أبكى عليه آخر الأبد

لكن قاتل عمرو لا يعاب به من كان يدعى قديماً بيضة البلد

ثم قالت: واللّه لا ثأرت قريش بأخى ما حنّت النيب والنيب جمع ناب وهى المسنّة من النوق كناية عن انها لاتستطيع ذلك أبداً.

فى الحرب ومع المشركين فقط

كان نعيم بن مسـعود الأشـجعى ممن يجيد فنّ الشـغب والفتنة، فأتى رسول اللّه (ص) فى جوف الليل وكان قد أسـلم قبل قدوم قريش بثلاثـة أيـام، فقـال: يا رسول اللّه انى قـد آمنتُ باللّه وصـدقتك، وكتمتُ ايمانى عن الكفرة، فإن أمرتنى أن آتيك وأنصـرك بنفسـى

فعلت، وإن أمرتنى ان أُخذّل بين اليهود وبين قريش فعلت حتى لايخرجوا من حصنهم.

فقال رسول اللّه (ص): خذّل بين اليهود وبين قريش، فإنه أوقع عندى.

فجاء إلى أبى سفيان وقال له: انك تعرف مودّتى لكم ونصحى، وقد بلغنى انّ محمداً قد وافق اليهود على أن يأخذوا رهائن من أشرافكم ليسلّموهم إلى محمد يضرب أعناقهم، ثم يدخلوا بين عسكركم ويميلوا عليكم، ووعدهم إذا فعلوا ذلك أن يردّ عليهم جناحهم الذى قطعه بنى النضير وقينقاع، فلا أرى أن تدعوهم يدخلوا عسكركم حتى تأخذوا منهم رهناً تبعثوا بهم إلى مكّة، فتأمنوا مكرهم وغدرهم.

فقال له أبو سفيان: وفّقك اللّه وأحسن جزاءك، مثلك من أهدى النصائح.

ثم جاء نعيم من فوره ذلك إلى بنى قريظة وقال لكعب وكان نديماً له فى الجاهلية: يا كعب انّك تعلم مودّتى لكم ونصحى، وقد بلغنى انّ أبا سفيان قال: نخرج هؤلاء اليهود فنضعهم فى نحر محمّد، فإن ظفروا كان الفخر لنا، وإن خسروا كانوا هؤلاء مقاديم الحرب، فلا أرى لكم أن تدعوهم يدخلوا عسكركم حتى تأخذوا منهم عشرة من أشرافهم يكونون فى حصنكم، فإنهم إن لم يظفروا بمحمد رجعوا إلى مكة وغزاكم محمد فقتلكم، لكن إن أخذتم رهائن منهم، لم يذهبوا حتّى يردّوا عليكم عهدكم الذى جعلتموه بينكم وبين محمد.

فقال له كعب: أحسنت وأبلغت فى النصيحة لانخرج من حصننا حتى نأخذ منهم رهناً يكونون فى حصننا.

وكان كذلك، فإنهم طلبوا رهناً حينما طلب منهم أبوسفيان أن يبدأوا القتال، فقال أبوسفيان: صدق نعيم، فاختلفت كلمتهم.

الأحزاب ينهزمون

لما قَتل على (ع) عمرو بن عبدود دخل الوهن والذلّ معسكر الأحزاب، واضطربوا أشدّ اضطراب، فلما جنّ اللّيل قام رسول اللّه (ص) على التلّ الذى عليه مسجد الفتح، وكانت ليلة ظلماء قرّة فقال: من يذهب فيأتينا بخبرهم وله الجنّة؟ أعادها فلم يقم أحد، ثم قال: من هذا؟ وكان حذيفة قريباً منه، فقال: أنا حذيفة يا رسول اللّه.

فقال: اقترب يا حذيفة أما تسمع كلامى؟

فقام حذيفة وهو يقول: القرّ والضرّ جعلنى اللّه فداك منعانى أن أُجيبك.

فقال رسول اللّه (ص): انطلق حتى تسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم.

فقال حذيفة: نعم يا رسول اللّه، ثم قام فأخذ سيفه وقوسه وترسه، وليس به ضرّ ولا قرّ واتّجه نحوهم.

فقال له رسول اللّه (ص) بعد أن دعا له: يا حذيفة لاتحدث شيئاً حتى تأتينى، فلما ذهب حذيفة رفع رسول اللّه (ص) يديه إلى السماء ودعا قائلاً: (يا صريخ المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرّين، ويا مغيث المهمومين، اكشف همّى وغمّى وكربى، فقد ترى حالى وحال أصحابى) وما أن تمّ دعاؤه حتى نزل جبرئيل وهو يقول: يا رسول اللّه انّ اللّه عزّ ذكره قد سمع مقالتك ودعاءك وقد أجابك وكفاك هول عدوّك، فجثا رسول اللّه (ص) على ركبتيه، وبسط يديه، وأرسل عينيه، ثم قال: (شكراً شكراً، كما رحمتنى ورحمت أصحابى).

ثم قال: ان اللّه عزّ وجل قد بعث عليهم ريحاً من السماء الدنيا فيها حصى وأرسل عليهم ريحاً من السماء الرابعة فيها جندل.

حذيفة ودعاء الرسول (ص)

قال حذيفة: خرجت فلما وصلت إليهم، أقبل جند اللّه الأول ريح فيها حصى، فما تركت لهم ناراً إلاّ أذرّتها، ولا خباءاً إلاّ طرحته، ولا رمحاً إلا ألقته، حتى جعلوا يتترّسون من الحصى.

فجلست بين رجلين من المشركين، فقام أبو سفيان وقال: إن كنّا نقاتل أهل الأرض فنحن بالقدرة عليه، وإن كنّا نقاتل أهل السماء كما يقول محمد فلا طاقة لنا بأهل السماء، انظروا بينكم لا يكون لمحمد عين بيننا، فليسأل بعضكم بعضاً.

قال حذيفة: فبادرتُ إلى الذى عن يمينى وقلت له: من أنت؟

قال معاوية.

وقلت للذى عن يسارى: من أنت؟

فقال: عمرو بن سهيل، ولم يسألانى عن اسمى.

ثم أقبل جنـد اللّه الأعظم. ريـح فيها جندل، فقام أبو سـفيان إلى راحلته، ثم صاح فى قريش: النجاء النجاء، ولما أراد أن يركب راحلته أمكننى قتله، فلما هممت بـذلك تـذكرت قول رسول اللّه (ص): (لاـ تحـدثن حـدثاً حتى ترجع إلىّ) فكففت ورجعت بعـد أن انهزم المشركون وذهب الأحزاب.

فأخبرتُ رسول اللّه (ص) الخبر وقد طلع الفجر، فتهيّأ وتهيّئنا معه للصلاة، فصلّى بنا الفجر ثم نادى مناديه: لا يبرحنّ أحد مكانه إلى أن تطلع الشـمس، فلما طلعت الشـمس انصـرفنا مع رسول اللّه (ص) إلى داخل المدينة وهو يقول على رواية: (لا إله إلّا اللّه وحده وحده، أنجز وعده، ونصـر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فله الملك وله الحمد، يحيى ويميت، ويميت ويحيى، وهو حىّ لا يموت بيده الخير وهو على كلّ شىء قدير).

القرآن وغزوة الأحزاب

ثم انّ اللّه تعـالى أوحى إلى نبيّه (ص) سورة الأحزاب يـذكّر المسـلمين فيها بما أصابهم ذلك اليوم من ضـرّ، وبما منّ عليهم من الفتح وبما أنزل عليهم من النصر، اضافة إلى ما فى تسمية السورة بالأحزاب من اشارة إلى أهمية الأمر وعظم الواقعة حيث يقول تعالى:

(يا أيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة اللّه عليكم، إذ جاءتكم جنود، فأرسـلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وكان اللّه بما تعملون بصـيراً، إذ جاءوكم من فـوقكم، ومن أسـفل منكم، وإذ زاغت الأبصـار، وبلغت القلـوب الحنـاجر، وتظنّون بـاللّه الظنونـا هنالـك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً)(۸) إلى قـوله تعـالى: (وردّ اللّه الـذين كفروا بغيظهم لم ينـالوا خيراً، وكفى اللّه المؤمنين القتـال، وكـان اللّه قويّاً عزيزاً)(۹).

ثمّ بشّرهم بفتـح حصون اليهود حيث يقول تعالى: (وأنزل الـذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصـيهم وقـذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها، وكان اللّه على كلّ شىء قديراً)(۱۰).

۱ النساء: ۵۱. ۲ النساء: ۵۵. ۳ النور: ۶۲.

۴ النور: ۶۳. ۵ الأحزاب: ۱۲.

۶ راجع شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المعتزلى ج ۱۳ ص ۲۶۱ ط دار إحياء التراث العربى.

۷ البلد: ۶. ۸ الأحزاب: ۹ ۱۱. ۹ الأحزاب: ۲۵.

۱۰ الأحزاب: ۲۶ ۲۷.

غزوة بنى قريظة

لما انصرف رسول اللّه (ص) من الخندق ودخل المدينة واللواء معقود، أراد أن يغتسل من الغبار، فناداه جبرئيل: عذيرك من محارب، واللّه ما وضـعت الملائكة لامتها، فكيف تضع لامتك؟ ان اللّه يأمرك أن لا تصـلّى العصـر إلا ببنى قريظة، فإنى متقدّمك ومزلزل بهم حصنهم.

فخرج رسول اللّه (ص) وقال: ادعوا لى علياً، فجاء على (ع) فقال له: ناد فى الناس أن لايصلينّ أحد العصر إلا فى بنى قريظة، فنادى فيهم، فخرج الناس، فبادروا إلى بنى قريظة، وخرج رسول اللّه (ص) وعلى (ع) بين يديه مع الراية العظمى فى ثلاثة آلاف رجل وثلاثين فرساً، وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة.

وكان حيىّ بن أخطب لما انهزم الأحزاب جاء فدخل حصن بنى قريظة، فجاء على (ع) فأحاط بحصنهم، فأشرف عليهم كعب بن أسد من الحصن يشتمهم ويشتم نبيّهم.

فأقبل رسول اللّه (ص) وأنزل العسكر حول حصنهم فحاصرهم ثلاثة أيام، فنزل بعدها أحدهم إليه وقال: يا محمد تعطينا ما أعطيت إخواننا من بنى النضير؟

فقال: لا، أو تنزلون على حكمى.

فرجع، واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة.

فلما اشتد عليهم ذلك وأيقنوا انّ رسول اللّه (ص) غير منصرف عنهم، قام سيّدهم كعب بن أسد وعرض عليهم ثلاث خصال: اما الإسلام، وإما قتل ذراريهم ونسائهم ثم القتال حتى يموتوا، وإما تبييت النبى (ص) وأصحابه ليلة السبت، فإن المسلمين قد أمنوا منهم.

فأبوا كل ذلك، فأرسلوا إلى رسول اللّه (ص) أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبدالمنذر أخا بنى عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، ليستشيروه فى أمرهم، فأرسله إليهم.

زلة أبى لبابة وتوبته

فلما جاء أبو لبابة إلى بنى قريظة أحاطوا به وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح.

قال أبو لبابة: فواللّه ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنتُ اللّه ورسوله.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يأت رسول اللّه (ص) حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده وقال: لا أبرح من مكانى هذا حتى يتوب اللّه علىَّ مما صنعت، وعاهد اللّه أن لا يطأ بنى قريظة أبداً، ولا يراه اللّه فى بلد خان اللّه ورسوله فيه أبداً.

فلما سمع رسول اللّه (ص) خبره وكان قد استبطأه قال: أما لو جاءنى لاستغفرتُ له، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب اللّه عليه.

فنزلت توبة أبى لبابة على رسول اللّه (ص)، فتولّى رسول اللّه (ص) إطلاقه بيده الكريمة، فنزلت بنو قريظة على حكم رسول اللّه (ص).

حكمية سعد بن معاذ

فلما نزلت بنو قريظة على حكم رسول اللّه (ص) قالت الأوس: يا رسول اللّه قد فعلت فى بنى قينقاع ما قد فعلت وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا.

فقال رسول اللّه (ص): ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟

قالوا: بلى فمن هو؟

قال (ص): فذلك سعد بن معاذ.

قالوا: قد رضينا بحكمه.

وكان رسول اللّه (ص) قد جعل سعد بن معاذ لما به من الجراح الذى أصابه من وقعة الأحزاب فى خيمة فى المسجد تسكنها رفيدة امرأة صالحة تقوم على المرضى وتداوى الجرحى تحتسب بذلك الأجر، ليعوده من قريب، فأرسل رسول اللّه (ص) إلى سعد ليؤتى به

ليحكم فى بنى قريظة، فأُتى به فى محفّة وهو سرير يحمل عليه المريض، وأحاط به قومه وهم يقولون: يا أباعمرو، أحسن فى مواليك، فإنما ولّاك رسول اللّه (ص) ذلك لتحسن فيهم.

فقال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى اللّه لومة لائم، فأحسّ قومه من كلامه هذا، انه يريد أن يحكم فيهم بما حكم به اليهود أنفسهم: من الحكم بقتل المحاربين وسبى ذراريهم ونسائهم ومصادرة أموالهم إذا كان الفتح لهم، وبما عاهد اليهود أنفسهم رسول اللّه (ص): من انهم لو نقضوا عهدهم معه كان له الحق فى قتلهم ومصادرة أموالهم وسبى ذراريهم ونسائهم، ولذلك قالوا: واقوماه ذهب واللّه بنو قريظة.

فلما استقرّ بسعد المجلس، التفت إلى اليهود وقال لهم: يا معشر اليهود أرضيتم بحكمى فيكم؟

قالوا: بلى قد رضينا بحكمك، فأعاد عليهم القول.

فقالوا: بلى يا أبا عمرو.

عندها التفت سعد إلى رسول اللّه (ص) وقال اجلالاً له: بأبى أنت واُمّى يا رسول اللّه ما ترى؟

قال (ص): احكم فيهم يا سعد، فقد رضيت بحكمك فيهم.

فقال سعد: قد حكمت يا رسول اللّه أن تقتل رجالهم، وتسبى نساءهم وذراريهم، وتقسّم غنائمهم وأموالهم بين المهاجرين والأنصار.

فنفّذ المسلمون حكم سعد فيهم فساقوا الاُسارى إلى المدينة، وأمر رسول اللّه (ص) بأن يحفروا حفراً فى البقيع، فلما أمسى أمر بإخراج رجل رجل، فاُخرج كعب بن أسد، فلما نظر إليه رسول اللّه (ص) قال له: يا كعب أما نفعك وصية ابن حواش الحبر الذى أقبل من الشام وقال: تركت الخمر والخمير، وجئت إلى البؤس والتمور، لنبى يبعث، هذا أوان خروجه، يكون مخرجه بمكّة، وهذه دار هجرته، وهو الضحوك الذى يجتزئ بالكسرة والتميرات، ويركب الحمار العارى، فى عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوّة، يضع سيفه على عاتقه لا يبالى من لاقى منكم، يبلغ سلطانه منقطع الخف والحافر؟

فقال كعب: قد كان ذلك يا محمد، ولولا أن اليهود يعيّرونى انى جزعت عند القتل لآمنتُ بك وصدقتك، ولكنى على دين اليهود عليه أحيا وعليه أموت.

فأمر رسول اللّه (ص) بضرب عنقه، فضربت.

ثم قدّم حييّ بن أخطب فضربت عنقه، ثم ضربت أعناق الباقين، وكانوا قليلين جداً.

ويؤيّد ذلك سيرة الرسول (ص) فى التقليل من القتل حسب الإمكان.

واصطفى (ص) لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو ثم قسم رسول اللّه (ص) بين المسلمين الأموال والنساء والذرارى، وذلك بعد أن أخرج خمسها.

شهداء الخندق وقريظة

وكان قد استشهد من المسلمين يوم الخندق وقريظة: سعد بن معاذ، فإنه بعد أن حكم فى بنى قريظة، انفجر جرحه بالدم فأرجعوه إلى خيمته الذى ضربت عليه فى المسجد، فما لبث أن نزل جبرئيل على رسول اللّه (ص) وقال: من هذا العبد الصالح الذى مات، فقد فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش.

فخرج رسول اللّه (ص) إلى المسجد فإذا بسعد بن معاذ قد قبض.

وممن استشهد يوم الخندق وقريظة: الطفيل بن النعمان، وأنس به اوس، وعبداللّه بن سهل، وثعلبة بن غنمة، وكعب بن زيد، وخلاد بن سويد الذى طرحت عليه امرأة من بنى قريظة رحى فقتلته به، ومات فى الحصار أبوسنان بن محصن أخو عكاشة بن محصن.

مع ابن باطا

وكان لابن باطا وهو من رؤساء بنى قريظة يد عند ثابت بن قيس، فأتى ثابت رسول اللّه (ص) وقال: يا رسول اللّه كان لابن باطا عندى يد وقد أحببتُ أن أجزيه بها فهب لى دمه.

فقال رسول اللّه (ص): هو لك.

فأتاه فأخبره بذلك.

فقال ابن باطا: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟

فأتى ثابت إلى رسول اللّه (ص) وقال: يا رسول اللّه أهله وولده.

قال (ص): هم لك.

فأتاه فأخبره بذلك.

فقال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك؟

فأتى ثابت إلى رسول اللّه (ص) وقال: ماله يا رسول اللّه.

قال (ص): هو لك.

فأتاه فأخبره بأنّ ماله له وفاءاً.

عند ذلك قال ابن باطا لثابت: أين كعب بن أسد؟

قال ثابت: قتل.

قال: فما فعل حييّ بن أخطب؟

قال: قتل.

قال: وما هى حال غزال بن شمول؟

قال: قتل.

فلما سمع ابن باطا بقتل هؤلاء قال لثابت: أسألك بيدى عندك يا ثابت إلّا ما ألحقتنى بالقوم، فواللّه ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر حتى ألقى الأحبّة، فلمّا رأى ثابت هذه اللجاجة من ابن باطا مع ما منّ عليه رسول اللّه(ص) من العفو عنه وعن أهله وأولاده وماله غضب وقال: لا بأس، ثم قدمه وضرب عنقه.

سرية ابن مسلمة إلى نجد

ثم بعث رسول اللّه (ص) خيلاً قبل نجد وجعل عليهم محمد بن مسلمة، فظفروا برجل من بنى حنيفة يقال له: ثمامة بن اُثال، وكان قد قتل من المسلمين، فأسروه وجاءوا به إلى المدينة فربطوه بسارية من سوارى المسجد، وقيل: أودعوه فى غرفة على باب المسجد.

فخرج إليه رسول اللّه (ص) وقال له: ما عندك يا ثمامة؟

فقال: عندى خير يا محمد، إن تقتلنى تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فاسأل منه ما شئت.

فتركه حتى كان الغد، ثم قال (ص) له: ما عندك يا ثمامة؟

قال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر إلى آخره.

فتركه حتى كان بعد الغد فقال (ص) له: ما عندك يا ثمامة؟

قال: عندى ما قلت.

قال (ص): أطلقوا ثمامة.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لاإله إلّا اللّه وأنّ محمّداً رسول اللّه، يا محمد، واللّه ما كان على الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك، وأما الآن فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إلىّ، واللّه ما كان من دين أبغض إلىَّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين إلىَّ، واللّه ما كان من بلد أبغض إلىَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إلىّ، وإن خيلك أخذتنى وأنا أُريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشّره رسول اللّه (ص) وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟

قال: لا ولكن أسلمت مع محمّد رسول اللّه (ص)، ولا واللّه لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى (ص)، وكانت اليمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش، فكتبوا إلى رسول اللّه (ص) يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى لهم حمل الطعام، ففعل رسول اللّه(ص) ذلك.

غزوة الغابة

وتعرف بذى قَرَد بفتح القاف والراء، وهو ماء على بريد من المدينة بطريق الشام، وكانت هذه الغزوة فى ربيع الأول سنة ست من الهجرة النبويّة المباركة.

وسببها: أنه كان لرسول اللّه (ص) عشرون لقحة وهى ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة ترعى بالغابة فأغار عليها عيينة بن حصن الفزارى ليلة الأربعاء فى أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا الراعى، وكان فيهم رجل من غفار وامرأته، قتلوا الرجل وسبوا المرأة.

ونودى: يا خيل اللّه اركبى، وكان أول ما نودى بها، كما انه كان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمى، كان ناهضاً إلى الغابة، فلما علا ثنية الوداع نظر إلى خيل الكفار فصاح، فأنذر المسلمين، ثم نهض فى آثارهم فأبلى بلاء حسناً عظيماً، ورماهم بالنبل حتى استنقذ ما كان بأيديهم من اللقاح، واستخلص المرأة، واستلب منهم ثلاثين بردة.

فلما وقعت الصيحة بالمدينة كان أول من أتى إلى رسول اللّه (ص) من الفرسان المقداد بن عمرو، ثم عباد بن بشر الأشهلى، وأُسيد بن حضير أخو بنى حارثة، وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة الأسدى الأخرم، وأبو قتادة الحارث بن ربعى، وأبو عياش عبيد بن زيد بن صامت الزرقى.

فلما اجتمعوا خرج رسول اللّه (ص) حتى أدرك ابن الأكوع.

فلما رأى ابن الأكوع رسول اللّه (ص) قال: يا رسول اللّه قد حميت القوم الماء فابعث إليهم الساعة.

فقال (ص): يابن الأكوع إذا ملكت فاسجح، أى: سهّل وحسّن العفو.

ثم ان أول من لحق بهم محرز بن نضلة الأخرم، فأخذ ابن الأكوع بعنان فرسه، وقال: يا أخرم ان القوم قليل فاحذرهم لايقتطعوك حتى يلحق بنا أصحابنا.

فقال الأخرم: يابن الأكوع لا تحل بينى وبين الشهادة، فخلّى سبيله، فالتقى هو والفزارى فعقر الأخرم فرسه، فطعنه الفزارى فقتل رحمه اللّه، ولحق أبو قتادة فقتل قاتل الأخرم، وولّى المشركون منهزمين.

وبلغ رسول اللّه (ص) ماء يقال له ذو قرد، ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة، وأقام (ص) يوماً وليلة ثم رجع إلى المدينة، وأقبلت امرأة الغفارى على ناقة رسول اللّه (ص)، فلما أتت المدينة نذرت أن تنحرها، فأخبرها رسول اللّه (ص) انه لانذر لأحد فيما لا يملك، كما لا نذر فى معصية.

سرية عكاشة إلى الغمرة

والغمرة: ماء لبنى أسد، على ليلتين من فيد، أرسل إليهم رسول اللّه (ص) حين سمع بأنهم يريدون الإغارة على المدينة عكاشة بن محصن فى أربعين رجلًا، وذلك فى آخر شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة النبوية المباركة.
فلما أحسّ القوم بهم بكّروا فى الهروب وتركوا مكانهم مائتى بعير، فساقها عكاشة إلى المدينة.

سرية زيد الى العيص

والعيص هى: منطقة على أربعة أميال من المدينة، خرج إليها فى جمادى الأُولى زيد بن حارثة فى مائة وسبعين راكباً ليأخذوا عيراً لقريش قد أخذت طريق العراق.
فالتقوا بأبى العاص ابن الربيع زوج زينب بنت رسول اللّه (ص)، وذلك عند مرجعه من الشام، وكان رجلًا مأموناً، وكانت معه بضائع لقريش، فاستاقوا عيره وأفلت، وقدموا على رسول اللّه (ص) بما أصابوا، فقسّمه بينهم.
وأتى أبو العاص المدينة فدخل على زينب بنت رسول اللّه (ص) مستجيراً بها وسألها أن تطلب من رسول اللّه (ص) ردّ ماله عليه، وما كان معه من أموال الناس.
فدعا رسول اللّه (ص) السرية وقال: إنّ هذا الرجل منا بحيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً ولغيره، وهو فىء اللّه الذى أفاء عليكم، فإن رأيتم أن تردوا عليه فافعلوا، وإن كرهتم فأنتم وحقكم.
قالوا: بل نرد عليه يا رسول اللّه، فردوا عليه ما أصابوا، حتى إن الرجل يأتى بالشىء والرجل يأتى بالإداوة والرجل بالحبل، فما تركوا قليلًا مما أصابوا ولا كثيراً إلا ردوه عليه.
ثم خرج أبو العاص بالبضائع حتى قدم مكة فأدّى إلى الناس بضائعهم، حتى إذا فرغ قال: يا معشر قريش، هل بقى لأحد منكم مال لم أرده عليه؟
قالوا: لا، فجزاك اللّه خيراً، قد وجدناك وفياً كريماً.
قال: واللّه ما منعنى أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا توقّياً أن تظنّوا انى أسلمت لأذهب بأموالكم، ثم قال معلناً: انى أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمّداً عبده ورسوله.

سرية ابن حارثة إلى بنى فزارة

وفى شهر رجب سنة ست من الهجرة النبوية المباركة بعث رسول اللّه (ص) زيد بن حارثة على رأس جماعة إلى وادى القرى وذلك لأن زيداً كان يذهب إلى الشام فى تجارة ومعه بضائع من أصحاب النبى (ص)، فلما قربوا من وادى القرى أغار عليهم قوم من فزارة، فقتلوا المسلمين، ونجى زيد بنفسه، فلما قدم زيد المدينة وقد خلص بنفسه، بعثه رسول اللّه (ص) مع جماعة إلى بنى فزارة، فلقيهم بوادى القرى فأصاب منهم أموالاً وقتل منهم رجالاً ورجع إلى المدينة بعد أن وطّد الأمن فى الطريق.

غزوة بنى المصطلق

ثم كانت غزوة بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة، ورأسهم الحارث بن أبى ضرار، وقد تهيّأ للزحف على المدينة حيث سار الحارث فى قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول اللّه (ص) فأجابوه.
فلما سمع بهم رسول اللّه (ص) خرج إليهم فى بشر كثير لليلتين خلتا من شعبان سنة ست من الهجرة النبوية المباركة، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى وقيل: نميلة بن عبداللّه الليثى، فلقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول اللّه (ص) أصحابه أن يحملوا عليهم حملة رجل واحد، فما أفلت منهم انسان، وقتل عشرة منهم وأسر سائرهم، وسبى رسول اللّه (ص)

النساء والذرارى، وغنم الأموال والشاء والنعم.

وكان من السبى اُم المؤمنين (جويرية) بنت الحارث بن أبى ضرار سيّد بنى المصطلق، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها، فأدّى رسول اللّه (ص) عنها وأعتقها فتزوّجها وسمّاها برّة، فلما بلغ المسلمون ذلك أعتقوا إجلالاً لرسول اللّه (ص) ما كان فى أيديهم من السبايا وكانوا مائة أهل بيت من بنى المصطلق وقالوا: أصهار رسول اللّه (ص)، فما علم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

فى طريق المدينة

وفى رجوع رسول اللّه (ص) من هذه الغزوة قال عبداللّه بن اُبىّ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، وذلك لشرّ وقع بين جهجاه بن مسعود الغفارى من المهاجرين وبين سنان بن وبر الجهنى من الأنصار.

فنادى الغفارى: يا للمهاجرين.

ونادى الجهنى: يا للأنصار.

فقال رسول اللّه (ص): أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟

وبلّغ زيد بن أرقم رسول اللّه (ص) مقالة عبداللّه بن اُبى فنزل فى ذلك من عند اللّه سورة المنافقين، وتبرأ عبداللّه بن عبداللّه بن اُبى من أبيه، وأتى رسول اللّه (ص) فقال له: يا رسول اللّه أنت واللّه الأعزّ وهو الأذلّ، واللّه لئن شئت لنخرجنّه يا رسول اللّه، ووقف لأبيه قرب المدينة فقال: لا تدخلها حتى يأذن لك رسول اللّه (ص) فى الدخول.

فشكى الأب ابنه إلى رسول اللّه (ص) فأرسل إليه: أن خلّ عنه يدخل.

فقال: الآن وقد جاء الإذن فنعم.

وقال أيضاً: بلغنى أنك يا رسول اللّه تريد قتل أبى وانى أخشى إن أمرتَ بذلك غيرى ألا تدعنى نفسى أرى قاتل عبداللّه يمشى على الأرض فأقتله وأدخل النار إذا قتلت مؤمناً بكافر، وقد علمت الأنصار أنى من أبرّها لأبيه، ولكن يا رسول اللّه إن أردت قتله فمرنى بذلك فأنا واللّه أحمل إليك رأسه.

فقال له رسول اللّه (ص) خيراً، وأخبره أنه يحسن صحبة أبيه مادام هو معهم.

سرية الفهرى إلى عرينة

وفى شهر شوّال سنة ست من الهجرة النبوية المباركة كانت قصة العريتيين، وذلك انه قدم على رسول اللّه (ص) عرينة وكانوا ثمانية أشخاص فأسلموا، فاستوبأوا المدينة واستوخموها.

فأمر رسول اللّه (ص) بهم إلى لقاحه وكانت خمس عشرة لقحة واللقحة ذات اللبن القريبة العهد بالولادة وقال: (لو خرجتم إلى ذود لنا فشربتم من ألبانها).

فلما خرجوا إليها قتلوا الراعى وقطعوا يده ورجله، وغرسوا الشوك فى لسانه وعينه حتى مات، واستاقوا الإبل.

فبلغ ذلك إلى رسول اللّه (ص) فبعث فى اثرهم عشرين فارساً واستعمل عليهم ابن جابر الفهرى، فعقّبوهم حتى أدركوهم، فلما أدركوهم أحاطوا بهم وأسروهم واستردّوا الإبل وقدموا بهم المدينة.

قال جابر بن عبداللّه ان رسول اللّه (ص) كان قد دعا لما بعث إليهم وقال: (اللّهمّ اعم عليهم الطريق) فعمى عليهم الطريق،

فلما اُتى بهم، أمر (ص) بقتلهم.

غزوة الفتح

خرج رسول اللّه (ص) يوم الجمعة حين صلّى العصر بالناس، بكتائب الإسلام وجنود الرحمن، وهم عشرة آلاف من المسلمين، ونحو من أربعمائة فارس، وذلك لنقض قريش العهد الذى وقع بينهم وبين رسول اللّه (ص) بالحديبيّة.

وكان خروجه فى شهر رمضان من السنة الثامنة من الهجرة النبويّة المباركة، بعد أن استخلف على المدينة أبا لبابة، وقيل: أبا ذر الغفارى.

وكان سببها: ان بنى بكر بن عبد مناة من كنانة، كانت بينهم وبين خزاعة حروب قبل الإسلام وقتل، فلما جاء الإسلام تشاغل الناس به، فلما كانت الهدنة عام الحديبية دخلت بنو بكر من كنانة فى عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة فى عهد رسول اللّه (ص) وعقده.

فلما مضت سنتان من القضية، وقد استتبّ الأمن فى البلاد وساد الهدوء فى المنطقة، وصلت قريش أنباء حرب مؤتة وانهزام المسلمين بعد أن قتل فيها اُمراؤها الثلاثة، مما أطمعهم فى التجرؤ على إثارة البلبلة فى البلاد، والإخلال بأمن المنطقة، ونقض العهد الذى وقعوه مع رسول اللّه (ص) بالحديبية.

فعمدوا إلى توزيع الأسلحة فى حلفائهم بنى بكر من كنانة، وحرّضوهم على أن يبيّتوا خزاعة حلفاء المسلمين، ويغيروا عليهم ليلاً ويصيبوا الثأر منهم، كما وعدوهم بأن يمدّوهم بالرجال أيضاً، ثم بدأوا بإشعال فتيل نار الفتنة، وذلك عبر المخطّط التالى: فقد أوعزوا إلى رجل من كنانة أن يقعد فى صراط خزاعة، ويروى هجاء رسول اللّه (ص).

فلما فعل ذلك مرّ عليه رجل من خزاعة وقال له: يا هذا كفّ عن قولك.

فأجابه قائلاً: وما أنت وذاك؟

فردّ عليه مهدداً: لئن عدت لأكسرنّ فاك.

فأعادها الكنانى، فرفع الخزاعى يده وضرب بها فاه الكنانى، فاستنصر الكنانى قومه، والخزاعى قومه، وبدأت المناوشات بين الجانبين.

قريش تنقض عهدها

ولما بدأت المناوشات بين الجانبين خرج نوفل بن معاوية فى نفر من بنى بكر فبيت خزاعة على ماء بأسفل مكة يقال له الوتير، وأصاب منهم رجالاً ـ وأموالاً ـ ثم اقتتلوا قتالاً ـ شديداً، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً، وكان من بينهم عكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم.

فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل انا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك.

فقال نوفل: لا إله له اليوم، يا بنى بكر أصيبوا ثأركم، فلعمرى إنكم لتسرفون فى الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

فقاتلوهم حتى لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى ودار مولى لهم، وخرج عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكباً، حتى قدموا على رسول اللّه (ص) يخبرونه بما قد وقع، ويستنصرونه.

وكان رسول اللّه (ص) إذ ذاك بين أصحابه فى المسجد، فوقف عليه عمرو بن سالم الخزاعى وقال:

يا رب انّى ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا

إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكّدا

هم بيّتونا بالوتير هُجّدا وقتلونا ركّعاً وسجّداً

فقال رسول اللّه (ص): حسبك يا عمرو، ثم قام (ص) فدخل دار زوجته ميمونة وقال: اسكبوا لى ماءاً، فجعل يغتسل ويقول: (لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب) وهم رهط عمرو بن سالم الخزاعى.

وقيل: إنّ ميمونة سمعت رسول اللّه (ص) يقول فى متوضّئه ليلاً: لبيك لبيك (ثلاثاً)، نصرت نصرت (ثلاثاً).

فلما خرج قالت: يا رسول اللّه، سمعتك تقول فى متوضئك: لبيك لبيك ثلاثاً، نصرتَ نصرت ثلاثاً، كأنك تكلّم إنساناً، فهل كان

معك أحد؟

فقال (ص): هذا راجز بنى كعب يستصرخنى ويزعم أنّ قريشاً أعانت عليهم بنى بكر.

ثم خرج بـديل بن الورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول اللّه (ص) فأخبروه بما اُصـيب منهم ومظاهرة قريش بنى بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكّة.

ندامة قريش

ثم ندمت قريش على ما صـنعت، وعلموا أنّ ذلك نقض لما كان بينهم وبين رسول اللّه (ص) وخافوا ردّه الحاسم عليهم، فبعثوا إليه أبا سفيان ليشدّد العقد.

وقد كان رسول اللّه (ص) قال للناس: كأنّكم بأبى سفيان قد جاء ليشدّد العقد ويزيد فى المدّة.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة، فدخل على ابنته اُمّ حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول اللّه (ص) طوته عنه.

فقال: يا بنية أرغبتِ بى عن هذا الفراش، أم رغبتِ به عنّى؟

قالت: بل هو فراش رسول اللّه (ص)، ما كنت لتجلس عليه وأنت رجس مشرك باللّه تعالى.

فقال: واللّه لقد أصابك يا بنية بعدى شرّ.

ثم خرج حتى أتى رسول اللّه (ص) فقال: يا محمد احقن دم قومك، وأجر بين قريش، وزدنا فى المدة.

فقال (ص): أغدرتم يا أبا سفيان؟

قال: لا.

قال (ص): فنحن على ما كنا عليه.

ثم لقى أبو سفيان أحد الصحابة فكلّمه أن يكلّم رسول اللّه (ص). فقال: ما أنا بفاعل.

ثم لقى صحابياً آخر، فقال له مثل ذلك.

ثم أتى إلى منزل على بن أبى طـالب (ع) وفاطمـة (ع) بنت رسـول اللّه (ص) وعنـدهما الحسن والحسـين (عليهمـا السـلام) يـدبان بين يديهما.

فقال: يا بنت سيّد العرب تجيرين بين قريش، وتزيدين فى المدة، فتكونين أكرم سيّدة فى الناس؟

فقالت (ع): جوارى جوار رسول اللّه (ص).

فقال: أتأمرين ابنَيْكِ أن يجيرا بين الناس فيكونا سيدى العرب إلى آخر الدهر؟

قالت (ع): واللّه ما بلغ ابناى أن يجيرا بين الناس، وما يجير على رسول اللّه (ص) أحد.

فقال عنـدها، وقـد التفت إلى على (ع): يا أبا الحسن أنت أمسّ القوم بى رحماً، وانى قـد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لى إلى رسول اللّه (ص).

فقال (ع): ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول اللّه (ص) على أمر لا نستطيع أن نكلّمه فيه.

فقال: يا أبا الحسن، انى أرى الاُمور قد اشتدّت علىّ، فانصحنى واجعل لى منها وجهاً.

فقال له على (ع): أنت شيخ قريش فاذهب وقم على باب المسجد فاجر بين قريش، ثم الحق بأرضك.

فقال: أو ترى ذلك مغنياً عنّى شيئاً؟

قال (ع): لا واللّه ما أظن ذلك، ولكن ما أجد لك غيره.

ولعله قـال له على (ع) ذلـك حتى يفتـح باب الأمل عليه، فيلزمه عبرها بالصـلح ويسـد عليه طريق التفكير فى تجييش الجيوش لمحاربة

المسلمین من جدید.

فقام أبو سفیان فی المسجد، فقال: أیها الناس، إنی قد أجرت بین قریش، ثم رکب بعیره فانطلق.

فلما قدم علی قریش قالوا: ما وراءک؟

قال: أتیت محمداً فکلّمته، فواللّه ما ردّ علیّ شیئاً، ثم جئت أحد الصحابهٔ فلم أجد عنده خیراً، ثم أتیت صحابیاً آخر فکان کذلک، ثم جئت علیاً فوجدته ألین القوم، وقد أشار علیّ بشیء صنعته، فواللّه ما أدری هل یغنی شیئاً أم لا؟

قالوا: وبمَ أمرک؟

قال: أمرنی أن اُجیر بین الناس، ففعلت.

قالوا: فهل أجاز ذلک محمد؟

قال: لا.

قالوا: ویلک ما زاد الرجل علی أن لعب بک، أو أنت تجیر بین قریش؟ مایغنی عنا ما قلت.

قال: لا واللّه ما وجدت غیر دلک.

النبی (ص) یتجهّز للفتح

ثم أمر رسول اللّه (ص) الناس بالجهاز، وأعلمهم انه سائر إلی مکهٔ، وقال: اللّهمّ خذ العیون والأخبار عن قریش حتی نبغتها فی بلادها، فتجهَّز الناس.

فکتب حاطب بن أبی بلتعهٔ کتاباً إلی أهل مکهٔ یخبرهم بمسیر رسول اللّه(ص) إلیهم، وسلّم الکتاب إلی امرأهٔ سوداء اسمها سارهٔ مع عشرهٔ دنانیر لتوصله إلی أهل مکهٔ.

وسارهٔ هذه هی مولاهٔ أبی عمرو بن صیفی بن هشام، وکانت قد أتت رسول اللّه (ص) من مکهٔ إلی المدینهٔ.

فقال لها رسول اللّه (ص): أمسلمهٔ جئت؟

قالت: لا.

قال (ص): أمهاجرهٔ جئت؟

قالت: لا.

قال (ص): فما جاء بک؟

قالت: کنتم الأصل والعشیرهٔ والموالی، وقد ذهبت موالی واحتجت حاجهٔ شدیدهٔ، فقدمت علیکم لتعطونی وتکسونی وتحملونی.

قال (ص): فأین أنت من شباب المشرکین؟ وکانت مغنیّهٔ نائحهٔ.

قالت: ما طلب منّی بعد وقعهٔ بدر.

فحثّ علیها رسول اللّه (ص) بنی عبدالمطلب فکسوها وحملوها وأعطوها نفقهٔ.

فلما کان رسول اللّه (ص) یتجهّز لفتح مکهٔ، أتاها حاطب وسلّمها الکتاب وأمرها أن تأخذ علی غیر الطریق. فلما خرجت سارهٔ بالکتاب نزل جبرئیل علی رسول اللّه (ص) وأخبره بذلک.

فاستدعی (ص) علیاً (ع) وقال له: إنّ بعض أصحابی قد کتب إلی أهل مکهٔ یخبرهم بخبرنا، وقد کنت سألت اللّه أن یعمی أخبارنا علیهم، والکتاب مع امرأهٔ سوداء قد أخذت علی غیر الطریق، فخذ سیفک وألحقها وانتزع الکتاب منها وخلّها، وصر به إلیَّ.

ثم استدعی (ص) الزبیر وقال له: امض مع علی بن أبی طالب فی هذا الوجه.

فمضیا، فلما أدرکاها، قال لها الزبیر: أین الکتاب الذی معک؟

فأنكرت وحلفت وبكت.
فقال الزبير وقد التفت إلى عليّ (ع): ما أرى معها يا أبا الحسن كتاباً، فارجع بنا إلى رسول اللّه (ص) نخبره ببراءتها.
فقال على (ع): يخبرنى رسول اللّه (ص) انّ معها كتاباً ويأمرنى بأخذه منها، وتقول أنت: انه لا كتاب معها؟!
ثم اخترط (ع) السيف وتقدّم إليها وقال: أما واللّه لئن لم تخرجى الكتاب ثم لأضربنّ عنقك.
فقالت لما رأت الجدّ: إذا كان لا ـ بدّ من ذلك فأعرض يابن أبى طالب بوجهك عنّى، فأعرض بوجهه، فكشفت قناعها وأخرجت الكتاب من عقيصتها، فأخذه على (ع) وصار به إلى رسول اللّه (ص).

مع حاطب بن أبى بلتعة

ولما كان أمر حاطب هذا، يتطلّب تهييج الرأى العام ضده، حتى يرتدع كل من يفكّر فى ارتكاب أمثالها، ولعله لذلك نرى انّ رسول اللّه (ص) أمر بالصلاة جامعة، ثم صعد المنبر وأخذ الكتاب بيده وقال: أيها الناس انى قد كنتُ سألتُ اللّه عزّوجلّ أن يخفى أخبارنا عن قريش، وانّ رجلًا منكم كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب، وإلاّ فضحه الوحى.
فلم يقم أحد، فأعادها ثانية، فقام حاطب بن أبى بلتعة وقال: أنا يا رسول اللّه صاحب الكتاب، وما أحدثت نفاقا بعد اسلامى ولا شكاً بعد يقينى.
فقال له رسول اللّه (ص): فما الذى حملك على أن كتبت هذا الكتاب؟
قال وهو يلتمس لنفسه عذراً: يا رسول اللّه انّ لى أهلًا بمكة، وليس لى بها عشيرة يدفعون عن أهلى، فأردتُ أن تكون لى عند القوم يد يدفع اللّه بها عن أهلى ومالى، إذ ليس أحد من المهاجرين إلاّ وله هناك من عشيرته من يدفع اللّه به عن أهله وماله.
فأعذره رسول اللّه (ص) وعفا عنه وقال لأصحابه يوصيهم به: لا تقولوا له إلاّ خيراً.
فقام أحد الصحابة وقال: يا رسول اللّه دعنى أضرب عنق هذا المنافق، إنه قد خان اللّه ورسوله والمؤمنين.
فقال له رسول اللّه (ص): اتركه، ونهاه عن التعرّض له.
فأنزل اللّه تعالى فى حاطب: (يا أيّها الَّذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة) إلى قوله سبحانه: (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم واللّه بما تعملون بصير)(۱).

الزحف نحو مكة

وبعث رسول اللّه (ص) إلى من حوله من العرب فجلبهم: أسلم وغفّار ومزينة وجهينة وأشجع وسُليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لاقاه بالطريق.
وخرج (ص) فى عشرة آلاف من المسلمين، ونحو من أربعمائة فارس، ولم يتخلّف من المهاجرين والأنصار عنه أحد، وحيث انه كان فى شهر رمضان صام وصام الناس، حتى إذا بلغ كراع الغميم، نزل (ص) فأمر بالإفطار لنزول الوحى عليه بذلك، فأفطر وأفطر الناس، وصام قوم فسمّوا (العصاة) لأنهم صاموا، ظنّاً منهم بأن الصوم حتى فى مثل هذه الحال أفضل، فاجتهدوا مقابل نصّ رسول اللّه(ص) وأمره لهم بالإفطار، فأنذرهم القرآن وحذّرهم مغبّة التقدّم على رسول اللّه (ص)، وأمرهم بالتقوى والتحرز عن الإجتهاد مقابل نصوصه الصريحة بقوله: (يا أيُّها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدى اللّه ورسوله واتّقوا اللّه إنّ اللّه سميع عليم)(۲).

من ذكريات الفتح

وقد كان العباس عم رسول اللّه (ص) خرج بأهله وعياله مهاجراً مسلماً فلقى رسول اللّه (ص) بالجحفة، فانضمّ إليه.

وكـان ممن لقى رسول اللّه (ص) بـالطريق أيضـاً: أبوسـفيان بن الحارث بن المطلب ابن عمه، وعبـداللّه بن أبى أُميـة ابن عمته، أخو أُم سلمة أُم المؤمنين، لقيا رسول اللّه (ص) بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فلم يأذن لهما.

فكلّمته أُم سلمة فيهما فقالت: يا رسول اللّه ابن عمك، وابن عمتك وصهرك.

قال (ص): لا حاجـة لى بهما، أما ابن عمّى فهتك عرضـى، وأما ابن عمتى وصـهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال، وكان من قوله له: (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً)(۳).

فلما خرج الخبر إليهما بـذلك قال أبو سـفيان بن الحارث ومعه ابن له: واللّه ليأذننّ لى أو لآخـذنّ بيـد ابنى هذا ثم لنذهبنّ فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً.

فلما بلغ رسول اللّه (ص) ذلك رقّ لهما وأذن لهما.

وقيـل: انّ علياً (ع) قـال لأبـى سـفيان بن الحارث: ائت رسول اللّه (ص) من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: (تاللّه لقد آثرك اللّه علينا وإن كنّا لخاطئين)(۴) ففعل ذلك أبو سفيان بن الحارث.

فقال رسول اللّه (ص) مجيباً له وهو لا يرضـى إلا بأن يتفوّق فى حسن القول عليه: (قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم وهو أرحم الراحمين)(۵).

فأنشده أبو سفيان بن الحارث أبياتاً، وقد أسلم وحسن إسلامه، وكذلك فعل عبداللّه بن أبى أُمية.

فى مرّ الظهران

ثم مضـى رسول اللّه (ص) حتى نزل مرّ الظهران عشاءً، أى: نزل على مشارف مكـة وقـد عميت أخباره عن قريش فأمر (ص) أصـحابه فأوقدوا أكثر من عشرة آلاف نار، ولم يبلغ قريشاً مسيره وهم مغتمّون لما يخافون من غزوه إياهم.

فقـال العبـاس: يـا سوء صـباح قريش، واللّه لئن دخـل رسول اللّه (ص) مكـة عنوة قبـل أن يأتوه فيسـتأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

قال: فركبتُ بغلة رسول اللّه (ص) فخرجت حتى أتيت الأراك، فقلت لعلّى أجد بعض الحطّابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رسول اللّه (ص)، فيأتوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة.

قال: فواللّه إنى لأسـير عليها إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام، وأبوسفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط، ولا عسكراً.

قال: ويقول بديل: هذه واللّه خزاعة حمشتها الحرب.

فيقول أبوسفيان: خزاعة أقل وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة.

فعرف صوتى فقال: يا أباالفضل؟

قلت: نعم.

قال: ما وراك وما هذه النيران؟

قلت: هذا رسول اللّه (ص) وراك، قد جاء بما لاقبل لكم به، بعشرة آلاف من المسلمين.

قال أبو سفيان: فما الحيلة؟

قلت: واللّه لئن ظفر بك ليضـربنّ عنقك، فاركب فى عجز هـذه البغلـة حتى آتى بك رسول اللّه (ص) فأسـتأمنه لك، فردفنى، ورجع صاحباه.

المساعى الحميدة لعباس

انّ التقاء الشخصيات المرتبطة بالسماء كرسول اللّه (ص) له الأثر البالغ فى احتواء الطرف واستهوائه، فإن كان عدوّاً ضعفت روحيته واستسلم للحق، ولو عن عدم قناعة، وإن كان صديقاً أو محايداً قويت معنويته، واستلهم الحق عن قناعة، ولذلك تأبى قوى الشرّ وبكل إصرار أن يلتقى الناس ويتعرَّفوا على المرتبطين بالسماء، بينما العباس ذوالمكانة المعروفة، كان يريد الخير لأهل مكة، فقام بهذا الدور، ونال تأييد رسول اللّه (ص)، ولذلك أردف أباسفيان خلفه.

قال: فجئت به، فكلما مررنا بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول اللّه (ص) وأنا عليها، قالوا: عم رسول اللّه (ص) على بغلة رسول اللّه (ص).

حتى مررت بنار أحد الصحابة فقال: من هذا؟ فلما رأى أباسفيان على عجز الدابة قال: هذا أبوسفيان عدوّ اللّه؟ الحمد للّه الذى أمكن منك بغير عقد ولا ـ عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول اللّه (ص)، فركضت البغلة فسبقته بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطىء، واقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول اللّه (ص) ثم جلست وأخذت برأسه وقلت: واللّه لايناجيه الليلة أحد دونى.

فبينا أنا كذلك إذ دخل الصحابى وقال: يا رسول اللّه هذا أبوسفيان عدوّ اللّه قد أمكن اللّه منه بغير عهد ولا عقد، فدعنى أضرب عنقه.

فقلت: يا رسول اللّه انى قد أجرته.

فلما أكثر الصحابى فى شأنه قلت له: مهلاً، فواللّه ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بنى عبد مناف، ولو كان من بنى فلان ما قلت هذا.

قال الصحابى: مهلاً يا عباس، فواللّه إسلامك كان أحبّ إلىّ من إسلام أبى لو أسلم، وما ذلك إلا انى قد عرفت انّ إسلامك كان أحبّ إلى رسول اللّه(ص).

عندها التفت رسول اللّه (ص) الى عمّه العباس وقال يقطع حوارهما: اذهب به ياعباس إلى رحلك فقد آمنّاه، فإذا أصبحت فأتنى به.

قال: فذهبت به إلى رحلى.

الأمر الذى لابدّ منه

قال العباس: فلما أصبحت غدوت بأبى سفيان على رسول اللّه (ص)، فلما رآه رسول اللّه (ص) قال: ويحك يا أباسفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلاّ اللّه؟

قال: بأبى أنت وأُمّى ما أحلمك وأكرمك، وأرحمك وأوصلك، واللّه لقد ظننت أن لو كان مع اللّه إله غيره لأغنى عنّى شيئاً يوم بدر ويوم أُحد.

قال (ص): ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنّى رسول اللّه؟

قال: بأبى أنت وأُمى ما أحلمك وأكرمك وأرحمك وأوصلك، أمّا هذه ففى النفس منها شىء.

فقال له العبّاس: ويحك أسلم واشهد بشهادة الحق، إشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأنّ محمداً رسول اللّه قبل أن تضرب عنقك.

فتشهد وقد تلجلج بها لسانه شهادة اضطرار، فأسلم اضطراراً.

فقال العباس: يا رسول اللّه، انّ أباسفيان رجل يحبّ الفخر، فاجعل له شيئاً.

قال (ص): نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن.

قال أبو سفيان: دارى؟!

قال (ص): دارك، ثم قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

ومع ذلك كله لم يأمن رسول اللّه (ص) أبا سفيان من الغدر إن تركه يذهب إلى مكة، ولذلك التفت إلى عمّه العباس وقال (ص): خذه يا عم إلى خيمتك، وكانت قريبة.

فلما جلس أبو سفيان فى الخيمة ندم على مجيئه مع العباس وقال فى نفسه: من فعل بنفسه مثل ما فعلت أنا؟ جئت فأعطيت بيدى، ولو كنت انصرفت إلى مكة فجمعت الأحابيش وغيرهم فلعلّى كنت أهزمه!

فناداه رسول اللّه (ص) من خيمته قائلاً: يا أبا سفيان إذن: كان اللّه يخزيك.

فسقط أبو سفيان فى يده ولم يقل شيئاً.

فلما أصبح وقت الصلاة سمع بلالاً يؤذّن فقال: ما هذا المنادى يا أبا الفضل؟

قال: هذا مؤذّن رسول اللّه (ص) للصلاة.

ثم خرج به إلى رسول اللّه (ص) فرآه يتوضّأ وأيدى المسلمين تحت شعره، فليس قطرة تصيب رجلًا منهم إلا مسح بها وجهه، فقال أبو سفيان: باللّه ما رأيت كاليوم قط كسرى ولا قيصر.

احتياطات

ثم أمر رسول اللّه (ص) العباس أن يحبسه بمضيق من الوادى عند خطم الجبل تمر به جنود اللّه فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها.

قال العباس: وكان كلما مرت قبيلة قال لى أبو سفيان: يا عباس من هذه؟

فأقول: سُليم.

فيقول: ما لى ولسُليم.

ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟

فأقول: مزينة.

فيقول: ما لى ولمزينة، حتى نفدت القبائل، ما تمر قبيلة إلا سألنى عنها، فأخبرته بهم، وكلما أخبرته عنها قال: ما لى ولبنى فلان، حتى مرّ به رسول اللّه(ص) فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد.

فقال: يا عباس، من هؤلاء؟!

فقلت: هذا رسول اللّه (ص) فى المهاجرين والأنصار.

قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، ثم قال: واللّه يا أباالفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.

قلت: يا أبا سفيان انها النبوّة.

قال: فنعم إذن.

قلت: النجاء إلى قومك.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مرّ بأبى سفيان قال له:

(اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة)

يا معشر الأوس والخزرج ثاركم يوم الجبل.

فسمعها أبو سفيان، فأضمرها فى نفسه حتى إذا مرّ رسول اللّه (ص) به قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ انه قال كذا وكذا.

فقال (ص): ليس مما قال سعد شيء، ثم أرسل رسول اللّه (ص) إلى سعد فنزع الراية منه ودفعها إلى على (ع) وقال: اُدخلها ادخالاً رفيقاً.

فأخذ على (ع) الراية بيده، ثم جعل ينادى ويقول:

اليوم يوم المرحمة اليوم تحفظ الحرمة

أبو سفيان: الداعية الجديد

ثم انّ رسول اللّه (ص) التفت إلى أبى سفيان وقال له: يا أباسفيان تقدّم إلى مكة، فأعلمهم بالأمان.

فمضى أبوسفيان حتى جاء قريشاً فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

قالوا: قاتلك اللّه وما تغنى عنّا دارك؟

قال: ومن أغلق بابه فهو آمن.

فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وسار رسول اللّه (ص) فدخل مكة من أعلاها.

۱ الممتحنة: ۱ .۳ ۲ الحجرات: ۱. ۳ الإسراء: ۹۰.

۴ يوسف: ۹۱. ۵ يوسف: ۹۲.

الدخول إلى مكة

فلما ظهر رسول اللّه (ص) بكتيبته على ثنية أذاخر دخل من ناحيتها، وضربت له خيمة من أدم بالحجون عند قبر عمّه أبى طالب (ع) وأبى أن يدخل بيته أو بيوتهم بمكة الذى صادره المشركون.

وكان ذلك بعد أن أمر كتائب أصحابه وأُمراء عسكره أن يحيطوا بمكة كاملة، ثم يدخلوها من جميع المداخل والطرق النافذة إليها من أعلاها وأسفلها، ومن كل جوانبها حتى يسدّوا على أهلها طريق المجابهة، وأمرهم أن يكفّوا أيديهم عن القتال، ولا يقاتلوا إلا مَن قاتلهم.

كما وعقد لواءاً لأبى رويحة الخثعمى وأمره أن ينادى بين أهل مكة: ألا ومن دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن، إضافة إلى المآمن الثلاثة المذكورة، ولذلك اطمئنّ الناس وألقوا أسلحتهم ودخلوا بيوتهم آمنين لم تُسب لهم ذرّية ولم يُسفك منهم دم.

وقيل: انه بعث رسول اللّه (ص) الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كدل على مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه.

وقيل: انه بعث خالد بن الوليد فى قبائل قضاعة وسُليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يفرز رايته عند أدنى البيوت.

وبعث ابن عبادة فى كتيبة الأنصار فى مقدمة رسول اللّه (ص) وأمرهم أن يكفّوا أيديهم عن القتال، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

على مشارف مكة

ولما انتهى رسول اللّه (ص) فى كتيبته الخضراء فاتحاً منتصراً إلى ذى طوى وهو موضع مرتفع يرى منه بيوت مكة ومنازلها، ولمح بطرفه منازل مكة وبيوتها، ونظر إلى مسقط رأسه وموطنه الذى خرج منه عنوة، واليوم قد دخلها وفتحها، وتلمّس الفتح الذى منّ اللّه تعالى به عليه، والعودة التى بشّره جبرئيل (ع) بها، اغرورقت عيناه بدموع الشوق والرحمة، وسجد للّه تعالى تواضعاً وشكراً، وحمده على نعمه وأياديه.

ثم نزل فى خيمته التى ضربت له بالحجون عند قبر عمّه أبى طالب (ع) ليستريح فيها قليلاً، ويتهيّأ منها لزيارة المسجد الحرام والطواف حول بيت اللّه العتيق.

تطهير البيت من الأصنام

ثم انّ رسول اللّه (ص) بعد أن استراح قليلاً فى خيمته اغتسل وركب راحلته القصواء واتّجه نحو المسجد الحرام، ولم يكن محرماً لحجّ ولا عمرة، وعليه السلاح، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، وعليهم السلاح، وهم يردّدون مع رسول اللّه (ص) قوله تعالى: (جاء الحقّ وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقاً)(۱).

وقد ارتجّت مكة من قولهم، حتى دخل الرسول (ص) المسجد الحرام، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه، ثم طاف بالبيت وهو على راحلته، وفى يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستّون صنماً، فجعل يطعنها (ص) بالقوس ويقول: (جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً)(۲) (جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد)(۳) والأصنام تتساقط على وجوهها.

ثم رفع (ص) علياً (ع) على منكبيه حتى أسقط ما تبقّى من الأصنام التى كانت على الكعبة، وكان رسول اللّه (ص) قد خصّ علياً (ع) بهذه المنقبة دون غيره، وإليه أشار ابن العرندس حيث يقول فى قصيدته:

وصعود غارب أحمد فضل له دون القرابة والصحابة أفضلا

وأمر رسول اللّه (ص) ابن أسد الخزاعى فحدد أنصاب الحرم، وبث رسول اللّه (ص) سراياه إلى الأوثان التى كانت فكسرت كلها. ومما كسرها رسول اللّه (ص) اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الاُخرى، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنماً إلاّ كسره.

من ذكريات الكعبة

فلما فرغ من طوافه أتى الصفا، فعلا عليه، وقيل: جلس فى ناحية من المسجد حتى نظر إلى البيت، فجعل يحمد اللّه ويدعو ما شاء أن يدعو، ثم دعا بسادن الكعبة وهو يومئذ عثمان بن طلحة، وكان قد أغلق باب البيت لما بلغه انّ النبى (ص) قد دخل مكة، وامتنع من تسليم المفتاح. فقام إليه على (ع) وأخذه منه وسلّمه إلى رسول اللّه (ص).

فأمر (ص) بباب الكعبة ففتحت، فدخلها، فرأى فيها صورتين، فدعا بثوب فبلّه فى ماء ثم محاهما، فانطمستا، ثم صلّى بين العمودين على الرخامة الحمراء ركعتين، ثم أقبل على أركان البيت وكبر إلى كل ركن منه.

ثم قصد (ص) الباب وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينظرون ماذا يفعل بهم، وهم يظنون حسب أعراف الجاهلية الخشناء ان السيف لا ـ يرفع عنهم، وانهم سوف يبادون عن آخرهم، لكن الواقع لم يكن كذلك، فإن الإسلام هو دين المكارم والمحاسن، والنبى (ص) هو رسول الرحمة والإنسانية، ولذلك رأوه (ص) أقبل حتى أخذ بعضادتى الباب وخطب فيهم الخطبة التالية:

لائحة حقوق الإنسان

ابتدأ رسول اللّه (ص) خطابه بحمد اللّه تعالى والثناء عليه وقال:

لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ثم قال: ألا كل مأثرة، أو مال، أو دم يدّعى، أو مظلمة، أو احنة كانت فى الجاهلية، فهو تحت قدمىّ هاتين، إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاج، فإنهما مردودتان إلى أهليهما، ألا إن مكة محرمة بتحريم اللّه، لم تحلّ لأحد كان قبلى، ولم تحلّ لى إلا ساعة من نهار، وهى محرّمة إلى أن تقوم الساعة، لا يختلى خلاها، ولا يقطع شجرها، ولا ينفر صيدها، ولاتحلّ لقطتها إلا لمنشد.

ثم قال: أيّها الناس ليبلّغ الشاهد الغائب إن اللّه قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية والتفاخر بآبائها وعشائرها، ألا انكم من آدم، وآدم من طين، وعلى رواية: وآدم من تراب.

ثم تلا قوله تعالى: (يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم)(۴) الآية.

ثم قال: ألا إنّ خير عباد اللّه عبد اتّقى اللّه، ان العربيّة ليست بأب والد، ولكنها لسان ناطق، فمن قصر به عمله لم يبلغ به حسبه.

ثم التفت إلى القوم وقال وهو يخاطبهم: ألا ـ لبئس جيران النبى كنتم، لقد كذبتم، وطردتم، وأخرجتم، وآذيتم، ثم ما رضيتم حتى جئتمونى فى بلادى تقاتلونى، والآن يا معشر قريش ماذا تقولون؟ وماذا تظنون انى فاعل بكم؟

قالوا: نظن خيراً، ونقول خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت.

قال (ص): فإنّى أقول لكم كما قال يوسف (ع) لإخوته: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم وهو أرحم الراحمين)(۵) اذهبوا فأنتم الطلقاء.

فخرج القوم كأنما انشروا من القبور، ودخلوا فى الإسلام، وقد كان اللّه سبحانه أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئاً، فلذلك سمّى أهل مكة: (الطلقاء).

مع سدانة الكعبة

ثم جلس رسول اللّه (ص) فى المسجد، فقام إليه على (ع) ومفتاح الكعبة فى يده، ليُسلّمها إليه، فقام العباس وسأل رسول اللّه (ص) أن يعطيه المفتاح، فنزل: (إنّ اللّه يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها)(۶).

فأمر رسول اللّه (ص) علياً (ع) أن يردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة.

فلمّا ردّه إليه قال عثمان بن طلحة، وكان لا يتوقّع أن يُردّ المفتاح إليه: يا على أخذته منى بكره، وجئت به إلىّ برفق؟

قال (ع): نعم، لقد أنزل اللّه عزّوجل فيك قرآناً يقول: (إنَّ اللّه يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها).

فلمّا سمع عثمان بن طلحة ذلك، أسلم، فأقرّه النبى (ص) فى يده.

وروى: عن عثمان بن طلحة انه قال: كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الإثنين والخميس، فأقبل النبى (ص) يوماً وهو يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، وذلك قبل الهجرة، فأغلقت له ونلت منه.

فحلم (ص) عنّى ثم قال: يا عثمان لعلّك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت.

فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلّت.

فقال (ص): بل عمرت وعزّت يومئذ، ودخل الكعبة، فوقعت كلمته منّى موقعاً ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال.

فلما كان يوم الفتح قال: يا عثمان ائتنى بالمفتاح، فأبيت أن آتيه به، فأخذه منّى على، ثم دفعه إليه، فلما أتم صلاته وزيارته داخل البيت ردّه علىَّ وقال: يا عثمان بن طلحة إنّ اللّه استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف.

قال: فلما وليت نادانى فقال: ألم يكن الذى قلتُ لك؟

قال: فذكرت قوله (ص) لى بمكة قبل الهجرة، فقلت: بلى أشهد أنّك رسول اللّه.

أول أذان على سطح الكعبة

فلما دخل وقت صلاة الظهر، أمر رسول اللّه (ص) بلالاً أن يصعد فيؤذّن على الكعبة، وأبوسفيان بن حرب وخالد وعتاب ابنا اُسيد والحارث بن هشام وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة.

فقال خالد: لقد أكرم اللّه اُسيداً ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه.

وقال الحارث: أما واللّه لو أعلم أنه حق لاتّبعته.

وقال أبو سفيان: واللّه لا أقول شيئاً، ولو تكلمت بشىء لأخبرت عنى هذه الحصباء والجدد، هذا وعتاب يسمع كلامهم.

فبعث إليهم النبى (ص) فقال لهم: قد علمت الذى قلتم، ثم ذكر لهم ذلك.

فقال أبو سفيان: أنت تعلم انى لم أقل شيئاً.

فقال (ص): اللّهمّ اهد قومى فإنهم لا يعلمون.

عندها قال الحارث وخالد: نشهد أنّك رسول اللّه، واللّه ما اطّلع على هذا أحد معنا فنقول أخبرك.

وقال عتاب لما جاء إليه: نستغفر اللّه ونتوب إليه، قد واللّه يا رسول اللّه قلنا ذلك، فأسلم وحسن إسلامه، فولّاه رسول اللّه (ص) مكة.

وكان فتح مكة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان.

فى دار اُم هانى

ثم ان رسول اللّه (ص) كان قد عهد إلى المسلمين أن لا يقتلوا بمكة إلا من قاتلهم، سوى نفر كانوا يؤذون النبى (ص) ومن أسلم معه، ويحرّضون على حربهم ومقاتلتهم، ويصدّون الناس عن سبيل اللّه والحقّ، مثل هبار بن الأسود الذى تعرّض لزينب بنت رسول اللّه (ص) حين هجرتها فأرعبها مما سبّب إسقاط جنينها ومرضها حتّى ماتت منه.

ومثل: عكرمة بن أبى جهل الذى كان أحد مثيرى الحروب ومؤجّجى نيران الفتن ضد المسلمين.

ومثل: قينتين كانتا تغنّيان بهجاء رسول اللّه (ص) وتحضّضان المشركين يوم أحد عليه.

فاستتر هؤلاء عن أعين المسلمين، فبلغ علياً (ع) أن نفرين منهم وكانا حموين لاُم هانى اُخت على (ع) قد استجارا باُم هانى فأجارتهما فى بيتها، فقصد على (ع) نحو دارها مقنعاً بالحديد، ونادى: أخرجوا من آويتم، فرعبا، وخافت اُم هانى عليهما، فخرجت إليه (ع) وهى لا تعرفه، فقالت: يا عبد اللّه أنا اُم هانى بنت عم رسول اللّه (ص) واُخت على بن أبى طالب (ع) فانصرف عن دارى.

فقال (ع): اخرجوهم.

فقالت: واللّه لأشكونّك إلى رسول اللّه (ص).

فنزع على (ع) المغفر عن رأسه فعرفته، فجاءت إليه تشتدّ حتى التزمته وقالت: فديتك، حلفت لأشكونّك إلى رسول اللّه (ص).

فقال لها: اذهبى فبرّى قسمك، فإنه بأعلى الوادى.

فجاءت إليه تشتد، فلما سمع رسول اللّه (ص) كلامها قال لها: مرحباً بكِ يا اُم هانى، قد أجرنا من أجرتِ يا اُمّ هانى.

وأمّا هبار: ففرّ، ثم أسلم، وعفى (ص) عنه.

واستؤمن رسول اللّه (ص) لسارة وإحدى القينتين فأمنهما فأسلمتا.

وأما ابن أبى سرح فإنه أسلم فجاء به عثمان، فاستأمن له رسول اللّه (ص)، فأمنه، وكان قد أسلم قبل ذلك ثم هاجر ثم ارتدّ ورجع إلى مكة.

مع فضالة بن الملوح

وقيل: إن فضالة بن عمير بن الملوح همّ أن يقتل رسول اللّه (ص) وهو يطوف بالبيت، فلمّا دنا منه قال رسول اللّه (ص): أفضالة؟

قال: نعم.

قال (ص): ماذا تحدّث به نفسك؟

قال: لا شيء كنت أذكر اللّه.

فضحك النبى (ص) ثم قال: استغفر اللّه، ثم وضع يده إلى صدره فسكن قلبه.

وكان فضالة يقول: واللّه ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق اللّه شيئاً أحبّ إلىّ منه.

قال فضالة: فرجعتُ إلى أهلى، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت شعراً، فأجبتها شعراً:

قالت هلمّ إلى الحديث فقلت: لا يأبى الإله عليك والإسلام

لو قد رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين اللّه أضحى بيننا والشرك يغشى وجهه الاظلام

من مكارم رسول اللّه (ص)

ثم ان أكثر هؤلاء النفر الـذين أهدر رسول اللّه (ص) دمهم استأمن لهم بعض معارفهم، فخرجوا من استتارهم، وجاءوا إلى رسول اللّه (ص) فأسلموا على يديه، فقبل إسلامهم وعفا عنهم.

وكـان أحـد هؤلاء: صـفوان بن اُميـة، وقـد فرَّ يومئـذ، فاسـتأمن له عمير بن وهب الجمحى رسول اللّه (ص)، فأمنه، وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة.

فلحقه عمير وهو يريـد أن يركب البحر فردّه وقال: يا صـفوان، اذكر اللّه فى نفسك أن تهلكها، فهـذا أمان رسول اللّه (ص) قد جئتك به.

فقال صفوان، وهو يستبعد ذلك حسب رأيه: اُغرب عنى فلا تكلّمنى.

فقـال له عمير، وهـو يريـد أن يُطمئنه: أى صـفوان اُعلمـك انّ أفضـل النـاس وأبرّ النـاس وخير النـاس ابن عمـك، عزّه عزّك، وشـرفه شرفك، وملكه ملكك.

فقال صفوان، وهو يبدى ما فى قرارة نفسه وما انطوى عليه الجاهليون من الغدر: إنى أخافه على نفسى.

فقال له عمير: انه ليس كما تتصوّر، هو أحلم من ذلك وأكرم.

فاطمأنّ صفوان لما أراه عمير عمامة رسول اللّه (ص) بعثها إليه علامة لأمانه، فرجع معه حتى وقف به على رسول اللّه (ص)، فقال: هذا يزعم أنك أمنتنى؟

فقال (ص): صدق.

قال: فاجعلنى بالخيار شهرين.

قال (ص): أنت بالخيار أربعة أشهر.

وكـان ممّن اسـتأمن لهم فـآمنهم رسـول اللّه (ص) عكرمـة بن أبى جهـل، حيث اسـتأمنت له زوجته اُم حكيم بنت الحـارث بن هشـام وأخبرت زوجها بـذلك وهى تقول له: جئتك من عنـد أوصل الناس، وأبرّ الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك وقـد اسـتأمنت لك، فآمنك.

فجاء معها إلى رسول اللّه (ص) وأسلم على يديه، ثم قال: يا رسول اللّه مرنى بخير ما تعلم فاعلمه.

قال (ص): قل أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، وجاهد فى سبيل اللّه.

ولهذه الأخلاق الكريمة، والسيرة الطيّبة أسلم الناس زرافات زرافات، ورسول اللّه (ص) يقرأ على رواية:

(بسم اللّه الرحمن الرحيم إذا جاء نصـر اللّه والفتـح ورأيت الناس يـدخلون فى دين اللّه أفواجاً فسبّح بحمـد ربّك واسـتغفره إنّه كان توّاباً)(۷).

البيعة رجالاً ونساءاً

ثم اجتمع الناس للبيعة، فجلس رسول اللّه (ص) على الصفا يبايع الناس، فبايعه الرجال على الإسلام والجهاد والطاعة للّه ولرسوله.

ولما فرغ من بيعة الرجال، أقبلت النساء يبايعنه وهو على الصفا، فأنزل اللّه عزّوجلّ:

(يا أيها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن باللّه شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنّ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولا يعصينك فى معروف فبايعهنّ واستغفر لهنّ اللّه إنّ اللّه غفور رحيم)(۸).

فقالت هند، وكانت بين النساء وهى متنكّرة حتى لا يعرفها رسول اللّه (ص) لما صنعت بحمزة (ع): إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال!

ثم قالت: أما المال فقد أصبتُ من مال أبى سفيان هنات لأنه رجل ممسك لا يوسّع على عياله.

فقال لها رسول اللّه (ص): وانكِ لهند؟

قالت: نعم، فاعف عمّا سلف، عفى اللّه عنك.

ثم قالت: وأما الزنا فلا تزنى الحرّة، وأمّا الولد فقد ربّيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً، وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر.

فتأثّر رسول اللّه (ص) من ذلك ولم يقل لها شيئاً، ثم قالت: وأما البهتان فإنه قبيح، وما تأمرنا إلاّ بالرشد ومكارم الأخلاق، وأما انه لا نعصيك فى معروف، فإنّا ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شيء.

وقيل: انها لما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: كنا منك فى غرور.

ثم ان أُم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة بن أبى جهل كانت بين النساء أيضاً فقالت: يا رسول اللّه ما ذلك المعروف الذى أمرنا اللّه أن لا نعصيك فيه؟

فقال (ص): لا تلطمنّ خدّاً، ولا تخمشن وجهاً، ولا تنتفن شعراً، ولا تدعين بويل وثبور.

وكان ذلك دأب النساء على موتى الجاهلية فقد كنّ ينتفن شعر رأسهنّ حتى لا يبقى فى رأسهنّ طاقة شعر، ويدعين بالويل والثبور.

فقالت: يا رسول اللّه كيف نبايعك؟

قال (ص): إننى لا اُصافح النساء، ثم دعا بقدح من ماء، فأدخل يده فيه ثم أخرجها وقال: ادخلن أيديكنّ فى هذا الماء فهى البيعة، ففعلن.

معيار التفاضل فى الإسلام

ثم قام رسول اللّه (ص) على الصفا يخطب فى عشيرته، بنى هاشم وبنى عبدالمطلب، ويوصيهم بوصاياه، لأنهم هم الذين سيخلّفونه إذا ارتحل عن مكة، ويجسّدونه فى أعمالهم وتصرّفاتهم، وأهل مكة الذين هم حديثوا عهد بالإسلام ينظرون إليهم نظر اقتداء وتأسّي، لأنهم يرونهم رهط رسول اللّه (ص) وعشيرته، وممثّلوه فيهم.

ولذلك خطب (ص) عليهم يحفّزهم على الخير والتقوى، وعلى العمل للآخرة، ويحذّرهم الإتّكال على الأمانى والإقتناع بحسبهم ونسبهم والإشتغال بالدنيا، فقال (ص):

(يا بنى هاشم، ويا بنى عبد المطلب، انّى رسول اللّه إليكم، وانى شفيق عليكم، لا تقولوا انّ محمداً منّا، فواللّه ما أوليائى منكم ولا من غيركم إلاّ المتّقون، ألا فلا أعرفكم تأتونى يوم القيامة تحملون الدنيا على رقابكم، ويأتى الناس يحملون الآخرة، ألا وإنى قد أعذرت فيما بينى وبينكم، وفيما بين اللّه عزّوجل وبينكم، وانّ لى عملى ولكم أعمالكم).

مع بديل بن ورقاء

ثم ان العباس الذى كان يقوم بدور الوسيط بين النبى (ص) وشخصيات قريش وكبار الجاهليين ويسعى لجذبهم وتقريب قلوبهم إلى الإسلام، جاء يوم الفتح بالخزاعى: بديل بن ورقاء حتى أوقفه بين يدى رسول اللّه (ص) وقال: يا رسول اللّه هذا يوم قد شرفت فيه

قوماً، فما بال خالك (بـديل بن ورقاء) وهو قعيـد حيه؟ أى لم يشـرف كبقية الشخصـيات بوسام، ولم يعهد إليه أمر من قبل رسول اللّه (ص).

وكان بـديل شـيخاً طاعناً فى السنّ، وقـد جاء متلثّماً، فالتفت إليه رسول اللّه (ص) وقال: (إحسـر عن حاجبيك يا بـديل)، فحسـر عنهما وحدر لثامه.

فرأى رسول اللّه (ص) سواداً بعارض بديل.

فقال (ص) له: كم سنّوك يا بديل؟

فقال: سبع وتسعون يا رسول اللّه.

فتبسّم رسول اللّه (ص) وقال: (زادك اللّه جمالاً وسواداً، وأمتعك وولـدك)، لكن رسول اللّه قـد نيف على الستّين وقد أسـرع الشـيب فيه.

ثم قال (ص) له: يا بديل اركب جملك هذا الأورق وناد فى الناس: انها أيام أكل وشرب.

وكـان بـديل جهير الصوت، فأتمر بأمر رسول اللّه (ص) وأخـذ ينتقل بين خيامهم ويقول: أنا رسول رسول اللّه (ص) إليكم يقول لكم: إنها أيام أكل وشرب، وهى لغة خزاعة يعنى: الإجتماع والاُلفة.

وهكـذا كـان يكرم رسول اللّه (ص) كبار القوم، ويبقيهم فى مكانتهم، أو يمنحهم مكانـة وجاهاً، حتى يسـتهوى قلوبهم ويشـدّهم إلى الإسلام والايمان، ويجذب الآخرين الذين لم تطلهم يد رسول اللّه (ص) ولم يسلموا بعد إلى الإسلام.

سرية غالب الى بنى مدلج

ثم ان رسول اللّه (ص) بعث بعد ان فتح مكة السرايا فيما حول مكة، يدعون الناس الى اللّه عز وجل، ولم يأمرهم بقتال.

فبعث (ص) غالب بن عبد اللّه الى بنى مدلج.

فقالوا: لسنا عليك ولسنا معك.

فقال الناس: اغزهم يا رسول اللّه.

فقال: ان لهم سيداً اديباً أريباً، وربَّ غازٍ من بنى مدلج شهيد فى سبيل اللّه(۹).

سرية عمرو الى بنى الديل

وبعث رسول اللّه (ص) ايضاً عمرو بن اُمية الضمرى الى بنى الديل، فدعاهم إلى اللّه ورسوله، فأبوا أشد الإباء.

فقال الناس: اغزهم يا رسول اللّه.

فقال (ص): ان سيدهم قد أسلم، فيقول لقومه: اسلموا، فيقولون: نعم ويسلمون، وهكذا كان.

سرية عبد اللّه بن سهيل

كما وبعث رسول اللّه (ص) ايضاً عبـد اللّه بن سـهيل بن عمرو الى بنى محارب بن فهر، فقبلوا منه وأسـلموا، وجاء معه نفر منهم ليلتقوا برسول اللّه (ص) من قريب ويتعلموا منه الاسلام وأحكامه.

سرية خالد الى بنى جذيمة

وكان ممن بعث رسول اللّه (ص) بعد فتح مكة ليدعو الناس إلى اللّه خالد بن الوليد، بعثه إلى بنى جذيمة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، وانما

بعث اليهم خالداً للترة التى كانت بينه وبينهم، فقد أصابوا فى الجاهلية الفاكه بن المغيرة عم خالد، وعوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن، وكانا قد أقبلا فى تجارة من اليمن، فأخذت بنو جذيمة ما معهما وقتلتهما، ولذلك أنفذ رسول اللّه (ص) عبد الرحمن بن عوف مع خالد للترة أيضاً التى كانت بين ابن عوف وبينهم.

هذا و رسول اللّه (ص) كان قد خطب يوم الفتح وقال: (ألا كل مال، أو مأثرة، أو دم، أو مظلمة، أو احنة كانت فى الجاهلية فهو تحت قدمى).

فلما نزل خالد بمن معه على الغميصاء وهو ماء من مياه بنى جذيمة، اخذ بنو جذيمة السلاح وقالوا: يا خالد إنا لم نأخذ السلاح على اللّه وعلى رسوله، ونحن مسلمون، فانظر فان كان بعثك رسول اللّه (ص) ساعياً فهذه ابلنا وغنمنا فاغد عليها.

فقال خالد: ضعوا السلاح.

قالوا: انا نخاف منك أن تأخذنا باحنة الجاهلية وقد اماتها اللّه ورسوله.

فانصرف عنهم بمن معه ونزلوا قريباً، ثم شنّ عليهم الخيل فقتل وأسر منهم رجالاً، ثم أمر بهم خالد فكتفوا، ثم عرضهم على السيف وقتلهم.

أنباء الغدر وتداركها

فلما غدر خالد ببنى جذيمة جاء رسولهم إلى رسول اللّه (ص) وأخبره بما فعل خالد بهم، فرفع (ص) يديه إلى السماء بعد أن صعد المنبر وأعلم الناس بفعل خالد وقال:

(اللّهم إنى ابرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد) يعيد ذلك ثلاث مرات وبكى.

ثم دعا (ص) علياً (ع) وقد قدم عليه تبر ومتاع، فأعطى علياً (ع) التبر وقال: يا على أئت بنى جذيمة فانظر فى أمرهم وارضهم مما صنع خالد، ثم رفع (ص) قدميه وقال: يا على اجعل قضاء اهل الجاهلية تحت قدميك.

فلما أتاهم على (ع) حكم فيهم بحكم اللّه تعالى، فلما رجع الى النبى (ص) قال: يا على اخبرنى بما صنعت.

قال (ع) له: يا رسول اللّه عمدت فأعطيت لكل دم دية، ولكل جنين غرّة، ولكل مال مالاً، وفضلت معى فضلة فأعطيتهم لميلغة كلابهم، وحيلة رعاتهم، وروعة نسائهم، وفزع صبيانهم، ولما يعلمون ولما لا يعلمون، ثم فضلت معى فضلة، فأعطيتهم ليرضوا عنك يا رسول اللّه.

فقال عندها رسول اللّه (ص) وقد ظهر الرضا على وجهه المبارك مؤكداً: يا على أعطيتهم ليرضوا عنى؟ رضى اللّه عنك، واللّه ما يسرنى يا على أن لى بما صنعت حمر النعم.

ثم قال (ص): يا على إنما أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى، يا على أنت هادى اُمتى، ألا إن السعيد كل السعيد من أحبك وأخذ بطريقتك ألا إن الشقى كل الشقى من خالفك ورغب عن طريقك إلى يوم القيامة(١٠).

١ الإسراء: ٨١. ٢ الإسراء: ٨١. ٣ سبأ: ۴٩.

۴ الحجرات: ١٣. ۵ يوسف: ٩٢. ۶ النساء: ۵٨.

٧ النصر: ١٣. ٨ الممتحنة: ١٢.

٩ وهذا التعبير: (ان لهم سيداً أديباً أريباً) والذى يأتى بعده: (أن سيدهم قد أسلم) يدل على دور القيادة الصالحة فى إسعاد الأمة والعكس بالعكس.

١٠ بحار الأنوار: ج٢١ ص١۴٣ ب٢٧ ح۶.

غزوة حنين

ولما فتح رسول اللّه (ص) مكة، مكث فيها خمسة عشر يوماً يدبّر أمرها ويبعث السرايا منها، فلما أراد مغادرتها جعل عليها (عتاب بن اسيد) لإدارة اُمورها وإقامة الصلاة بالناس، وكان على قول ابن إحدى وعشرين سنة، فأقام بها أميراً على مكة حتى قبض رسول اللّه (ص).

كما وعين (معاذ بن جبل) لتعليم الناس القرآن وأحكام الإسلام.

ثم خرج (ص) منها أوائل شوال فى اثنى عشر ألف رجل: عشرة آلاف ممن كانوا معه، وألف رجل من بنى سليم، وألف رجل من مزينة، واتجه بهم إلى منطقة حنين، وحنين واد جنب ذى المجاز على مقربة من الطائف، وبينها وبين مكة ثلاث ليال.

وذلك بعد أن عقد اللواء الأكبر ودفعه الى على (ع) إضافة الى الرايات التى كانت معهم حين دخول مكة وفتحها.

وسبب هذه الغزوة: ان اللّه لما فتح على رسوله (ص) مكة إنصاعت له قبائل العرب كلها وأسلموا، إلاّ (هوازن) و(ثقيف) فإنهم عتوا عن أمر رسول اللّه (ص) وفكّروا فى اجتياح المسلمين والإغارة عليهم، فاجتمعوا وجمعوا الجموع والسلاح وقالوا: إن محمداً قاتله قوم لم يحسنوا القتال ولم يكن لهم علم بالحرب فغلب عليهم، ونحن اُولوا بصيرة فى الحرب وتجربة فى القتال، فسوف نغلبه.

ثم عزموا على قصده قبل أن يقصدهم، وقالوا: قبل أن يظهر ذلك منه سيروا إليه.

فقصدوا جانب المسلمين بعد أن اجتمعت هوازن وثقيف كلها، وكان على هوازن رئيسهم مالك بن عوف النصرى، وعلى ثقيف رئيسهم قارب بن الأسود، واتفق معهما نضر وجشم وسعد بن بكر وناس من بنى هلال.

هوازن وشيخ بنى جشم

ثم خرجوا جميعاً بأموالهم وأولادهم ونسائهم لئلا يفروا وليكون ذلك أدعى لهم للحرب وللإستماتة من أجلها، وكان فيهم دريد بن الصمة الجشمى رئيس بنى جشم وكان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر، وكان صاحب رأى وتدبير وله معرفة بالحروب، فساروا حتى انتهوا إلى أوطاس، فلما نزلوا بأوطاس اجتمع الناس، وفيهم دريد بن الصمة، فلما نزل قال: فى أى وادٍ أنتم؟

قالوا: بأوطاس.

قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس.

ثم قال: مالى أسمع رُغاء البعير وخوار البقر ونهاق الحمير وثغاء الشاء وبكاء الصغير؟

قيل له: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ليقاتل كل أمرىء عن نفسه وماله وأهله فيكون أشد لحربه.

فقال دريد: راعى ضأن ورب الكعبة ماله وللحرب؟

ثم قال: أين مالك؟ فدعى له.

فقال: يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك وانك تقاتل رجلًا كريماً وان هذا اليوم له ما بعده من الأيام، ثم مالى أسمع رُغاء البعير وخوار البقر ونهاق الحمير وغثاء الشاء وبكاء الصغير؟

قال: قد سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، أردت ان اجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم.

قال: راعى ضأن واللّه، وهل يردّ المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك الاّ رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك.

ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟

قالوا: لم يشهدها منهم أحد.

قال: غاب الجد والجد، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟

قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر.

قال: ذلك الجذعان لا ينفعان ولا يضران.

ثم التفت إلى مالك وقال: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن فى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم الى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثم الق الصبأة على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وان كانت عليك ألفاك ذلك وقد احرزت أهلك ومالك.

قال: لا واللّه لا أفعل، انك قد كبرت ووهن عقلك، واللّه لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكأنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى. وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى.

قالوا: أطعناك.

قال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه، ثم قال:

(يا ليتنى فيها جذع أخبّ فيها وأضع)

(أقود وطفاء الزمع كأنها شاة صدع)

عيون هوازن والمسلمين

وبعث مالك بن عوف عيوناً من رجاله فأتوه مرعوبين مذعورين فقال: ويلكم ما شأنكم؟

قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، واللّه ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى.

ولما سمع بهم النبى (ص) بعث إليهم عبد اللّه بن أبى حدود الأسلمى وأمره أن يدخل فى الناس، فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول اللّه (ص) فأتاه وأخبره الخبر، وقال: سمعت مالك بن عوف رئيسهم يخطب على هوازن ويقول: يا معشر هوازن انكم احدّ العرب واعدّه، وان هذا الرجل لم يلق قوماً يصدقونه القتال، فإذا لقيتموه فاكسروا جفون سيوفكم واحملوا عليه حملة رجل واحد.

الاستعداد لمواجهة هوازن

فلما أجمع رسول اللّه (ص) المسير الى هوازن، ذكر له ان عند صفوان بن اُمية أدراعاً وسلاحاً، فأرسل (ص) اليه وهو يومئذ مشرك فقال (ص): يا أبا اُمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا.

فقال: أغصباً يا محمد؟

فقال (ص): بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك.

قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، وقيل: أربعمائة، فلبس رسول اللّه (ص) درعين منها ولبس المغفر والبيضة أيضاً.

ثم خرج رسول اللّه (ص) عامداً إلى حنين راكباً بغلته البيضاء دلدل وهو يسير خلف جيشه ليتدارك ضعيفهم والمنقطع منهم وكانوا اثنى عشر ألفاً، وكان جيش العدو أربعة آلاف رجل.

ولذلك قال بعضهم لما رأى كثرة عددهم وقلّة عدوهم: لو لقينا بنى شيبان ما بالينا، لن نغلب اليوم من قلة، فشقّ ذلك على رسول اللّه (ص) غير انه لم يبدها لهم ولم يقل لهم شيئاً، فانتصر اللّه له فأنزل فيهم:

(لقد نصركم اللّه فى مواطن كثيرةٍ ويوم حنينٍ إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم

مدبرين)(۱).

وكان قد خرج مع رسول اللّه (ص) ناس من المشركين منهم صفوان بن اُمية، فلما كان عشية ذلك اليوم جاء فارس فقال: يا رسول اللّه إنى طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم.

فتبسم رسول اللّه (ص) وقال: تلك غنيمة للمسلمين غداً إن شاء اللّه.

ثم قال: من يحرسنا الليلة؟

قال أنس بن أبى مرثد الغنوى: أنا يا رسول اللّه.

قال (ص): اركب. فركب فرسا له، فقال (ص): استقبل هذا الشعب حتى تكون فى أعلاه. ففعل. فلما أصبح جاء وقال: طلعت الشعبين كلاهما فلم أر أحداً.

فقال له رسول اللّه (ص): هل نزلت الليلة؟

قال: لا إلّا مصلياً أو قاضى حاجة.

فقال رسول اللّه (ص): فلا عليك أن تعمل عملاً بعد هذا.

فى وادى حنين

فلما انتهى النبى (ص) الى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال وكان قد سار إليها يوم السبت لست خلون منه، كان قد سبقهم مالك بن عوف فأدخل جيشه بالليل فى ذلك الوادى وفرقهم فى الطرق والمداخل وحرضهم على قتال المسلمين وأمرهم أن يكمنوا لهم ويرشقوهم أول ما طلعوا ويحملوا عليهم حملة واحدة وقال: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدّة واحدة.

فلما كان وقت السحر واندلع الفجر عبأ رسول اللّه (ص) جيشه بعد أن صلى بهم صلاة الفجر وعقد ألويته والرايات وفرقها على الناس ودفع اللواء الأكبر الى على (ع) ثم انحدروا نحو الوادى وكانت بنو سليم على مقدمتهم.

قال جابر بن عبد اللّه: لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى وادٍ من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحداراً، وذلك فى عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنوا لنا فى شعابه وأخبائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيأوا، فواللّه ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب بايديها السيوف والعمد والقنى، قد شدوا علينا شدة رجل واحد، فانكشف الناس راجعين لا يلوى أحداً على أحد.

وانحاز رسول اللّه (ص) ذات اليمين ثم قال: إلىّ أيها الناس هلم الىّ، أنا رسول اللّه، أنا محمد بن عبد اللّه، والناس يفرّون لا يلوون على شىء.

فلم يبقَ مع رسول اللّه (ص) الاّـ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، منهم وفى طليعتهم على بن ابى طالب (ع) وأخوه عقيل والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث ونوفل بن الحارث وربيعة بن الحارث واُسامة بن زيد وأيمن بن عبيد وقتل يومئذ ورسول اللّه (ص) مصلت سيفه فى المجتلد وهو على بغلته البيضاء دلدل، وعلى (ع) بين يديه يضرب وجوه الناس ويردّهم عنه.

صاحب المواطن المشهورة

قال الفضل بن عباس: التفت العباس حين انقشع الناس عن بكرة أبيهم يوم حنين فلم يرَ علياً (ع) فقال لى: أفى مثل هذه الحال يرغب ابن ابى طالب بنفسه عن رسول اللّه (ص) وهو صاحب المواطن المشهورة؟

فقلت: يا أبة نقّص قولك لابن أخيك.

قال: ما ذاك يا فضل؟

قلت: أما تراه يقاتل فى الرعيل الأول، أما تراه يناجز فى الرهج؟

قال: أشعره لی یا بنی.

قلت: هو ذو کذا وکذا ذو البردة.

فأمعن النظر الیه وقال: فما تلک البرقة؟

قلت: سیفه یزیل به بین الأقران.

فقال: برّ بن برّ، فداه عم وخال.

قال: فضرب علی (ع) یومئذ أربعین مبارزاً کلهم یقدّه حتی انفه فیموت من فوره.

شیبة یعلن إسلامه

وقال شیبة بن عثمان بن أبی طلحة: لما رأیت رسول اللّه (ص) یوم حنین وقد انکشف عنه أصحابه ذکرت أبی وعمی وقتل علی وحمزة إیاهما، فقلت: أدرک ثاری الیوم من محمد، فذهبت لأجیئه عن یمینه فاذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً علیه درع بیضاء کأنها فضة، یکشف عنها العجاج، فقلت فی نفسی: عمه ولن یخذله.

ثم جئته عن یساره فإذا أنا بأبی سفیان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت فی نفسی: ابن عمه ولن یخذله.

ثم جئته من خلفه فلم یبق لی إلاّ أن اسوره سورة بالسیف إذ رفع لی شواظ من نار بینی وبینه کأنه برق، فخفت ان یمحشنی، فوضعت یدی علی بصری ومشیت القهقهری.

فالتفت الیّ رسول اللّه (ص) وقال: یا شیب یا شیب، اُدنُ منی، ثم قال (ص): اللّهمّ أذهب عنه الشیطان.

قال: فرفعت إلیه بصری ولهو أحبّ إلیَّ من سمعی وبصری.

وقال (ص): یا شیب قاتل الکفار. ثم اخبرنی بما اضمرته فی نفسی. فاستحییت واعتذرت منه وأسلمت علی یدیه.

کرٌّ بعد فرّ

ولما رأی رسول اللّه (ص) هزیمة القوم عنه، قال لعمه العباس وکان رجلاً جهوریاً صیّتاً: یا عم نادِ بالقوم، وذکّرهم العهد.

فنادی العباس بأعلی صوته: یا أهل بیعة الشجرة، یا أصحاب سورة البقرة، إلی أین تفرون؟ اذکروا العهد الذی عاهدتم علیه رسول اللّه (ص).

والقوم علی وجوههم قد ولّوا مدبرین. عندها رفع رسول اللّه (ص) یدیه نحو السماء وقال: (اللهم لک الحمد والیک المشتکی وأنت المستعان).

فنزل جبرئیل فقال: یا رسول اللّه دعوت بما دعا به موسی حیث فلق له البحر، ونجّاه من فرعون.

ثم التفت رسول اللّه (ص) الی أبی سفیان بن الحارث وقال: ناولنی کفاً من حصی، فناوله فرماه فی وجوه المشرکین وقال: شاهت الوجوه، ثم رفع رأسه نحو السماء وقال: اللّهم ان تهلک هذه العصابة لم تعبد، وان شئت أن لا تعبد، لا تعبد.

فلما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا وکسروا جفون سیوفهم وهم یقولون: لبیک، وکانت لیلة ظلماء ورسول اللّه (ص) فی الوادی والمشرکون قد خرجوا علیه من شعاب الوادی وجنباته ومضایقه مصلتین سیوفهم وعمدهم وقسیّهم.

قال الراوی: فنظر رسول اللّه (ص) ببعض وجهه فی الظلماء فأضاء کأنه القمر لیلة البدر ثم نادی المسلمین: أین ما عاهدتم اللّه علیه؟ فأسمع أولهم وآخرهم، فلم یسمعها رجل إلا رمی بنفسه إلی الأرض وانحدروا إلی حیث کانوا من الوادی، حتی لحقوا بالعدوّ فقاتلوه، وکان علی(ع) قد قتل حامل رایتهم: أباجرول وخذل القوم بقتله وولّوا منهزمین.

قال جابر بن عبداللّه: ما رجعت راجعة الناس حتی وجدوا الاُساری مکتفین بین یدی رسول اللّه (ص) وهو یقول: اللّهمّ إنک أذقت

أول قریش نکالاً، فأذق آخرها نوالاً.

هوازن تنهزم

ولما قتل أبو جرول وخذل القوم بقتله، وضع المسلمون سیوفهم فیهم حتی قتل من القوم کثیر والنبی (ص) ینظر إلی قتالهم ویقول: الآن حمی الوطیس کنایة عن شدة الأمر واضطرام الحرب وهی من أحسن الإستعارات، وکان النبی (ص) أول من قالها.

ثم کانت الهزیمة والأسر حینئذ وجیء بالأسری إلی رسول اللّه (ص) مکتفین، وکان أبوسفیان صخر بن حرب بن اُمیة فی هذه الغزوة، فانهزم فی جملة من المسلمین، فالتقی به ابنه معاویة وتلاوما علی ما ارتکباه من الهزیمة، ثم وقف فاجتمع معه الناس من أهل مکة، ثم رجعوا وأعادوا الکرة علیهم، وفی ذلک یقول مالک بن عبادة الغافقی:

لم یواس النبی غیر بنی هاشم عند السیوف یوم حنین

هرب الناس غیر تسعة رهط فهمُ یهتفون بالناس أین؟

ثم قاموا مع النبی علی الموت فأتوا زیناً لنا غیر شین

وقال العباس بن عبد المطلب عم النبی (ص) فی ذلک أیضاً:

نصرنا رسول اللّه فی الحرب تسعة وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا

وقولی إذا ما الفضل شدّ بسیفه علی القوم اخری یا بنیّ لیرجعوا

وعن البراء بن عازب أنه قال رجل: یا أبا عمارة أفررتم عن رسول اللّه (ص) یوم حنین؟

فقال: لکن رسول اللّه (ص) لم یفر، ان هوازن کانوا قوماً رماة، فلما لقیناهم وحملنا علیهم انهزموا فأقبل الناس علی الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس، فلقد رأیت رسول اللّه (ص) علی بغلته البیضاء فنزل واستنصر وقال: اللّهمّ أنزل نصرک، وأبو سفیان بن الحارث آخذ بلجام بغلته.

قال البراء: وکنا واللّه إذا احمر البأس نتّقی برسول اللّه (ص).

مغانم حنین

ولما نصر اللّه تعالی نبیّه (ص) یوم حنین علی المشرکین، وانهزم المشرکون، وقع منهم فی أیدی المسلمین غنائم کثیرة وسبی کثیر، قیل: إن السبی کان أربعة آلاف رأس، وقیل: ستة آلاف رأس، ومن الإبل اثنی عشر ألفاً، وقیل: أربعة وعشرین ألفاً، سوی ما لا یعلم من الغنائم.

وقد استجاب اللّه لنبیّه (ص) حیث کان یدعوه ویقول: (اللّهمّ انّک أذقت أول قریش نکالاً، فأذق آخرها نوالاً).

فإن تفریق رسول اللّه (ص) بین قریش الغنائم أغنی قریشاً وأثراهم، وقد خلّف رسول اللّه (ص) الأنفال والأموال والسبایا کلها بالجعرانة حتی یفرغ المسلمون من عدوّهم، وولی علیها بدیل بن ورقاء الخزاعی. فلما فرغ رسول اللّه (ص) من حنین والطائف قسم الغنائم بینهم وذلک علی ما سیأتی.

سریة أبی عامر إلی أوطاس

فلما فضّ اللّه تعالی جمع المشرکین بحنین تفّرقوا فرقتین، فأخذت الأعراب ومن تبعهم إلی أوطاس، وأخذت ثقیف ومن تبعها إلی الطائف، فبعث رسول اللّه (ص) أبا عامر الأشعری علی جیش فیهم أبو موسی الأشعری إلی أوطاس، وذلک لملاحقة الأعراب ومن تبعهم بها، فلما بلغها هو ومن معه تقدم بالرایة وقاتل حتی قتل دونها.

فقال المسلمون لأبی موسی: أنت ابن عمّ الأمير وقد قتل، فخذ الراية مكانه حتی نقاتل دونها، فأخذها أبو موسی فقاتل المسلمون دونها حتی فتح اللّه عليهم، ورجعوا إلی رسول اللّه (ص) بالسبی والغنائم فاتحين.

فأمر رسول اللّه (ص) بضمها إلی غنائم حنين وسبيها، وذلک فی الجعرانة.

وقيل: انه قال أبو موسی: كنت مع أبی عامر فرمی أبو عامر فی ركبته فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماک؟

فأشار إلی الذی رماه وقال: ذاک قاتلی الذی رمانی، فقصدته فلحقته، فلما رآنی ولّی، فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحی؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبی عامر: قتل اللّه صاحبک.

فقال: يابن أخی اقرء النبی (ص) منّی السلام وقل له يستغفر لی.

ثم قال أبو موسی: واستخلفنی أبو عامر علی الناس، فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت علی النبی (ص) فی بيته فأخبرته بخبرنا وخبر أبی عامر وأنه قال قل له يستغفر لی، فدعا (ص) بماء فتوضّأ ثم رفع يديه ودعا له بالمغفرة.

وقيل: انه استشهد من المسلمين يوم حنين أربعة نفر منهم أيمن بن اُم أيمن، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وسراقة بن الحارث رجل من الأنصار وأبو عامر الأشعری الذی قتل فی أوطاس، وقتل من المشركين أكثر من سبعين قتيلاً.

سرية أبی سفيان إلی الطائف

كما وبعث رسول اللّه (ص) أبا سفيان صخر بن حرب إلی الطائف لملاحقة ثقيف ومن تبعهم الذين لجأوا إليها، فلما بلغها هو ومن معه لقيته ثقيف فضربوه علی وجهه فانهزم ورجع إلی النبی (ص) يقول: بعثتنی يا رسول اللّه (ص) مع قوم لا يرفع بهم الدلاء من هذيل والأعراب، فسكت عنه رسول اللّه (ص) ولم يقل له شيئاً، وعزم علی أن يسير إلی الطائف بنفسه.

۱ التوبة: ۲۵.

غزوة الطائف

والطائف منطقة سياحية ومصيف من مصايف الحجاز قديماً وحديثاً، وهی تبعد عن مكة اثنی عشر فرسخاً إلی نحو الجنوب الشرقی منها، وثقيف التی هی من القبائل القوية والكثيرة العدد كانت تسكنها.

سار إليها رسول اللّه (ص) بأصحابه فی أواخر شوّال من السنة الثامنة من الهجرة النبويّة المباركة.

وسببها: اشتراک ثقيف فی حرب رسول اللّه (ص) مع هوازن، ولجوئهم بعد هزيمتهم النكراء مع رئيس هوازن مالک بن عوف إليها.

وسلک رسول اللّه (ص) فی طريقه إلی الطائف نخلة اليمانية، ثم علی قرن، ثم علی نجرة الرعاء من لية فابتنی فيها مسجداً فصلّی فيه.

ثم سلک (ص) فی طريق، فسأل عن اسمها فقيل: الضيقة فقال: بل اجعلوا اسمها اليسری، ثم خرج (ص) منها حتی نزل تحت سدرة قريباً من مال رجل من ثقيف، ثم مضی حتی انتهی إلی الطائف فنزل قريباً من حصنه فضرب به عسكره.

فرموا المسلمين رمياً شديداً حتی اُصيب ناس من المسلمين بجراحة، وفقئت عين أحدهم فأخذها بيده، فرآه رسول اللّه (ص) فقال له: أيهما أحب إليک، عين فی الجنّة أو ادعو اللّه أن يردّها عليک؟

فقال: عين فی الجنّة، فبارک عليه النبی (ص) وعلی إيمانه.

وقتل منهم يومئذ اثناعشر رجلاً سبعة من قريش، ورجل من بنی ليث، وأربعة من الأنصار، فارتفع (ص) إلی موضع مسجد الطائف اليوم ووضع عسكره هناک، وكان معه من نسائه اُم سلمة وزينب، فضرب لهما قبّتين، وبقی رسول اللّه(ص) محاصراً لحصنهم بضع عشرة ليلة.

الطائف فی محاصرة المسلمین

ثم شاور رسول اللّه (ص) أصحابه فی حصن الطائف، فقال سلمان: أری أن تنصب المنجنیق علی حصنهم وتشدخه به حتی یحدث فی الحصن ثغرة ننفذ منها إلیهم، فأمر به فعمل منجنیق.

ویقال: قدم بالمنجنیق ودبابتین إلیه، والدبّابة آلة لها سقف تحفظ الذین یستخدمون المنجنیق من سهام العدوّ وقذائفهم، فأرسل علیهم ثقیف قذائفهم: سککك الحدید المحماة بالنار، فأحرقت الدبّابتین.

فأمر (ص) بقطع أعناب ثقیف وتحریقها، فسألوه أن یدعها للّه وللرحم، فقال (ص): إنی أدعها للّه وللرحم، فترکها.

ثم نادی منادی رسول اللّه (ص): أیما عبد نزل من الحصن وخرج إلینا من الحصن فهو حرّ، فخرج منهم بضعة عشر رجلًا، منهم أبو بکرة وکان عبداً للحارث بن کلدة، اسمه نقیع بن الحارث، فتسوّر حصن الطائف وتدلی منه ببکرة مستدیرة یستقی علیها فکنّاه رسول اللّه (ص) (أبا بکرة).

ومنهم: المنبعث وکان اسمه المضطجع فسمّاه رسول اللّه (ص) المنبعث، وغیرهما، فأعتق رسول اللّه (ص) من نزل منهم، ودفع کل رجل منهم إلی رجل من المسلمین یمونه ویحمله، وأمرهم أن یُقرئوهم القرآن ویعلّموهم السنن.

فشق ذلک علی أهل الطائف مشقّة شدیدة، حتی انه لما أسلم أهل الطائف بعد ذلک تکلّم نفر منهم فی اُولئک العبید وقالوا: یا رسول اللّه ردّ علینا رقیقنا الذین أتوک.

فقال رسول اللّه (ص): لا، اُولئک عتقاء اللّه.

فی أیام المحاصرة

وخرج من الحصن فی أیام محاصرة النبی (ص) حصن الطائف نافع بن غیلان بن معتب فی خیل من ثقیف، فلقیه علی (ع) فی خیله، فالتقوا ببطن وجّ وهو بلد بالطائف ودار بینهم قتال شدید فقتله علی (ع) وانهزم من کان مع نافع من المشرکین ودخلوا حصنهم خائبین مرعوبین، فلحق القوم علی أثر ذلک رعب کبیر، فنزل منهم جماعة إلی النبی (ص) وأسلموا علی یدیه.

مهمة کسر الأصنام

ثم انّ رسول اللّه (ص) أنفذ علیاً (ع) فی خیل عند محاصرته أهل الطائف إلی النواحی والأطراف وأمره أن یکسر کل صنم وجده.

فخرج (ع) فلقیه جمع کثیر من خثعم، فبرز له رجل من القوم وقال: هل من مبارز؟

فلم یقم له أحد، فقام إلیه علی (ع). ثمّ ضربه فقتله ومضی حتی کسر الأصنام وانصرف إلی رسول اللّه (ص) وهو بعد محاصر لأهل الطائف.

فک الحصار عن الطائف

قال جابر: فلما قدم علی (ع) فکأنّما کان رسول اللّه (ص) علی وجل، فارتحل.

وکان قد أشار علیه بعض أصحابه ممن هو خبیر بأوضاع المنطقة، وبأحوال ثقیف، وبجزئیات الحصن ومعدّاته وذخائره بترک المحاصرة والإرتحال عنهم.

کما کان قد سأله القوم أن یبرح عنهم ویترک محاصرتهم، لیقدم علیه وفدهم فیفاوضونه فی أمرهم فیشترط له ویشترطون لأنفسهم.

وقیل: انه لما حاصر رسول اللّه (ص) الطائف فلم ینل منهم شیئاً قال: إنا قافلون غداً إن شاء اللّه، فثقل علیهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟

فقال: اغدوا على القتال، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: إنا قافلون غداً إن شاء اللّه، فأعجبهم، فضحك النبى (ص).

وقد استشار النبى (ص) أصحابه فى البقاء أو الرجوع، فأشاروا عليه بالرجوع.

فسار رسول اللّه (ص) حتى نزل مكـة، فقدم عليه نفر منهم بإسـلام قومهم، ولم ينجع القوم له بالصـلاة ولا الزكاة أى: كانوا قد شـرطوا لأنفسهم الإسلام على أن لا يصلّوا ولا يزكوا.

فرفض ذلك رسول اللّه (ص) رفضاً باتاً وقال: انه لا خير فى دين لا ركوع فيه ولا سـجود، أما والذى نفسى بيده ليقيمنّ الصلاة وليؤتنّ الزكاة، أو لأبعثنّ إليهم رجلًا امتحن اللّه قلبه للإيمان هو منّى كنفسـى، فليضـرب أعناق مقاتليهم وليسبينّ ذراريهم، هو هـذا، وأخذ بيد على (ع) فأشالها.

فلما صار القوم إلى قومهم بالطائف أخبروهم بما سمعوا من رسول اللّه(ص) فأقرّوا له بالصلاة والزكاة وبما شرطه عليهم.

فتنة تقسيم الغنائم

ثم رجع رسول اللّه (ص) إلى الجعرانة بمن معه من الناس، وذلك عند دخول شـهر ذى القعدة لأجل تقسيم غنائم حنين وأوطاس التى أودعت هنـاك، فبـدأ يقسم بينهم الأـموال، فقسـمها كلهـا بأمر اللّه تعالى، وقيل: الخمس منها فقط فى المؤلّفـة قلوبهم من قريش ومن سائر العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء قليل ولا كثير.

وقيل: انه جعل للأنصار شيئاً يسيراً، وأعطى الجمهور للمتألّفين من وجوه القبائل.

فأعطى أبا سـفيان بن حرب مائـة من الإبل، وروى أنّ أبا سـفيان بن حرب جاء إلى النبى (ص) والأموال من نقود وغيره مجموعة عنده فقال له: يا رسول اللّه أنت اليوم أغنى قريش، فتبسّم رسول اللّه (ص) ضاحكاً من قوله.

فقال أبو سفيان وقد اغتنم الفرصة: يا رسول اللّه حظنا من هذه الأموال؟

فأمر رسول اللّه (ص) بلالاً فأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضّة.

فقال: حظ ابنى يزيد.

فأعطاه أيضاً مائة من الإبل وأربعين أوقية.

فقـال أبو سـفيان: فـأين حظ ابنى معاويـة، فأمر له بمائـة من الإبل وأربعين أوقيـة حتى أخـذ أبو سـفيان يومئـذ ثلاثمائـة من الإبل ومائة وعشرين أوقية من الفضّة.

فقال أبو سفيان عند ذلك: بأبى أنت وأُمّى يا رسول اللّه، لأنت كريم فى الحرب والسلم، هذا غاية الكرم جزاك اللّه خيراً.

وأعطى (ص) صفوان بن اُمية من الإبل مائة، وقيل: ثم مائة ثم مائة.

وأعطى (ص) حكيم بن حزام مائة من الإبل. وقيل: فسأله مائة اُخرى، فأعطاه ايّاها.

وأعطى (ص) الحارث بن الحارث إبن كلدة مائة من الإبل.

وأعطى كلاًـ من الحـارث بن هشام أخا أبى جهل، وعبـد الرحمن بن يربوع المخزوميين، وسـهيل بن عمرو، وحويطب بن عبـد العزّى، والعلاء بن حارثـة الثقفى (وعـدّه بعضـهم فى أهل الخمسـين) والأقرع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصن الفزارى، ومالك بن عوف النصرى مائة من الإبل.

وأعطى دون المائة رجالاً من قريش وغيرهم، منهم: مخرمة بن نوفل، وعمير بن وهب، وهشام بن عمرو أخو بنى عامر بن لؤى.

وأعطى (ص) كلًا من سعيد بن يربوع المخزومى، وعدى بن قيس السهمى، وعثمان بن نوفل خمسين من الإبل.

وأعطى عباس بن مرداس أربعاً فسخطها وأنشأ يقول:

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

فما کان حصن ولا حابس یفوقان مرداس فی مجمع

وما کنت دون امرئ منهما ومن تضع الیوم لا یرفع

وقد کنت فی الحرب ذا تدرأ فلم أُعط شیئاً ولم اُمنع

فطلبه رسول اللّه (ص) فلما جاءه قال له: أنت القائل: أتجعل نهبی نهب العبید؟ ثم التفت إلی علی (ع) وقال له: یا علی قم إلیه فاقطع لسانه.

فظن ابن مرداس ان الکلام علی ظاهره، فقال لعلی (ع): یا علی انک لقاطع لسانی؟

قال (ع): إنّی ممض فیک ما اُمرت، ثم أدخله الحظائر وقال له: اعقل ما بین أربعة إلی مائة.

فقال لما رأی ذلک: بأبی أنتم واُمی ما أکرمکم وأحلمکم، وأجملکم وأعلمکم؟

فقال له علی (ع): انّ رسول اللّه (ص) أعطاک أربعاً وجعلک من المهاجرین، فإن شئت فخذها، وإن شئت فخذ المائة وکن مع أهل المائة.

فقال: أشِر أنت علیّ.

فقال له علی (ع): إنی أری أن تأخذ ما أعطاک وترضی، ففعل.

وقال لرسول اللّه (ص) قائل من أصحابه: اعطیت کلّاً من عیینة بن حصن والأقرع بن حابس مائة من الإبل، وترکت جعیل بن سراقة الضمری؟

فقال رسول اللّه (ص): انی تألفتهما لیسلما، ووکلت جعیل بن سراقة إلی إسلامه.

مع ذی الخویصرة

عن جابر بن عبد اللّه قال: أتی رجل بالجعرانة فی منصرفه (ص) من حنین، وفی روایة عن أبی سعید الخدری: أتاه ذو الخویصرة، وفی ثوب بلال فضّة ورسول اللّه (ص) یقبض منها یعطی الناس.

فقال: یا محمد اعدل.

فقال (ص): ویلک من یعدل إن أنا لم أعدل؟ لقد خبت أو خسرت إن أنا لم أعدل؟

ألا ـ تری قسّمتُ الشاة حتی لم یبق معی شاة، أو لم أُقسّم البقر حتی لم یبق معی بقرة واحدة؟ أو لم أُقسم الإبل حتی لم یبق معی بعیر واحد؟!

فقال أحد الصحابة: یا رسول اللّه ائذن لی فی قتل هذا المنافق؟

فقال (ص): معاذ اللّه أن یتحدّث الناس أنّی أقتل أصحابی، إن هذا یخرج فی قوم یقرأون القرآن لا یجاوز حناجرهم، یمرقون من الإسلام کما یمرق السهم من الرمیة، آیتهم رجل أسود إحدی عضدیه مثل ثدی المرأة، یخرجون علی خیر فرقة من الناس.

قال أبو سعید الخدری: فأشهد أنی سمعت هذا من رسول اللّه (ص) وأشهد أنّ علی بن أبی طالب (ع) قاتلهم وأنا معه، وأمر بذلک الرجل فالتمس، فوجد، فأُتی به حتی نظرت إلیه علی نعت رسول اللّه (ص) الذی نعت.

حکمة تألیف القلوب

ولما قسّم رسول اللّه (ص) بأمر من اللّه تعالی غنائم حنین فی قریش خاصة، وأجزل القسمة للمؤلّفة قلوبهم، غضبت الأنصار واجتمعت إلی سعد بن عبادة، فانطلق بهم إلی رسول اللّه (ص) بالجعرانة فقال: یا رسول اللّه أتأذن لی فی الکلام؟

فقال (ص): نعم.

قال: إن كان هذا الأمر من هذه الأموال التى قسّمت بين قومك شيئاً أنزله اللّه، رضينا، وإن كان غير ذلك لم نرض.

فقال رسول اللّه (ص) للأنصار وقد التفت إليهم: يا معشر الأنصار، أكلّكم على قول سيّدكم سعد؟

قالوا: سيّدنا اللّه ورسوله.

فأعادها عليهم ثانية فأعادوها، ثم قالوا فى الثالثة: نحن على مثل قوله ورأيه.

وهنا قال زرارة: قال أبو جعفر (ع): فحطّ اللّه نورهم، وفرض للمؤلّفة قلوبهم سهماً فى القرآن، ثم قال: فلما كان من قابل جاء الذين تألّفهم رسول اللّه(ص) بضعف ما أخذوا، وأسلم ناس كثيرون.

فقام رسول اللّه (ص) خطيباً وقال: هذا خير أم الذى قلتم؟ قد جاءوا من الإبل بضعف ما أعطيتهم، وقد أسلم للّه عالم وناس كثير، والذى نفس محمد بيده لوددت انّ عندى ما أعطى كل إنسان ديته وهى مائة من الإبل مثلاً على أن يسلم للّه ربّ العالمين.

اعتراض واسترضاء

وروى: انّ رسول اللّه (ص) بلغه لما قسّم غنائم حنين فى قريش خاصة يتألفهم به أن الأنصار يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس من القسمة، فكأنهم غضبوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، حتى أنّ بعضهم قال: يغفر اللّه لرسوله، يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

وقال بعضهم: لقى الرجل أهله وبنى عمّه، ونحن أصحاب كل كريهة!

فأمر رسول اللّه (ص) أن يجتمعوا ولا يكن غير أنصارى معهم.

فلما اجتمعوا جاءهم رسول اللّه (ص) يتبعه على (ع) حتى جلس وسطهم.

فقال (ص): ما حديث بلغنى عنكم؟

فقال له ذوو الأسنان من الأنصار: أما ذوو رأينا فلم يقولوا شيئاً، وأما أُناس حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر اللّه لرسوله يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

فقال (ص): إنى أُعطى رجالاً حديثى عهد بكفر أتألّفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال والشاء، وتذهبون بالنبى إلى رحالكم؟! فواللّه لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به.

قالوا: يا رسول اللّه قد رضينا.

فقال لهم النبى (ص): ستجدون بعدى أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا اللّه ورسوله، فإنى على الحوض.

قالوا: سنصبر.

وقد قصد رسول اللّه (ص) بذلك ما يلاقونه بعده من مثل واقعة الحرّة وأشباهها.

النبى (ص) يستغفر للأنصار

وفى رواية: انه (ص) لما اجتمعوا جاء إليهم شبه المغضب ويتبعه على (ع) حتى جلس فى وسطهم وقال لهم: إنى سائلكم عن أمر فأجيبونى عنه.

فقالوا: قل يا رسول اللّه.

فقال (ص): يا معشر الأنصار ألستم كنتم ضالّين فهداكم اللّه بى؟

قالوا: بلى واللّه، فللّه المنّة ولرسوله.

قال (ص): ألم تكونوا على شفا حفرة من النار فأنقذكم اللّه بى؟

قالوا: بلى واللّه، فللّه المنّة، ولرسوله المنّ والطول والفضل علينا.

قال (ص): ألم تكونوا أعداءاً فألّف اللّه بين قلوبكم بى؟

قالوا: بلى، وللّه المنّة ولرسوله.

قال (ص): ألم تكونوا قليلاً فكثّركم اللّه بى؟

قالوا: بلى، وللّه المنّة ولرسوله.

وقال (ص) ماشاء أن يقول، ثم سكت هنيئة.

ثم قال (ص): ألا تجيبونى بما عندكم يا معشر الأنصار؟

قالوا: بم نجيبك فداؤك آباؤنا واُمهاتنا يا رسول اللّه، فلقد أجبناك: بأنّ لك الفضل والمنّ والطول علينا.

قال (ص): أما لو شئتم لقلتم: وأنت قد كنت جئتنا طريداً فآويناك، وجئتنا خائفاً فآمّناك، وجئتنا مكذّباً فصدّقناك.

فارتفعت أصواتهم بالبكاء، وقام شيوخهم وساداتهم إليه وقبّلوا يديه ورجليه وركبتيه ثم قالوا: رضينا باللّه وعنه، وبرسوله وعنه، وهذه أموالنا أيضاً بين يديك، فإن شئت فاقسمها على قومك، وإنما قال مَن قال منّا على غير وغر صدر، وغلّ فى قلب، ولكنهم ظنوا سخطاً عليهم وتقصيراً بهم، وقد استغفروا اللّه من ذنوبهم، فاستغفر لهم يا رسول اللّه.

فقال رسول اللّه (ص): اللّهمّ اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار.

ثم قال (ص): يا معشر الأنصار أما ترضون أن يرجع غيركم بالشاء والنعم، وترجعون أنتم وفى سهمكم رسول اللّه؟

قالوا: بلى رضينا.

فقال (ص) حينئذ: لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللّهمّ اغفر للأنصار.

مع أسرى هوازن

وقد كان فى السبى اُخت رسول اللّه (ص) الرضاعية: شيماء بنت حليمة السعدية، من بنى سعد، حيث إن بنى سعد قد شاركوا هوازن الحرب ضد رسول اللّه (ص)، فلما قامت على رأسه قالت: يا محمّد اُختك شيماء بنت حليمة سبى.

قال: فنزع رسول اللّه (ص) برده فبسطه لها، فأجلسها عليه، ثم أكبّ عليها يسائلها، وهى التى كانت تحتضنه إذ كانت اُمها ترضعه، وكانت شفيقة عليه.

وكان قد أدرك وفد هوازن رسول اللّه (ص) بالجعرانة، وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول اللّه لنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا، منّ اللّه عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول اللّه، إنما فى الحظائر خالاتك وبنات خالاتك، وحواضنك وبنات حواضنك اللاتى أرضعنك، ولسنا نسألك مالاً وانما نسألكهنّ، وقد كان رسول اللّه (ص) قسّم منهنّ ما شاء اللّه.

فلما كلّمته اُخته قال (ص): أما نصيبى ونصيب بنى عبدالمطلب فهو لك، وأما ما كان للمسلمين فاستشفعى بى عليهم.

فلما صلّوا الظهر قامت فتكلّمت وتكلّموا، فوهب لها الناس أجمعون وردّوا إليهم نساءهم وأبناءهم.

كما وكلمته اُخته فى مالك بن عوف رئيس هوازن ومشعل نار الحرب فى حنين.

فقال لها رسول اللّه (ص): إن جاءنى مسلماً فهو آمن، فأتاه مسلماً، فردّ عليه ماله، وأعطاه مائة من الإبل اضافة إلى ماله، فأنشأ مالك حينئذ يقول:

ما ان سمعت ولا رأيت بمثله فى الناس كلهم كمثل محمد

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى وإذا تشأ يخبرك عما فى غد

فاستعمله رسول اللّه (ص) على من أسلم من قومه.

وقيل: ان شيماء قالت: يا رسول اللّه إنى أُختك من الرضاعة، فبسط (ص) لها رداءه فأجلسها عليه، ودمعت عيناه، وخيَّرها وقال: إن أحببت فأقيمى عندى محببة مكرمة، وإن أحببت أمتعتك وترجعى إلى قومك فعلت.

قالت: بل تمتعنى وتردنى إلى قومى.

فأسلمت فمنحها رسول اللّه (ص) هداياه وردّها إلى قومها.

وجاءته (ص) أُمه من الرضاعة حليمة السعدية بنت أبى ذئيب من هوازن، وهى التى أرضعته حتى أكملت رضاعه، فالتفت (ص) إليها وبسط لها رداءه فجلست عليه.

قال جمع: وقد أسلمت وأسلم زوجها.

معدن الحلم والكرم

قالوا: لما فرغ رسول اللّه (ص) من تقسيم الغنائم ركب واتبعه الناس يقولون: يا رسول اللّه أقسم علينا فيئنا، حتى الجأوه إلى شجرة، فانتزع عنه رداؤه.

فقال: أيها الناس ردّوا علىّ ردائى، فوالّذى نفسى بيده لو كان عندى عدد شجرتها نعماً لقسّمته عليكم، ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جباناً.

ثم جاءه رجل يخبره بمقالة أحدهم فيه، وطعنه فى القسمة، فأجابه رسول اللّه (ص) وهو يريد أن يخفّف عليه شدّة ما تحامل عليه البعض فيما يخص القسمة قائلاً: (قد اوذى أخى موسى بأكثر من هذا فصبر).

وقيل: إنه (ص) لما أراد أن يقسم الغنائم أمر زيد بن ثابت حتى أحضر الناس، ثم عدّ الإبل والغنم وقسّمها على الناس، فوقع فى سهم كل رجل أربع من الإبل مع أربعين شاة من الغنم، وإن كان فارساً وقع فى سهمه اثناعشر بعيراً مع مائة وعشرين شاة من الغنم.

من معجزات الرسول (ص)

روى انه لما حاصر رسول اللّه (ص) أهل الطائف قال عيينة بن حصن الفزارى وكان من المؤلّفة قلوبهم: إئذن لى حتى آتى الحصن فأُكلّمهم، فأذن له، فجاءهم وقال: أدنو منكم وأنا آمن؟

قالوا: نعم، وعرفه أبو محجن فقال: اُدن.

فدخل عليهم وقال لهم: فداكم أبى وأُمّى لقد سرّنى ما رأيت منكم، وما فى العرب أحد غيركم، واللّه ما فى محمد مثلكم، ولقد قلّ المقام وطعامكم كثير، وماؤكم وافر لا تخافون قطعه، وشجّعهم على المقاومة والمجابهة.

فلما خرج قالت ثقيف لأبى محجن: إنّا قد كرهنا دخوله وخشينا أن يخبر محمداً بخلل يراه فينا أو فى حصننا.

فقال أبو محجن: أنا كنت أعرف به، ليس أحد منا أشدّ على محمد منه، وإن كان معه.

فلما رجع عيينة إلى رسول اللّه (ص) قال: قلت لهم: إدخلوا فى الإسلام، فو اللّه لا يبرح محمد من عقر داركم حتى تنزلوا وتأخذوا لأنفسكم أماناً.

فقال له رسول اللّه (ص): لقد قلت بخلاف ما تقول، قلت لهم كذا وكذا، وأخبره بكل ما قاله لهم، فعاتبه جماعة وأنّبوه على فعله.

فقال: استغفر اللّه وأتوب إليه ولا أعود أبداً.

فعفا رسول اللّه (ص) عنه.

مغادرة مكة

ثم خرج رسول اللّه (ص) بعد تقسيم الغنائم من الجعرانة إلى مكة معتمراً، فلما فرغ رسول اللّه (ص) من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة، وكانت عمرته فى منتصف ذى القعدة، فقدم رسول اللّه (ص) المدينة فى بقية ذى القعدة أو فى أول ذى الحجة.

وذلك بعد أن استخلف عتاب بن أُسيد على مكة، وخلّف معه معاذ بن جبل يفقّه الناس فى الدين ويعلّمهم الأحكام.

ثم حجّ عتاب بن اُسيد بالناس تلك السنة، وهى السنة الثامنة من الهجرة النبوية المباركة، وعتاب بن اسيد هذا، هو الذى استعمله رسول اللّه (ص) على مكة وكان ابن عشرين سنة أو أكثر بقليل، وكان فى غاية الورع والزهد، وهو أول أمير أقام الحج فى الإسلام.

كما واستعمل (ص) على هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف عثمان بن أبى العاص، وكانا شابين أيضاً.

وكانت مدة غيبة رسول اللّه (ص) منذ خرج من المدينة إلى فتح مكة وأوقع بهوازن وحارب الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يوماً.

معيار الأفضلية فى الإسلام

وكان استخلاف رسول اللّه (ص) عتّاباً على مكة وهو ابن عشرين سنة وأقرانه على هوازن وثقيف مثاراً للجدل والنقاش بين بعض أهل مكة، الذين كانوا يرون المناصب للشيوخ وذوى الأسنان منهم، ولذلك قالوا: إنّ محمداً لا يزال يستخفّ بنا حتى ولّى علينا غلاماً حدث السن ابن ثمانية عشر سنة، ونحن مشايخ ذوو الأسنان، وجيران حرم اللّه الآمن، وخير بقعة على وجه الأرض.

فكتب رسول اللّه (ص) إلى عتّاب كتاباً أجابهم فيه على ذلك قائلًا: لا يحتجّ محتجّ منكم فى مخالفته بصغر سنّه، فليس الأكبر هو الأفضل، بل الأفضل هو الأكبر، وهو الأكبر فى موالاتنا وموالاة أوليائنا، ومعاداة أعدائنا، فلذلك جعلناه الأمير عليكم، والرئيس عليكم، فمن أطاعه فمرحباً به، ومن خالفه فلا يُبعد اللّه غيره.

وبقوله (ص): (ليس الأكبر هو الأفضل بل الأفضل هو الأكبر) أبطل مقاييس الجاهلية فى تفويض المناصب إلى الشيوخ وذوى الأسنان وإن لم يكونوا أكفاءاً، وأثبت مقياس الإسلام والقرآن بتفويض المناصب إلى ذوى الكفاءات وإن لم يكونوا شيوخاً وذوى اسنان، وهذا هو منطق العقل أيضاً.

وكأنّ رسول اللّه (ص) باستخلاف عتّاب وأمثاله كان يريد تمهيد الأمر لاستخلافه علياً (ع) من بعده بأمر اللّه تعالى.

عروة بن مسعود

وقيل: إنّ رسول اللّه (ص) لما انصرف عنهم من الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام.

فقال له رسول اللّه (ص): إنهم قاتلوك، وعرف رسول اللّه (ص) أنّ فيهم نخوة الإمتناع الذى كان منهم.

فقال له عروة: يا رسول اللّه أنا أحب إليهم من أبصارهم، وكان فيهم كذلك محبباً مجاباً مطاعاً.

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام ورجا أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف عليهم على علية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله.

فقيل له: ما ترى فى دمك؟

فقال: كرامة أكرمنى اللّه بها وشهادة ساقها اللّه إليَّ، فليس فيَّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول اللّه (ص) قبل أن يرتحل عنكم، فادفنونى معهم.

فقال رسول اللّه (ص): مثله فى قومه كمثل صاحب ياسين فى قومه.

إسلام ثقيف

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لاطاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا، وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع؟

فائتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول اللّه (ص) رجلًا كما أرسلوا عروة، فكلموا عبديا ليل بن عمرو بن عمير وكان فى سن عروة بن مسعود وعرضوا ذلك عليه، فأبى أن يفعل، وخشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة فقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالًا، فأجمعوا أن يرسلوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونون ستة، فبعثوا كما أراد.

ولما قدموا ضرب رسول اللّه (ص) قبة عليهم فى ناحية مسجده.

وقيل: كان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول اللّه(ص) حتى كتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذى يكتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند رسول اللّه (ص) حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم.

وقد كانوا فيما سألوا رسول اللّه (ص) أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول اللّه (ص) ذلك، فما برحوا يسألونه سنة سنة وهو يأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى، وإنما يريدون فى ذلك على ما قيل أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول اللّه (ص)، وقد كانوا سألوه أيضاً أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم.

فقال رسول اللّه (ص): أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فلا، فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه.

فقالوا: يا محمد فسنؤتكها.

فلما أسلموا وكتب لهم رسول اللّه (ص) كتابهم أمر عليهم عثمان بن أبى العاص، وكان من أحدثهم سنّاً، وذلك: لأنه كان أحرصهم على التفقّه فى الدين وفى الإسلام.

فلما فرغوا من أمرهم وتوجّهوا إلى بلادهم راجعين بعث معهم رسول اللّه(ص) من يهدم لهم صنمهم، فهدمه دون حدوث شىء مما كانوا يزعمونه، فوقفوا عند ذلك على سخافة ما كانوا يعتقدونه وخرافته.

مع لامية كعب بن زهير

ولما رجع رسول اللّه (ص) إلى المدينة كتب بجير بن زهير، إلى أخيه كعب بن زهير، وزهير هذا هو زهير بن أبى سلمى أحد شعراء الجاهلية، وصاحب إحدى المعلّقات السبع التى كانت من مفاخرهم، وقد نصبوها فى الكعبة حتى قُبيل نزول القرآن الحكيم، وقد مات زهير وخلّف من بعده ابنين:

أحدهما: بجير وكان قد أسلم وشهد مع رسول اللّه (ص) فتح مكة وغزوة حنين والطائف.

والآخر: كعب وكان شاعراً يهجو فى شعره رسول اللّه (ص) ولم يكن أسلم بعد.

فلما عاد بجير مع رسول اللّه (ص) والمسلمين إلى المدينة، كتب إلى أخيه شفقةً منه عليه ونصيحةً له: يا كعب إن كانت لك فى نفسك حاجة، فطِر إلى رسول اللّه (ص) فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً.

فلما وصل الكتاب إلى كعب خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبين ذلك الرجل معرفة وصداقة، فغدا به إلى مسجد رسول اللّه(ص) وهو يتهيّأ لصلاة الصبح.

فصلّى كعب مع رسول اللّه (ص) صلاة الصبح لأوّل مرّة، وبعد السلام أشار له الرجل إلى رسول اللّه (ص) وقال: هذا رسول اللّه (ص) فقم إليه واستأمنه.

فقام كعب إلى رسول اللّه (ص) حتى جلس إليه فوضع يده في يده وقال: يا رسول اللّه إنّ كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟

قال رسول اللّه (ص): نعم.

قال: أنا يا رسول اللّه كعب بن زهير، ثم قام وأنشد قصيدته اللامية المشهورة التى كان قد أنشأها من قبل، والتى قال فى مطلعها:

باتت سعاد فقلبى اليوم متبولُ متيم إثرها لم يغد مكبولُ

إلى أن قال:

كل ابن أُنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

نبئت أنّ رسول اللّه (ص) أوعدنى والعفو عند رسول اللّه (ص) مأمول

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنّى بأقوال الوشاة ولم أُذنب ولو كثرت فىَّ الأقاويل

إلى أن قال:

ان الرسول لنور يستضاء به مهنّد من سيوف اللّه مسلول

إلى آخر الأشعار.

فلما فرغ كعب من إنشاد قصيدته على مسامع رسول اللّه (ص) والمسلمين، كساه رسول اللّه (ص) بردة كانت عليه.

ويقال: انه لما كان زمن معاوية، ومعاوية كان يحاول إضفاء الشرعية على حكومته بعث إلى كعب من يقول له: بعنا بُردة رسول اللّه (ص) بعشرة آلاف.

فقال: ما كنت لُأوثر بثوب رسول اللّه (ص) أحداً.

فلمّا مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً وأخذها منهم، وتوارثها من بعده الأمويّون واحداً بعد واحد، ثم انتقلت منهم إلى العباسيين.

جباية الزكوات

ولما دخلت سنة تسع بعث رسول اللّه (ص) المصدّقين يأخذون الصدقات من الأعراب.

وقيل: انه لما رأى رسول اللّه (ص) هلال المحرم سنة تسع بعث المصّدقين يصدقون الأعراب:

فبعث (ص) عيينة بن حصن إلى بنى تميم، كما وبعث يزيد ابن الحصين إلى أسلم وغفار، وبعث رافع بن مكيث إلى جهينة، وبعث عمرو بن العاص إلى فزارة، وبعث الضحاك بن سفيان إلى بنى كلاب، وبعث بشير بن سفيان إلى بنى كعب.

وبعث ابن اللتبية الأزدى إلى بنى ذبيان.

هذا وقد أمرهم رسول اللّه (ص) أن يأخذوا العفو منهم ويتوّقوا كرائم أموالهم. وبعث المهاجر بن أُمية إلى صنعاء.

وكذا بعث (ص) زياد بن لبيد إلى حضرموت، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بنى حنظلة.

وفرّق صدقات بنى سعد على رجلين: فبعث الزبرقان ابن بدر على ناحية، وقيس بن عاصم على ناحية.

وبعث العلاء بن الحضرمى على البحرين. وبعث علياً (ع) إلى نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم.

سرية الفزارى إلى بنى تميم

ثم ان بعض القبائل رغم تحقق النصر الكبير للمسلمين ودخول الناس فى دين اللّه أفواجاً بقوا على شركهم وأصرّوا على عنادهم

ومحاربتهم للمسلمین، ولجّوا فی صدهم عن سبیل اللّه وقطع الطریق علی الآمنین، ولأجل دفع شرّهم وفسادهم بعث رسول اللّه (ص) بعوثاً وسرایا:

منها: سریة عیینة بن حصن الفزاری إلی بنی تمیم، وذلک فی المحرم من هذه السنة فی خمسین فارساً لیس فیهم مهاجری ولا أنصاری، فکان یسیر اللیل ویکمن النهار، فهجم علیهم فی صحراء، وقد سرحوا مواشیهم، فلما رأوا الجمع ولّوا فأخذ منهم أحد عشر رجلًا وعشرین امرأة وثلاثین صبیاً، فساقهم إلی المدینة، فنزلوا فی دار رملة بنت الحارث.

فقدم فیهم عدة من رؤسائهم: عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، وقیس بن عاصم، والأقرع بن حابس، وقیس بن الحارث، ونعیم بن سعد، وعمرو بن الأهتم، ورباح بن الحارث، فلما رأوا نساءهم وذراریهم بکوا إلیهم.

فعجلوا فجاءوا إلی باب النبی (ص) فنادوه: یا محمد إخرج إلینا لنفاخرک ونشاعرک، فنزل فیهم: (إنّ الّذین ینادونک من وراء الحجرات أکثرهم لایعقلون)(۱) الآیة.

فخرج إلیهم رسول اللّه (ص) فأقام بلال الصلاة وتعلّقوا برسول اللّه (ص) یکلّمونه فوقف معهم، ثم مضی فصلّی الظهر، ثم جلس فی صحن المسجد، فقدّموا عطارد بن حاجب فتکلّم وخطب.

عندها أمر (ص) ثابت بن قیس بن شماس فأجابهم فغلبهم.

فقام بعد ذلک الزبرقان شاعر بنی تمیم فأنشد مفاخراً فقال:

نحن الکرام فلا حی یعادلنا منا الملوک وفینا تنصب البیع

وکم قسرنا من الأحیاء کلهم عند النهاب وفضل العز یُتّبع

ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم یؤنس القزع

بما تری الناس تأتینا سراتهم من کل أرض هویاً ثم نصطنع

فننحر الکوم عبطاً فی أرومتنا للنازلین إذا ما أنزلوا شبعوا

فلا ترانا إلی حی نفاخرهم إلا استقادوا وکاد الرأس یقتطع

فمن یفاخرنا فی ذاک یعرفنا فیرجع القول والأخبار تستمع

إنا أبینا ولم یأب لنا أحد إنّا کذلک عند الفخر نرتفع

وکان حسان غائباً فبعث إلیه رسول اللّه (ص).

قال حسان: جاءنی رسول رسول اللّه (ص) فأخبرنی أنه إنما دعانی لُأجیب شاعر بنی تمیم، فخرجت إلی رسول اللّه (ص) مسرعاً.

مع شاعر الرسول (ص)

قال شاعر الرسول (ص) حسان بن ثابت: فلما انتهیت إلی رسول اللّه (ص) وقام شاعر القوم فقال ما قال، قال لی رسول اللّه (ص): قم یا حسّان فأجب الرجل، فقمت وقلت:

ان الذوائب من فهر وإخوتهم قد بینوا سنّة للناس تتبع

یرضی بها کل من کانت سریرته تقوی الإله وکل الخیر یصطنع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع فی أشیاعهم نفعوا

سجیةٌ تلک منهم غیر محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

إن کان فی الناس سباقون بعدهم فکل سبق لأدنی سبقهم تبع

لا یرقع الناس ما أوهت أکفهم عند الدفاع ولا یوهون ما رقعوا

لا يبخلون على جار بفضلهم ولا يمسهم من مطمع طبع

إذا نصبنا لحی لم ندبّ لهم كما يدبّ إلی الوحشية الذرع

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها اذا الزعانف من أظفارها خشعوا

لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن اُصيبوا فلا خور ولا هلع

كأنهم فی الوغی والموت مكتنع اُسدٌ بحَلية فی أرساغها فدع

خذ منهمُ ما أتوا عفوا إذا غضبوا ولا يكن همك الأمر الذی منعوا

فإن فی حربهم فاترک عداوتهم شراً يخاض عليه السم والسلع

أكرم بقوم رسول اللّه شيعتهم إذا تفرّقت الأهواء والشيع

أهدى لهم مدحتی قلب يوازره فيما أحب لسان حائک صنع

فإنهم أفضل الأحياء كلهم ان جد بالناس جد القول أو شمعوا

فلمّا فرغ حسان قال الأقرب بن حابس: إن هـذا الرجل لمؤتی، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشـعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلی من أصواتنا، ثم أسلموا فأجازهم رسول اللّه (ص) فأحسن جوائزهم وردّ عليهم نساءهم وأبناءهم.

سرية ابن عامر إلی تبالة

وبعث رسول اللّه (ص) قطبة بن عامر فی عشـرين رجلاً إلی حی من خثعم بناحية تبالة كانوا يسـتعدّون للإغارة على المدينة، وأمره أن يشن الغارة عليهم.

فخرجوا على عشـرة أبعرة فاعتقبوها فشـنوا الغارة عليهم فاقتتلوا قتالاً شـديداً حتی كثر الجرحی فی الفريقين، وقتل قطبة بن عامر من قتل وانهزم الباقون، فساقوا النعم والشاء إلی المدينة.

ثم ان القوم اجتمعوا وركبوا فی آثـارهم، فلمـا اقتربوا منهم أرسـل اللّه سـيلاً عظيماً حال بينهم وبين المسـلمين فساقوا النعم والشاء وهم ينظرون لا يستطيعون أن يعبروا إليهم.

سرية الضحاک إلی بنی كلاب

وفی ربيـع الأـول سـنة تسع مـن الهجرة النبويـة المباركـة، بعث رسـول اللّه (ص) جيشـاً إلی بنی كلاـب كـانوا يريـدون الزحـف على المسـلمين، وجعـل عليهم الضـحاک بن سـفيان بن عـوف ومعهم الأصـيد بن سـلمة، فلقوهم بـالرخوخ، فـدعوهم إلی الإسـلام، فـأبوا، فقاتلوهم فهزموهم، فلحق الأصـيد أباه سـلمة وسـلمة على فرس له فی غـدير بالرخ، فدعا أباه إلی الإسـلام وأعطاه الأمان، فسبّه وسـبَّ دينه.

فلما رأی الأصـيد انّ أباه يسبّ دينه ويتعرّض لعقيـدته ضـرب عرقوب فرس أبيه، ولما وقع الفرس على عرقوبه ارتكز سـلمة على الرمح فی الماء ثم استمسک حتی جاءه أحد المسلمين فقتله.

وبهذا وأمثاله من التضحيات أثبت المسلمون الأوائل تصلبهم فی عقيدتهم ومحافظتهم على دينهم.

سرية علقمة بن محرز المدلجی

وفی ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة بلغ رسول اللّه (ص) أنّ اُناساً من الحبشة يتعرّضون للمسلمين، ويريدون الفساد فی الأـرض والصـدّ عن سبيل اللّه، فبعث إليهم علقمـة بن محرز فی ثلاثمائـة فانتهی إلی جزيرة، وقـد خاض إليهم البحر فهربوا منه، فرجع

ومن معه من غير قتال.

سرية علی (ع) إلی طیّ

وفی هذه السنة وهی السنة التاسعة من الهجرة النبوية المباركة، بعث رسول اللّه (ص) علی بن أبی طالب (ع) فی مائة وخمسين رجلًا من الأنصار علی مائة بعير وخمسين فرساً ومعه راية سوداء ولواء أبيض إلی الفلس وهو صنم طیء ليهدمه.

فشنوا الغارة علی موضع ذلک الصنم مع الفجر والناس نيام، حتی لا يقع تصادم أو قتال، وإذا وقع كان قليلًا، وكان كذلک، فقد استطاعوا هدم الصنم بلا مقاومة تذكر، سوی قليل ممّن تعرض لهم، فوقعوا فی أسرهم، فاستاقوا معهم إلی المدينة ما وقع فی أيديهم: من السبی والنعم والشاء، وفی السبی سفانة اُخت عدی بن حاتم، وكان عدی قد هرب إلی الشام، ووجدوا فی خزانته ثلاثة أسياف وثلاثة أدراع.

وفی المنتقی: فكان فيما أخذ من خزانته بعد تحطيم فلس سيفان: أحدهما يسمّی مخذماً، والآخر رسوباً، وكان الحارث بن أبی شمر الغسّانی ملک غسّان قد أهداهما إلی فلس، فوهبهما رسول اللّه (ص) لعلی (ع).

واستعمل علی السبی أبا قتادة، وعلی الماشية والرقة عبد اللّه بن عتيک، وقسّم الغنائم فی الطريق، وعزل الصفی لرسول اللّه (ص)، ولم يقسّم السبی من آل حاتم حتی قدم بهم المدينة.

عدی يشرح قصته

قال عدی بن حاتم: ما كان رجل من العرب أشد كراهيّة لرسول اللّه (ص) منّی حين سمعت به، وكنت امرءاً شريفاً، وكنت نصرانيّاً أدين بدين النصاری من غير أن اُبدی ذلک لأحد، وكنت أسير فی قومی بالمرباع بأن آخذ الربع من أرباحهم، وكنت فی نفسی علی دين، وكنت ملكاً فی قومی.

فلما سمعت برسول اللّه (ص) كرهته، فقلت لغلام عربی لی وكان راعياً لإبلی: لا أباً لک، أعدَّ لی من إبلی أجمالاً ذللًا سماناً فاحبسها قريباً منی، فإذا سمعت بخيل محمد قد وطئت هذه البلاد فآذنّی، ففعل.

ثم انه أتانی ذات غداة فقال: يا عدی ما كنتَ صانعاً إذا غشيتک خيل محمد فاصنعه الآن، فإنی قد رأيت رايات، فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد.

قال: فقلت: قرّب لی أجمالی، فقرّبها، فاحتملت بأهلی وولدی، ثم قلت فی نفسی: ألحق بأهل دينی من النصاری بالشام، فسلكت الجوشية وهو جبل قرب أرض نجد، وقد تركت اُختی سفانة بنت حاتم الطائی فی قومی.

فلما قدمت الشام أقمت بها، وخالفتنی خيل رسول اللّه (ص) فأصابت ابنة حاتم فيمن أصابت، فقدم بها علی رسول اللّه (ص) فی سبايا من طیء، وقد بلغ رسول اللّه (ص) هربی إلی الشام.

سفانة تشرح قصتها

تقول سفانة: أقبلوا بنا إلی المدينة وأودعونا قريباً من المسجد، حتی إذا كان وقت الصلاة جاء رسول اللّه (ص) إلی الصلاة فمرّ بی فتعرضت له وقلت: يا رسول اللّه هلک الوالد وغاب الوافد، وأنا عجوز كبيرة ما بی من خدمة، فمنَّ علیَّ، منَّ اللّه عليک.

فقال (ص): من وافدک؟

قلت: عدی بن حاتم.

قال (ص): الذی فرَّ من رسول اللّه؟

ثم مضى رسول اللّه (ص) وتركنى، فلما كان من الغد مرّ بى، فقلت له مثل ذلك، وقال لى مثل ما قال بالأمس وتركنى.

حتى إذا كان بعد الغد مرّ بى وقد يئست من إجابته، فأشار إلىَّ على (ع) وكان يمشى خلفه أنْ قومى فكلّميه.

فقمت إليه فقلت: يا رسول اللّه، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علىَّ منَّ اللّه عليك.

فقال رسول اللّه (ص): قد فعلت، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنينى.

فأقمت حتى قدم ركب من بلّى أو قضاعة يريدون الشام، وفكّرتُ أن آتى أخى بالشام، فجئت رسول اللّه (ص) فأخبرته بقدوم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ.

فكسانى (ص) وحملنى وأعطانى نفقة، وساق معى من النعم والشاء ما شاء اللّه وقال (ص): لو كان أبوك مسلماً لترحّمنا عليه.

عند ذلك سألته أن يمنّ على من معى من السبى ففعل.

قال عدى: فواللّه انى لقاعد فى أهلى إذ أتتنى اُختى بالشام.

فقلت: ابنة حاتم؟

قالت: نعم، ثم أخذت فى ملامتى، فقالت: لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها، احتملت أهلك وولدك، وتركت بقيّة والدك عورتك.

فقلت لها: اى اُخيّة لا تقولى إلاّ خيراً، فواللّه ما لى من عذر، لقد صنعت ما ذكرت.

ثم نزلت فأقامت عندى، فقلت لها، وكانت امرأة حازمة: ماذا ترين فى أمر هذا الرجل؟

قالت: أرى أن تلحق به سريعاً، فائته راغباً أو راهباً، فقد أتاه فلان فأصاب منه، وفلان فأصاب منه.

بين يدى رسول اللّه (ص)

قال عدى: فأتيت رسول اللّه (ص) فى المدينة وهو جالس فى المسجد.

فقال لما رآنى: من الرجل؟

قلت: عدى بن حاتم، وقد جئت بغير أمان ولا كتاب.

فلما عرّفته نفسى قام (ص) فأخذ بيدى وانطلق بى إلى بيته، وفى الطريق لقيته امرأة عجوز كبيرة السن، ضعيفة الحال، فاستوقفته، فوقف لها طويلًا تكلّمه فى حاجتها.

فقلت فى نفسى: واللّه ما هذا بملك.

ثم أخذ بيدى حتى أتى داره فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقدمها إلىّ، فقال (ص): اجلس على هذه.

فقلت: بل أنت فاجلس عليها.

قال (ص): بل أنت.

فجلست عليها وجلس رسول اللّه (ص) على الأرض، فلما رأيت ذلك قلت فى نفسى: واللّه ما هذا بأمر ملك.

ثم قال (ص): ايه يا عدى بن حاتم، ألم تكن ركوسياً؟ (وهو دين بين الصابئة والنصرانية).

قلت: بلى.

قال (ص): أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع؟

قلت: بلى.

قال (ص): فإن ذلك لم يحل لك فى دينك.

قلت: أجل واللّه. وعرفت فى نفسى أنّه نبىّ مرسل يعرف ما يُجهل.

ثم قال (ص): يا عدى، لعلك إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فواللّه ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه.

ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوّهم وقلّة عددهم، فواللّه ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف.

ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم، وأيم اللّه ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل أن تفتح عليهم.

قال: فأسلمتُ.

فكان عدى يقول بعد ذلك: مضت اثنتان وبقيت الثالثة، وواللّه لتكوننّ. قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحجّ هذا البيت، وواللّه لتكوننّ الثالثة، وليفيضنّ المال حتى لا يوجد من يأخذه.

عدى وقومه يُسلمون

وفى رواية: ان عدى قال: انتهيتُ إلى رسول اللّه (ص) وهو يقرأ من سورة البراءة هذه الآية: (اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه والمسيحَ ابن مريم)(...۲).

فلما فرغ منها قلت له: إنا لسنا نعبدهم.

فقال (ص): أليس يحرّمون ما أحلّ اللّه فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم اللّه فتستحلّونه؟

فقلت: بلى.

قال (ص): فتلك عبادتهم، ثم قال: ما يضرّك أن يقال: لا إله إلّا اللّه؟ فهل تعلم من إله سوى اللّه؟

قلت: لا.

ثم تكلّم ساعة. ثم قال: إنما تقرّ أن يقال: اللّه أكبر، وهل تعلم شيئاً أكبر من اللّه؟

قلت: لا.

قال (ص): فإنّ اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالّون.

قلت: فإنّى حنيف مسلم، فرأيت وجهه منبسطاً فرحاً.

قال: ثم أمر بى فأنزلت عند رجل من الأنصار، وجعلت أغشاه وآتيه طرفى النهار.

قال: فبينا أنا عنده إذ جاء قوم فى ثياب من الصوف من هذه الثمار، فصلّى (ص) وقام فحث عليهم ثم قال:

أيها الناس ارضخوا من الفضل، ولو صاعاً، ولو بنصف صاع، ولو بقبضة، ولو ببعض قبضة، يقى أحدكم نفسه من جهنّم أو النار، ولو بتمرة، فإن أحدكم لاق اللّه وقائل له ما أقول لكم: ألم أجعل لك مالاً وولداً؟ فيقول: بلى. فيقول: أين ما قدمت لنفسك؟ فينظر قدامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ثم لا يجد شيئاً يقى به وجهه جهنّم، ليقِ أحدكم وجهه النار، ولو بشقّ تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيّبة، فإنّى لا أخاف عليكم الفاقة، فإن اللّه ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة ما بين يثرب والحيرة أكثر ما تخاف على مطيتها السرق.

قال: فجعلت أقول فى نفسى: فأين لصوص طى؟

وقد حسن إسلام عدى ودعى قومه الذين لم يسلموا إلى الإسلام، فأسلموا.

وقد حسن إسلام عدى ودعى قومه الذين لم يسلموا إلى الإسلام، فأسلموا.

۱ الحجرات: ۴. ۲ التوبة: ۳۱.

غزوة تبوك

و(تبوك) موضع معروف من بلاد البلقاء، ذو قلعة حصينة رفيعة الجدران، عند عين ماء على منتصف طريق المدينة إلى دمشق.
وتسمّى هذه الغزوة: (الفاضحة) أيضاً، لافتضاح المنافقين فيها.وكذا تسمّى: (غزوة العسرة) أيضاً، لأنهم كانوا قد خرجوا فى قلة من الظهر، وشدّة من الحر، وجفاف من الماء، وجدب من البلاد، حتى كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان يلوك أحدهم التمر حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه فيمصّها، وهكذا، فسمّيت لذلك (غزوة العسرة).
وقيل: انهم كانوا ينحرون البعير فيشربون ما فى كرشه من الماء.
وكانت فى شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة النبوية المباركة، وهى آخر غزوات رسول اللّه (ص).
وسببها: انّ نصارى العرب الذين كانوا يقطنون المناطق الحدودية للشام كانوا قد كتبوا إلى هرقل ملك الروم يطلبون منه أن يبعث إليهم من يجهّزهم لمحاربة هذا الرجل الذى خرج يدّعى النبوّة، ومن معه من المسلمين.
فبعث إليهم رجلاً من عظمائهم وجهّز معه أربعين ألفاً.
فبلغ ذلك النبى (ص) بسبب الصيافة التى يمترون فى الصيف، حيث كانوا يقدمون إلى المدينة من الشام لبيع أمتعتهم، فأشاعوا فى المدينة: ان الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول اللّه (ص) فى عسكر عظيم، وانّ هرقل قد سار فى جمعه وجنوده، وجلب معه غسان وجذام وفهراً وعاملة، وقد قدم عساكره البلقاء، ونزل هو حمص.
فأمر اللّه تعالى رسوله (ص) بحرب الروم وغزوهم، وأمر رسول اللّه (ص) أصحابه بالتهيّؤ إلى تبوك، كما وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة وكانوا كلهم مسلمين فى هذا الوقت يستنفرهم.
وحضّ رسول اللّه (ص) من عنده من المسلمين على الجهاد، وأمر بعسكره فضرب فى ثنية الوداع، وأمر أهل الجدة أن يعينوا من لا قوّة به، ومن كان عنده شيء أخرجه، وحملوا وقوّوا وحثوا على ذلك، وخطب رسول اللّه (ص) عليهم خطبة غرّاء، جاء فيها بعد الحمد للّه والثناء عليه تعالى ما يلى:

من كلمات الرسول (ص)

(أيها الناس انّ أصدق الحديث كتاب اللّه، وأولى القول كلمة التقوى، وخير الملل ملّة إبراهيم، وخير السنن سنّة محمّد، وأشرف الحديث ذكر اللّه، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عزائمها، وشرّ الاُمور محدثاتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف القتل قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتّبع، وشرّ العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشرّ المعذرة حين يحضر الموت، وشرّ الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلاّ نزراً، ومنهم من لا يذكر اللّه إلاّ هجراً، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة اللّه، وخير ما اُلقى فى القلب اليقين، والارتياب من الكفر، والتباعد عمل الجاهلية، والغلول من جمر جهنّم، والسكر جمر النار، والشعر من إبليس، والخمر جماع الآثام، والنساء حبائل إبليس، والشباب شعبة من الجنون، وشرّ المكاسب كسب الربا، وشرّ المآكل أكل مال اليتيم ظلماً، والسعيد من وعظ بغيره، والشقىّ من شقى فى بطن اُمّه، وانما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتيمه، وأربى الربا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وشنآن المؤمن فسق، وقتال المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية اللّه، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن توكّل على اللّه كفاه، ومن صبر ظفر، ومن يعفُ يعفُ اللّه عنه، ومن كظم الغيظ يأجره اللّه، ومن يصبر على الرزيّة يعوّضه اللّه، ومن يتبع السمعة يسمّع اللّه به، ومن يصم يضاعف اللّه له، ومن

يعصِ اللّه يعذّبه، اللّهمّ اغفر لی ولاُمّتی، اللّهمّ اغفر لی ولاُمّتی، أستغفر اللّه لی ولكم)....

قال الراوی: فرغب الناس فی الجهاد لما سمعوا هذه الخطبة، وقدمت القبائل من العرب ممن استنفرهم، وقعد عنه قوم من المنافقين وغيرهم.

وكان رسول اللّه (ص) قلّ ما يخرج فی غزوة إلاّ ـ كنّى عنها، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيّنها للناس لبعد الشقة وشدّة الزمان وكثرة العدوّ الذی يعمد له، ليتأهّب الناس لذلك أهبته. فأمر الناس بالجهاز وأخبر أنه يريد الروم.

مع الجدّ بن قيس

ثم ان رسول اللّه (ص) قال ذات يوم وهو فی جهازه ذلك لرجل من بنی سلمة يقال له (الجدّ بن قيس): يا أبا وهب ألا تنفر معنا فی هذه الغزوة؟

فقال: يا رسول اللّه أو تأذن لی أن اُقيم ولا تفتنی، فواللّه لقد عرف قومی أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء منی، وإنی أخشی ان رأيت بنات الأصفر أنی لا أصبر.

فأعرض عنه رسول اللّه (ص) وأذن له، فأنزل اللّه تعالی علی رسوله فی ذلك:

(ومنهم من يقول ائذن لی ولا تفتنی ألا فی الفتنة سقطوا وإنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين)(۱).

ثم قال الجد بن قيس: أيطمع محمد انّ حرب الروم مثل حرب غيرهم؟! لا يرجع من هؤلاء أحد أبداً.

كما وقال لقومه: لا تنفروا فی الحر زهادة فی الجهاد، وشكاً فی الحق، وإرجافاً بالرسول، فأنزل اللّه سبحانه: (فرح المخلّفون بمقعدهم خلاف رسول اللّه وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فی سبيل اللّه وقالوا لا تنفروا فی الحرّ قل نار جهنّم أشدّ حرّاً).

إلی قوله تعالی: (وماتوا وهم فاسقون)(۲) ففضح اللّه الجدّ بن قيس وأصحابه.

وقيل: ان رهطاً من المنافقين كان يقول بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بنی الاصفر كقتال العرب بعضهم لبعض؟ واللّه لكأنی بكم غداً مقرنين بالحبال، يقولون ذلك إرجافاً بالمؤمنين، فأرسل رسول اللّه (ص) إليهم عمار بن ياسر ينبّأهم بما قالوا، فانطلق إليهم عمار فنبأهم بقولهم، فأتوا رسول اللّه (ص) يعتذرون إليه وانتهوا عن مقالتهم.

هذا وقد نوی ابن اُبی أن يشترك فی غزوة تبوك فضرب خيمته فی معسكر المسلمين، لكنه عدل عن رأيه ساعة ارتحال المسلمين ورجع هو وأصحابه إلی المدينة وقد أضمر سوءاً، فغضّ عنه رسول اللّه (ص) ولم يعترضه بشیء.

الضعفاء

ثم إنّ رجالاً من المسلمين أتوا رسول اللّه (ص)، وكانوا سبعة نفر.

فكان من بنی عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وكان قد شهد بدراً.

ومن بنی حارثة: علبة بن زيد.

ومن بنی مازن بن النجار: أبو ليلی عبد الرحمن بن كعب.

ومن بنی سلمة: عمرو بن غنمة.

ومن بنی زريق: سلمة بن صخر.

ومن بنی الغرّ: ناضر بن سارية السلمی.

ومن بنی واقف: هرمی بن عمير.

هؤلاء السبعة جاءوا وهم يبكون، فاستحملوا رسول اللّه (ص) وكانوا أهل الحاجة، فقال (ص): لا أجد ما أحملكم عليه.

وقيل: انهم جاءوا وقالوا: يا رسول اللّه ليس بنا قوّة أن نخرج معك، فأنزل اللّه تعالى فيهم: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الّذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا للّه ورسوله) إلى قوله سبحانه: (تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون)(۳).

وقد كان نفر من المسلمين أهل نيات وبصائر تخلفوا عن رسول اللّه (ص) من غير شك ولا ارتياب، ولكنهم قالوا: نلحق برسول اللّه (ص)، منهم: كعب بن مالك أخو بنى سلمة، ومرارة بن الربيع أخو بنى عمرو بن عوف، وهلال بن اُمية أخو بنى واقف، وأبو خيثمة أخو بنى سالم، وكانوا نفر صدق لا يتهمون فى إسلامهم.

الإستخلاف وحديث المنزلة

فلما اجتمع لرسول اللّه (ص) الخيول ارتحل من ثنية الوداع، وذلك بعد أن استخلف علياً (ع) على المدينة، فإنّ جبرئيل كان قد أتاه وقال له: إنّ العليّ الأعلى يقرؤك السلام ويقول لك: إمّا أن تخرج أنت ويقيم على، أو تقيم أنت ويخرج على.

فلمّا خلّفه على المدينة وأمره بالإقامة فيهم، أرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً منه وتشؤماً به، فلما بلغ ذلك علياً (ع) أخذ سيفه وسلاحه ثم خرج حتى أتى رسول اللّه (ص) وهو نازل بالجرف.

فقال له رسول اللّه (ص) لما رآه مقبلاً: يا على ألم اُخلّفك على المدينة؟

قال (ع): نعم يا رسول اللّه، ولكن زعم المنافقون انك انما خلفتنى لأنك استثقلتنى وتشأمت بى.

فقال (ص): كذب المنافقون يا على، ولكنّى خلّفتك لما تركت ورائى، أما يكفيك انك جلدة ما بين عينى ونور بصرى، وكالروح فى بدنى، فارجع فاخلفنى، فإن المدينة لا تصلح إلاّ بى وبك، أفلا ترضى يا على أن تكون أخى وأنا أخوك، وأنت منّى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبىّ بعدى، وأنت خليفتى فى اُمّتى، وأنت وزيرى وأخى فى الدنيا والآخرة؟

فرجع على (ع) إلى المدينة.

مع أبى خيثمة

ثم إنّ أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول اللّه (ص) أياماً إلى أهله فى يوم حارّ، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائط قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت فيه ماءاً وهيّأت له فيه طعاماً.

فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: لا واللّه ما هذا بإنصاف، رسول اللّه (ص) فى وهج الشمس ولفح الريح قد حمل السلاح يجاهد فى سبيل اللّه، وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيّأ وامرأتين حسناوين فى ماله وعريشه مقيم! لا واللّه ما هذا بالنصف.

ثم قال: واللّه لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول اللّه (ص)، فهيّئا لى زاداً، ففعلتا، ثم قدّم ناقته فشدّ عليها رحله، ثم خرج فى طلب رسول اللّه (ص) حتى أدركه حين نزل تبوك.

وقد كان أدرك أبو خيثمة عمير بن وهب الجمحى فى الطريق يطلب رسول اللّه (ص) فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إنّ لى ذنباً فما عليك أن تتخلّف عنى حتى آتى رسول اللّه (ص)، ففعل، حتى إذا دنا من رسول اللّه (ص) وهو نازل بتبوك قال الناس: هذا راكب على الطريق.

فقال رسول اللّه (ص): كن أبا خيثمة.

فقالوا: يا رسول اللّه (ص) هو واللّه أبو خيثمة.

فلما أناخ أقبل فسلّم على رسول اللّه (ص) وأخبره خبره.

فقال له رسول اللّه (ص) خيراً، ودعا له بخير.ثم التحق الجمحى بهم أيضاً.

من علامات النبوّة

روى: انه نـال رسول اللّه (ص) والنـاس معه لمـا سـاروا يومهم إلى تبوك عطش شديـد، كادت تنقطع له أعناق الرجال والخيل عطشاً، فدعا (ص) بركوة فصبّ فيها ماءاً قليلاً من إداوة كانت معه ووضع أصابعه عليها فنبع الماء من تحت أصابعه، فاسـتقوا وارتووا والعسكر ثلاثون ألف رجل سوى الخيل والإبل.

وروى: انه لمـا أصبح الناس ولا ماء معهم شـكوا ذلك إلى رسول اللّه (ص)، فـدعا اللّه لهم بأن يسـقيهم، فأرسل اللّه سـحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء، فقيل لبعض المنافقين: ويحك هل بعد هذا شيء؟

قال: سحابة مارّة.

حتى إذا كان رسول اللّه (ص) ببعض الطريق ضـلّت ناقته القصوى، فخرج أصـحابه فى طلبها، فقال عمارة بن حزم كالمستهزئ: يخبرنا محمد بخبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته!

فقـال رسول اللّه (ص): إنّ رجلاًـ قال: يخبرنا محمـد بأمر السـماء، وهو لا يـدرى أين ناقته؟ فاعلموا انى لا أعلم إلا ما علّمنى اللّه، وقد دلّنى اللّه عليها الآن، وهى فى هذا الوادى من شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتونى بها، فذهبوا فرأوها كما وصف، فأخذوها وجاءوا بها إليه.

مواساة أبى ذر

ثم مضـى رسول اللّه (ص) سـائراً، فجعـل يتخلّف عنه الرجل فيقولون: يا رسول اللّه تخلّف فلان. حتى قيل: يا رسول اللّه تخلّف أبو ذر وأبطأ به بعيره، وقـد كان مـدة تخلّف أبى ذر عن رسول اللّه (ص) ثلاثـة أيام، وذلك ان جمله كان أعجف، وقد وقف عليه فى بعض الطريق، فلما أبطأ عليه تركه وأخذ متاعه وثيابه، فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول اللّه (ص) ماشياً.

ونزل رسول اللّه (ص) فى بعض منازله، فلما ارتفع النهار نظر المسـلمون إلى شـخص مقبل، فقالوا: يا رسول اللّه إنّ هذا الرجل يمشـى على الطريق وحده.

فقال رسول اللّه (ص): كن أبا ذر.

فلما تأمّله القوم قالوا: يا رسول اللّه هو واللّه أبوذر.

فقال رسول اللّه (ص): أدركوه بالماء فإنه عطشان.

فأدركوه بالماء، ووافى أبو ذر رسول اللّه (ص) ومعه اداوة فيها ماء، فقال له: يا أباذر معك ماء وعطشت؟

فقـال: نعم يـا رسول اللّه بأبى أنت وأُمّى، انتهيت إلى صـخرة عليها ماء السـماء فـذقته فإذا هو عـذب بارد، فقلت: لا أُشـربه حتى يشـربه حبيبى رسول اللّه(ص).

فقال له رسول اللّه (ص): يا أبا ذر رحمك اللّه أنت المطرود عن حرمى بعدى لمحبّتك لأهل بيتى، تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، وتدخل الجنّة وحدك، يسعد بك قوم من أهل العراق، يتولّون غسـلك وتجهيزك والصلاة عليك ودفنك، اُولئك رفقائى فى جنّة الخلد التى وعد المتّقون.

أبو ذر فى الربذة

وتحقّق كل ما قاله رسول اللّه (ص) فى حقّ أبى ذر، فقد سيّره عثمان إلى الربذة، فمات فيها ابنه (ذر) غريباً، حيث لم يكن مع أبى ذر

بالربذة أحد إلا امرأته وابنه ذر، وابنته ذرّة.

فلما مات ابنه ذر وقف على قبره وقال: رحمك اللّه ياذر، لقد كنت كريم الخلق، باراً بالوالدين، وما علىّ فى موتك من غضاضة، وما بى إلى غير اللّه حاجة، وقد شغلنى الإهتمام لك عن الإغتمام بك، ولولا هول المطلع لأحببت أن أكون مكانك، فليت شعرى ما قالوا لك وما قلت لهم؟

ثم رفع يده نحو السماء وقال: اللّهمّ انك فرضت لك عليه حقوقاً، وفرضت لى عليه حقوقاً، فإنى قد وهبت له ما فرضت لى عليه من حقوقى، فهب له ما فرضت عليه من حقوقك، فإنك أولى بالحق والكرم منّى.

وكانت لأبى ذر غنيمات يعيش هو وعياله منها، فأصابها داء فماتت كلها، فأصاب أباذر وأهله وابنته الجوع، فماتت أهله.

فقالت ابنته: أصابنا الجوع وبقينا ثلاثة أيام لم نأكل شيئاً، فقال لى أبى: يابنيّة قومى بنا إلى الرمل نطلب القتّ وهو نبت له حبّ، فصرنا إلى الرمل فلم نجد شيئاً، فجمع أبى رملاً ووضع رأسه عليه ورأيت عينه قد انقلبت فبكيت وقلت: ياأبة كيف أصنع بك وأنا وحيدة؟

فقال: يا بنتى لا ـ تخافى فإنى إذا متُّ جاءك من أهل العراق من يكفيك أمرى، فإنه أخبرنى حبيبى رسول اللّه (ص) فى غزوة تبوك فقال: (يا أبا ذر تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، وتدخل الجنّة وحدك، يسعد بك أقوام من أهل العراق، يتولّون غسلك وتجهيزك ودفنك) فإذا أنا متُّ فمدّى الكساء على وجهى، ثم اقعدى على طريق العراق، فإذا أقبل ركب فقومى إليهم وقولى: هذا أبو ذر صاحب رسول اللّه (ص) قد توفّى.

فلما عاين الموت قال: مرحباً بحبيب أتى على فاقة، لا أفلح من ندم، اللّهمّ خنّقنى خناقك، فوحقّك انك لتعلم انّى اُحب لقاءك.

فلما مات مددت الكساء عليه، ثم قعدت على طريق العراق، فجاء نفر فقلت لهم: يا معشر المسلمين هذا أبوذر صاحب رسول اللّه (ص) قد توفّى.

فنزلوا ومشوا يبكون، فجاءوا فغسّلوه وكفّنوه ودفنوه، وكان فيهم مالك الأشتر، فإنه قال: كفنته فى حلّة كانت معى قيمتها أربعة آلاف درهم.

ثم لما دفنوه وقف الأشتر على قبره وقال: اللّهمّ هذا أبو ذر صاحب رسول اللّه (ص) عَبَدَك فى العابدين، وجاهد فيك المشركين، لم يغيّر ولم يبدّل، لكنه رأى منكراً فغيّره بلسانه وقلبه حتى جفى ونفى وحرم واحتقر، ثم مات وحيداً غريباً، اللّهمّ فاقصم من حرمه، ونفاه من مهاجره وحرم رسولك (ص).

فقال من كان معه: آمين.

وقيل: انه لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة فأصابه بها قدَره لم يكن معه بها أحد إلاّ امرأته وغلامه. فأوصاهما أن غسّلانى وكفّنانى، ثم ضعانى على قارعة الطريق، فأول راكب يمرّ بكم فقولوا: هذا أبوذر صاحب رسول اللّه (ص)، فأعينونا على دفنه.

فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبداللّه بن مسعود ومالك الأشتر فى رهط من أهل العراق عماراً، فلم يرعهم إلا ـ بالجنازة على ظهر الطريق، فقام إليهم الغلام فقال: هذا أبوذر صاحب رسول اللّه (ص) فأعينونا على دفنه، فاستهل عبداللّه يبكى ويقول: صدق رسول اللّه (ص)، تمشى وحدك، وتموت وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدثهم عبداللّه بن مسعود حديثه وما قال له رسول اللّه (ص) فى مسيره إلى تبوك.

وقود جهنم

ومرّ رسول اللّه (ص) مع من كان معه فى طريقه إلى تبوك بجبل يرشح الماء من أعلاه إلى أسفله من غير سيلان، فتعجّب القوم منه وقالوا: ما أعجب رشح هذا الجبل؟

فقال لهم رسول اللّه (ص): انه يبكى، فازداد تعجّبهم وقالوا: والجبل يبكى؟!

قال (ص): نعم، أتحبّون أن تعلموا ذلك؟

قالوا بتلهّف واشتياق: نعم نحبّ ذلك.

فالتفت رسول اللّه (ص) إلى الجبل وقال له وكأنّه يكلّم إنساناً: ممّ بكاؤك أيّها الجبل؟

فأجابه الجبل وقد سمعه الجماعة بلسان فصيح: يا رسول اللّه، مرّ بى عيسى بن مريم وهو يتلو: (ناراً وقودها الناس والحجارة)(۴) فأنا أبكى من ذلك اليوم خوفاً أن أكون من تلك الحجارة.

فقال له رسول اللّه (ص): اسكن من بكائك، فإنّك لست منها، إنما تلك الحجارة الكبريت، فسكن الجبل وجفّ ذلك الرشح منه فى الوقت حتى لم ير شيء من ذلك الرشح، ومن تلك الرطوبة التى كانت بعد ذلك.

فى أرض تبوك

وقدم رسول اللّه (ص) تبوك فى شعبان يوم الثلاثاء، وأقام بقية شعبان وأياماً من شهر رمضان المبارك، فكان مدّة إقامته بها قريباً من شهرين، ولما نزل رسول اللّه (ص) ومن معه بتبوك، واختلفت الرسل بينه وبين ملك الروم، طالت فى ذلك أياماً حتى نفد الزاد والأكل، فشكوا نفاد زادهم إلى رسول اللّه (ص).

فقال (ص): من كان معه شيء من الدقيق،أو التمر،أو السويق، فليأتنى به.

فجاء أحد بكف دقيق، والآخر بكف تمر، والثالث بكف سويق، فبسط رداءه وجعل ذلك عليه ووضع يده الكريمة على كل واحد منها ثم قال: نادوا فى الناس: من أراد الزاد فليأت، فأقبل الناس يأخذون الدقيق، والتمر، والسويق، حتى ملأوا جميع ما كان معهم من الأوعية، وذلك الدقيق والتمر والسويق على حاله لم ينقص من واحد منها شيء.

مع صاحب أيلة

وأتى رسول اللّه (ص) وهو بتبوك يُحنة بن رؤبة، صاحب أيله، وأيله بالفتح مدينة على الشريط الحدودى لبلاد الشام فصالحه على الجزية، وكتب له رسول اللّه (ص) كتاباً بذلك واشترط عليهم قرى من مرّ بهم من المسلمين، والكتاب عندهم.

وكذلك كتب لأهل جرباء، وأهل أذرح، وأهل مقنا، كتب لكل منهم كتاباً مستقلاً وصالحهم على الجزية وهى أيضاً من البلاد الواقعة على الشريط الحدودى لبلاد الشام.

سرية أبى عبيدة إلى جذام

وبعث رسول اللّه (ص) وهو بتبوك أباعبيدة بن الجراح إلى جمع من جذام، مع واحد منهم يقال له: زنباع بن روح الجذامى، فأصاب منهم طرفاً، وأصاب منهم سبايا، وبذلك قضى على غائلتهم وأمن المسلمون جانبهم.

سرية سعد إلى بنى سليم

كما وبعث رسول اللّه (ص) وهو بتبوك أيضاً سعد بن عبادة إلى ناس من بنى سليم وجموع من بلّى، فلما قارب القوم وأحسّوا به ولّوا هاربين وأقلعوا من طغيانهم وتمرّدهم.

سرية خالد إلى الاكيدر

وبعث رسول اللّه (ص) أيضاً وهو بتبوك خالد بن الوليد فى أربعمائة وعشرين فارساً، وقيل: انه بعث الزبير وسماك بن خرشة فى

عشرین من المسلمین، إلی أکیدر بن عبدالملک من کندة، وکان ملکاً علیها، وکان نصرانیاً وحاکماً علی منطقة دومة الجندل، ودومة الجندل: حصن وقری بین الشام والمدینة قرب جبل طیء، ودومة هی من قریات من وادی القری، وذکر أنّ علیها حصناً حصیناً یقال له مارد وهو حصن أکیدر الملک.

وأکیدر هذا کان یهدّد رسول اللّه (ص) بأنه سیقصده ویقتل أصحابه ویبید خضراءهم، وکان المنافقون یهدّدون المسلمین بهم وبسطوهم علیهم.

ولذلک قال خالد: یا رسول اللّه کیف لی به وسط بلاد کلب وأنمار وما هو علیه من العدّة والعدد وأنا فی أُناس یسیر؟

فقال رسول اللّه (ص): لعلّ اللّه یکفیکه بصید البقر فتأخذه.

فخرج خالد ومن معه فلما بلغ قریباً من حصنه بمنظر للعین وکانت لیلة مقمرة صائفة وهو علی سطح له فی الحصن ومعه امرأتین له یشرب الخمر معهما، إذ أقبلت البقر تنتطح وتحک بقرونها باب الحصن، فأشرفت امرأتاه علی باب الحصن وقالتا لما رأتا البقر تحکّ بقرنها: هل رأیت مثل هذا قط؟

قال: لا واللّه.

قالتا: فمن یترک هذه اللیلة؟

قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه فأُسرج له ورکب معه نفر من أهل بیته ومعه أخوه حسّان، فخرجوا من حصنهم فطلبوها.

الاکیدر فی الأسر

فلما خرج الاکیدر ونفر معه یطلبون الصید، تلقّتهم خیل رسول اللّه (ص)، فاستأسر أکیدر وامتنع حسّان فقاتل فقتل، وهرب من کان معه ودخل الحصن، وأغلقوا الباب دونهم، وکان علی اکیدر قباء مخوَّص بالذهب، فقال: لی إلیکم حاجة.

فقالوا: وما هی؟

قال: تأخذون قبائی هذا مع سیفی ومنطقتی وتبعثون بها إلیه (ص)، ثم تحملوننی إلیه فی قمیصی لئلا یرانی فی هذا الزیّ، بل یرانی فی زیّ التواضع، فلعلّه أن یرحمنی.

ففعلوا ذلک، فلما وصل المبعوث بقباء اکیدر إلی رسول اللّه (ص) جعل المسلمون یلمسونه ویتعجّبون منه ویقولون: هذا من حلیّ الجنّة.

فقال رسول اللّه (ص): أتعجبون من هذا؟ لمندیل سعد بن معاذ فی الجنّة خیر من هذا.

قالوا: وذلک خیر من هذا؟

قال (ص): لخیط منه فی الجنّة أفضل من ملء الأرض إلی السماء مثل هذا الذهب.

ثم بعد أن بعث خالد بقباء اکیدر وسیفه ومنطقته إلی رسول اللّه (ص) أقبل بأکیدر وسار معه أصحابه إلی باب الحصن، حتی إذا وصله سألهم أن یفتحوه له، فأبوا.

فقال له اکیدر: أرسلنی أفتح الباب.

فأخذ علیه موثقاً وأرسله، فدخل وفتح الباب حتی دخل خالد وأصحابه، وأعطاه ثمانمائة رأس، وألفی بعیر، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وخمسمائة سیف.

فقبل ذلک منه وأقبل به إلی رسول اللّه (ص) فحقن (ص) دمه وصالحه علی الجزیة، وعلی أن یضیّفوا من مرّ بهم من المسلمین ثلاثة أیام، وأن یزوّدوهم إلی المرحلة التی تلیها، ثم خلّی سبیله بعد أن کتب له کتاباً بإمارته علی قومه.

عبداللّه ذو البجادين

قال عبـداللّه بن مسـعود: قمت فى جوف ليلـة من الليالى ونحن فى غزوة تبوك، فرأيت شـعلة من نار فى ناحيـة العسـكر، فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول اللّه (ص) وجماعة، وإذا (عبداللّه ذو البجادين) قد مات، وإذا هم قد حفروا له ورسول اللّه (ص) فى حفرته.

فلما هيّأه لشقه قال: اللّهمّ إنى أمسيت راضياً عنه فارض عنه، وكان يقول عبداللّه بن مسعود: ياليتنى كنت صاحب الحفرة.

وانمـا سـمى (ذو البجـادين) لأنـه كـان ينازع إلى الإسـلام فيمنعه قومه من ذلك ويضـيقون عليه حتى تركوه فى بجاد ليس عليه غيره، والبجـاد: الكسـاء الغليـظ، فهرب منهم إلى رسول اللّه (ص)، فلمـا كان قريباً منه شق بجاده بإثنتين فاتّزر بواحـدة واشـتمل بالاُخرى، ثم أتى رسول اللّه (ص) فقيل له (ذو البجادين).

المفاوضات وفوائدها

ثم انه كانت نتيجة اختلاف الرسل بين رسول اللّه (ص) وبين هرقل ملك الروم، أن بعث هرقل رجلًا من خاصته ومورد ثقته وكان من غسّان فجاء لينظر إلى رسول اللّه (ص) وصـفته وعلاماته، وإلى خاتم النبوّة بين كتفيه، وسأل فإذا هو لا يقبل الصدقـة، فوعى أشـياء من صفات النبى (ص) ثم انصرف إلى هرقل فذكرها له.

فـدعا هرقل قومه إلى التصـديق به، فأبوا عليه حتى خافهم على ملكه فتركهم، ولكنه امتنع من قتال النبى (ص)، وكان اللّه قـد أخبر نبيّه من قبل بأنه لا يحتاج فى هذه الغزوة إلى حرب، ولا يبتلى بقتال عدوّ، وان الاُمور تنقاد له بغير سـيف، وانه يرجع منها بامتحان أصـحابه واختبارهم.

ولـذلك عـاد رسول اللّه (ص) من غير قتـال، وذلك بعـد أن أرعب جانب العـدوّ الرومى، وأبرم معاهـدات مع البلاد الحدوديـة للشام وصالحهم على الجزيـة، وعلى عـدم التعرّض ممّا مهّـد الطريق بعـدها كما مهـدت حرب مؤتـة من قبل الطريق لفتح بلاد الشام ودخول الناس فى الإسلام.

وقيل: انه شاور رسول اللّه (ص) أصحابه فى التقدّم والمسير إليهم، فقال بعضهم: إن كنت أمرت بالمسير فسر.

فقال رسول اللّه (ص): لو أمرت ما استشرتكم فيه.

فقالوا: يا رسول اللّه إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحـد من أهل الإسـلام، وقد دنوت وأفزعهم دنوّك، لو رجعت هذه السـنة حتى ترى أو يحدث اللّه لك فى ذلك أمراً عظيماً. فانصرف رسول اللّه (ص) إلى المدينة، ولم يلق كيداً.

وكان فى الطريق ماء يخرج من وشل يروى الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له: (وادى المشـقق)، فقال رسول اللّه (ص): من سبقنا إلى المـاء فلاـ يسـقينّ منه شـيئاً حتى نأتيه، فسـبقه إليه نفر من المنافقين، فاسـتقوا ما فيه، فلما أتاه رسول اللّه(ص) وقف عليه فلم ير فيه شيئاً.

فقال (ص): من سبقنا إلى هذا؟

فقيل: يا رسول اللّه فلان وفلان.

فقال (ص): ألم أنهكم أن تستقوا منه شيئاً حتى آتيه؟

ثم نزل ووضع يـده تحت الوشـل، فجعل يصب فى يـده ما شاء اللّه أن يصب، ثم نضـحه به ومسـحه بيـده ودعا بما شاء اللّه أن يـدعو، فانخرق من الماء وإن له حساً كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه.

فقال رسول اللّه (ص): لئن بقيتم أو بقى منكم لتسمعنّ بهذا الطريق وقد أخصب ما بينه وما خلفه.

المتآمرون على النبى (ص) وخليفته (ع)

وفی مرجع رسول اللّه (ص) من تبوک، همّ المنافقون الذين كانوا مع رسول اللّه (ص) فی تبوک بالغدر به وذلک فی ليلة العقبة فعصمه اللّه منهم، كما وهمّ من بقی من مردة المنافقين بالمدينة فی مؤامرة مشتركة بقتل علی (ع)، فما قدروا على مغالبة ربّهم، وقد حملهم على ذلک حسدهم لرسول اللّه (ص) فی علی (ع).

فعن حذيفة قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول اللّه (ص) أقود به، وعمّار يسوق الناقة، ومرّة أنا أسوق وعمّار يقوده، حتى إذا كنّا بالعقبة، فإذا أنا بسبعة عشر راكباً قد اعترضوه فيها.

قال: فصرخ بهم رسول اللّه (ص) وجعل عليهم لعنة اللّه، فولّوا مدبرين.

فقال لنا رسول اللّه (ص): هل عرفتم القوم؟

قلنا: يا رسول اللّه قد كانوا متلثّمين، ولكن عرفناهم برواحلهم.

قال (ص): هؤلاء المنافقون إلی يوم القيامة، ثم قال (ص): هل تدرون ما أرادوا؟

قلنا: لا.

قال (ص): هذا جبرئيل نزل علیّ يخبرنی بأنهم أرادوا أن ينفروا بی فی العقبة فيقتلونی بها.

قلنا: يا رسول اللّه ألا تبعث لعشائرهم حتی يبعث إليک كل قوم برأس صاحبهم؟

قال (ص): لا، أكره أن تتحدّث العرب أنَّ محمداً قاتل بالقوم حتی إذا أظهره اللّه بهم أقبل عليهم يقتلهم.

ثم قال (ص): اللّهمّ ارمهم بالدبيلة.

قلنا: يا رسول اللّه وما الدبيلة؟

قال (ص): شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيورده النار وساءت مصيراً.

القرآن يفضح المتآمرين

ثم أخبر رسول اللّه (ص) حذيفة وعماراً بأسمائهم وأعدادهم، فكانوا اثنی عشر رجلًا من بنی اُمية، وخمسة من غيرهم، وكلهم من قريش، وما همّوا به، وأمرهما أن يكتما عليهم، وكان حذيفة يقال له: صاحب السرّ الذی لا يعلمه غيره.

وفيهم أنزل تعالى: (يحذر المنافقون أن تُنزَّل عليهم سورة تنبّئهم بما فی قلوبهم قل استهزئوا إنّ اللّه مخرج ما تحذرون ولئن سألتهم ليقولنّ انما كنا نخوض ونلعب قل أباللّه وآياته ورسوله كنتم تستهزئون).

إلی قوله تعالى: (وما لهم فی الأرض من ولیّ ولا نصير)(۵).

وذلک ان القرآن مازال ينزل بكلام المنافقين حتی تركوا الكلام واقتصروا بالحواجب يغمزون. فقال بعضهم: ما تأمنون أن تسمّوا فی القرآن فتفتضحوا أنتم وأعقابكم؟ هذه عقبة بين أيدينا لو رميناه منها لتقطع، فقعدوا على العقبة ويقال لها: عقبة ذی فتق، وائتمروا بينهم ليقتلوه.

فقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: انما كنا نخوض ونلعب، وإن لم يفطن لنقتلنّه، فحفظ اللّه رسوله من كيدهم، وأنزل فيهم تلک الآيات.

مع مسجد ضرار

ثم أقبل رسول اللّه (ص) من تبوک، فلمّا نزل بذی أوان وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، جاءه خبر أبی عامر ومسجد الضرار من السماء.

وكان من قصّة أبی عامر الراهب الذی سماه رسول اللّه (ص) بالفاسق لتآمره على الإسلام والمسلمين وتجسّسه عليهم انه كتب إلی مَن

كان فى المدينة من المنافقين كتاباً جاء فيه: ابنوا مسجدكم واستعدّوا بما استطعتم من قوّة ومن سلاح، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم، فأُخرج محمداً وأصحابه من المدينة.

فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا رسول اللّه (ص) فقالوا: إنّا فرغنا من بناء مسجدنا، وقد بنيناه لذى العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، فنحبّ أن تصلّى لنا فيه وتدعو بالبركة.

فقال رسول اللّه (ص): إنى على جناح سفر، وكان يتجهّز إلى تبوك.

فانصرفوا، حتى إذا قدم رسول اللّه (ص) من تبوك غانماً ظافراً، ونزل بذى أوان، أتوه ثانية وسألوه اتيان مسجدهم، فأنزل اللّه تعالى عليه: (والّذين اتّخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب اللّه ورسوله من قبل) إلى قوله سبحانه: (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطّع قلوبهم واللّه عليم حكيم)(۶).

فبعث إليه رسول اللّه (ص) بأمر من اللّه تعالى من يهدمه ويحرقه ويتّخذه كناسة تلقى فيه الجيف، ففعلوا ذلك، وتفرّق عنه أهله، وهم يتوقّعون مجىء أبى عامر، لكنه مات قبل أن يبلغ ملك الروم.

المتطهّرون والثناء عليهم

ولما كان فيما نزل على رسول اللّه (ص) بشأن مسجد ضرار وذمّه، ومدح مسجد قباء وأهله قوله تعالى: (لمسجد أُسّس على التقوى من أوّل يومٍ أحقّ أن تقوم فيه فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا واللّه يحبّ المطّهّرين)(۷).

قال رسول اللّه (ص) لأهل قباء: ماذا تفعلون فى طهركم، فإنّ اللّه تعالى قد أحسن الثناء عليكم؟

فقالوا: يا رسول اللّه إنا لا نكتفى بالإستنجاء بالأحجار، بل نغسل أثر الغائط ونتطهَّر منه ومن البول بالماء.

فقال رسول اللّه (ص): لقد أنزل اللّه تعالى فيكم: على رواية (واللّه يحبّ المطّهّرين).

وبهذا وأمثاله من التعليمات السماوية حافظ الإسلام على اُصول الصحّة، وأساس النظافة ورعاية آدابها بالنسبة إلى الفرد والمجتمع.

أول من يزوره الرسول (ص)

ثم انّ رسول اللّه (ص) قدم المدينة، وكان إذا قدم من سفر استقبل بالحسن والحسين (عليهما السلام) فأخذهما إليه وضمَّهما إلى صدره، وحفّ المسلمون به حتى يدخل أول ما يدخل على ابنته فاطمة الزهراء (ع) احتفاءاً بها، وتقديراً لها، وإظهاراً لما لها من الفضل عند اللّه تعالى ورسوله (ص)، والمسلمون يقعدون بالباب، فإذا خرج من عندها مشوا معه، فإذا دخل منزله تفرَّقوا عنه وودَّعوه إلى منازلهم.

هذه طابة

وعن أبى حميد الساعدى قال: أقبلنا مع رسول اللّه (ص) من غزوة تبوك، حتى إذا أشرفنا على المدينة، ألقى بنظرة إليها وقال (ص): هذه طابة، وهذا اُحد، جبل يحبّنا ونحبّه.

وفيه اشارة إلى مدح المدينة وأهلها وإلى بناء أمره على المحبّة والرحمة لكلّ شىء.

مع الشركاء الغائبين

ثم لما دنا رسول اللّه (ص) من المدينة التفت إلى أصحابه وقال: إنّ بالمدينة لأقواماً ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من وادٍ، إلا كانوا معكم فيه.

قالوا: يا رسول اللّه وهم بالمدينة؟

قال (ص): نعم، وهم بالمدينة حبسهم العذر.

وبهذا أشار رسول اللّه (ص) إلى انّ النية الحسنة لمن حبسه العذر الشرعی، لها الأثر الكبير فی تقرير مصير الإنسان وانّها تشرك أصحابها فی إحسان المحسنين، وتكسبهم من الأجر والثواب ما للمجاهدين عند اللّه من الأجر العظيم.

المتخلّفون عن تبوک

وقد تخلّف عن رسول اللّه (ص) قوم من المنافقين، وقوم من المؤمنين مستبصرين لم يعثر عليهم فی نفاق، منهم: كعب بن مالك الشاعر، ومرارة بن الربيع، وهلال بن اُمية الواقفی.

فلما تاب اللّه عليهم قال كعب: ما كنت قط أقوى منی فی ذلك الوقت الذی خرج رسول اللّه (ص) إلى تبوك، وما اجتمعت لی راحلتان قطّ إلّا فی ذلك اليوم، فكنت أقول: أخرج غداً، أخرج بعد غد، فإنّی القوی وتوانيت، وبقيت بعد خروج النبی (ص) أياماً أدخل السوق ولا أقضی حاجة، فلقيت هلال بن اُمية، ومرارة بن الربيع، وقد كانا تخلّفا أيضاً، فتوافقنا أن نبكّر إلى السوق، فلم تقض لنا حاجة، فما زلنا نقول: نخرج غداً وبعد غد، حتى بلغنا إقبال رسول اللّه (ص) فندمنا.

فلما وافی رسول اللّه (ص) استقبلناه نهنّيه بالسلامة، فسلّمنا عليه، فلم يردّ علينا السلام، وأعرض عنّا، وسلّمنا على إخواننا فلم يردّوا علينا السلام، فبلغ ذلك إلى أهلينا فقطعوا كلامهم معنا، وكنا نحضر المسجد فلا يسلّم علينا أحد ولا يكلّمنا.

قصة المتخلفين

وقيل: انّ كعب بن مالك قال: ما تخلّفت عن رسول اللّه (ص) فی غزوة غزاها قط، غير أنی كنت قد تخلّفت عنه فی غزوة بدر، وكان فی غزوة بدر لم يُعاقب أحد تخلّف عنها، وذلك أنّ رسول اللّه (ص) إنما خرج يريد عير قريش، فجمع اللّه بينه وبين عدوّه على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول اللّه (ص) العقبة، وما أحبّ أن لی بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر أذكر فی الناس منها، وكان من خبری حين تخلّفت عنه فی غزوة تبوك انی لم أكن قطّ أقوى ولا ـ أيسر منی حين تخلّفت منه تلك الغزوة، واللّه ما اجتمعت لی راحلتان قط حتى اجتمعتا فی تلك الغزوة، وكان رسول اللّه (ص) قلّ ما يريد غزوة يغزوها إلّا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول اللّه (ص) فی حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلا للناس أمرهم ليتأهّبوا لذلك أهبته، وأخبرهم بوجهه الذی يريده، والمسلمون مع رسول اللّه (ص) كثير.

قال: وغزا رسول اللّه (ص) تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وجعلت أغدو لأتجهّز معه فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول فی نفسی: أنا قادر على ذلك إن أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بی حتى شمر بالناس الجد، وأصبح رسول اللّه (ص) غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازی شيئاً.

فقلت: أتجهّز بعد يوم أو يومين ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهّز فرجعت فلم أقض شيئاً، ثم غدوت ورجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بی حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتنی فعلت ولم أفعل، وجعلت إذا خرجت فی الناس بعد خروج رسول اللّه (ص) فطفت فيهم يحزننی أن لا ـ أرى إلا ـ رجلاً ـ مغموصاً عليه بالنفاق، أو رجلاً ممن عذره اللّه من الضعفاء، ولم يذكرنی رسول اللّه (ص) حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فی القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟

فقال رجل من بنی سلمة: يا رسول اللّه حبسه برداه ونظره فی عطفيه.

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، واللّه يا رسول اللّه ما علمنا منه إلّا خيراً، فسكت رسول اللّه (ص).

فلما بلغنی أنّ رسول اللّه (ص) توجّه قافلاً حضرنی همّی وطفقت أُفكّر كيف أُقدّم عذری لرسول اللّه (ص) وأُوجّه له تخلّفی عنه، فلم

أر شيئاً أحسن من الصدق، فأجمعت أن أُصدقه.

قال: وأصبح رسول اللّه (ص) قادماً إلى المدينهٔ، وكان إذا قدم من سفر جاء إلى المسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعهٔ وثمانين رجلاً، فقبل رسول اللّه (ص) علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى اللّه، حتى جئت فسلّمت عليه، فلما سلمت عليه تبسّم تبسّم المغضب ثم قال (ص): تعال، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال (ص): ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟

فقلت: بلى يا رسول اللّه ولئن حدثتك حديث صدق تجد علىّ فيه إنى لأرجو فيه عفو اللّه، لا واللّه ما كان لى من عذر، وما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلّفت.

فقال رسول اللّه (ص): أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى اللّه فيك.

فقمت وسألت رجالاً من بنى سلمهٔ: هل لقى هذا معى أحد؟

قالوا: نعم رجلان قالوا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك.

فقلت: من هما؟

قالوا: مرارهٔ بن الربيع العامرى وهلال بن اُميهٔ الواقفى، فذكروا لى رجلين صالحين شهدا بدر فيهما اُسوهٔ، فمضيت حين ذكروهما لى، والتقيت بهما فكنتُ لهما ثالثاً.

هذا وكان قد نهى رسول اللّه (ص) المسلمين عن كلامنا فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف.

توبهٔ المخلّفين الثلاثهٔ

قال كعب: فلما رأينا ما حلّ بنا قلنا: ما يقعدنا بالمدينهٔ ولا يكلّمنا رسول اللّه (ص) ولا إخواننا، ولا أهلونا؟ فهلمّوا نخرج إلى هذا الجبل فنقيم فيه حتى يتوب اللّه علينا أو نموت.

فخرجوا إلى ذناب جبل بالمدينهٔ، فكانوا يصومون النهار ويحيون الليل، وكان أهلوهم يأتونهم بالطعام فيضعونه فى ناحيهٔ ثم يولّون عنهم ولا يكلّمونهم، فبقوا على هذه الحالهٔ أياماً كثيرهٔ يبكون بالليل والنهار، ويدعون اللّه أن يغفر لهم.

فلما طال عليهم الأمد قال لهم كعب: يا قوم قد سخط اللّه علينا، ورسوله قد سخط علينا، وإخواننا قد سخطوا علينا، وأهلونا قد سخطوا علينا، فلا يكلّمنا أحد، فلماذا لا يسخط بعضنا على بعض؟

فتفرّقوا فى الجبل وحلفوا أن لا يكلّم أحد صاحبه حتى يموت أو يتوب اللّه عليه، فبقوا على هذه الحالهٔ ثلاثهٔ أيام، كل واحد منهم فى ناحيهٔ من الجبل، لا يرى أحد منهم صاحبه ولا يكلّمه.

فلما كان فى الليلهٔ الثالثهٔ ورسول اللّه (ص) فى بيت اُمّ سلمهٔ، نزلت توبتهم على رسول اللّه (ص) لما عرف اللّه من صدق نيّاتهم، وأنزل فيهم: (وعلى الثلاثهٔ الّذين خلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أن لا ملجأ من اللّه إلاّ إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إنّ اللّه هو التوّاب الرّحيم)(۸).

فأصبح المسلمون يبتدرونهم ويبشّرونهم.

قال كعب: فجئتُ إلى رسول اللّه (ص) وهو فى المسجد، وكان إذا سرّ يستبشر كأن وجهه فلقهٔ قمر، فقال لى ووجهه يشرق سروراً: أبشر بخير يوم طلع عليك شرفه منذ ولدتك اُمّك.

قال كعب: فقلت له: أمن عند اللّه أم عندك يا رسول اللّه؟

فقال (ص): من عند اللّه. وتصدّق كعب بثلث ماله شكراً للّه على توبته.

وفى روايهٔ: انهم انطلقوا لما تاب اللّه عليهم فجاءوا بأموالهم إلى رسول اللّه (ص) وقالوا: يا رسول اللّه هذه أموالنا التى خلّفتنا عنك،

فخذها وتصدّق بها عنّا.

فقال (ص): ما اُمرت فيها بأمر، فنزل: (خذ من أموالهم صدقةً)(۹) الآيات.

المخلّفون وتوبتهم

وقيل: ان كعب بن مالك قال: لما نهى رسول اللّه (ص) عن كلامنا.. فما كلّمنا أحد حتى تسوّرت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحبّ الناس إلىّ، فسلّمت عليه، فواللّه ما ردّ علىّ السلام.

فقلت: يا أبا قتادة اُنشدك باللّه هل تعلمنى أحب اللّه ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته، فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: اللّه ورسوله أعلم، ففاضت عيناى وتولّيت حتى تسوّرت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلنى على كعب بن مالك؟

فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءنى دفع إلىَّ كتاباً من ملك غسّان، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه: (أما بعد فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك اللّه بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك).

فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فىَّ رجل من أهل الشرك، فتيممت بها التنور فسجرته بها.

حتى إذا مضت أيام وكملت خمسون ليلة آذن رسول اللّه (ص) بتوبة اللّه علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبى مبشّرون، فانطلقت إلى رسول اللّه (ص)، فتلقّانى الناس فوجاً فوجاً يهنّئونى بالتوبة ويقولون: ليهنك توبة اللّه عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول اللّه (ص) جالس وحوله الناس، فلما سلمت على رسول اللّه (ص)، قال رسول اللّه (ص) وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك اُمك.

قال: قلت: أمن عندك يا رسول اللّه أم من عند اللّه؟

قال (ص): لا، بل من عند اللّه، وكان رسول اللّه (ص) إذا سرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول اللّه إن من توبتى أن أتخلع من مالى صدقة إلى اللّه وإلى رسوله.

قال رسول اللّه (ص): أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك.

قلت: فإنى أمسكت سهمى الذى بخيبر، ثم قلت: يا رسول اللّه إنما نجانى اللّه بالصدق، وإن من توبتى أن لا اُحدث إلا صدقاً ما بقيت، فواللّه ما أعلم أحداً من المسلمين ابتلاه اللّه فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللّه (ص) أحسن مما ابتلانى، وما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول اللّه (ص) إلى يومى هذا كذباً، وإنى لأرجو أن يحفظنى اللّه فيما بقى.

۱ التوبة: ۴۹. ۲ التوبة: ۸۱ ۸۴. ۳ التوبة: ۹۱ ۹۲.

۴ التحريم: ۶. ۵ التوبة: ۶۴ ۷۴. ۶ التوبة: ۱۰۷ ۱۱۰.

۷ التوبة: ۱۰۸. ۸ التوبة: ۱۱۸. ۹ التوبة: ۱۰۳.

نزول سورة (براءة)

وفى سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة نزلت على رسول اللّه (ص) سورة براءة واُمر بإبلاغها على المشركين، فدفعها (ص) إلى أبى بكر لينبذ بها عهد المشركين، فلما سار غير بعيد نزل جبرئيل (ع) على رسول اللّه (ص) وقال: إن اللّه يقرئك السلام ويقول لك: لا يؤدّى عنك إلا أنت أو رجل منك.

فاستدعى رسول اللّه (ص) عليّاً (ع) وقال له: اركب ناقتى العضباء وألحق أبابكر، فخذ براءة من يده وامض بها إلى مكة وانبذ بها عهد

المشركين إليهم.

فركب على (ع) ناقة رسول اللّه (ص) العضباء وسار حتى لحق بأبى بكر وأخذ منه براءة، فرجع أبو بكر إلى المدينة، فلما دخل على رسول اللّه (ص) قال: يا رسول اللّه انك أهّلتنى لأمر طالت الأعناق إليه، فلما توجّهت له رددتنى عنه، مالى أنزل فىّ قرآن؟

فقال له رسول اللّه (ص): ان الأمين جبرئيل هبط إلىّ عن اللّه عزّ وجل يقول: بأنه لا يؤدّى عنك إلا أنت أو رجل منك، وعلى (ع) منّى، ولا يؤدّى عنى إلا على (ع).

ثم انّ علياً (ع) سار ببراءة حتى أذّن بها بعرفة والمزدلفة ويوم النحر عند الجمار، وفى أيام التشريق، فكان هو المؤذّن، أذّن بأذان اللّه ورسوله يوم الحجّ الأكبر فى المواقف كلها، وكان ما نادى به: ألا لا يطوف بالبيت بعد هذا العام عريان، ولا يقرب المسجد الحرام بعد هذا العام مشرك، ومن كان له عهد فإلى مدّته، ومن لم يكن له عهد فإلى أربعة أشهر، ويحتج بقوله تعالى: (براءة من اللّه ورسوله إلى الّذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر)(۱).

ولما دخل مكة اخترط سيفه وقال: واللّه لا يطوف بالبيت عريان إلا ضربته بالسيف، حتى ألبسهم الثياب فطافوا وعليهم الثياب، وكان الطواف بالبيت عرياناً مما قد تعارف فى الجاهلية، فاستساغوه مع ما عليه من القبح والهتك لحرم اللّه سبحانه وتعالى، ولذلك نزلت براءة بكل قاطعية ونفّذها على (ع) بلا تهاون حتى استطاع قلع الناس عنه.

كتاب ملوك حمير إليه (ص)

وعند رجوعه (ص) من تبوك سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة قدم عليه كتاب من ملوك حمير، وهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان بن قَيل ذى رعين وهمدان ومعافر مع رسولهم وفيه خبر إسلامهم، وبعث زرعة ذو يزن إلى رسول اللّه (ص) مالك بن مرة الرهاوى بإسلامه ومفارقتهم الشرك وأهله، وقد كان رسول اللّه (ص) فى مسيره إلى تبوك يقول: إنى بشرت بالكنزين فارس والروم، وأمددت بالملوك ملوك حمير يأكلون فى اللّه ويجاهدون فى سبيل اللّه، فلما قدم مالك بن مرة بإسلامهم كتب (ص) إليهم:

بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللّه النبى، إلى الحارث بن عبد كلال، وإلى نعيم بن عبد كلال، وإلى النعمان بن قَيل ذى رعين وهمدان ومعافر، أما بعد: فإنى أحمد إليكم اللّه الذى لا إله إلا هو، فإنه قد وقع بنا رسولكم عند منقلبنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة، فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قلتم وأنبأنا بإسلامكم، وأنّ اللّه قد هداكم بهداه، إن أصلحتم وأطعتم اللّه ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس اللّه وسهم النبى وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة وبيّن (ص) لهم صدقة الزرع والإبل والبقر والغنم..

ثم قال (ص): فمن زاد فهو خير له، ومن أدّى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وله ذمة اللّه ورسوله، وانه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإنّ له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على يهوديّته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو اُنثى حرّ أو عبد دينار وافٍ من قيمة المعافر أو عوضه ثياباً، فمن أدّى ذلك إلى رسول اللّه فإنّ له ذمّة اللّه وذمّة رسوله، ومن منعه فإنه عدوّ للّه ولرسوله.

وجاء فيما كتبه (ص) إلى زرعة: أما بعد: فإنّ محمداً النبى أرسل إلى زرعة ذى يزن أن إذا أتاكم رسلى فاُوصيكم بهم خيراً: معاذ بن جبل وعبداللّه بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم، وإن جمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم فأبلغوها رسلى، وان أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبنّ إلا راضياً.

وجاء فيما كتبه (ص) إليه أيضاً: أما بعد: فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا اللّه وأنه عبده ورسوله. ثم ان مالك بن مرة الرهاوى قد حدثنى أنك قد أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين، فأبشر بخير، وآمرك بحمير خيراً، ولا تخونوا ولا تخاذلوا، فإنّ رسول اللّه هو

مولی غنیکم وفقیرکم، وإن الصدقة لا تحلّ لمحمد ولا لأهل بیته، انما هی زکاة یزکی بها علی الفقراء والمساکین وابن السبیل، وإنّ مالکاً قد بلغ الخبر وحفظ الغیب وآمرکم به خیراً، وإنی قد أرسلت إلیکم من صالحی أهلی، وأولی دینهم وأولی عملهم، وآمرکم بهم خیراً فإنه منظور إلیهم، والسلام علیکم ورحمة اللّه وبرکاته.

سریة خالد إلی نجران

ثم انه لما فتح رسول اللّه (ص) مکة وانقادت له العرب، وأرسل رسله إلی الاُمم، وکاتب کسری وقیصر یدعوهما إلی الإسلام، أکبر شأنه نصاری نجران وخلطاؤهم علی اختلافهم فی دین النصرانیة، من المارونیة، والنسطوریة، والملکائیة، وغیرها، وامتلأت قلوبهم علی تفاوت منازلهم رهبةً ورعباً، وانهم کذلک إذ وردت علیهم رسل رسول اللّه (ص) بکتابه یدعوهم إلی الإسلام، فازداد القوم لذلک قلقاً واضطراباً واجتمعوا فی أعظم کنائسهم للمشورة.

فقام رؤساء القوم وکبارهم ومن کانوا یرون سیادتهم علی الناس فی بقاء نصرانیتهم، فأشاروا علیهم بعدم الإستجابة وعدم الرضوخ والجزیة، والإستمداد من الروم والإستعداد للحرب والزحف علی المدینة.

وقام آخرون من ذوی العقل والإنصاف، وأشاروا علیهم بدراسة ما أوحی اللّه عزّوجل إلی المسیح من نعت محمد رسول اللّه (ص) وصفته وملک اُمته وذکر ذرّیته وأهل بیته (علیهم السلام).

وحضر نفر من أصحاب رسول اللّه (ص) شورهم بطلب من بعض رؤسائهم، فلما قُریء علی القوم ما أوحی اللّه عزّوجل إلی المسیح من نعت محمد رسول اللّه (ص) انحاز القوم إلی رأی ذوی العقل والإنصاف وسألوهم ما یعملون؟

فقالوا لهم: تمسّکوا بدینکم حتی نسیر إلی المدینة وننظر ما جاء به وما یدعو إلیه، ثم توجّهوا فیما یقرب من مائة شخص إلی المدینة.

وهنا لما أبطأ الأصحاب واستراث رسول اللّه (ص) خبر أصحابه أنفذ إلیهم خالد بن الولید فی خیل سرحها معه لمشارفة أمرهم، فألفوهم وهم متوجّهون إلی المدینة، فرجعوا معهم إلی المدینة.

اضطراب نصاری نجران

وقیل: انما تحرک وفد نصاری نجران إلی المدینة لأنّ رسول اللّه (ص) کتب إلی أهل نجران: باسم إله إبراهیم وإسحاق ویعقوب، أما بعد: فإنی أدعوکم إلی عبادة اللّه من عبادة العباد، وأدعوکم إلی ولایة اللّه من ولایة العباد، فإن أبیتم فالجزیة، فإن أبیتم فقد آذنتکم بحرب الإسلام.

فلما أتی إلی الاُسقف الکتاب فقرأه قطع به وذعر ذعراً شدیداً، فبعث به إلی رجل من أهل نجران یقال له شرحبیل بن وداعة، وکان من أهل همدان، ولم یکن أحد یدعی إذا نزلت معضلة قبله، لا الأیهم ولا السید ولا العاقب، فدفع إلیه الاُسقف کتاب رسول اللّه (ص) فقرأه.

فقال الاُسقف: یا أبا مریم ما رأیک؟

فقال شرحبیل: قد علمت ما وعد اللّه إبراهیم فی ذرّیة اسماعیل من النبوّة، رأیی لو کان من أمر الدنیا أشرت علیک فیه برأی وجهدت لک فیه.

فقال الاُسقف: تنحَ فاجلس، ثم دعا الاُسقف رجلاً آخر منهم، یقال له: عبداللّه بن شرحبیل وهو من ذی أصبح، فقال مثل قول شرحبیل، فبعث إلی آخر، یقال له: جبار بن فیض من بنی الحارث بن کعب، فقال له مثل قول شرحبیل وعبداللّه.

فلما اجتمع الرأی علی تلک المقالة جمیعاً أمر الاُسقف بالناقوس فضرب به ورفعت المسوح فی الصوامع، وکذلک کانوا یفعلون إذا نزل أمر بالنهار، وإذا فزعهم لیلاً ضربوا بالناقوس ورفعت النیران فی الصوامع، فاجتمع أهل الوادی أعلاه وأسفله، وطول الوادی مسیرة

يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية ومائة ألف وعشرون مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول اللّه (ص) وسألهم عن الرأى فيه، فاجتمع رأى أهل الوادى منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمدانى وعبداللّه بن شرحبيل وجبار بن قيس الحارثى فيأتونهم بخبر رسول اللّه(ص).

نصارى نجران فى المدينة

فلما قدم نصارى نجران المدينة وفدوا على رسول اللّه (ص) وهم على قول ستّون راكباً، منهم أربعة وعشرون رجلًا من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر يؤوّل إليهم أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، واسمه عبدالمسيح، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة ابن علقمة أخو بكر بن وائل اُسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومؤلوه وخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم.

فلما توجهوا إلى رسول اللّه (ص) من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له متوجّهاً إلى رسول اللّه (ص)، وإلى جنبه أخ له يقال له: كرز بن علقمة يسايره، إذ عثرت بغلة أبى حارثة، فقال له كرز: تعس الأبعد.

فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست.

فقال: ولِمَ يا أخى؟

قال: واللّه إنه للنبىّ الاُمىّ الذى ينتظرونه.

فقال له كرز: فما يمنعك وأنت تعلم هذا؟

فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا ومؤلونا وكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا عنا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلک.

فحضرت صلاتهم وهم فى المسجد، فأقبلوا يضربون بالناقوس وقاموا لصلاتهم.

فقال أصحاب رسول اللّه (ص): يا رسول اللّه هذا فى مسجدک؟

فقال (ص): دعوهم.

فلما فرغوا دنوا من رسول اللّه (ص) وقالوا: إلى ما تدعو؟

قال (ص): إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه، وانى رسول اللّه، وانّ عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث.

قالوا: فمن أبوه؟

فنزل الوحى على رسول اللّه (ص) فقال: قل لهم: ما تقولون فى آدم؟ أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب، ويحدث وينكح؟ فسألهم رسول اللّه (ص) ذلک.

فقالوا: نعم.

فقال: من أبوه؟

فبهتوا وبقوا ساكتين لا يحيرون جواباً.

فأنزل اللّه تعالى: (إنَّ مثل عيسى عند اللّه كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون الحقّ من ربّک فلا تكن من الممترين فمن حاجَّک فيه من بعد ما جاءک من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة اللّه على الكاذبين)(۲).

المباهلة: الحل الأخير

ولما نزلت هـذه الآيات وأمر اللّه فيها رسوله (ص) بأن يباهل نصارى نجران، دعاهم رسول اللّه (ص) إلى أن يباهلوه، وذلك لأنهم قد افحموا فى مناظرتهم، ووقفوا على خطأهم، غير ان تعصبهم لم يسمح لهم بأن يذعنوا للحق الذى عرفوه فى قرارة أنفسهم، ولم يبق سوى أن يروا الحق بأُم أعينهم، وذلك بالإبتهال إلى اللّه تعالى فى أن ينزل عذابه على المبطل منهما.
ولذلك قال لهم رسول اللّه (ص): باهلونى، فإن كنت صادقاً نزلت اللعنة عليكم، وإن كنت كاذباً نزلت علىّ، وحيث لم ير نصارى نجران لأنفسهم طريقاً غير ذلك، ولم يشهدوا مناصفة كهذه قالوا: أنصفت، ثم تواعدوا للمباهلة.

تزلزل النصارى

ومن الواضح: انه لا يتجرّأ أحد على أن يدعو أحداً للمباهلة إلاّ وهو على يقين من حقانيته، ولذلك لما دعى رسول اللّه (ص) نصارى نجران للمباهلة، وتواعدوا لها، اُوجسوا فى أنفسهم خيفة.
فلما رجعوا إلى منازلهم قال رؤساؤهم: السيد والعاقب والأهتم: انه لو لم يكن نبياً حقاً لما دعانا إلى المباهلة، ثم جعلوا لذلك علامة وقالوا: إن باهلنا بقومه باهلناه، فإنه ليس بنبىّ، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة فلا نباهله، فإنه لا يقدم على أهل بيته إلا وهو صادق.

تفسير عملى لآية المباهلة

فلما أصبح الصباح من اليوم الرابع والعشرين من شهر ذى الحجّة من السنة التاسعة للهجرة النبوية المباركة خرج نصارى نجران إلى موعدهم، وخرج رسول اللّه (ص) آخذاً بيد على (ع)، والحسن والحسين (ع) بين يديه، وفاطمة (ع) تتبعه، وهو (ص) يقول: هؤلاء أبناؤنا: الحسن والحسين، وهذه نساؤنا: فاطمة(۳) وهذا أنفسنا: على.
وقد سأل النصارى عنهم وقالوا: من هؤلاء؟
فقيل لهم: هذا ابن عمه ووصيّه وختنه على بن أبى طالب (ع)، وهذه ابنته فاطمة (ع)، وهذان ابناه الحسن والحسين (ع).
وتقدّم رسول اللّه (ص) بهم فجثا لركبتيه وجعل علياً (ع) بين يديه، وفاطمة بين كتفيه، والحسن (ع) عن يمينه، والحسين (ع) عن يساره وقال (ص): إذا دعوتُ فأمّنوا، ورفع كفّه إلى السماء وفرّج بين أصابعه ودعاهم إلى المباهلة.
فلما رأى ذلك اُسقفهم عبدالمسيح بن نونان قال: جثا واللّه محمد كما تجثوا الأنبياء للمباهلة، وانى أرى وجوهاً لو دعت اللّه سبحانه لاستجاب.
وقال شرحبيل: إن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعنّاه لا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك.
فقال له صاحباه: فما الرأى؟
فقال: رأيى أن أحكمه، فإنى أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً.
فتآمروا فيما بينهم، وقالوا: واللّه إنه لنبىّ، ولئن باهلنا ليستجيبنّ اللّه له فيهلكنا، ولا ينجينا شىء منه إلا أن نستقيله، فأقبلوا وقالوا لرسول اللّه (ص): نعطيك الرضا فاعفنا عن المباهلة وأقلنا.

وثيقة صلح نجران

فرجع رسول اللّه (ص) ولم يلاعنهم، فصالحهم على الجزية وأقالهم وكتب لهم هذا الكتاب:
(بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبى رسول اللّه (ص) لنجران، إذا كان عليهم حكمه: فى كل ثمرة وفى كل صفراء

وبيضاء وسوداء ورقيق فافضل عليهم وترك ذلك كله على ألفى حلة، فى كل رجب ألف حلة، وكل صفر ألف حلة، وكل حلة أوقية ما زادت على الخرج أو نقصت عن الأواقى فبحساب، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم بحساب، وعلى نجران مثواة رسلى ومنعهم من عشرين فدونه، ولايحبس رسول فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ذو معذرة، وما هلك مما أعاروا رسولى من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسولى حتى يؤدّيه إليهم، ولنجران وحِشْيتها جوار اللّه وذمّة النبىّ على أنفسهم وسكنهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم، وأن لا يغيروا مما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملّتهم، ولا يغير اُسقف من أساقفتهم، ولا راهب من رهبانيتهم، ولا رقة من رقيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم دية ولا ـ دم جاهلية ولا ـ يخسرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل فيهم فيسهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا فذمّتى منه بريئة، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر، وعلى ما فى هذه الصحيفة بجوار اللّه وذمّة محمد رسول اللّه حتى يأتى اللّه بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مبتلين بظلم).

ثم قال لهم رسول اللّه (ص): أما والذى بعثنى بالحق لو باهلتكم بمن معى من أهل بيتى ما ترك اللّه على ظهر الأرض نصرانياً إلا أهلكه، ولأضرم اللّه عليكم الوادى ناراً تأجج، ثم ساقها إلى من وراءكم فى أسرع من طرفة العين فحرّقتهم تأجّجاً.

فهبط عليه (ص) جبرئيل وقال له: ان اللّه يقرؤك السلام ويقول لك: وعزّتى وجلالى وارتفاع مكانى، لو باهلت بهؤلاء الذين معك من أهل بيتك أهلَ السماء وأهل الأرض لتساقطت عليهم السماء كسفاً متهافتة، ولتقطّعت الأرضون زبراً سايحة، فلم تستقر عليها بعد ذلك.

عندها رفع رسول اللّه (ص) يديه إلى السماء وعيناه ترمقان إلى على وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وقال: على من ظلمكم حقكم وبخسنى الأجر الذى افترضه اللّه عليهم فيكم بهلة اللّه تتابع إلى يوم القيامة.

آية المباهلة: وسام من اللّه تعالى

عن على (ع) قال: خرج رسول اللّه (ص) حين خرج لمباهلة النصارى بى وبفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام).

وعن مجاهد قال: قلت لابن عباس: من الذين أراد رسول اللّه (ص) أن يباهل بهم؟

قال: على وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) والأنفس: النبى (ص) وعلى(ع)..

وعن الشعبى قال: قال جابر: (أنفسنا وأنفسكم): رسول اللّه (ص) وعلى(ع)، و(أبناءنا): الحسن والحسين (ع)، و(نساءنا): فاطمة (ع).

وعن سعد بن أبى وقاص انه قال: لما نزل قوله تعالى: (قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم)(۴) دعا رسول اللّه (ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وقال: اللّهمّ هؤلاء أهلى.

وإلى غير ذلك ممّا يدلّ على انّ آية المباهلة وسام من اللّه تبارك وتعالى منحه وخصّه برسوله (ص) وأهل بيته (عليهم السلام) دون سائر خلقه.

سرية البجلى

وفى هذه السنة سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة بعث رسول اللّه (ص) جرير بن عبداللّه البجلى إلى تخريب (ذى الخلصة) وهو صنم كان لقبائل من العرب.

وبعث (ص) أيضاً إلى ذى الكلاع فأسلم وأسلمت امرأته خزيمة بنت أبرهة بن الصباح، واسم ذى الكلاع سميفع، وقيل: انه كان قد استعلى أمره حتى ادعى الربوبية.

مع عمرو بن معدى كرب

لما عاد رسول اللّه (ص) من تبوك إلى المدينة قدم إليه عمرو بن معدى كرب وهو من بنى زبيد، ومن الشعراء الفرسان فى الجاهلية: وذلك أوائل السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة، فقال له رسول اللّه (ص): أسلم يا عمرو يؤمنك اللّه من الفزع الأكبر.

قال: وما الفزع الأكبر فإنى لا أفزع؟!

قال (ص): يا عمرو، انه ليس كما تظنّ وتحسب، ان الناس يصاح بهم صيحة واحدة، فلا يبقى ميّت إلا نشر، ولا حىّ إلّا مات، إلّا ما شاء اللّه، ثم يصاح بهم صيحة اُخرى، فينشر من مات، ويصفّون جميعاً، وتنشقّ السماء وتهدّ الأرض، وتخرّ الجبال هدّاً، وترمى النار بمثل الجبال شرراً، فلا يبقى ذو روح إلا انخلع قلبه، وذكر ذنبه، وشغل بنفسه، إلا من شاء اللّه، فأين أنت يا عمرو من هذا؟

قال عمرو: ألا إنى أسمع أمراً عظيماً، فآمن باللّه ورسوله وآمن معه من قومه ناس ورجعوا إلى قومهم، ثم ان عمرو بن معدى كرب نظر إلى قاتل أبيه فأخذ برقبته ثم جاء به إلى رسول اللّه (ص) وقال: أعنّى على هذا الفاجر الذى قتل والدى.

فقال له رسول اللّه (ص) بعد أن أمره بإطلاق سراحه: أهدر الإسلام ما كان فى الجاهلية، فاغتاظ عمرو من ذلك وانصرف مرتدّاً، وفى طريقه أغار على قوم من بنى الحارث بن كعب ثم مضى إلى قومه.

سريتان متزامنتان

فلما بلغ ذلك رسول اللّه (ص) استدعى علياً (ع) وأمّره على المهاجرين وأنفذه إلى بنى زبيد، وأرسل خالد بن الوليد فى الأعراب وأمره أن يعمد إلى جعفى بطن من مذحج فإذا التقيا فأمير الناس على (ع).

فسار على (ع) واستعمل على مقدّمته خالد بن سعيد بن العاص، واستعمل خالد على مقدمته أباموسى الأشعرى، فأما جعفى فإنها لما سمعت بالجيش افترقت فرقتين: فرقة ذهبت إلى اليمن، وفرقة انضمّت إلى بنى زبيد.

فبلغ ذلك علياً (ع) فكتب إلى خالد بن الوليد: ان قف حيث أدرككك رسولى، فلم يقف، فكتب (ع) إلى خالد بن سعيد بن العاص: بأن يتعرّض له حتى يحبسه، وأدركه على (ع)، ثم سار حتى لقى بنى زيد بواد يقال له: كِسر.

فلما رآه بنو زيد قالوا لعمرو: كيف أنت إذا لقيك هذا الغلام القرشى فأخذ منك الاتاوة؟

قال عمرو: سيعلم ان لقينى، فخرج عمرو يطلب مبارزاً.

فنهض إليه على (ع) وقام خالد بن سعيد وقال: يا أبا الحسن بأبى أنت واُمّى دعنى اُبارزه.

فقال له على (ع): إن كنت ترى انّ لى عليك طاعة فقف مكانك، فوقف.

ثم برز (ع) إليه فصاح به صيحة، فانهزم عمرو مولّياً، ولكن ثبت أخوه وابن أخيه فقتلا، وأخذت امرأته ركانة بنت سلامة وسبيت نساء منهم.

ثم انصرف على (ع) وخلّف على بنى زبيد خالد بن سعيد ليقبض صدقاتهم، ويؤمّن من عاد إليه من هرابهم مسلماً، فرجع عمرو بن معدى كرب واستأذن على خالد بن سعيد، فأذن له فعاد إلى الإسلام، فكلّمه فى امرأته وولده فوهبهم له، وكان لعمرو سيف يسمّيه: الصمصامة، فلما وهب خالد بن سعيد لعمرو امرأته وولده وهب له عمرو الصمصامة.

سريتان إلى اليمن

ثم ان رسول اللّه (ص) بعث خالد بن الوليد فى السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة، وذلك بعد قصة عمرو بن معدى كرب إلى أهل اليمن ليدعوهم إلى الإسلام، وأنفذ معه جماعة من المسلمين فيهم البراء بن عازب.

فلما وصلها أقام على القوم ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجبه أحد.

فدعا رسول اللّه (ص) علياً (ع) وأمره أن يسير إلى اليمن وأن يقفل خالداً ومن معه، وقال له: إن أراد أحد ممن مع خالد أن يعقب معك فاتركه.

قال البراء بن عازب: فكنت ممن عقب معه، فلما بلغ القوم الخبر تجمعوا له، فصلّى بنا على بن أبى طالب (ع) الفجر، ثم تقدّم بين أيدينا فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قرأ على القوم كتاب رسول اللّه (ص) إليهم، فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد، وكتب بذلك على (ع) إلى رسول اللّه (ص).

فلما وصله كتاب على (ع) وقرىء عليه استبشر وابتهج وخرّ ساجداً شكراً للّه تعالى، ثم رفع رأسه وجلس وقال: السلام على همدان، ثم تتابع بعد إسلام همدان أهل اليمن على قبول الإسلام والدخول فيه.

من تعليمات السماء

قال على (ع): بعثنى رسول اللّه (ص) إلى اليمن وقال لى: يا على لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم اللّه لئن يهدى اللّه على يديك رجلًا واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت.

قال (ع): فقلت: يا رسول اللّه تبعثنى وأنا شاب أقضى بينهم؟

فضرب رسول اللّه (ص) بيده فى صدرى وقال: (اللّهمّ اهدِ قلبه، وثبّت لسانه) فوالّذى نفسى بيده ما شككت فى قضاء بين اثنين.

ثم أوصاه وقال له: يا على اُوصيك بالدعاء، فإن معه الإجابة، وبالشكر، فإن معه المزيد، وإياك أن تخفر عهداً وتعين عليه، وأنهاك عن المكر، فإنه لا يحيق المكر السيّئ إلا بأهله، وأنهاك عن البغى، فإنه من بغى عليه لينصرنّه اللّه.

أذى على (ع) أذى رسول اللّه (ص)

وروى عن الفريقين، عن عمرو بن شاس الأسلمى انه قال: كنت مع على ابن أبى طالب (ع) فى خيله إلى اليمن، فلحقنى من على (ع) أمر حسبته جفاءاً منه، فوجدت عليه فى نفسى، فلما قدمت المدينة اشتكيته عند من لقيته من أصحابى.

فوصل ذلك إلى رسول اللّه (ص) فأقبلت يوماً ورسول اللّه (ص) جالس فى المسجد، فنظر إلىّ حتى جلست إليه، فقال (ص): يا عمرو بن شاس لقد آذيتنى.

فقلت: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، أعوذ باللّه أن أكون قد آذيت رسول اللّه.

فقال (ص): (من آذى علياً فقد آذانى)(۵).

سرية اُسامة بن زيد

وكانت هذه آخر سرية بعثها رسول اللّه (ص) فى اُخريات أيامه، وسيأتى ذكرها(۶).

۱ التوبة: ۱ ۲. ۲ آل عمران: ۵۹ ۶۱.

۳ هذا وله (ص) يومئذ عدة نسوة لم يأتِ بإحداهنّ. ۴ آل عمران: ۶۱.

۵ راجع بحار الأنوار: ج۲۱ ص۳۶۰ ب۳۴ ح۱، وبحار الأنوار: ج۳۹ ص۲۳۲ ب۸۹ ح۱.

۶ راجع الفصل الأخير من الكتاب.

عام الرُّسُل والوفود

ولما فتح رسول اللّه (ص) مكة فى السنة الثامنة من الهجرة النبوية المباركة، ودانت له قريش، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف، وكذا عاد على بن أبى طالب(ع) من إعلان البراءة فى موسم الحج فى السنة التاسعة من الهجرة النبوية المباركة، أقبلت وفود القبائل العربية من شتى أنحاء الجزيرة تترى على المدينة.

كما وبعث رسول اللّه (ص) رسله إلى الآفاق فى السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة، فكانت الرسل والوفود بين فتح مكة وارتحاله (ص)، كما كانت مراسلاته ومكاتباته مع الملوك والرؤساء بعد صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة النبوية المباركة حتى ارتحاله (ص) أيضاً، وحيث كانت الوفود مستمرة حتى زمن ارتحاله (ص)، لذلك قال (ص) فى وصاياه: (أجيزوا الوفد).

وفد هوازن وثقيف

وكان ممن قدم عليه (ص): وفد هوازن، وقد مرّ ذكرهم، ووفد ثقيف، وذلك انه قدم على رسول اللّه (ص) عروة بن مسعود الثقفى مسلماً، ثم استأذن رسول اللّه (ص) فى الرجوع إلى قومه وإنذارهم، فقال (ص): إنى أخاف أن يقتلوك.

فقال: إنهم إن وجدونى نائماً ما أيقظونى، إشفاقاً منهم علىَّ.

فأذن له رسول اللّه (ص) فرجع إلى الطائف ودعاهم إلى الإسلام ونصح لهم، فعصوه، وأسمعوه الأذى، حتى إذا طلع الفجر قام فى غرفة من داره فأذّن وتشهّد، فرماه رجل بسهم فقتله.

ثم أقبل بعد ذلك وفد ثقيف بضعة عشر رجلًا هم من أشراف ثقيف، فأسلموا وذلك فى قصّة مفصّلة مرّ تفصيلها، ثم دعوا قومهم ثقيف إلى الإسلام، فأسلموا.

فلما أسلمت ثقيف، ضربت إلى رسول اللّه (ص) وفود العرب، فدخلوا فى دين اللّه أفواجاً، كما قال اللّه سبحانه فى سورة النصر:

(بسم اللّه الرحمن الرحيم إذا جاء نصر اللّه والفتح ورأيتَ الناس يدخلون فى دين اللّه أفواجا فسبِّح بحمد ربِّك واستغفره إنَّه كان توّاباً)(۱).

وفد بنى تميم

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى تميم فى جماعة من أشرافهم، منهم: الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، وعيينة بن حصن الفزارى، وعمرو بن الأهتم، وعلى رأسهم: عطارد بن حاجب بن زرارة، وكان الأقرع وعيينة شهدا مع رسول اللّه (ص) فتح مكة وحنيناً والطائف، فلما قدم وفد تميم دخلا معهم، فأجارهم رسول اللّه (ص) وأحسن جوارهم.

وفد بنى عامر

وممّن قدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى عامر بن صعصعة، وفيهم: عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس أخو لبيد بن ربيعة الشاعر لأُمه، وكان عامر وأربد يريدان أن يغدرا برسول اللّه (ص)، فقيل: يا رسول اللّه هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك.

فقال رسول اللّه (ص): دعوه، إن يرد اللّه به خيراً يهده.

فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد ما لى إن أسلمت؟

قال (ص): لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم.

فقال: تجعل الأمر لى بعدك؟

قال (ص): ليس ذلك إلىّ، إنما ذلك إلى اللّه يجعله حيث يشاء.

قال: فاجعلنى على الوبر وأنت على المدر.

قال (ص): لا.

قال: فماذا تجعل لی؟

قال (ص): أجعل لک أعنة الخیل تغزو علیها.

قال: ولیس ذلک إلیّ الیوم؟

وقیل: انه لما قدموا علیه قال عامر: یا محمد خالّنی.

فقال (ص): لا، حتّی تؤمن باللّه وحده، قالها مرّتین.

فلما أبی علیه قال عامر: واللّه لأملأنّها علیک خیلًا جرداً ورجالاً مرداً.

وکان عامر قد قال لأربد: إذا قدمنا علی الرجل فأنا شاغل عنک وجهه، فإذا رأیتنی أُکلمه فدر من خلفه فاضربه بالسیف. فدار أربد لیضربه، فاخترط من سیفه شبراً، فحبس اللّه یده، فلم یقدر علی ذلک، فالتفت رسول اللّه (ص) فرأی أربد وما یصنع بسیفه..

فلما ولّی قال رسول اللّه (ص): اللّهمّ اکفنی عامر بن الطفیل وأربد بن قیس، اللّهمّ اکفنیهما بما شئت.

فلما خرجوا من عند رسول اللّه (ص) قال عامر لأربد: أین ما أمرتک به؟

قال: ویحک واللّه ما هممت بالذی أمرتنی به إلا وحلتَ بینی وبینه، أفأضربک بالسیف؟

فأرسل اللّه علی أربد وجمله صاعقة فأحرقتهما. وقیل: وأنزل اللّه عزّوجل: (ویرسل الصواعق فیصیب بها من یشاء)(۲).

وفی روایة: قال عامر: واللّه لأربطن بکل نخلة فرساً.

فقال رسول اللّه (ص): یمنعک اللّه من ذلک وأبناء قیلة، یعنی الأوس والخزرج.

وبعث اللّه علی عامر بن الطفیل فی طریقه ذلک الطاعون فی عنقه فقتله فی بیت امرأة من سلول، وکان رسول اللّه (ص) قد قال فی عامر وأربد: اللّهمّ أبدلنی بهما فارسی العرب، فقدم علیه زید بن مهلل الطائی، وهو زید الخیل الذی سماه رسول اللّه (ص) زید الخیر، وعمرو بن معدی کرب الذی مرّ ذکره.

وفد طی

وقدم وفد طی علی النبی (ص) وفیهم زید الخیل وهو سیّدهم، وعدیّ بن حاتم، فلما انتهوا إلیه (ص) کلمهم وعرض علیهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال (ص): ما ذکر لی رجل من العرب بفضل، ثم جاءنی إلا رأیته دون مایقال فیه، إلا زید الخیل فإنه لم یبلغ کل ما فیه، ثم سماه (زید الخیر).

فلما خرج زید من عند رسول اللّه (ص) راجعاً إلی المدینة قال رسول اللّه(ص): إن ینج زید من حمی المدینة، فلما انتهی إلی ماء من میاه نجد یقال له فردة أصابته الحمی فمات بها.

وفد زبید

وقدم وفد بنی زبید علی رسول اللّه (ص) فی المدینة، وفیهم: عمرو بن معدی کرب، وقد مرّت قصته عند ذکر إسلامه فیما سبق.

وقیل: انه قتل فی قتال الفرس.

وفد عبدالقیس

وقدم وفد عبدالقیس علی رسول اللّه (ص) وهی قبیلة کبیرة ینسبون إلی عبدالقیس بن أفعمی بن دعمی بن جدیلة بن أسد بن ربیعة بن نزار، فقال رسول اللّه(ص): ممن القوم؟

قالوا: من ربيعة.

قال (ص): مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى.

فقالوا: يا رسول اللّه إنّ بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا فى شهر حرام، فمرنا بأمر فصل نأخذ به من ورائنا وندخل به الجنّة.

فقال (ص): آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان باللّه وحده، أتدرون ما الإيمان باللّه؟ شهادة أن لا إله إلا اللّه وأنّ محمداً رسول اللّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس، وأنهاكم عن أربع: الدبّاء، والحنتم، والنقير، والمزفت وكانت هذه الأربعة ظروفاً خاصة يصنع فيها الخمر، فنهاهم رسول اللّه (ص) عن الخمر وعن الشرب فيها، ثم أوصاهم قائلًا: فاحفظوهنّ وادعوا إليهنّ من ورائكم.

قالوا: يا رسول اللّه ما علمك بالنقير؟

قال (ص): بلى، جذع تنقرونه ثم تلقون فيه من التمر ثم تصبون عليه الماء حتى يغلى، فإذا سكن شربتموه، فعسى أن يضرب ابن عمه بالسيف أى: على أثر السكر وفى القوم رجل به ضربة لذلك. قال: وكنت أخبئُها حياءً من رسول اللّه (ص).

قالوا: ففيم نشرب الماء يا رسول اللّه؟

قال (ص): اشربوا فى أسقية الأدم التى تلاث أى تشد على أفواهها.

قالوا: يا رسول اللّه إنّ أرضنا كثيرة الجرذان لا تبقى بها أسقية الأدم.

قال (ص): وإن أكلتها الجرذان (مرتين أو ثلاثاً).

ثم قال رسول اللّه (ص) لأشج عبد القيس: إنّ فيك لخصلتين يحبّهما اللّه: الحلم والأناة.

وفد بنى حنيفة

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى حنيفة، وفيهم مسيلمة الكذاب الذى ارتدّ وادّعى النبوّة فيما بعد، وكانوا قد خلّفوا مسيلمة فى رحالهم، فلما أسلموا ذكروا له (ص) مكانه فقالوا: يا رسول اللّه إنا قد خلّفنا صاحباً لنا فى رحالنا وركابنا، فأمر له رسول اللّه (ص) بما أمر للقوم، ثم انصرفوا وجاءوه بالذى أعطاه.

فلما قدم مسيلمة اليمامة ارتدّ على عقبه وتنبّأ وقال: إنى اُشركت فى الأمر معه، ثم جعل يسجع السجعات فيقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: (لقد أنعم اللّه على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى) ووضع عنهم الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنا ونحو ذلك، وكان مسيلمة الكذاب هذا صاحب يمامة، كما كان العنسى الكذاب صاحب صنعاء هو الآخر أيضاً الذى ادّعى النبوّة، وكذلك كانت سجاح التى ادّعت النبوّة كذباً، فأخزاهم اللّه جميعاً وأذلّهم.

وقيل: انه كتب مسيلمة لرسول اللّه (ص):

(من مسيلمة رسول اللّه إلى محمد رسول اللّه، أما بعد: فإنى قد أشركت فى الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، وليس قريش قوماً يعدلون).

فقدم عليه رسوله بهذا الكتاب، فكتب إليه رسول اللّه (ص): (بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللّه إلى مسيلمة الكذّاب، سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد فإن الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتّقين).

وعن ابن عباس قال: لما قدم مسيلمة الكذاب على رسول اللّه (ص) فجعل يقول: إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتّبعته، وقدمها فى بشر كثير من قومه.

فأقبل النبى (ص) ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفى يد النبى (ص) قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال: إن

سألتنی هذه القطعة ما أعطیتکها، ولن تعد أمر اللّه فیک، ولئن أدبرت لیعقرنّک اللّه.

وقیل: انه (ص) قال: وإن أراک الذی رأیت فیه ما رأیت، وهذا ثابت بن قیس یجیبک عنی، ثم انصرف.

قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول اللّه (ص): وإن أراک الذی رأیت فیه ما رأیت، فأخبرنی أن النبی (ص) قال: بینا أنا نائم رأیت رؤیا، فأوحی إلیَّ فی المنام: أن کذّابین یخرجان من بعدی: أحدهما العنسی صاحب صنعاء، والآخر مسیلمة صاحب الیمامة.

وفد کندة

وقدم وفد کندة علی رسول اللّه (ص) فی ثمانین راکباً، وفیهم: الأشعث بن قیس، فدخلوا علیه (ص) مسجده وقد رجّلوا (أی: مشطوا) جممهم وتکحلوا، وعلیهم جبات الحبرات مکفوفة بالحریر.

فلما دخلوا قال رسول اللّه (ص): أو لم تسلّموا؟

قالوا: بلی.

قال (ص): فما هذا الحریر فی أعناقکم؟ فشقّوه ونزعوه منها، فألقوه.

وفد بنی مراد

وقدم فروة بن مسیک المرادی مفارقاً لملوک کندة ومباعداً لها إلی رسول اللّه(ص)، فقال له رسول اللّه (ص): هل ساءک ما أصاب قومک یوم الردم؟ وقد کان بین مراد وهمدان وقعة قبل الإسلام أصابت فیها همدان من مراد ما أرادوا حتی أثخنوهم فی یوم کان یقال له یوم الردم.

فقال: من ذا یصیب قومه مثل ما أصاب قومی یوم الردم ولا یسوؤه ذلک؟

فقال له رسول اللّه (ص): أما إنّ ذلک لم یزد قومک فی الإسلام إلا خیراً، واستعمله علی مراد وزبید ومذحج کلها، وبعث معه خالد بن سعید بن العاص علی الصدقة، فکان معه فی بلاده حتی توفی رسول اللّه (ص).

ولما توجّه فروة بن مسیک إلی رسول اللّه (ص) مفارقاً کندة قال:

لما رأیت ملوک کندة أعرضت کالرِّجل خان الرِّجل عرق نسائها

یمّمت راحلتی أؤم محمدا أرجو فواضلها وحسن ثرائها

وفد الأشعریین

وقدم علی رسول اللّه (ص) الأشعریون من أهل الیمن، وروی ان رسول اللّه (ص) قال قبل قدومهم: سوف یقدم علیکم قوم هم أرق منکم قلوباً، فقدم الأشعریون، فجعلوا یرتجزون ویقولون:

غداً نلقی الأحبّة محمداً وحزبه

وفد أهل الیمن

وقدم علی رسول اللّه (ص) وفد من أهل الیمن فقالوا: یا رسول اللّه جئنا لنتفقّه فی الدین، ونسألک عن أول هذا الأمر.

فقال لهم رسول اللّه (ص): کان اللّه ولم یکن شیء غیره وکان عرشه علی الماء، وکتب فی الذکر کل شیء.

وفد أزد

وقدم على رسول اللّه (ص) صرد بن عبداللّه الأزدى فأسلم وحسن إسلامه، فأمّره رسول اللّه (ص) على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن.

فخرج يسير بأمر رسول اللّه (ص) حتى نزل بجرش وهى يومئذ مدينة كان يقطن بها بعض قبائل العرب، قال: وقد ضوت اليهم خثعم فدخلوا معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم فحاصروهم قريباً من شهر، وامتنعوا فيها فرجع عنهم قافلاً حتى إذا كان فى جبل لهم، ظن أهل جرش انه انما ولى عنهم منهزماً، فخرجوا فى طلبه حتى إذا أدركوه، فوقع القتال بينهم.

وقيل: انه قد كان أهل جرش بعثوا إلى رسول اللّه (ص) رجلين منهم يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول اللّه (ص) عشية بعد العصر، إذ قال رسول اللّه (ص): بأى بلاد اللّه شكر؟

فقام الجرشيان فقالا: يا رسول اللّه ببلادنا جبل يقال له كسر، وكذلك يسميه أهل جرش.

فقال (ص): إنه ليس بكسر ولكنه شكر.

قالا: فما شأنه يا رسول اللّه؟

قال (ص): إن بدن اللّه لتنحر عنده الآن.

قال: فجلس الرجلان إلى أحد الصحابة فقال لهما: ويحكما إن رسول اللّه (ص) لينعى لكما قومكما، فقوما فاسألاه أن يدعو اللّه أن يرفع عن قومكما.

فقاما إليه فسألاه ذلك، فقال (ص): اللّهمّ ارفع عنهم.

فخرجا من عند رسول اللّه (ص) راجعين إلى قومهما فوجدا قومهما قد أُصيبوا فى اليوم الذى قال فيه رسول اللّه (ص) ما قال، وفى الساعة التى ذكر فيها ما ذكر، فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول اللّه (ص) فأسلموا، وحمى لهم حمى حول قريتهم.

وفد بجيلة

وقدم على رسول اللّه (ص) جرير بن عبداللّه البجلّى ومعه مائة وخمسون رجلاً من قومه، فقال رسول اللّه (ص) قبل قدومه: يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن، على وجهه مسحة ملك، فطلع جرير على راحلته ومعه قومه، فأسلموا وبايعوا.

وفد بنى كعب

وقدم وفد بنى الحارث بن كعب على رسول اللّه (ص) وفيهم: قيس بن الحصين، فسلّموا عليه وقالوا: نشهد أن لا إله إلا اللّه وانّك رسول اللّه.

فقال لهم رسول اللّه (ص): وأنا أشهد أن لا إله إلا اللّه وانّى رسول اللّه، ثم قال لهم: بم كنتم تغلبون من قاتلتم فى الجاهلية؟

قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرّق، ولا نبدأ أحداً بظلم.

قال (ص): صدقتم، وأمّر عليهم قيس بن الحصين، فرجعوا إلى قومهم، ثم بعث إليهم رسول اللّه (ص) بعد ذلك عمرو بن حزم الأنصارى ليفقّههم فى الدين، ويعلّمهم السنّة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم صدقاتهم.

وفد همدان

وقدم عليه (ص) وفد همدان، وفيهم: مالك بن النمط ومالك بن أيفع وضمام بن مالك، وعمرو بن مالك فلقوا رسول اللّه (ص) وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم العدنية على الرواحل المهرية، ومالك بن النمط يرتجز بين يدى رسول اللّه (ص) ويقول:

همدان خير سوقة وأقيال ليس لها فى العالمين أمثال

محلها الهضب ومنها الأبطال لها اطابات بها وأكال

ويقول الآخر:

إليك جاوزن سواد الريف فى هبوات الصيف والخريف

مخطمات بحبال ليف

وذكروا له كلاماً كثيراً حسناً فصيحاً، فكتب لهم رسول اللّه (ص) كتاباً وأمر عليهم مالك بن النمط.

وفد مزينة

وقدم وفد مزينة على رسول اللّه (ص) وفيهم: النعمان بن مقرن.

قال النعمان: قدمنا على رسول اللّه (ص) أربعمائة رجل من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف قال (ص): (زوّدوا القوم) فزوّدونا بتمر كثير.

وقيل: انه (ص) قال لبعض أصحابه: زوّد القوم.

فقال: ما عندى إلا شيء من تمر، ما أظنه يقع من القوم موقعاً.

قال (ص): إنطلق فزوّدهم.

فانطلق بهم فأدخلهم منزله ثم أصعدهم إلى علية، فلما دخلوا إذا فيه من التمر مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم.

قال النعمان: وكنت فى آخر من خرج، فنظرت وما أفقد موضع تمرة من مكانها.

وفد نجران

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد نصارى نجران وفيهم: السيد والعاقب والأتهم، وآل أمرهم إلى المباهلة فأحجموا عنها وقبلوا الجزية، فكتب لهم رسول اللّه (ص) كتاب صلح، وذلك فى قصة مفصّلة مرّ ذكرها فى حديث المباهلة.

وفد ملوك حمير

وقدم على رسول اللّه (ص) وافد ملوك حمير: مالك بن مرة بكتابهم إليه(ص)، وبإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، فكتب لهم رسول اللّه (ص) كتاباً وأرسله إليهم مع رسولهم مالك بن مرة وأوصاهم به خيراً، وقد سبق تفصيله.

وفد جماعة الأعراب

وقدم على رسول اللّه (ص) اُهيب بن سمّاع وكان كبير قوم من الأعراب.

قال الراوى: كان رسول اللّه (ص) يوماً جالساً فى نفر من أصحابه، وقد صلّى الغداة، إذ أقبل أعرابى على ناقة له حتى وقف بباب المسجد فأناخها ثم عقلها ودخل المسجد يتخطّى الناس والناس يوسّعون له، وإذا هو رجل مديد القامة، عظيم الهامة، متعجّر بعمامة، فلما مثل بين يدى رسول اللّه (ص) أسفر عن لثامه، ثم همّ أن يتكلّم فارتجّ، ثمّ همّ أن يتكلّم فارتجّ، حتى اعترضه ذلك ثلاث مرات.

فلما رآه رسول اللّه (ص) وقد ركبه الزمع أى: الدهشة لهى عنه بالحديث ليذهب عنه بعض الذى أصابه، وقد كسا اللّه نبيه (ص) جلالة وهيبة، فلما أنس وفرّخ روعه قال له النبى (ص): قل للّه أنت، ما أنت قائل، فأنشد أبياتاً اعتذاراً عما أصابه.

فاستوى رسول اللّه (ص) جالساً وقد كان متكئاً ثم قال له: أنت اُهيب بن سماع؟ ولم يره قطّ قبل ذلك.

فقال: أنا اُهيب بن سماع، الآبى الدفّاع، القوى المنّاع.

قال (ص): أنت الذى ذهب جلّ قومك بالغارات، ولم ينفضوا رؤوسهم من الهفوات، إلا منذ أشهر وسنوات؟

قال: نعم أنا ذاك.

قال (ص): أتذكر الأزمة التى أصابت قومك، احرنجم لها الزيخ، وأخلف نوء المرّيخ، وامتنعت السماء، وانقطعت الأنواء، واحترقت العنمة، وخفّت البرمة، حتى ان الضيف لينزل بقومك وما فى الغنم عرق ولا غزر، فترصدون الضب المكنون فتقتنصونه؟ وكأنك قلت فى طريقك إلىّ: لتسألنى عن حلّ ذلك وعن حرمته؟ ألا ولا حرج على مضطرّ، ومن كرم الأخلاق برّ الضيف؟

قال: فقال اُهيب: لا ـ والله لا أطلب أثراً بعد عين، لكأنّك كنت معى فى طريقى وشريكى فى أمرى، أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأنّك محمداً رسول اللّه، ثم قال: يا رسول اللّه زدنى شرحاً وبياناً ازدد بك إيماناً.

فقال له رسول اللّه (ص): أتذكر إذ أتيت صنمك فى الظهيرة، فعترت له العتيرة وهى الذبيحة كانت تذبح للأصنام فيصبّ دمها على رأسها ؟

فقال اُهيب: نعم بأبى أنت وأمّى يا رسول اللّه، ان الحارث بن أبى ضرار جمع لك جموعاً ليدهمك بالمدينة، واستعان بى على حربك، وكان لى صنم يقال له: واقب، فرقبت خلوته، وقممت ساحته، ثم نفضت التراب عن رأسه، ثم عترت له عتيرة، فإنى لأستخبره فى أمرى، وأستشيره فى حربك، إذ سمعت صوتاً قفّ له شعرى، واشتدّ منه ذعرى، فولّيت عنه وهو يقول:

اُهيب ما لك تجزع لا تنأ عنّى وارجع

واسمع مقالاً ينفع جاءك ما لا يدفع

بنى صدق أروع فاقصد إليه واسرع

تأمن وبال المصرع وهول يوم المطلع

قال اُهيب: فأتيت أهلى ولم اُطلع أحداً على أمرى، فلما كان من الغد أتيته فى الظهيرة فرقبت خلوته، وقممت ساحته، وعترت له عتيرة، ثم جسدته بدمها، فبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتاً هائلاً، فولّيت عنه هارباً وهو يقول كلاماً فى معنى كلامه الأول.

قال: فلما كان من غد ركبت ناقتى، ولبست لامتى، وتكبّدت الطريق حتى أتيتك.

عندها قال النبى (ص) لعلى (ع): يا على خذ بيد اُهيب وعلّمه القرآن، فأقام عندهم حتى حذق شيئاً من القرآن وتعلّم أحكام الإسلام.

١ النصر: ١ ـ ٣. ٢ الرعد: ١٣.

وفد دوس

وقد قدم وفد دوس قبل عام الوفود، وكان قدومهم بخيبر.

وفد فروة بن عمرو الجذامى

وقدم وافد فروة بن عمرو الجذامى على رسول اللّه (ص) بإسلام فروة بن عمرو الجذامى وإيصال هديته إليه بغلة بيضاء، وكان فروة عاملاً للروم على ما يليهم من العرب، وكان منزله (معان) فلما بلغ الروم ذلك طلبوه حتى أخذوه فحبسوه ثم صلبوه وقتلوه.

وفد بنى سعد

وقدم وفد بنى سعد بن بكر على رسول اللّه (ص) وفيهم: ضمام بن ثعلبة.

قال الراوى: بينما نحن جلوس مع النبى (ص) فى المسجد، إذ دخل جماعة ومعهم رجل على جمل فأناخه فى المسجد، ثم عقله ثم التفت إلينا وقال: أيكم محمد؟ والنبى (ص) متكىء بين ظهرانينا.

فقلنا وقد أشرنا إليه (ص): هذا.

فالتفت الرجل إليه وقال: يابن عبدالمطلب؟

فقال له النبی (ص): قد أجبتک.

قال الرجل: إنی سائلک ومشدد عليک فی المسألة فلا تجد علیّ فی نفسک.

فقال (ص): سل عما بدا لک.

قال: أسألک بربّک وربّ من قبلک، آللّه أرسلک إلی الناس کلهم؟

فقال (ص): اللّهمّ نعم.

فقال: نشدتک باللّه، آللّه أمرک أن تصوم هذا الشهر من السنة؟

قال (ص): اللّهمّ نعم.

قال: نشدتک باللّه، آللّه أمرک أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا وتقسّمها علی فقرائنا؟

قال (ص): اللّهمّ نعم.

فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائی من قومی مع هذه الجماعة، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنی سعد بن بکر.

فأجازهم رسول اللّه (ص) کما يجيز کل وفد وأکرمهم، ثم انصرفوا وانصرف معهم الرجل راجعاً إلی بعيره.

فقال رسول اللّه (ص) حين ولّی: إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنّة، وکان ضمام رجلًا جلداً أشقر ذا غديرتين، ثم أتی بعيره فأطلق عقاله ثم خرج، حتی قدم علی قومه بجماعته فاجتمعوا إليه، وکان أول ما تکلّم به أن قال: بئست اللات والعزّی.

فقالوا: مه يا ضمام.

فقال: ويلکم انهما ما يضرّان ولا ينفعان، وإن اللّه قد بعث رسولاً وقد أنزل عليه کتاباً استنقذکم مما کنتم فيه، وإنی أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنّ محمداً عبده ورسوله، وانی جئتکم من عنده بما أمرکم به ونهاکم عنه.

قال الراوی: فواللّه ما أمسی فی ذلک اليوم فی حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

وفد طارق

وقدم وفد طارق بن عبداللّه وقومه، قال طارق: دخلنا المدينة فدخلنا المسجد، فإذا هو (ص) قائم علی المنبر يخطب، فأدرکنا من خطبته وهو يقول: (تصدّقوا فإن الصدقة خير لکم، اليد العليا خير من اليد السفلی، اُمک وأباک، واُختک وأخاک).

وفد نجيب

وقدم وفد نُجيب علی رسول اللّه (ص) وهم من السکون ثلاثة عشر رجلًا قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التی فرض اللّه عليهم.

فقال لهم رسول اللّه (ص): ردّوها فاقسموها علی فقرائکم.

فقالوا: يا رسول اللّه ما قدمنا عليک إلاـ بما فضل عن فقرائنا، ثم جعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، ورسول اللّه (ص) يجيبهم عما يسألونه.

ثم أمر (ص) بلالاً أن يحسن ضيافتهم، فلما أرادوا أن ينصرفوا أمر (ص) بلالاً فأجازهم بأرفع ما کان يجيز به الوفود.

وقيل: انه (ص) قال: هل بقی منکم أحد؟

قالوا: غلام خلّفناه علی رحالنا.

قال (ص): أرسلوه إلينا.

فجاء الغلام فقال: يا رسول اللّه، إنّ حاجتی ليست کحاجة أصحابی، إنی واللّه ما حملنی من بلادی إلاـ أن تسأل اللّه أن يغفر لی

ويرحمنى ويجعل غناى فى قلبى.

قال رسول اللّه (ص): اللّهمّ اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه، ثم أمر (ص) له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم، ووافوا رسول اللّه (ص) فى الموسم بمنى سنة عشر، فقالوا: نحن بنو أيدى.

فقال (ص): ما فعل الغلام الذى أتانى معكم؟

قالوا: يا رسول اللّه ما رأينا مثله قطّ، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه اللّه، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها.

فقال (ص): الحمد للّه.

قالوا: فعاش ذلك الرجل فينا على أفضل حال وأزهده فى الدنيا وأقنعه بما رزق، فلما توفى رسول اللّه (ص) ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام قام فى قومه، فذكّرهم اللّه والإسلام.

وفد بنى سعد

وقدم وفد بنى سعد هذيم بن قضاعة، وهم من أهل اليمن.

وفد بنى فزارة

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى فزارة بضعة عشر رجلًا، فيهم: خارجة بن حصن، والحر بن قيس بن أخى عيينة بن حصن وهو أصغرهم، فنزلوا فى دار بنت الحارث، وجاءوا رسول اللّه (ص) مقرّين بالإسلام، وهم مسنتون على ركاب عجاف، فسألهم رسول اللّه (ص) عن بلادهم.

فقال أحدهم: يا رسول اللّه اسنتت بلادنا، وهلكت مواشينا، وجدبت جناننا، وغرث عيالنا، فادع لنا ربّك يغيثنا، وتشفع لنا إلى ربّك.

فصعد رسول اللّه (ص) المنبر ودعى لهم فكان مما حفظ من دعائه: (اللّهمّ اسق عبادك وانشر رحمتك وأحى بلادك، اللّهمّ اسقنا غيثاً مغيثاً مريحاً مريعاً طبقاً واسعاً عاجلاً غير آجل، نافعاً غير ضارّ، اللّهمّ سقيا رحمة لا سقيا عذاب، ولا هدم، ولا غرق، ولا محق، اللّهمّ اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء).

فرجعوا وقد استجيب فيهم دعاء رسول اللّه (ص).

وفد بنى أسد

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى أسد، وفيهم: وابصة بن معبد وطليحة بن خويلد، ورسول اللّه (ص) فى المسجد مع أصحابه، فتكلّموا وقالوا: يا رسول اللّه إنا شهدنا أن لا ـ إله إلا ـ اللّه وأنّك رسوله وجئناك ولم تبعث إلينا بعثاً، فأنزل اللّه على رواية: (يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا علىَّ إسلامكم)(۱) الآية.

وكان مما سألوا رسول اللّه (ص) عنه: العيافة والكهانة وضرب الحصى، فنهاهم عن ذلك كلّه.

وفد بهراء

وقدم وفد بهراء من اليمن على رسول اللّه (ص) وكانوا ثلاثة عشر رجلًا، ونزلوا على المقداد بن عمرو وأقاموا أياماً وتعلموا الفرائض، ثم ودّعوا رسول اللّه(ص) لينصرفوا إلى بلادهم، وعند توديعهم له (ص) أمر لهم بالجوائز وانصرفوا إلى بلادهم.

وفد عذرة

وقدم وفد عذرة، وكانوا اثنى عشر رجلاً، منهم حمزة بن النعمان، فقال رسول اللّه (ص): من القوم؟
فقال متكلّمهم: ممن لا تنكر، نحن بنو عـذرة إخوة قصـی لاُمه، نحن الـذین عضدوا قصیاً وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنی بكر، ولنا قرابات وأرحام.
فقـال رسول اللّه (ص): مرحبـاً بكم وأهلاً، فأسـلموا، وبشّـرهم رسول اللّه(ص) بفتـح الشام وهروب هرقل إلی ممتنع من بلاده، ونهاهم عن سؤال الكاهنة وعن الذبائح التی كانوا یذبحونها، وأخبرهم أن لیس علیهم إلا الأضحیة، ثم انصرفوا إلی بلادهم وقد اُجیزوا.

وفد بلّی

وقـدم وفـد بَلیّ علی رسول اللّه (ص) فنزلوا علی رویفع بن ثابت البلوی، فقال رسول اللّه (ص): الحمد للّه الذی هداكم إلی الإسـلام، ثم ودَّعوا رسول اللّه (ص) بعد أن أجازهم.
وقال (ص) له أبو الضبیب شیخ الوفد: یا رسول اللّه إنّی رجل فیّ رغبة من الضیافة، فهل لی فی ذلك أجر؟
قال (ص): نعم، وكل معروف صنعته إلی غنیّ أو فقیر فهو صدقة.
قال: یا رسول اللّه كم وقت الضیافة؟
قال (ص): ثلاثة أیام، ما كان بعد ذلك فصدقة، ولا یحل للضیف أن یقیم عندك حتی یحرجك.

وفد ذی مرة

وقدم علی رسول اللّه (ص) وفد ذی مرة، وكانوا ثلاثة عشر، ورئیسهم الحارث بن عرف.
فقال رسول اللّه (ص): كیف البلاد؟
فقالوا: واللّه إنا لمسنتون، فادع اللّه لنا.
فقال (ص): اللّهمّ اسـقهم الغیث، ثم أقاموا أیاماً ورجعوا بالجائزة، ووجـدوا بلادهم قد اُمطرت فی ذلك الیوم الذی دعا لهم فیه رسول اللّه (ص).

وفد خولان

وقدم علی رسول اللّه (ص) وفد خولان وكانوا عشرة مسلمین، فقال(ص): ما فعل صنم خولان الذی كانوا یعبدونه؟
قـالوا: أبـدلنا اللّه مـا جئت به، إلا أن عجوزاً وشـیخاً كبیراً یتمسّـكان به، وإن قـدمنا علیه هـدمناه إن شاء اللّه، ثم علمهم فرائض الـدین، وأمرهم بالوفاء بالعهد والأمانة وحسن الجوار، وأن لا یظلموا، ثم أجازهم، ورجعوا إلی قومهم وهدموا الصنم.

وفد محارب

وكـان ممّن قـدم علی رسول اللّه (ص) وفـد محارب، وهم عشـرة نفر، فیهم سواء بن الحارث وابنه خزیمـة وأسـلموا، وقیل انه لم یكن أحـد أفظّ ولا أغلظ علی رسول اللّه (ص) منهم، وكان فی الوفد رجل منهم یعرفه رسول اللّه (ص) فقال وهو یعلن عن إسـلامه: الحمد للّه الذی أبقانی حتی صدقت بك.
فقال له رسول اللّه (ص): إنّ هذه القلوب بید اللّه، ومسح وجه خزیمة فصارت له غرة بیضاء، وأجازهم كما یجیز كل وفد، وانصرفوا.

وفد صداء

وقدم وفد صداء علی رسول اللّه (ص) فأسلموا، وهم خمسة عشر رجلًا، فبایعوه علی الإسلام ورجعوا إلی قومهم، ففشی فیهم الإسلام، فوافی رسول اللّه(ص) منهم مائة رجل فی حجّة الوداع.

وفد غسان

وقدم وفد غسان علی رسول اللّه (ص) وکانوا ثلاثة نفر، فأسلموا وأجازهم رسول اللّه (ص) فانصرفوا راجعین، وقالوا: لا ندری أیتبعنا قومنا أم لا؟ فلما قدموا علی قومهم دعوهم إلی الإسلام، فلم یستجیبوا لهم.

وفد سلامان

وقدم وفد سلامان علی رسول اللّه (ص) وهم سبعة نفر، وقیل: هم ستّة عشر نفراً، وعلی رأسهم حبیب السلامانی فأسلموا، وشکوا إلیه (ص) جدب بلادهم فدعا لهم، ثم ودعوه وأمر (ص) لهم بالجوائز، فرجعوا إلی بلادهم فوجدوها قد أمطرت فی تلک الساعة من ذلک الیوم الذی دعا لهم فیه رسول اللّه(ص) بالمطر.

وفد عبس

وقدم مع رسول اللّه (ص) وفد عبس، فقالوا: یا رسول اللّه قدم علینا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواشٍ، فإن کان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا.
فقال (ص): اتّقوا اللّه حیث کنتم فلن یلتکم من أعمالکم شیئاً.

وفد بنی سلیم

وقدم علی رسول اللّه (ص) وفد بنی سلیم، وفیهم: العباس بن مرداس، فأسلموا وحسن إسلامهم وأمر لهم رسول اللّه (ص) بالجائزة.

وفد عامر

وقدم وفد عامر علی رسول اللّه (ص)، وکانوا عشرة، فأقروا بالإسلام، وکتب (ص) لهم کتاباً فیه شرائع الإسلام، وأمر أُبیَّ بن کعب فعلّمهم قرآناً وأجازهم (ص) وانصرفوا.

وفد الأزد

وقدم وفد الأزد علی رسول اللّه (ص) وفیهم: سوید بن الحارث، قال: وفدت سابع سبعة من قومی علی رسول اللّه (ص)، فلما دخلنا علیه وکلمناه وأعجبه ما رأی من صمتنا وزیّنا فقال (ص): من أنتم؟
قلنا: قوم من أزد مؤمنون.
فتبسّم رسول اللّه (ص) وقال: لکل شیء حقیقة، فما حقیقة إیمانکم؟
قلنا: خمس عشرة خصلة: خمساً أمَرَتْنا رسلک أن نؤمن بها، وخمساً أمرتَنا أن نعمل بها، وخمساً تخلّقنا بها فی الجاهلیة فنحن علیها إلا أن تکره منها شیئاً.
فقال رسول اللّه (ص): ما الخمس التی أمرَتْکم رسلی أن تؤمنوا بها؟

قلنا: أن نؤمن باللّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت.

قال (ص): وما الخمس التى أمَرْتُكم أن تعملوا بها؟

قلنا: أن نقول لا إله إلا اللّه، ونقيم الصلاة، ونؤدّى الزكاة، ونصوم شهر رمضان، ونحجّ البيت من استطاع إليه سبيلًا.

قال (ص): وما الخمس التى تخلّقتم بها فى الجاهلية؟

قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق فى مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء.

فقال (ص): حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، ثم قال(ص): وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة: إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا فى شىء أنتم عنه غداً زائلون، واتّقوا اللّه الذى إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فى ما عليه تقدمون وفيه تخلدون.

فانصرف القوم من عند رسول اللّه (ص) بعد أن أجازهم، وقد حفظوا وصيّته وعملوا بها.

وفد بنى المنتفق

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى المنتفق: لقيط بن عامر، فإنه خرج ومعه صاحب له يقال له: نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق.

قال لقيط: فخرجت أنا وصاحبى حتى قدمنا على رسول اللّه (ص)، فوافيناه حين انصرف من صلاة الغداة، فقام فى الناس خطيباً، فقمت أنا وصاحبى إليه وسألته عما عنده من علم الغيب.

فقال (ص): اختص ربكم بمفاتيح خمس من الغيب.

فقلت: ما هنّ يا رسول اللّه؟

فقال (ص): علم المنية، قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه، وعلم النطفة متى يكون فى الرحم، قد علمه ولا تعلمونه، وعلم ما فى غد، قد علم ما أنت صانع ولا تعلمه، وعلم يوم الغيث، وعلم الساعة.

قلت: يا رسول اللّه علمنا مما علّمك اللّه، فانا من قبيل لا يصدِّق تصديقنا أحد من مذحج التى تربو علينا، وخثعم التى توالينا وعشيرتنا.

قال (ص): تلبثون فيها ما لبثتم، ثم يتوفى نبيكم، ثم تبعث الصائحة، فلا تدع على ظهر الأرض شيئاً إلا مات، وكذلك الملائكة، ثم تحدّث (ص) عن القيامة والآخرة، وعن الثواب والعقاب، وعن الجنّة والنار.

قال: قلت: يا رسول اللّه فبم نجزى من حسناتنا وسيّئاتنا؟

قال (ص): الحسنة بعشر أمثالها، والسيّئة بمثلها، إلا أن يعفو اللّه.

قال: قلت: يا رسول اللّه ما الجنّة وما النار؟

قال (ص): إن النار لها سبعة أبواب، ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً، وإنّ للجنّة ثمانية أبواب، وعرضها كعرض السماوات والأرض، أعدّها اللّه للمتّقين من عباده.

قال: قلت: يا رسول اللّه فعلى مَ نطلع من الجنّة؟

قال (ص): على أنهار من عسل مصفّى، وأنهار من خمر لذّة للشاربين، ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وأنهار من ماء غير آسن، وفاكهة مما تعلمون، وخير من مثله معه، وأزواج مطهّرة.

فقلت: يا رسول اللّه ما هو أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه؟

قال (ص): ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فقلت: يا رسول اللّه على مَ أُبايعك؟

فبسط النبى (ص) يده وقال: على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن لا تشرك باللّه شيئاً.

وفد النخع

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد النخع فى مائتى رجل فنزلوا دار الأضياف، ثم جاءوا رسول اللّه (ص) مقرّين بالإسلام ومؤمنين باللّه وحده لا شريك له، فأكرمهم رسول اللّه (ص) وأجازهم كما يجيز غيرهم من الوفود، ثم رجعوا إلى قومهم وبلادهم.

وقيل: انه كان رسول اللّه (ص) قد بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قبل ذلك هو وأبا موسى الأشعرى، كل واحد منهما على خلاف (أى: إقليم) ثم قال (ص): يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تخالفا.

وقال (ص) لمعاذ: (إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللّه وأنّ محمداً رسول اللّه، فإن هم أطاعوك بذلك فأخبرهم أنّ اللّه قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم ليس بينها وبين اللّه حجاب).

وروى انه (ص) قال لمعاذ: يا معاذ انك تقدم على قوم أهل كتاب، وانهم سائلوك عن مفاتيح الجنّة، فأخبرهم ان مفاتيح الجنّة (لا إله إلا اللّه) وانها تخرق كل شيء حتى تنتهى إلى اللّه ولا تحجب دونه، من جاء بها يوم القيامة مخلصاً رجحت بكل ذنب.

فقال معاذ: أرأيت ما سُئلت عنه واُختصم الى فيه مما ليس فى كتاب اللّه ولم أسمع منك سنة اللّه؟

فقال (ص): تواضع يرفعك اللّه، ولا تقضين إلاّ بعلم، فإن أشكل عليك أمر فسَلْ ولا تستحى، واستشر ثم اجتهد، فإن اللّه إن علم من قلبك الصدق يوفقك، فإن التبس عليك فقف حتى تتبنه أو تكتب إلىّ فيه، واحذر الهوى، فإنه قائد الأشقياء، وعليك بالرفق.

سائر الوفود

إلى غير ذلك ممن وفد المدينة وتشرّف باللقاء مع رسول اللّه (ص) حتى ان بعض أهل السير والتاريخ ذكر مواصفات أكثر من سبعين وفداً قدموا المدينة من مختلف مناطق الحجاز ومن اليمن واليمامة والبحرين وما إلى ذلك.

قيل: انه كان رسول الله (ص) إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه وأمر أصحابه بذلك.

۱ الحجرات: ۱۷.

فريضة الحج والولاية

وتسمى: حجة الإسلام، وحجّ ة البلاغ، وحجة الكمال، وحجة التمام، وذلك انه لما دخل على رسول اللّه (ص) شهر ذى القعدة من السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة نزل عليه جبرئيل وقال له: يا محمد ان اللّه عزّوجلّ يقرؤك السلام ويقول لك: إنى لم أقبض نبياً من أنبيائى ولا رسولاً من رسلى إلا بعد إكمال دينى وتأكيد حجّتى، وقد بقى عليك من ذاك فريضتان مما تحتاج أن تبلّغهما قومك: فريضة الحج، وفريضة الولاية والخلافة من بعدك، فإنى لم أخلُ أرضى من حُجّة، ولن اُخليها أبداً، فإن اللّه جلّ ثناؤه يأمرك أن تبلّغ قومك الحج وتحج ويحج معك من استطاع إليه سبيلاً من أهل الحضر والأطراف والأعراب، وتعلّمهم من معالم حجّهم مثل ما علّمتهم من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم، وتوقفهم من ذلك على مثال الذى أوقفتهم عليه من جميع ما بلّغتهم من الشرائع.

فنادى منادى رسول اللّه (ص) فى الناس: ألا ـ إن رسول اللّه (ص) يريد الحج وان يعلّمكم من ذلك مثل الذى علّمكم من شرائع دينكم، ويوقفكم من ذلك على ما أوقفكم عليه من غيره.

ثم تجهّز رسول اللّه (ص) للحج، وأمر الناس بالجهاز له، فتجهّزوا لذلك، وقد حضر المدينة من ضواحيها ومن جوانبها خلق كثير، فأجمع رسول اللّه (ص) عندها على الخروج، فخرج مغتسلاً متدهّناً مترجّلاً متجرّداً فى ثوبين صحاريين: إزار ورداء، وأخرج (ص) معه

نساءه کلهنّ فی الهوادج، کما وأخرج معه أهل بیته (فاطمـة علیها السـلام) وسار معه عامة المهاجرین والأنصار، ومن شاء اللّه من قبائل العرب وأفناء الناس.

أقول: کنت قد کتبت فیما سبق کتاباً حول کیفیة حجه (ص)، ننقله هنا:

هکذا حج رسول اللّه (ص)

وذلک کما ورد فی صحاح الروایات:

وقـد وفّقنی اللّه أن أنشـره فی هـذه الکراسـة، بإضافـة بعض التوضـیحات بین قوسـین هکـذا () کما ألحقنا به صورة إجمالیة عن (حجّ التمتّع) وعن (محرمات الإحرام) وذلک علی ما استفید من (السنّة المطهّرة) واللّه المستعان.

بسم اللّه الرحمن الرحیم

روی الکلینی وشیخ الطائفة (رحمهما اللّه) بسندهما عن الإمام الصادق(ع): انّ رسول اللّه (ص) أقام بالمدینة عشر سنین لم یحج.

ثم أنزل اللّه تعالی علیه: (وأذّن فی الناس بالحجّ یأتوک رجالاً وعلی کل ضامر یأتین من کلّ فجٍّ عمیقٍ)(۱).

فأمر المؤذنین أن یؤذنوا بأعلی أصواتهم: أنّ رسول اللّه (ص) یحج فی عامه هذا.

فعلم به من حضر المدینة، وأهل العوالی والأعراب، فاجتمعوا لحج رسول اللّه (ص).

وانما کانوا تابعین، ینظرون ما یؤمرون به فیتبعونه، أو یصنع شیئاً فیصنعونه.

العمرة وأعمالها

فخرج رسول اللّه (ص) فی أربع بقین من ذی القعدة فلما انتهی إلی ذی الحُلیفة، فزالت الشمس..

۱ اغتسل (وفی حدیث آخر: لبس لباس الإحرام).

ثم خرج حتی أتی المسجد الذی عند الشجرة، فصلّی فیه الظهر.

ثم خرج حتی انتهی إلی البیداء (وهی صحراء قریبة من مسجد الشجرة) عند المیل الأول، فصفّ الناس له سماطین.

۲ فأحرم، وأهلّ بالحجّ (أی: قال التلبیة) وساق مائة بدنة (أی: ناقة) وقیل: ستاً وستّین بدنة، أو أربعاً وستین.

حتی انتهی (ص) إلی مکة، فی أربع مضین من ذی الحجّة.

۳ فطاف بالبیت سبعة أشواط.

۴ ثم صلّی (ص) رکعتین خلف مقام إبراهیم (ع).

ثم عاد إلی الحجر فاستلمه، وقد کان استلمه فی أول طوافه.

۵ ثم قال: إنّ الصفا والمروة من شعائر اللّه، فبدأ بما بدأ اللّه عزّ وجل به.

وان المسـلمین کانوا یظنون: ان السعی بین الصفا والمروة شیء صنعه المشرکون. فأنزل اللّه عزّ وجل: (إنّ الصفا والمروة من شعائر اللّه فمن حجّ البیت أو اعتمر فلا جُناح علیه أن یطّوّف بهما)(۲).

ثم أتی (ص) الصفا، فصعد علیه، واستقبل الرکن الیمانی، فحمد اللّه وأثنی علیه، ودعا مقدار ما یقرأ سورة البقرة مترسّلاً.

ثم انحدر إلی المروة فوقف علیها، کما وقف علی الصفا.

ثم انحدر وعاد إلی الصفا، فوقف علیها.

ثم انحدر إلی المروة، حتی فرغ من سعیه.

فلما فرغ من سـعیه، وهو علی المروة أقبل علی الناس بوجهه، فحمـد اللّه تعالی وأثنی علیه ثم قال: إن هذا جبرئیل وأومأ بیده إلی خلفه

يأمرنى أن آمر من لم يسق منكم هدياً:

۶ أن يحل (والإحلال بالحلق لبعض الشعر أو التقصير).

ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت، لصنعت مثل ما أمرتكم، ولكنّى سقت الهدى ولا ينبغى لسائق الهدى أن يحلّ، حتى يبلغ الهدى محلّه (أى: فى منى حيث يذبح الهدى) انّ اللّه عزّ وجل يقول: (ولا تحلقوا رؤوسكم حتّى يبلغ الهدى محلّه)(۳).

قال: فقال له رجل من القوم: انخرج حُجّاجاً وشعورنا تقطر؟

فقال له رسول اللّه (ص): أما انك لن تؤمن بهذا أبداً؟ (أى: لن تؤمن بحج التمتّع).

فقال له سراقة بن مالك بن جشعم الكنانى: يا رسول اللّه علمنا ديننا، كأننا خلقنا اليوم. فهذا الذى أمرتنا به، ألعامنا هذا أم ولما يستقبل؟ (أى: حج التمتع فى هذه السنة أو فى كلّ سنة؟).

فقال له رسول اللّه (ص) وقد أنزل اللّه آية التمتّع: (فمن تمتّع بالعمرة إلى الحجّ فما استيسر من الهدى)(۴): بل هو للأبد إلى يوم القيامة.

ثم شبك (ص) بين أصابعه وقال: دخلت العمرة فى الحج هكذا إلى يوم القيامة (أى: ان الحج صار حج تمتع، حيث ان عمرته وحجه يؤتيان معاً، الأول: العمرة، الثانى: الحج).

قال: وقدم على (ع) من اليمن، على رسول اللّه (ص) وهو بمكة.

فوافى الحج، فوجد فاطمة (ع)، وقد أحلّت، ووجد ريحاً طيّباً، ووجد عليها ثياباً مصبوغة.

فقال (ع): ما هذا يا فاطمة؟ (أى: كيف أحللتم؟).

فقالت (ع): أمرنا بهذا رسول اللّه (ص).

فخرج على (ع) إلى رسول اللّه (ص) مستفتياً؟ (لأن علياً (ع) كان قد أحرم، وطاف، وصلّى، وسعى.. ثم أراد أن يسأل رسول اللّه (ص)، هلى يبقى فى إحرامه، أو يحل؟).

فقال: يا رسول اللّه إنى رأيت فاطمة قد أحلّت وعليها ثياب مصبوغة؟

فقال رسول اللّه (ص): انى أمرت الناس بذلك.

فأنت يا على بما أهللت؟ (أى هل اهللت بالحج، أو بالعمرة؟).

فقال: يا رسول اللّه إهلالاً كإهلال النبى (ص) (أى: انى قصدت أن أحرم كإحرام الرسول (ص)).

فقال له رسول اللّه (ص): قرّ على إحرامك، وأنت شريكى فى هديى.

الحج ومناسكه

قال: ونزل رسول اللّه (ص) هو وأصحابه بمكة، بالبطحاء، ولم ينزل الدور، فلما كان يوم التروية (ثامن ذى الحجّة) عند زوال الشمس.

۱ أمر الناس أن يغتسلوا، ويهلّوا بالحج (أى: يقولوا التلبية) وهو قول اللّه عزّوجل الذى أنزله على نبيّه (ص): (فاتبعوا ملّة إبراهيم حنيفاً)(۵). فخرج النبى (ص) وأصحابه مهلّين بالحج، حتى أتى إلى منى. فصلّى الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر (أى بقوا ليلة التاسع فى منى).

ثم غدا والناس معه. وكانت قريش تفيض من المزدلفة وهى جمع (أى: المشعر) ويمنعون الناس أن يفيضوا منها (أى: أن يجعلوا طريقهم إلى عرفات، من المشعر).

فأقبل رسول اللّه (ص) وقريش ترجو أن تكون إفاضته من حيث كانوا يفيضون، فأنزل اللّه عزّ وجل عليه: (ثمّ أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا اللّه)(۶) يعنى: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق (عليهم السلام) فى إفاضتهم منها، ومن كان بعدهم (أى: كلهم كانوا

يفيضون ويذهبون إلى عرفات من غير طريق المشعر).

فلما رأت قريش انّ قبّة رسول اللّه (ص) قد مضت، كأنه دخل فى أنفسهم شيء للذى كانوا يرجون من الإفاضة من مكانهم.

حتى انتهى (ص) إلى (نمرة) وهى بطن (عرفة) بجبال (الاراك). فضرب (ص) قبته، وضرب الناس أخبيتهم عندها.

۲ فلما زالت الشمس (أى: ظهر يوم عرفة، وهو تاسع ذى الحجة). خرج رسول اللّه (ص) ومعه قريش، وقد اغتسل، وقطع التلبية. حتى وقف بالمسجد، فوعظ الناس، وأمرهم ونهاهم، ثم صلّى الظهر والعصر بأذان وإقامتين، ثم مضى إلى الموقف، فوقف به.

فجعل الناس يبتدرون إخفاف ناقته، يقفون إلى جانبها، فنحّاها، ففعلوا مثل ذلك. فقال (ص): أيها الناس ليس موضع إخفاف ناقتى بالموقف، ولكن هذا كله. وأومأ إلى الموقف بيده فتفرّق الناس.

وفعل مثل ذلك بالمزدلفة (أى: أعلمهم ان الموقف: المشعر كله) فوقف الناس بالدعاء حتى وقع القرص (قرص الشمس).

۳ ثم أفاض (ص) وأمر الناس بالدعة، حتى انتهى إلى المزدلفة، وهو المشعر الحرام.. فصلّى المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتين.

ثم أقام حتّى صلّى فيها الفجر. وعجل ضعفاء بنى هاشم بليل، وأمرهم أن لا يرموا الجمرة: جمرة العقبة حتى تطلع الشمس.

۴ فلما أضاء النهار أفاض حتى انتهى إلى منى.

۵ فرمى جمرة العقبة.

۶ وكان الهدى الذى جاء به رسول اللّه (ص) مائة بدنة، وقيل: أربعة وستين أو ستة وستين، فأشرك (ص) علياً (ع) فى الهدى.

وقيل: انه جاء على (ع) بأربعة وثلاثين أو ستة وثلاثين (ولعل علياً (ع) جاء بها من اليمن).

فنحر رسول اللّه (ص) ثلاثاً وستّين، وقيل: ستة وستين، ونحر على (ع) سبعاً وثلاثين، وقيل: أربعاً وثلاثين بدنة.

وأمر رسول اللّه (ص) أن يؤخذ من كل بدنة منها جذوة (أى: قطعة) من لحم، ثم تطرح فى برمة، ثم تطبخ، فأكل رسول اللّه (ص) وعلى (ع) وتحسّيا من مرقها، ولم يعط الجزارين جلودها، ولا جلالها، ولا قلائدها، وتصدّق به.

۷ وحلق (ص).

۸ وزار (ص) البيت (أى: طاف للزيارة، وصلّى صلاة الطواف، وسعى، وطاف طواف النساء، وصلّى صلاة الطواف).

۹ ورجع (ص) إلى منى، وأقام بها، حتى كان اليوم الثالث من أيام التشريق.

۱۰ ثم رمى (ص) الجمرات (أى: رماهنّ، فى كل يوم).

هكذا حج رسول اللّه (ص) كما فى الروايات الصحيحة.

حج التمتع

وإليك موجزاً من صورة (حج التمتع)(۷):

۱ الإحرام، لعمرة التمتع. ۲ الطواف لعمرة التمتع. ۳ ركعتان للطواف لعمرة التمتع.

۴ السعى لعمرة التمتع. ۵ التقصير لعمرة التمتع. ۶ الإحرام، لحج التمتع.

۷ الوقوف بعرفات لحج التمتع. ۸ الوقوف بالمشعر لحج التمتع. ۹ الإفاضة إلى منى لحج التمتع.

۱۰ الرمى لجمرة العقبة لحج التمتع. ۱۱ النحر، أو الذبح لحج التمتع. ۱۲ الحلق، أو التقصير لحج التمتع.

۱۳ الطواف، لحج التمتع. ۱۴ ركعتان للطواف لحج التمتع. ۱۵ السعى لحج التمتع.

۱۶ طواف النساء لحج التمتع. ۱۷ ركعتان لطواف النساء لحج التمتع.

۱۸ المبيت بمنى. ۱۹ رمى الجمرات الثلاث، بمنى، كل يوم.

محرمات الإحرام

وإليك محرمات الإحرام:

۱ صيد حيوان البر. ۲ النساء. ۳ عقد النكاح.

۴ الإستمناء. ۵ استعمال الطيب. ۶ لبس المخيط للرجال.

۷ الإكتحال. ۸ النظر فى المرآة. ۹ لبس الخف وكل ما يستر ظهر القدم.

۱۰ الفسوق، الكذب، السباب، المفاخرة. ۱۱ الجدال، أى مطلق اليمين، احتياطاً.

۱۲ قتل هوام البدن. ۱۳ التختم للزينة، بل مطلق الزينة. ۱۴ تغطية الرجل رأسه.

۱۵ تغطية المرأة وجهها. ۱۶ التدهين. ۱۷ إزالة الشعر.

۱۸ إخراج الدم. ۱۹ قلع الضرس. ۲۰ تقليم الظفر.

۲۱ التظليل للرجال، حال السير. ۲۲ قطع شجر الحرم. ۲۳ حمل السلاح.

من حوادث حجّة الوداع

وروى انه لما تجهّز رسول اللّه (ص) إلى الحج كتب إلى على (ع) وقد بعثه فى سرية إلى اليمن بأن يخرج ومن معه إلى الحج أيضاً، فلما قارب رسول اللّه(ص) مكة من طريق المدينة، قاربها على (ع) من طريق اليمن، فتقدّم على (ع) الجيش للقاء النبى (ص) وخلّف عليهم رجلاً منهم، فأدرك النبى (ص) وقد أشرف على مكة، فسلّم عليه وعرض عليه أخباره، ثم أخبره بأنه أقبل مع الجيش وتقدم عليهم للقائه، فسرّ رسول اللّه (ص) ذلك وابتهج بلقائه وقال له: بم أهللت يا على؟

فقال (ع): عقدت نيّتى بنيّتك يا رسول اللّه وقلت لمّا أحرمت: اللّهمّ اهلالاً كإهلال نبيّك.

فقال له رسول اللّه (ص): أنت شريكى فى حجّى ومناسكى وهديى وكان رسول اللّه (ص) قد ساق الهدى معه ثم قال له: أقم على إحرامك، وعد إلى جيشك فعجّل بهم إلىّ حتى نجتمع بمكة إن شاء اللّه تعالى.

فى موقف عرفات

ولما كان رسول اللّه (ص) فى الموقف بعرفات ومعه المسلمون وصلّى بهم الظهر والعصر معاً عند زوال الشمس بلا أن يصلّ بينهما شيئاً، وقيل: لما نزلت سورة: (إذا جاء نصر اللّه والفتح)(۸) وذلك فى أوسط أيام التشريق وعرف رسول اللّه (ص) انه الوداع.ركب راحلته العضباء فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس: اسمعوا قولى واعقلوه، فإنى لا أدرى لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس: انّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، إلى أن تلقوا ربّكم..

أيّها الناس: كل دم كان فى الجاهلية فهو هدر، وكل ربا كان فى الجاهلية فموضوع.

أيها الناس ان الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق اللّه السماوات والأرضين، وانّ عدّة الشهور عند اللّه اثناعشر شهراً فى كتاب اللّه يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم: رجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجّة، والمحرّم، فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم، فإن النسىء زيادة فى الكفر يُضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم اللّه وكانوا يحرّمون المحرّم عاماً ويستحلّون صفر، ويحرّمون صفر عاماً ويستحلّون المحرم.

أيها الناس: ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى بلادكم آخر الأبد، ورضى منكم بمحقّرات الأعمال.

أيها الناس: انكم ستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغت، فمن كانت عنده وديعة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها.

أيها الناس: ان النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ ضراً ولا نفعاً، أخذتموهنّ بأمانة اللّه واستحللتم فروجهنّ بكلمات اللّه، فلكم عليهنّ حق، ولهنّ عليكم حق، ومن حقكم عليهنّ أن لا يوطئنّ فرشكم، ولايعصينّكم فی معروف، فإذا فعلن ذلك فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، ولا تضربوهنّ.

أيها الناس: انی قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا أبداً: أمراً بيّناً كتاب اللّه عزّوجل وعترتی أهل بيتی.

أيها الناس: ألا فليبلّغ شاهدكم غائبكم: انه لا نبیّ بعدی، ولا اُمّة بعدكم، وأنتم تسألون عنی فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد انّك قد بلّغت وأدّيت ونصحت.

فقال (ص): اللّهمّ اشهد، اللّهمّ اشهد، ثلاث مرات.

عند مسجد الخيف

ثم ان رسول اللّه (ص) لما وقف بمنی ومعه المسلمون خطب الناس فی مسجد الخيف وهو مسجد منی، سمّی بذلك لأنه واقع فی سفح جبل، مرتفعاً عن مجری السيل.

فقال (ص) بعد الحمد والثناء علی اللّه تعالی: (نضّر اللّه عبداً سمع مقالتی فوعاها وبلّغها من لم يبلغه، يا أيها الناس ليبلّغ الشاهد الغائب، فربّ حامل فقه ليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلی من هو أفقه منه).

ثم قال (ص): (ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب امرئٍ مسلم: إخلاص العمل للّه، والنصيحة لأئمّة المسلمين، واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم، وهم يد علی من سواهم، يسعی بذمّتهم أدناهم).

آخر أيام التشريق

ولما كان اليوم الثالث من آخر أيام التشريق رمی رسول اللّه (ص) الجمار ونفر من منی حتی انتهی إلی الأبطح، ثم ارتحل من يومه وخرج من أسفل مكة من ذوی طوی، بعد أن دخل مكة من أعلاها من عقبة المدنيّين، فخرج (ص) متوجهاً نحو المدينة، وذلك بعد أن استتم حجه، وقضی مناسكه، وعرّف الناس ما يحتاجون إليه، وأعلمهم بأنه قد أقام لهم سنّة إبراهيم (ع) وأزال عنهم ما أحدثه المشركون.

الوحی وآخر آية من القرآن

فی المناقب عن ابن عباس انه قال: لما نزل قوله تعالی: (إنّك ميّت وإنّهم ميّتون)(۹) قال رسول اللّه (ص): ليتنی أعلم متی يكون ذلك! هذا وهو (ص) يعلم الغيب بإذنه تعالی ووحيه. فنزلت سورة النصر، فكان بعد نزولها يسكت رسول اللّه (ص) بين التكبير والقراءة ثم يقول: (سبحان اللّه وبحمده، أستغفر اللّه وأتوب إليه).

فقيل له فی ذلك، فقال: (اما انّ نفسی نعيت إلیّ) ثم بكی بكاءاً شديداً.

فقيل: يا رسول اللّه أوَتبكی من الموت وقد غفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟

فقال (ص): فأين هول المطّلع؟ وأين ضيقة القبر، وظلمة اللحد؟ وأين القيامة والأهوال؟(۱۰)

ثم قال: فعاش (ص) بعد نزول هذه السورة عاما(۱۱).

ثم نزلت آيات وآيات حتی إذا لم يبق علی ارتحال رسول اللّه (ص) من هذه الدنيا سوی سبعة أيام نزلت: (واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلی اللّه ثمّ توفّی كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)(۱۲).

فكانت هـذه الآيـة على بعض الروايات هى آخر آيـة من القرآن الكريم نزل بها جبرائيل (ع) على رسول اللّه (ص) وقال له: ضـعها فى رأس المـائتين والثمانين من سورة البقرة(۱۳)، كما انّ أول آيـة من القرآن كان قـد نزل بها جبرئيل(ع) على رسول اللّه (ص) هى قوله تعالى: (بسم اللّه الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربّك الّذى خلق)(۱۴) الآيات.

فأول آيـة من القرآن ابتـدأ بأول يوم من البعثـة النبويـة الشـريفة، وآخر آية من آيات القرآن اختتم الأيام الأخيرة لرسول اللّه (ص) وما بينهما من فترة كان نزول ما بين هاتين الآيتين، وتلك الفترة استغرقت مدة ثلاث وعشرين سنة.

مَن جمع القرآن؟

وهنـا مـا يلفت النظر ويجلب الإنتباه وهو قول جبرئيـل للنبى (ص) عنـد نزوله بالآيـة الأخيرة كما فى الروايـة: ضـعها فى رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة، فإنه صريح فى انّ اللّه تعالى أمر نبيّه بجمع القرآن وبترتيبه ترتيباً دقيقاً حتى فى مثل ترقيم الآيات، وقـد فعل النبى (ص) ذلك فى حياته (ص) كما أمره اللّه تعالى، ولم يكن (ص) يترك القرآن متفرّقاً حتى يجمع من بعده.

وهـل يمكن للرسول (ص) مع كـبير اهتمـامه وكثير حرصه على القرآن الكريم أن لا ـ يقوم بجمع القرآن وترتيبه! وأن يتركه مبعثراً فى أيدى المسلمين ويوكل جمعه إليهم، مع ان الوحى أخبره بقوله: (انّك ميّت وانّهم ميّتون)(۱۵).

فهل يصح أن يكون (ص) حريصاً على القرآن من جهة(۱۶) وأن لا يجمع القرآن ويتركه مبعثراً من جهة اُخرى؟

بل أليس القرآن هو دسـتور الإسـلام الخالد، ومعجزته الباقية على مرّ القرون والأعصار إلى يوم القيامة؟ ومعه هل يصح أن يتركه النبى (ص) مبعثراً من دون أن يجمعه؟!

أم كيف يـأذن اللّه تعـالى لنبيّه بـأن لا يقوم بجمعه مع انه تعالى يقول: (إنّ علينا جمعه وقرآنه)(۱۷) ويقول تعـالى أيضاً: (إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون)(۱۸).

فعلى النبى (ص) إبلاغ القرآن مجموعاً ومرتّباً إلى الناس كافة، كما جمعه اللّه تعالى ورتّبه.

إذن: فهـذا القرآن الـذى هـو بأيـدينا على ترتيبه وجمعه، وترقيم آيـاته، وترتيب سـوره وأجزائه هـو بعينه القرآن الـذى رتّبه رسول اللّه (ص) وجمعه للمسلمين فى حياته (ص) بأمر من اللّه تعالى لم يطرأ عليه أىّ تغيير وتحريف، أو تبديل وتعديل، أو زيادة ونقصان.

ويؤيّـِده: مـا روى عن تفسير على بن ابراهيم عن الإمـام الصادق (ع) عن رسول اللّه (ص) انه أمر علياً (ع) بجمع القرآن وقال (ص): يا على، القرآن خلف فراشـى فى المصحف والحرير والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيّعوه كما ضيّعت اليهود التوراة، فانطلق على (ع) فجمعه فى ثوب أصفر ثم ختم عليه(۱۹).

وفى مجمع البيـان نقلاً عن السيّد المرتضـى انه قال: إن القرآن جمع فى عهـد رسول اللّه (ص) بالشـكل الـذى هو اليوم بأيـدينا. وقال بمقالته قبله الشـيخ الصدوق (قده) والشـيخ المفيد (قده)، وقال بمقالته بعده شـيخ الطائفة الشـيخ الطوسـى (قده) والمفسّـِر الكبير الشيخ الطبرى (قده) المتوفى سنة ۵۴۸ وباقى علماءنا الأبرار إلى يومنا هذا.

وعن زيـد بن ثـابت انه قـال: كنّا نجمع القطع المتفرّقـة من آيات القرآن ونجعلها بأمر رسول اللّه (ص) فى مكانها المناسب، ولكن مع ذلك كانت الآيات متفرّقة، فأمر رسول اللّه (ص) علياً (ع) أن يجمعها فى مكان واحد، وحذّرنا من تضييعها.

وعن الشعبى انه قال: جمع القرآن فى عهد رسول اللّه (ص) من قبل ستّة نفر من الأنصار.

وعن قتادة انه قال: سألت أنساً عن انه من جمع القرآن فى عهد رسول اللّه (ص)؟ فقال: أربعة نفر من الأنصار ثم ذكر أسماؤهم.

وعن على بن رباح: ان على بن أبى طالب (ع) جمع القرآن هو واُبى بن كعب فى عهد رسول اللّه (ص).

الشواهد الأخرى

هـذا بالإضافـة إلى شواهـد ومؤيّدات أُخرى تدل على ان القرآن الذى هو بأيدينا هو نفسه الذى جمع ورتب فى عهد رسول اللّه (ص) من غير زيادة ولا نقيصة.

منها: تسـمية سورة الحمـد بسورة الفاتحـة فى عهـد رسول اللّه (ص) يعنى انها فاتحـة القرآن مع انها لم تكن السورة ولا الآيات الأُولى التى نزل بها الوحى على رسول اللّه (ص)، فتسـميتها بفاتحـة الكتاب فى عهـده (ص) يشـير إلى ان الكتاب كان مجموعاً بهـذا الشـكل الموجود بأيدينا اليوم، وسورة الحمد فاتحته كما هو اليوم فاتحته أيضاً.

ومنهـا: ان النبى (ص) كـان يقول فى حـديث الثقلين المروى عن الفريقين متواتراً: (إنّى مخلّف فيكم الثقلين: كتـاب اللّه، وعترتى أهل بيتى، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدى أبداً).

فالكتـاب المجمـوع والمرتب يخلّفه رسـول اللّه (ص) فى أُمته، لا ـ الآيـات المتفرّقـة، إذ لا ـ يطلق عليهـا الكتـاب، وقـد سـبق اللّه تعـالى رسوله(ص) فى هذا التعبير حيث أطلق مراراً وفى آيات متعدّدة كلمة (الكتاب) على القرآن، إشارة إلى انه مجموع ومرتّب عنده تعالى فى اللّوح المحفوظ كما قال به بعض المفسّـِرين وانه تعالى أطلع رسوله (ص) على جمعه وترتيبه لـديه وأمره بأن يجمع القرآن على ما هو مجموع فى اللّوح المحفوظ، ويرتّبه وفق ترتيبه، وفعل النبى (ص) ذلك.

ومنها: ما ورد من أمر النبى (ص) بختم القرآن فى شهر رمضان وفى غيره من سائر الأيام، وبيان ما لختمه من الفضيلة والثواب، حتى ان عبـداللّه بن مسـعود، وأُبى بن كعب وغيرهما قـد ختموا القرآن عنـد رسول اللّه (ص) عـدّة مرات، ولولا ان القرآن مجموع ومرتّب، لم يكن لختم القرآن معنى، لأن الختم يقال لما يبدأ من أوله وينتهى بآخره.

ومنهـا: روايـات تأمر بعرض الأحاديث المرويـة عن الرسول (ص) وعن أهل بيته (عليهم السـلام) لمعرفـة غثها من سـمينها على القرآن الكريم وتقول: مـا وافق كتـاب اللّه فقـد قاله رسول الله (ص) وقاله أهل البيت (عليهم السـلام)، وما خالف الكتاب فهو زخرف وباطل، وانهم لم يقولوه، فقـد أحالتنا هـذه الروايات إلى هـذا القرآن الـذى هو بأيـدينا لمعرفـة الحق من الباطل مما يدل على سـلامته من كل زيادة ونقيصة، وتبديل وتحريف، وإلا لم يصح أن يكون مرجعاً لمعرفة الحق من الباطل.

ومنها: ما ورد من ان القرآن كله كان مكتوباً موضوعاً بين المحراب والمنبر، وكان المسلمون يكتبون منه.

ومنها: ما ورد من ان جبرئيل (ع) كان يعرض القرآن على رسول اللّه (ص) كل عام مرّة، وعرضه عليه (ص) فى عامه الأخير مرتين.

ومنها: ما روى من ان جماعة من الصحابة كانوا قد حفظوا القرآن كله فى عهد رسول اللّه (ص).

ولا يخفى ذلك على من راجع تفسير القرآن للعلاّمـة البلاغى (قـدس سـره)، ولوالدى (رحمه اللّه) (۲۰) كلمـة حول ذلك طبعت فى إحدى أعداد (أجوبة المسائل الدينية) فى كربلاء المقدّسة.

هـذا بالإضافة إلى انّ هناك آيات وروايات تشير إلى ان القرآن نزل على رسول اللّه (ص) مرّتين: مرّة نزل بمجموعه على قلب رسول اللّه (ص) كما قال تعالى: (إنّا أنزلناه فى ليلـة القدر)(۲۱) ومرّة نزل عليه نجوماً ومتفرّقاً عبر ثلاث وعشـرين سنة فى المناسبات والقضايا المتفرّقة، والنبىّ (ص) قد وعى قلبه القرآن الذى نزل عليه أوّلاً مجموعاً ومرتّباً، فجمع القرآن الذى نزل عليه ثانياً نجوماً ومتفرّقاً حسـب جمع القرآن الأول، ورتبه وفق ترتيبه، وهو بعينه القرآن الذى هو اليوم بأيدينا.

إلى غير ذلك مما يشـير بمجموعه إلى انّ هـذا القرآن الذى هو اليوم بأيدينا هو القرآن الذى جمع بأمر من اللّه ورسوله (ص) فى عهد رسول اللّه (ص) لم يزدد حرفاً ولم ينقص حرفاً، ولم يتغيّر شىء منه ولم يتبدّل أبداً، كيف وقد قال تعالى: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)(۲۲).

إلى غير ذلك مما يشـير بمجموعه إلى انّ هـذا القرآن الذى هو اليوم بأيدينا هو القرآن الذى جمع بأمر من اللّه ورسوله (ص) فى عهد رسول اللّه (ص) لم يزدد حرفاً ولم ينقص حرفاً، ولم يتغيّر شىء منه ولم يتبدّل أبداً، كيف وقد قال تعالى: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه).

۱ الحج: ۲۷. ۲ البقرة: ۱۵۸. ۳ البقرة: ۱۹۶.

۴ البقرة: ۱۹۶. ۵ آل عمران: ۹۵. ۶ البقرة: ۱۹۹.

۷ أى: الحج مع العمرة. ۸ النصر: ۱. ۹ الزمر: ۳۰.

۱۰ أراد النبى (ص) الإلماع إلى الأهوال لا أنه (ص) يبتلى بها.

۱۱ راجع بحار الأنوار: ج۲۲ ص۴۷۱ ب۱ ح۲۰. ۱۲ البقرة: ۲۸۱.

۱۳ تفسير شبّر (قدس سره): ص۸۳. ۱۴ العلق: ۱. ۱۵ الزمر: ۳۰.

۱۶ حتى انه (ص) كـان يأمر بحفظ القرآن والاهتمام به والتحريض على تلاوته والعمل به، وخاصـة فى أيامه الأخيرة، حيث كان يقول مراراً: إنى مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدى أبداً.

۱۷ القيامة: ۱۷. ۱۸ الحجر: ۹.

۱۹ بحار الأنوار: ج۸۹ ص۴۸ ب۷ ح۷ ط بيروت.

۲۰ آية الله العظمى السيد ميرزا مهدى الشيرازى (قدس سره). ۲۱ القدر: ۱.

۲۲ فصّلت: ۴۲.

مهمة تبليغ الرسالة

ولمـا انصـرف رسول اللّه (ص) من حجـة الوداع والمسـلمون معه وهم على بعض الروايـات زهـاء مـائتى ألف نسـمة، سـار (ص) نحو المدينـة حتى إذا كان اليوم الثامن عشـر من ذى الحجـة وصل إلى غـدير خم من الجحفة التى تتشـعّب فيها طرق المدنيين عن غيرهـم، ولم يكن هـذا المكان بموضع إذ ذاك يصـلح للنزول، لعـدم الماء فيه والمرعى، فنزل عليه الأمين جبرئيل عن اللّه بقوله تعالى: (يا أيّها الرسول بلّغ ما اُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته واللّه يعصمك من الناس)(۱).

وكان نزوله هـذا بهـذا الشأن هى المرة الثالثـة، فقـد نزل عليه (ص) قبلها مرّتين وذلك للتأكيـد: مرة عنـد وقوفه بالموقف، واُخرى عند كونه فى مسـجد الخيف، وفى كـل منهمـا يأمره بأن يسـتخلف علىّ بن أبى طالب (ع)، وأن يسـلّم إليه ما عنـده من العلم وميراث علوم الأنبياء (عليهم السلام) وجميع ما لديه من آياتهم، وأن يقيمه علماً للناس، ويبلّغهم ما نزل فيه من الولاية، وفرض الطاعة على كل أحد، ويأخـذ منهم البيعـة له على ذلك، والسـلام عليه بإمرة المؤمنين، ورسول اللّه(ص) يسأل جبرئيل أن يأتيه من اللّه تعالى بالعصـمة، وفى هذه المرة نزل عليه بهذه الآية الكريمة التى فيها: (واللّه يعصمك من الناس).

وكان أوائل القوم، عنـد نزول جبرئيل بهـذه الآية التى أمرت رسول اللّه(ص) فى تبليغ ما اُنزل إليه فى على (ع)، قريباً من الجحفة، فأمر رسـول اللّـه (ص) بـالتوقّف عـن المسـير وأن يردّ مـن تقـدّم مـن القـوم ويحبس مـن تـأخّر عنهم فى ذلـك المكـان، فنزل (ص) ونزل المسلمون حوله، وكان يوماً قايظاً شديد الحرّ، فأمر بدوحات هناك فقمّ ما تحتها وأمر بجمع الرحال فيه، ووضع بعضها فوق بعض.

ثم أمر (ص) مناديه فنادى فى الناس: الصـلاة جامعـة، فاجتمعوا إليه وان الرجل منهم ليضع بعض ردائه على رأسه وبعضه تحت قـدميه من شدّة الحرّ، فلما اجتمعوا صعد (ص) على تلك الرحال حتى صار فى ذروتها، ودعا علياً (ع) فرقى معه حتى قام عن يمينه ثم خطب (ص) النـاس خطبـة بليغـة لم يسـمع النـاس بمثلها فحمـد اللّه وأثنى عليه، ووعظ فأبلغ الموعظـة، ونعى إلى الاُمّـة نفسه، وأشار إلى أمر الإستخلاف فنصب علياً (ع) بأمر من اللّه تعالى خليفة عليهم بعده، وقال فى آخرها ما يلى:

مقتطفات من حديث الغدير

معاشـر النـاس! ان اللّه أوحى إلىّ يقول: (يا أيّها الرسول بلّغ ما اُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته واللّه يعصـمك من

الناس إنّ اللّه لا يهدى القوم الكافرين).

وأنا مبيّن لكم سبب نزول هـذه الآية: انّ جبرئيل هبط عليّ مراراً ثلاثاً يأمرنى عن ربّى جلّ جلاله أن أقوم فى هذا المشـهد، فأُعلم كل أبيض وأسود، انّ على بن أبى طالب أخى ووصـيّى وخليفتى على اُمّتى، والإمام من بعـدى، وقد ضـمن لى تبارك وتعالى العصـمة من الناس وهو اللّه الكافى الكريم.

فـاعلموا معاشـر النـاس! ان اللّه قـد نصـبه لكم وليـاً وإمامـاً مفترضاً طاعته على المهاجرين والأنصار، وعلى التابعين لهم بإحسان، وعلى البادى والحاضر وعلى الأعجمى والعربى، والحر والمملوك، وعلى كل موحّد.

معاشـر النـاس! انه آخر مقام أقومه فى هـذا المشـهد، فاسـمعوا وأطيعوا، وانقادوا لأمر ربّكم، فإنّ اللّه هو مولاكم وإلهكم، ثم من بعـده رسوله محمّـد وليّكم القـائم المخـاطب لكم، ثم من بعـدى على وليّكم وإمـامكم بـأمر ربّكم، ثم الإمامـة فى ذرّيتى من ولـده إلى يوم تلقون اللّه ورسوله، لاـ حلاـل إلاّـ مـا أحلّه اللّه، ولاـ حرام إلاّ ما حرّمه اللّه، عرّفنى اللّه الحلال والحرام وأنا أفضـيت لما علّمنى ربّى من كتابه وحلاله وحرامه إليه.

معاشـر الناس! ما من علم إلاّ وقـد أحصاه اللّه فىّ، وكل علم علّمت فقـد أحصـيته فى إمام المتّقين، وما من علم إلا عَلَّمته علياً والمتّقين من ولده.

معاشـر الناس! لا تضـلّوا عنه، ولا تنفروا منه، ولا تسـتنكفوا من ولايته، فهو الـذى يهدى إلى الحق ويعمل به، ويزهق الباطل وينهى عنه، ولا تأخذه فى اللّه لومة لائم.

معاشر الناس! فضّلوه فقد فضّله اللّه، واقبلوه فقد نصبه اللّه.

معاشـر النـاس! انّ علياً والطيّبين من ولـده هم الثقـل الأصـغر، والقرآن هو الثقل الأكبر، وكل واحـد منبىء عن صاحبه، وموافق له، لن يفترقـا حتّى يردا علىّ الحوض، هم اُمناء اللّه فى خلقه، وحكماؤه فى أرضه، ألا وقـد أدّيت، ألا وقـد بلّغت، ألا وقـد أسـمعت، ألا وقد أوضـحت، ألا وان اللّه عزّوجل قال، وأنا قلت عن اللّه عزّوجل: ألا انه ليس أمير المؤمنين غير أخى هـذا، ولا تحلّ إمرة المؤمنين بعدى لأحد غيره.

ثم ضرب بيده على عضد على فرفعه وقال:

معاشـر الناس! هذا أخى ووصيّى، وواعى علمى، وخليفتى على اُمَّتى وعلى تفسير كتاب اللّه عزّوجل، والداعى إليه، والعامل بما يرضاه، والمحـارب لأعـدائه، والموالى على طـاعته، والنـاهى عن معصـيته، خليفـة رسول اللّه، وأمير المؤمنين، والإمـام الهـادى، وقاتل الناكثين والقاسـطين والمـارقين بـأمر اللّه، أقول ومـا يبـدّل القول لـدىّ بـأمر ربّى أقول: اللّهمّ والِ من والاـه، وعاد من عاداه، وانصـر من نصـره، واخـذل من خـذله، والعن من أنكره، واغضب على من جحـد حقّه، اللّهمّ انـك أنزلت علىّ: ان الإمامـة بعـدى لعلىّ وليّـك، اللّهمّ انّى اُشهدك وكفى بك شهيداً انى قد بلّغت.

معاشـر الناس! انما أكمل اللّه عزّ وجل دينكم بإمامته، هذا على أنصركم لى، وأحقّكم بى، وأقربكم إلىّ، وأعزّكم علىّ، واللّه عزّ وجل وأنا عنه راضـيان، وما نزلت آيـة رضـىً إلا فيه، وما خاطب اللّه الذين آمنوا إلاّ بدأ به، ولا نزلت آية مدح فى القرآن إلا فيه، ولا شـهد بالجنّة فى (هل أتى على الإنسان)(۲) إلاّ له، ولا أنزلها فى سواه، ولا مدح بها غيره.

معاشر الناس! نبيّكم خير نبىّ، ووصيّكم خير وصىّ، وبنوه خير الأوصياء.

معاشر الناس! ذرّية كلّ نبىّ من صلبه، وذرّيتى من صلب على.

معاشـر النـاس! انّ اللّه قـد أمرنى ونهـانى، وقـد أمرتُ علياً ونهيته، فعلم الأمر والنهى من ربّه عزّوجل، فاسـمعوا لأمره تسـلموا، وأطيعوا تهتدوا، وانتهوا لنهيه ترشدوا، وصيروا إلى مراده، ولا تتفرّق بكم السبل عن سبيله.

معاشـر الناس! أنا صـراط اللّه المستقيم الذى أمركم باتباعه، ثم علىّ من بعدى، ثم ولدى من صلبه أئمّةً يهدون إلى الحقّ وبه يعدلون،

ألا انّ أعداء على هم أهل الشقاق والنفاق، والحادّون، وهم العادون، وإخوان الشياطين الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

معاشر الناس! ألا وانّى منذر، وعليّ هاد.

معاشر الناس! انّى نبيّ، وعليّ وصيّ، ألا انّ خاتم الأئمّة منّا القائم المهدى.

معاشر الناس! قد بيّنت لكم وأفهمتكم، وهذا على يفهمكم بعدى، ألا ـ وانى عند انقضاء خطبتى أدعوكم إلى مصافقتى على بيعته، والإقرار به، ثم مصافقته بعدى، ألا وانى قد بايعتُ اللّه، وعليّ قد بايعنى، وأنا آخذكم بالبيعة له عن اللّه عزّ وجلّ (فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه)(۳).

معاشر الناس! وكلّ حلال دللتكم عليه، أو حرام نهيتكم عنه، فإني لم أرجع عن ذلك ولم اُبدّل، ألا فاذكروا ذلك واحفظوه، وتواصوا به، ولا تبدلوه ولا تغيّروه، ألا فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وامروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، ألا وانّ رأس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: أن تنتهوا إلى قولى وتبلّغوه من لم يحضر، وتأمروه بقبوله، وتنهوه عن مخالفته، فإنه أمر من اللّه عزّوجلّ ومنّى، ولا ـ أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلاّ مع إمام معصوم.

معاشر الناس! فما تقولون؟ قولوا الّذى قلت، وسلّموا على عليٍّ بإمرة المؤمنين، وقولوا: سمعنا وأطعنا، وقولوا: الحمد للّه الّذى هدانا لهذا وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا اللّه.

معاشر الناس! انّ فضائل عليّ عند اللّه عزّوجل الذى قد أنزلها فى القرآن أكثر من أن اُحصيها فى مكان واحد، فمن أنبأكم بها فصدِّقوه.

معاشر الناس! من يطع اللّه ورسوله وعلياً أمير المؤمنين والأئمّة من ولده فقد فاز فوزاً عظيماً.

فناداه القوم: سمعنا وأطعنا أمر اللّه وأمر رسوله بقلوبنا وألسنتنا وأيدينا.

ثم انّ رسول اللّه (ص) نادى بأعلى صوته ويده فى يد على (ع) وقال: يا أيّها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟

قالوا بأجمعهم: بلى يا رسول اللّه.

فرفع رسول اللّه (ص) بضبع على (ع) حتى رأى الناس بياض ابطيهما، وقال على النسق من غير فصل: (فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، والعن من خالفه، وأدر الحقّ معه حيثما دار، ألا فليبلّغ ذلك منكم الشاهد الغائب، والوالد الولد).

الصحابة يبايعون علياً (ع)

ثم نزل رسول اللّه (ص) وكان وقت الظهيرة فصلّى ركعتين ثمّ زالت الشمس، فأذّن مؤذّنه لصلاة الفرض، فلما صلّى بهم جلس فى خيمته وأمر عليّاً (ع) أن يجلس فى خيمة له بازائه، ثم أمر (ص) المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنّؤوه (ع) بالولاية، ويسلّموا عليه بإمرة المؤمنين، ويبايعوه على ذلك.

ففعل الناس ذلك كلّهم حتى انّ أبا بكر وعمر بايعاه وعمر يقول له: بخّ بخّ لك يابن أبى طالب أصبحت مولاى ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة(۴)، ثم أردفا ذلك بقولهما: السلام عليك يا أميرالمؤمنين ورحمة اللّه وبركاته، ثم هنّؤوه بالخلافة.

ثم أمر رسول اللّه (ص) أزواجه وسائر نساء المؤمنين معه أن يدخلن على على (ع) ويسلّمن عليه بإمرة المؤمنين، ويبايعنه على ذلك، ففعلن وسلّمن عليه (ع) وبايعنه بإدخال أيديهنّ فى طشت فيه ماء كان قد أدخل على (ع) يده فيه قبل ذلك.

جبرئيل ويوم الغدير

ولمـا فرغ رسول اللّه (ص) من خطبته رأى النـاس رجلًا جميلًا بهيّاً طيّب الريـح وهو ينادى ويقول: تاللّه ما رأيتُ محمـداً (ص) كاليوم قطّ، فسعى أحد الصحابة بمقالة الرجل إلى رسول اللّه (ص)، فقال له رسول اللّه (ص): أتدرى من ذلك الرجل؟

قال: لا.

قال (ص): ذلک هو الروح الأمين جبرئيل، فإيّاک إيّاک أن تحلّه، فإنّک إن فعلته، فاللّه ورسوله وملائكته والمؤمنون منک براء.

قال ابن عبّاس: قد وجبت واللّه بيعته فى رقاب الصحابة إلى يوم القيامة.

القرآن يبارک خلافة على (ع)

وعن ابن عبـاس، وحذيفـة، وأبى ذر وغيرهـم، انهم قـالوا: واللّه مـا برحنـا من مكاننا ذلك حتى نزل جبرئيل بهـذه الآيـة عن اللّه تعالى: (اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلام ديناً)(۵).

فقال رسول اللّه (ص): اللّه أكبر على إكمال الـدين، وإتمام النعمـة، ورضا الربّ سبحانه وتعالى برسالتى إليكم، والولايـة لعلىّ بن أبى طالب بعدى.

فعندها قام حسّان بن ثابت وقال: يا رسول اللّه أتأذن لى أن أقول فى هذا المقام ما يرضاه اللّه؟

فقال له (ص): قل يا حسّان على اسم اللّه.

فوقف على نشز من الأرض وتطاول الناس لسماع كلامه، فأنشأ يقول:

الغدير برواية الشعر

يناديهم يوم الغدير نبيّهم بخمّ واسمع بالرسول منادياً

فقال: فمن مولاكمُ ونبيكم؟ فقالوا ولم يبدوا هناک التعاميا

إلهک مولانا وأنت نبيّنا ولم تلق منّا فى الولاية عاصيا

فقال له: قم يا على فإنّنى رضيتک من بعدى إماماً وهادياً

فمن كنتُ مولاه فهذا وليّه فكونوا له أتباع صدق موالياً

هناک دعا اللّهمّ وال وليّه وكن للذى عادى علياً معاديا

فقال له رسول اللّه (ص): لا تزال يا حسّان مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانک.

ثم قام من بعده جماعة من الشـعراء وألقوا على مسامع القوم أبياتاً فى مدح على (ع) وتبجيل هذه المناسـبة العظيمة كقيس بن سعد بن عبادة الخزرجى وغيره.

مع النعمان الفهرى

ولما نصب رسول اللّه (ص) علياً (ع) يوم غدير خم وقال: من كنت مولاه فعلىّ مولاه، قَدِمَ على النبى (ص) النعمان بن الحارث الفهرى فقال: أمرتنا عن اللّه أن نشهد أن لا إله إلا اللّه، وانّک رسول اللّه، وأمرتنا بالجهاد والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها ثم لم ترضَ حتى نصـبت ابن عمک علينا وقلت: من كنت مولاه فعلىّ مولاه، فهذا شىء منک أو أمر من عند اللّه؟ فقال (ص): واللّه الذى لا إله إلا هو انّ هـذا من اللّه، فولّى النعمـان وهو يقول: اللّهمّ إن كان هـذا هو الحق من عنـدک فأمطر علينا حجارة من السـماء، فرماه اللّه بحجر على رأسه فقتله، وأنزل اللّه تعالى: (سأل سائل بعذاب واقع)(۶) الآيات(۷).

من ذكريات الغدير

وفى يوم الغدير أمر رسول اللّه (ص) بعد أن أخذ البيعة لعلى (ع) بإمرة المؤمنين بزيادة الشهادة الثالثة: (أشهد أنَّ علياً ولىّ اللّه) فى فصول الأذان والإقامة.

وقد قال الإمام الصادق (ع): (إذا قال أحدكم لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه، فليقل: على أمير المؤمنين)(۸).

وفى الحديث عن أبى ذر انه أذّن بعد واقعة الغدير وأخذ يهتف بعد الشهادتين بالشهادة الثالثة، فرفع ذلك بعض إلى رسول اللّه (ص)، فقال (ص): أما وعيتم خطبتى يوم الغدير لعلى بالولاية؟! أما سمعتم قولى فى أبى ذر: ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر؟!

وروى عن سلمان الفارسى أيضاً انه أذّن بعد قصة الغدير فذكر بعد الشهادتين الشهادة الثالثة فى أذانه، فأخبر بعض الصحابة رسول اللّه (ص) بذلك، فلم يرَ من رسول اللّه (ص) إلا انه أقرّ لسلمان ذلك.

هذا بالإضافة إلى روايات اُخرى تدلّ على أنّ الشهادة الثالثة جزء من الأذان والإقامة، وقد اخترنا ذلك فى الفقه(۹).

اللّه تعالى يعصم نبيّه (ص)

ثم انه لما تمّت بيعة الناس لعلى (ع) بالخلافة وبعد أن صلّى رسول اللّه (ص) بهم الفرض، أمرهم بالرحيل، وقد طال مكثهم هناك للبيعة ثلاثة أيّام.

فسار رسول اللّه (ص) بعد أن أمر الناس بالرحيل يومه وليلته حتى أشرف على عقبة هدشا، وكان قد تقدّمه نفر من المنافقين إلى ثنية العقبة وأخذوا معهم دباباً قد طرحوا فيها حجارة لينفروا برسول اللّه (ص) ناقته ويقضوا عليه قبل أن يصل إلى المدينة.

قال حذيفة: فدعانى رسول اللّه (ص) وأمرنى أن آخذ بزمام الناقة، ودعا عمّار بن ياسر وأمره بأن يسوقها، حتى إذا صرنا فى رأس العقبة ودحرج اُولئك النفر تلك الدباب بين قوائم الناقة، فزعت الناقة وكادت أن تنفر، فصاح بها رسول اللّه (ص) أسكنى يا مباركة فليس عليكِ بأس.

فلما رأى القوم ان الناقة لا تنفر تقدّموا إليها ليدفعوها بأيديهم، فجعلت أنا وعمّار نضرب وجوههم بأسيافنا وكانت ليلة مظلمة فتأخّروا عنا وقد أيسوا مما دبّروه.

فقلت: يا رسول اللّه ألا تبعث إليهم رهطاً من أصحابك يأتوك برؤوسهم؟

فقال (ص): انى أكره أن يقول الناس: دعا قوماً إلى دينه فأجابوه فقاتل بهم، حتى إذا ظفر بعدوّه قتلهم، ولكن دعهم فإن اللّه لهم بالمرصاد وسيمهلهم قليلاً ثم يضطرّهم إلى عذاب غليظ.

قال حذيفة: ثم انحدرنا من العقبة ونزل رسول اللّه (ص) وتوضّأ وانتظر أصحابه، حتى نزلوا واجتمعوا لصلاة الصبح، فرأيتُ اُولئك النفر قد انخرطوا مع القوم ودخلوا مع رسول اللّه (ص) إلى الصلاة، فلما قضيت الصلاة دعا رسول اللّه (ص) اُولئك النفر وعاتبهم على ما كان منهم من الوقوف على العقبة، فاعتذروا بأنّهم تقدّموه إليها لضيق المكان، وليأنس بعضهم ببعض، فنظر إليهم رسول اللّه (ص) مليّاً ثم قال: وما اللّه بغافل عمّا تعملون.

۱ المائدة: ۶۷. ۲ الإنسان: ۱. ۳ الفتح: ۱۰.

۴ بحار الانوار: ج۲۱، ص۳۸۸، مؤسسة الوفاء بيروت. ۵ المائدة: ۳.

۶ المعارج: ۱. ۷ بحار الانوار: ج۳۷ ص۱۷۵ ب۵۲ ح ۶۲.

۸ بحار الانوار: ج۲۷ ص۱ ب۱۰ ح۱.

۹ راجع موسوعة الفقه ج۱۹ كتاب الصلاة، فى فصول الأذان والإقامة.

الثقلان وديعتا رسول اللّه (ص)

ثم ان رسول اللّه (ص) لم يزل بعد يوم الغدير يكرّر من قوله:
(يا أيها الناس انى فرطكم، وأنتم واردون عليَّ الحوض، ألا وانى سائلكم عن الثقلين، فانظروا كيف تخلّفونى فيهما، فإنّ اللطيف الخبير نبّأنى انّهما لن يفترقا حتى يلقيانى، وسألت ربّى ذلك فأعطانيه، ألا وانى قد تركتهما فيكم: كتاب اللّه، وعترتى أهل بيتى، فلا تسبقوهم فتفرّقوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم، أيها الناس لا ألفينّكم بعدى ترجعون كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، فتلقونى فى كتيبة كمجرّ السيل الجرّار، ألا ـ وان على بن أبى طالب أخى ووصيّى، يقاتل بعدى على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله).

تأكيد حديث الغدير

وعن على (ع) انه قال: أمرنى رسول اللّه (ص) أن أخرج فأُنادى فى الناس: (ألا من ظلم أجيراً أجره فعليه لعنة اللّه، ألا من توالى غير مواليه فعليه لعنة اللّه، ألا ومن سبّ أبويه فعليه لعنة اللّه).
قال على (ع): فخرجت فناديت فى الناس كما أمرنى رسول اللّه (ص) فقال الناس: هل لما ناديت به من تفسير؟
قلت: اللّه ورسوله أعلم.
قال (ع): فقام جماعة من أصحاب النبى (ص) فدخلوا عليه، فقالوا: يا رسول اللّه (ص) هل لما نادى على من تفسير؟
قال (ص): نعم، أمرته أن ينادى: ألا من ظلم أجيراً أجره فعليه لعنة اللّه، واللّه يقول: (قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة فى القربى)(۱) فمن ظلمنا أجرنا فعليه لعنة اللّه.
وأمرته أن ينادى: من توالى غير مواليه فعليه لعنة اللّه، واللّه يقول: (النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم)(۲) ومن كنت مولاه فعلىّ مولاه، فمن توالى غير على وذرّيته فعليه لعنة اللّه.
وأمرته أن ينادى: من سبّ أبويه فعليه لعنة اللّه، وأنا أُشهد اللّه وأُشهدكم انى وعلياً أبوا هذه الأُمّة، فمن سبّ أحدنا فعليه لعنة اللّه.
قال الخباب بن الأرتّ: كان هذا الحديث قبل ارتحال النبى (ص) من هذه الدنيا بتسعة عشر يوماً.

سريّة أُسامة إلى الروم

ثم عقد رسول اللّه (ص) اللواء والإمرة لأُسامة بن زيد، وندبه أن يخرج بجمهور الأُمّة إلى حيث أُصيب أبوه من بلاد الروم، وكانت هذه هى آخر سريّة عقدها رسول اللّه (ص) فى حياته، وكان قد اجتمع رأيه على إخراج جماعة من الذين تآمروا عليه فى العقبة وتعاهدوا بينهم على نكث البيعة فى معسكره، حتى لا يبقى فى المدينة عند ارتحاله (ص) من يختلف فى الرياسة، ويطمع فى التقدّم على الناس بالإمارة، ويستتب الأمر لمن استخلفه من بعده ولا ينازعه فى حقّه منازع.
فعقد (ص) لأُسامة الإمرة على كبار الصحابة وذوى أسنانهم وهو حدث السنّ، حتى لا يطعن أحد فى تعيين اللّه ونصب رسوله علياً خليفة من بعده وأميراً للمؤمنين بحداثة السنّ، ثم جدّ فى إخراجهم، وأمر أُسامة أن يعسكر بالجرف على أميال من المدينة، وأمر الناس بالخروج إليه والمسير معه، وحذّرهم من التلوّم والإبطاء عنه. وقال (ص): نفّذوا جيش أُسامة، نفّذوا جيش أُسامة، لعن اللّه من تخلّف عن جيش أُسامة، يكرّرها ثلاثاً(۳).

الإستغفار لأهل البقيع

بينا كان رسول اللّه (ص) يُحرص أشدّ الحرص على تسيير جيش اُسامة، ومغادرة رؤوس أصحابه المدينة، وتخليتها لعلى (ع) من المعارضين، إذ عرضت له الشكاة التى ارتحل فيها من الدنيا، وكانت شكاته على أثر اُكلة خيبر المسمومة، فإنه مازال ينتقض به سمّها حتى قال (ص) عند ارتحاله: (اليوم قطعت مطاياى الأكلة التى أكلتُ بخيبر، وما من نبىّ ولا وصىّ إلاّ شهيد). وهناك روايات اُخرى فى سبب شهادته (ص) مذكورة فى المفصّلات.

فلما أحسّ رسول اللّه (ص) بذلك أخذ بيد على بن أبى طالب (ع)، واتبعه جماعة من الناس، وتوجّه إلى البقيع، فقال لمن اتبعه: اننى قد اُمرت بالإستغفار لأهل البقيع، فانطلقوا معه حتى وقف بين أظهرهم وقال: (السلام عليكم يا أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع اللّيل المظلم يتبع أولها آخرها).

ثم استغفر (ص) لأهل البقيع طويلاً.

ثم أقبل إلى على أميرالمؤمنين (ع) وقال له: (يا أخى انّ جبرئيل كان يعرض علىّ القرآن كل سنة مرة، وقد عرضه علىّ فى العام مرتين، ولا ـ أراه إلاّ ـ لحضور أجلى)، ثم قال: (يا على إنى خيّرت بين خزائن الدنيا والخلود فيها، وبين لقاء ربّى والجنّة، فاخترتُ لقاء ربّى والجنّة خالداً فيها، فإذا أنا متّ فتغسلنى) وأوصاه أن يكون (ع) هو الذى يلى أمره.

لا نجاة الا بعمل مع رحمة اللّه

ثم عاد رسول اللّه (ص) من البقيع إلى منزله، فمكث ثلاثة أيام موعوكاً، ثم خرج إلى المسجد معصوب الرأس معتمداً إلى على أمير المؤمنين (ع) بيمنى يديه، وعلى الفضل بن العباس باليد الاُخرى حتى صعد المنبر فجلس عليه، ثم حمد اللّه وأثنى عليه وقال: (معاشر الناس قد حان منّى خفوق من بين أظهركم، فمن كان له عندى عدة فليأتنى أعطه إياها، ومن كان له علىَّ دَيْن فليخبرنى به).

فقام إليه رجل فقال: يا رسول اللّه ان لى عندك عدة، انى تزوّجت فوعدتنى أن تنحلنى ثلاثة أفواق.

فأمر (ص) له بذلك وقال: انحلها وافضل.

ثم قال: معاشر الناس! انه ليس بين اللّه وبين أحد شيئاً يعط به خيراً، أو يصرف به عنه شرّاً، الاّ العمل، أيها الناس لا يدّعى مدّع، ولا يتمنّى متمنٍّ، والذى بعثنى بالحق نبياً لا ـ ينجى إلا عمل مع رحمة اللّه، ولو عصيت لهويت، ثم قال: اللّهمّ هل بلّغت؟ ثم نزل فصلّى بالناس صلاة خفيفة، ثم دخل بيته.

الكتاب والعترة خليفتا رسول اللّه (ص)

فلمّا كان من الغد أقبل الأنصار وأحدقوا بالباب، وعلموا بشدّة نقاهة رسول اللّه (ص) والضعف الذى هو فيه فجعلوا يبكون، فسمع رسول اللّه (ص) البكاء فقال: من هؤلاء الباكون؟

قالوا: هم الأنصار يا رسول اللّه.

فقال (ص): مَن هنا مِن أهل بيتى؟

قالوا: على (ع) والعبّاس، فدعا بهما وخرج متكياً عليهما واستند إلى جذع من جذوع مسجده، واجتمع الناس حوله، فحمد اللّه وأثنى عليه وقال: (معاشر الناس! انه لم يمت نبىّ قطّ إلا خلّف تركة، وقد خلّفتُ فيكم الثقلين: كتاب اللّه، وعترتى أهل بيتى، فتمسّكوا بهما، فمن ضيّعهما ضيّعه اللّه، ألا ـ وان الأنصار كرشى وعيبتى آوى إليها، اُوصيكم بتقوى اللّه والإحسان إلى محسنهم، والتجاوز عن مسيئهم).

مع اُسامة بن زید

ثم انّ رسول اللّه (ص) دعا اُسامة بن زید الذی أمره أن یعسکر بالجرف وقال له: سِر علی برکة اللّه حیث أمرتک بمن أمّرتک علیه.
فقال اُسامة: بأبی أنت واُمّی یا رسول اللّه، أتأذن لی فی المقام عندک حتی یشفیک اللّه، فإنی متی خرجت وأنت علی هذه الحالة خرجت وفی قلبی منک قرحة.
فقال له رسول اللّه (ص): انفذ یا اُسامة إلی ما أمرتک.
فخرج اُسامة من یومه ذلک، ونادی منادی رسول اللّه (ص): ألا لا یتخلّف عن جیش اُسامة أحد ممن أمَّرته علیه.
ثم أمر (ص) قیس بن عبادة والحباب بن المنذر بإخراج جماعة من الأنصار کانوا قد تثاقلوا، وأمرهم بترحیل القوم إلی عسکرهم، ففعلا ـ ذلک حتی ألحقوهم بالعسکر، وقالا لاُسامة: إنّ رسول اللّه (ص) لم یرخّص لک فی التأخیر، فسر من قبل أن یعلم بتأخیرک، فارتحل بهم اُسامة، وانصرف قیس والحبّاب إلی رسول اللّه(ص) وأخبراه بمسیر القوم، ومع ذلک فقد تخلّف عن جیش اُسامة بعض کما ورجع منهم آخرون إلی المدینة.

النبی (ص) یصلّی بالمسلمین جالساً

وکان رسول اللّه (ص) لشدّة شکاته فی تلک اللیلة لا یفارقه علی (ع) والفضل بن العباس، وکان بلال عندما یؤذّن لکل فریضة یأتی إلی النبی (ص) فیقول: الصلاة یا رسول اللّه، فإن قدر رسول اللّه (ص) علی الخروج إلی الصلاة خرج وصلّی بالناس، وإن لم یقدر أمر علی بن أبی طالب (ع) أن یصلّی بهم.
وفی صباح تلک اللیلة أتاه بلال علی عادته یؤذنه بالصلاة، فوجده قد ثقل عن الخروج، فنادی: الصلاة رحمکم اللّه، فأذّن رسول اللّه (ص) بندائه ورأسه فی حجر علی (ع). ولم یتمکّن (ص) من الخروج إلی المسجد.. هذا والمسلمون جالسون للصلاة فتقدّم أحد الصحابة إلی المحراب، فلمّا کبّر سمعه رسول اللّه(ص)، فقال لمن حوله: سنّدونی وأخرجونی إلی المسجد.
فخرج (ص) وهو معصّب الرأس معتمداً بین علی (ع) والفضل بن العبّاس ورجلاه یخطّان فی الأرض من الضعف، فتقدّم رسول اللّه (ص) ونحّی الصحابی عن المحراب، وابتدأ الصلاة وکبر لها مستأنفاً وهو جالس، وبلال یسمع الناس التکبیر.
فلما أکمل (ص) صلاته قال لمن حوله: عرّجوا بی إلی المنبر، فأجلسوه علی أدنی مرقاة منها واجتمع له جمیع أهل المدینة من المهاجرین والأنصار حتی برزت العواتق من خدورهنّ فبین باک وصارخ والنبی (ص) یخطب ساعة ویسکت ساعة.
وکان مما ذکر (ص): أن حمد اللّه وأثنی علیه بما هو أهله ثم قال (ص): (ألا أیُّها الناس انی مخلّف فیکم ما إن تمسّکتم به لن تضلّوا بعدی، کتاب اللّه وعترتی أهل بیتی، فإنهما لن یفترقا حتی یردا علیّ الحوض، فتمسّکوا بهما، فلا ـ تتقدّموا أهل بیتی فتمرقوا، ولا تتأخّروا عنهم فتزهقوا، وأوفوا بعهدی، ولا تنکثوا بیعتی التی بایعتمونی علیها، اللّهمّ انی قد بلّغت ما أمرتنی، ونصحت لهم ما استطعت، وما توفیقی إلا باللّه علیه توکلت وإلیه اُنیب).
وفی روایة انه (ص) قال: ألا قد خلّفت فیکم کتاب اللّه فیه النور والهدی والبیان، ما فرّط اللّه فیه من شیء، حجّة اللّه علیکم وحجّتی وحجّة ولیّی، وخلّفت فیکم العلم الأکبر، عَلَم الدین، ونور الهدی: وصیّی علی بن أبی طالب، ألا هو حبل اللّه فاعتصموا به جمیعاً ولا تفرَّقوا عنه.
أیّها الناس! لا تأتونی غداً بالدنیا تزفّونها زفّاً، ویأتی أهل بیتی شعثاً غبراً، مقهورین مظلومین، تسیل دماؤهم.
أیّها الناس! اللّه اللّه فی أهل بیتی، فإنهم أرکان الدین، ومصابیح الظلم، ومعدن العلم، علی أخی ووزیری، وأمینی والقائم من بعدی بأمر اللّه، والموفی بذمّتی، ومحیی سنّتی، أول الناس بی ایماناً، وآخرهم عهداً عند الموت، وأولهم لی لقاءاً یوم القیامة، فلیبلّغ شاهدکم

غائبكم.

أيّها الناس! ومن كانت له قبلى تبعة فها أنا ومن كانت له عدة أو دَيْن فليأت فيها على بن أبى طالب فإنّه ضامن لذلك كله حتى لا يبقى لأحد علىّ تبعة.

ثم قام (ص) معتمداً بين على (ع) والفضل بن العبّاس ودخل منزله.

مع المتخلّفين عن جيش اُسامة

ثم انّ رسول اللّه (ص) بعث من استدعى له المتخلّفين عن جيش اُسامة، فلما حضروا قال لهم (ص): ألم آمركم أن تنفّذوا جيش اُسامة؟!

فقالوا: بلى يا رسول اللّه.

فقال (ص): فلم تأخّرتم عن أمرى؟

فقال بعضهم: انى كنت قد خرجت ثم رجعت لاُجدّد بك عهداً.

وقال بعض آخر: انى لم أخرج لأنى لم اُحب أن أسأل عنك الركبان.

فقال رسول اللّه (ص): نفّذوا جيش اُسامة، نفّذوا جيش اُسامة يكرّرها ثلاثاً لعن اللّه من تأخّر عنه(۴)، ثم اشتدّ ضعفه (ص) وانقطع عن الكلام لعظم ما لحقه من التعب والضعف، فبكى المسلمون وارتفع النحيب من أزواجه وولده ونساء المسلمين وجميع من حضره (ص).

الرزية كل الرزية

ثم مكث رسول اللّه (ص) هنيئة كذلك، حتى إذا أفاق من ضعفه نظر إلى من حضره وقال (ص): (ايتونى بدواة وكتف لأكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً)، فقال بعضهم: ان الرجل ليهجر! (۵).

هذا والقرآن يقول: (ما ضلّ صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحى يوحى)(۶).

عند ذلك أعرض رسول اللّه (ص) بوجهه عن القوم، فنهضوا.

قال سليم: وكان ابن عباس كلما تذكّر ذلك بكى وقال: الرزيّة كل الرزية ما حال بين رسول اللّه (ص) وبين أن يكتب لنا ذلك الكتاب.

أنتم المستضعفون بعدى

ولما أعرض رسول اللّه (ص) عن القوم بوجهه، نهض القوم من عنده وانصرفوا، وبقى عنده على بن أبى طالب (ع) والعباس بن عبدالمطلب وأهل بيته خاصة.

عندها التفت اليهم رسول اللّه (ص) وقال لهم: أنتم المستضعفون من بعدى وصمت، فنهضوا وهم يبكون وقد يئسوا من النبى (ص).

مع ابن عباس

ثم ان ابن عباس استأذن على رسول اللّه (ص) فأذن له، فلما دخل عليه ورآه بتلك الحالة قال: بأبى أنت واُمى يا رسول اللّه قد دنا أجلك؟

قال (ص): نعم، يابن عباس.

فقال: يا رسول اللّه فما تأمرنى به؟

قال (ص): يابن عباس خالف من خالف علياً ولا تكوننّ لهم ظهيراً ولا ولياً.

ثم بكى رسول اللّه (ص) حتى اشتدّ ضعفه، فلما أفاق قال: يابن عباس سبق الكتاب فيهم وعلم ربى، والذى بعثنى بالحق نبياً لا يخرج أحد ممن خالفه من الدنيا وأنكر ولايته وحقه حتى يغيّر اللّه ما به من نعمة، يابن عباس! إذا أردت أن تلقى اللّه وهو عنك راضٍ فاسلك طريقة على بن أبى طالب، ومِل معه حيث ما مال، وارض به إماماً، وعادِ من عاداه، ووالِ من والاه، يابن عباس! إحذر أن يدخلك فيه شك، فإن الشك فى على (ع) كفر باللّه.

فى وداع الأنصار

ثم انّ رسول اللّه (ص) دعا الأنصار، فلما حضروا التفت إليهم وقال: (يا معشر الأنصار قد حان الفراق، وقد دعيت وأنا مجيب الداعى، وقد جاورتم فأحسنتم الجوار، ونصرتم فأحسنتم النصرة، وواسيتم فى الأموال، ووسّعتم فى السكنى، وبذلتم للّه مهج النفوس، واللّه يجزيكم بما فعلتم الجزاء الأوفى، وقد بقيت واحدة، وهى تمام الأمر وخاتمة العمل، العمل بها مقرون، انى أرى أن لا يفرق بينهما جميعاً، لو قيس بينهما بشعرة ما انقاست، من أتى بواحدة وترك الأُخرى كان جاحداً للأُولى ولايقبل اللّه منه صرفاً ولا عدلاً).

فقالوا: يا رسول اللّه بيّنها لنا نتمسّك بها فلا نضلّ ونرتدّ عن الإسلام.

فقال رسول اللّه (ص) فى جوابهم: (كتاب اللّه، وأهل بيتى، فإن الكتاب هو القرآن، وفيه الحجة والنور والبرهان، كلام اللّه جديد غض طرى شاهد ومحكم عادل ولنا قائد بحلاله وحرامه وأحكامه، يقوم غداً فيحاجّ أقواماً فيزلّ اللّه به أقدامهم عن الصراط، واحفظونى معاشر الأنصار فى أهل بيتى، فإن اللطيف الخبير أخبرنى انهما لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض، ألا وان الإسلام سقف تحته دعامة لا يقوم السقف إلا بها، فلو انّ أحدكم أتى بذلك السقف ممدوداً لا دعامة تحته فأوشك أن يخرّ عليه سقفه فيهوى فى النار. أيها الناس! الدعامة دعامة الإسلام وذلك قوله تعالى: (إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه)(۷) فالعمل الصالح طاعة الإمام ولى الأمر من بعدى على بن أبى طالب والتمسّك بحبله. أيها الناس! أفهمتم؟ اللّه اللّه فى أهل بيتى مصابيح الظلم، ومعادن العلم، وينابيع الحكم، ومستقر الملائكة، منهم وصيى وأمينى ووارثى على بن أبى طالب وهو منى بمنزلة هارون من موسى، ألا هل بلّغت معاشر الأنصار؟ ألا فاسمعوا ومن حضر، ألا ان فاطمة بابها بابى وبيتها بيتى، فمن هتكه فقد هتك حجاب اللّه).

وداع مع المهاجرين

ثم أمر رسول اللّه (ص) بأن يجمعوا له المهاجرين، فلما اجتمعوا التفت إليهم وقال: (أيها الناس انى قد دعيت وانى مجيب دعوة الداعى، قد اشتقت إلى لقاء ربّى واللحوق بإخوانى من الأنبياء، وانى أُعلمكم انى قد اوصيت إلى وصيّى، ولم أهملكم إهمال البهائم، ولم أتارك من أُموركم شيئاً).

فقام إليه أحدهم وقال: يا رسول اللّه أوصيت بما أوصى به الأنبياء من قبلك؟

قال (ص): نعم.

فقال الرجل: فبأمر من اللّه أوصيت أم بأمرك؟

قال (ص) له: اجلس يا فلان، أوصيتُ بأمر اللّه، وأمره طاعته، وأوصيت بأمرى، وأمرى طاعة اللّه، ومن عصانى فقد عصى اللّه، ومن عصى وصيّى فقد عصانى، ومن أطاع وصيّى فقد أطاعنى، ومن أطاعنى فقد أطاع اللّه...

ثم التفت (ص) إلى الناس وقال: أيها الناس! اسمعوا وصيّتى، من آمن بى وصدّقنى بالنبوة وانى رسول اللّه (ص) فأُوصيه بولاية على بن أبى طالب وطاعته والتصديق له، فإن ولايته ولايتى وولاية ربّى، قد أبلغتكم فليبلّغ الشاهد الغائب: ان على بن أبى طالب هو العلم،

فمن قصر دون العلم فقد ضلّ، ومن تقدّمه تقدّم إلى النار، ومن تأخّر عن العلم يميناً هلك، ومن أخذ يساراً غوى، وما توفيقى إلا باللّه، فهل سمعتم؟).

قالوا: نعم.

وفى رواية: انه (ص) قال: ألا انى مخلف فيكم كتاب اللّه ربّى عزّوجل، وعترتى أهل بيتى.

ثم أخذ بيد على (ع) فرفعها وقال: هذا على مع القرآن والقرآن مع على، خليفتان نصيران، لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض، فأسألهما ماذا خُلّفت فيهما.

مع الثقلين: الأكبر والأصغر

قال أبو سعيد الخدرى: ان آخر خطبة خطبنا بها رسول اللّه (ص) لخطبة خطبنا فى مرضه الذى قبض فيه، خرج متوكياً فجلس على المنبر ثم قال: (يا أيها الناس انى تارك فيكم الثقلين) وسكت.

فقام رجل فقال: يا رسول اللّه ما هذان الثقلان؟

قال (ص): ما ذكرتهما إلا وأنا أُريد أن أُخبركم بهما، الثقل الأكبر: كتاب اللّه سبب طرفه بيد اللّه وطرف بأيديكم، والثقل الأصغر: أهل بيتى.

ثم قال (ص): وأيم اللّه انى لأقول لكم هذا ورجال فى أصلاب أهل الشرك أرجى عندى من كثير منكم.

ثم قال (ص): واللّه لاـ يحبّهم عبد إلاّـ أعطاه اللّه نوراً يوم القيامة حتى يرد علىّ الحوض، ولا يبغضهم عبد إلا احتجب اللّه عنه يوم القيامة.

وكان ممّا قاله رسول اللّه (ص) والمسلمون مجتمعون حوله: أيها الناس! انه لا نبى بعدى، ولا سنّة بعد سنّتى، فمن ادّعى ذلك فدعواه وباغيه فى النار، أيها الناس! احيوا القصاص، واحيوا الحق لصاحب الحق، ولا تفرقوا، وأسلموا وسلّموا، كتب اللّه لأغلبنّ أنا ورسلى إنّ اللّه قوىّ عزيز.

ومما قاله (ص) فى أيامه الأخيرة: أيها الناس حياتى خير لكم، ومماتى خير لكم، فأما حياتى: فإن اللّه هداكم بى من الضلالة، وأنقذكم من شفا حفرة من النار، وأما مماتى فإن أعمالكم تعرض علىّ، فما كان من حسن استزدت اللّه لكم، وما كان من قبيح استغفرت اللّه لكم.

فقام بعض من حضر وقال: وكيف ذاك يا رسول اللّه وقد رممت؟ يعنى: صرت رميماً.

فقال: كلا، ان اللّه حرم لحومنا على الأرض فلا تطعم منها شيئاً.

وإلى هذا أشار أبو عبداللّه الصادق (ع) عندما قال: مالكم تسوؤن رسول اللّه (ص)؟

فقال له رجل: جعلت فداك وكيف نسوؤه؟

قال (ع): أما تعلمون ان أعمالكم تعرض عليه، فإذا رأى فيها معصية اللّه ساءه؟ فلا تسوؤا رسول اللّه (ص) وسرّوه.

الوصية والوصى

ولما ثقل رسول اللّه (ص) فى مرضه الذى قبض فيه كان رأسه فى حجر على(ع)، والبيت مملوء من أصحابه من المهاجرين والأنصار، والعباس بين يديه يذب عنه بطرف ردائه، فالتفت رسول اللّه (ص) إلى عمه العباس وقال: يا عباس يا عم النبى أقبل وصيّتى فى أهلى، وفى أزواجى، واقض دينى، وأنجز عداتى، وأبرىء ذمّتى.

فقال العباس: يا رسول اللّه أنا شيخ ذو عيال كثير، غير ذى مال ممدود، وأنت أجود من السحاب الهاطل، والريح المرسلة، تبارى الريح

سخاءاً وكرماً، فلو صرفت ذلك عنى إلى من هو أطوق له منّى.

فقال رسول اللّه (ص): أما انى سأعطيها من يأخذها بحقّها، ومن لايقول مثل ما تقول، يا على هاكها خالصة لا يحاقك فيها أحد، يا على أقبل وصيتى، وأنجز مواعيدى، وأدِّ دينى، يا على اخلفنى فى أهلى واُمّتى، وبلّغ عنى من بعدى.

قال على (ع): لما نعى رسول اللّه (ص) إلىّ نفسه رجف فؤادى واُلقى على لقوله البكاء، فلم أقدر أن اُجيبه بشىء.

ثم عاد (ص) لقوله، فقال (ص): يا على أوَتقبل وصيّتى؟

قال (ع): فقلت، وقد خنقتنى العبرة ولم أكد ابين: نعم يا رسول اللّه.

فقال (ص): يا بلال ايتنى بذى الفقار، ودرعى ذات الفضول، ايتنى بمغفرى ذى الجبين، ورايتى العقاب، ايتنى بالعنزة والممشوق.

فأتى بلال بذلك كله إلا درعه كانت يومئذ مرهونة فى أصوع من شعير، كان (ص) قد استقرضها لقوته وقوت عياله.

ثم قال (ص): ايتنى بالمرتجز والعضباء، ايتنى باليعفور والدلدل، فأتى بها فوقفها بالباب.

ثم قال (ص): ايتنى بالأتحمية والسحاب، فأتى بهما، فلم يزل يدعو بشىء شىء، فافتقد عصابة كان يشدّ بها بطنه فى الحرب، فطلبها فأتى بها والبيت غاص يومئذ بمن فيه من المهاجرين والأنصار.

ثم قال (ص): يا على قم فاقبض هذا فى حياة منّى، وشهادة من فى البيت، لكيلا ينازعك أحد من بعدى.

قال على (ع): فقمت واستودعت ذلك جميعاً منزلى، ثم جئت فقمت بين يدى رسول اللّه (ص) فنظر إلىَّ ثم عمد إلى خاتمه فنزعه ثم دفعه إلىَّ وقال: هاك يا على هذا لك فى الدنيا والآخرة.

ثم قال (ص) لى: يا على أجلسنى، فأجلسته وأسندته إلى صدرى.

قال على (ع): فلقد رأيت رسول اللّه (ص) وان رأسه ليثقل ضعفاً وهو يقول يسمع أقصى أهل البيت وأدناهم: إنّ أخى ووصيّى ووزيرى وخليفتى فى أهلى واُمّتى على بن أبى طالب، يقضى دينى، وينجز موعدى، يا بنى هاشم يا بنى عبد المطلب لا تبغضوا علياً، ولا تخالفوا عن أمره فتضلّوا.

ثم قال (ص): أضجعنى يا على، فأضجعته، فقال (ص) لبلال: يا بلال ايتنى بولدىَّ الحسن والحسين، فانطلق فجاء بهما فأسندهما إلى صدره، فجعل (ص) يشمّهما.

قال على (ع): فظننت انهما قد غمّاه يعنى أكرباه فذهبت لآخذهما عنه.

فقال (ص): دعهما يا على يشمّانى وأشمّهما، ويتزوّدا منّى وأتزوّد منهما، فسيلقيان من بعدى زلزالاً وأمراً عضالاً فلعن اللّه من يخيفهما، اللّهمّ إنّى أستودعكهما وصالح المؤمنين.

مع ابنته فاطمة (عليها السلام)

قال سلمان: بينا أنا عند رسول اللّه (ص) فى مرضه الذى قبض فيه، إذ دخلت عليه فاطمة (ع) فلما رأت ما به (ص) خنقتها العبرة حتى فاضت دموعها على خدّيها، فأبصر ذلك رسول اللّه (ص) فقال: ما يبكيك يا بنيّة، أقرّ اللّه عينك ولا أبكاها؟

قالت (ع): وكيف لا أبكى وأنا أرى ما بك من الضعف؟ فمن لنا بعدك يا رسول اللّه؟

فقال (ص) لها (ع): يا فاطمة لكم اللّه فتوكّلى عليه واصبرى كما صبر آباؤك من الأنبياء، واُمّهاتك من أزواجهم، ألا اُبشرك يا فاطمة؟

قالت (ع): بلى يا أبه.

قال (ص): أما علمت ان اللّه تعالى اختار أباك فجعله نبياً، وبعثه إلى كافة الخلق رسولاً، ثم اختار علياً فأمرنى فزوّجتك إياه، واتخذته بأمر ربّى وزيراً ووصيّاً، يا فاطمة انّ علياً أعظم المسلمين على المسلمين بعدى حقاً، وأقدمهم سلماً، وأعزهم خطراً، وأجملهم خلقاً،

وأشدّهم فى اللّه وفىّ غضباً، وأعلمهم علماً، وأحلمهم حلماً، وأثبتهم فى الميزان قدراً، وأشجعهم قلباً، وأربطهم جأشاً، وأسخاهم كفاً.

فاستبشرت فاطمة (ع)، فأقبل عليها رسول اللّه (ص) وقال: هل سررتك يا فاطمة؟

قالت (ع): نعم يا أبة، الحديث.

وصايا خاصة

قال ابن عباس: لما مرض رسول اللّه (ص) وعنده أصحابه قام إليه عمار بن ياسر فقال له: فداك أبى وأُمى يا رسول اللّه من يغسلك منا إذا كان ذلك منك؟

قال (ص): ذاك على بن أبى طالب (ع)، لأنه لا يهمّ بعضو من أعضائى إلا أعانته الملائكة على ذلك.

فقال له: فداك أبى واُمى يا رسول اللّه فمن يصلّى عليك منّا إذا كان ذلك منك؟

قال (ص): مه! رحمك اللّه، ثم قال لعلى (ع): يا ابن أبى طالب إذا رأيت روحى قد فارقت جسدى فاغسلنى، وانق غسلى، وكفّنى فى طمرىّ هذين، أو فى بياض مصر، وبرد يمان، ولا ـ تغال فى كفنى، واحملونى حتى تضعونى على شفير قبرى، فأول من يصلّى علىّ الجبّار جلّ جلاله من فوق عرشه، ثم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فى جنود من الملائكة لا ـ يحصى عددهم إلا ـ اللّه عزّوجل، ثم الحافّون بالعرش، ثم سكّان أهل سماء فسماء، ثم جلّ أهل بيتى ونسائى الأقربون فالأقربون، يؤمون ايماءاً، ويسلّمون تسليماً.

حقوق الناس

قال ابن عباس: ثم ان رسول اللّه (ص) قال لبلال: يا بلال هلمّ علىّ بالناس، فاجتمع الناس، فخرج رسول اللّه (ص) متعصّباً بعمامته، متوكياً على قوسه، حتى صعد المنبر، فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: يا معاشر أصحابى أىّ نبىّ كنت لكم؟

قالوا: كنت للّه صابراً، وعن منكر بلاء اللّه ناهياً، فجزاك اللّه عنّا أفضل الجزاء.

فقال (ص): وأنتم فجزاكم اللّه، ثم قال (ص): انّ ربّى عزّوجل حكم وأقسم أن لا ـ يجوزه ظلم ظالم، فناشدتكم باللّه أىّ رجل منكم كانت له قِبَل محمد مظلمة إلاّ قام فليقتص منه، فالقصاص فى دار الدنيا أحبّ إلىَّ من القصاص فى دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء.

فقام إليه رجل من أقصى القوم يقال له: سوادة بن قيس وقال: فداك أبى وأُمى يا رسول اللّه، انك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت تريد الراحلة فأصاب بطنى، فلا أدرى عمداً أو خطأً.

فقال (ص): معاذ اللّه أن أكون قد تعمّدت، ثم قال: يا بلال قم إلى منزل فاطمة فائتنى بالقضيب الممشوق.

فخرج بلال وهو ينادى فى سكك المدينة: معاشر الناس من ذا الذى يعطى القصاص من نفسه قبل يوم القيامة؟ فهذا محمد (ص) يعطى القصاص من نفسه قبل يوم القيامة!

فلما وصل منزل فاطمة (ع) طرق الباب وهو يقول: يا فاطمة قومى فوالدك يريد القضيب الممشوق.

فأقبلت فاطمة (ع) وهى تقول: يا بلال وما يصنع والدى بالقضيب الممشوق فى مثل هذا اليوم؟!

فقال بلال: يا فاطمة أما علمتِ انّ والدكِ قد صعد المنبر وهو يودّع أهل الدين والدنيا.

فصاحت فاطمة (ع) وقالت: واغمّاه لغمّك يا أبتاه، من للفقراء والمساكين وابن السبيل، يا حبيب اللّه وحبيب القلوب؟

ثم ناولت بلالاً القضيب، فجاء به حتى ناوله رسول اللّه (ص)، عندها قال رسول اللّه (ص): أين الشيخ؟

قام الشيخ وهو يقول:ها أنا ذا يا رسول اللّه بأبى أنت واُمّى.

فقال (ص): تعال فاقتصّ منّى حتى ترضى.

فجاء الشيخ وقال: فاكشف لى عن بطنك يا رسول اللّه، فكشف (ص) عن بطنه مستسلماً للقصاص.

فقال الشيخ: بأبى أنت وأُمى يا رسول اللّه، أتأذن لى أن أضع فمى على بطنك؟

فأذن (ص) له، فوضع الشيخ فمه عليه يقبّله وهو يقول: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول اللّه (ص) من النار يوم النار.

فقال (ص) له عند ذلك: يا سوادة بن قيس أتعفو أم تقتصّ؟

قال: بل أعفو يا رسول اللّه.

فقال (ص): اللّهمّ اعف عن سوادة بن قيس كما عفى عن نبيّك محمّد.

أقول: الظاهر ان سوادة بن قيس أراد أن يقبّل جسم رسول اللّه (ص) فقال ما قال، وإلا فالرسول (ص) لا يخطأ حتى فى مثل ما ادعاه سوادة، لأن العصمة تمنع عن الخطأ، ولعل الرسول (ص) لم يكذبه حتى لا ـ يقول الناس ان النبى (ص) حيث أراد التخلّص من القصاص كذب سوادة.

ثم قام رسول اللّه (ص) فدخل بيت أُم سلمة وهو يقول: ربّ سلّم أُمّة محمد من النار، ويسّر عليهم الحساب.

فقالت أُم سلمة: يا رسول اللّه ما لى أراك مغموماً متغيّر اللون؟

فقال (ص): نعيت إلى نفسى هذه الساعة، فسلام لك فى الدنيا، فلا تسمعين بعد هذا صوت محمد أبداً.

فقالت أُم سلمة: واحزناه حزناً لا تدركه الندامة عليك يا محمداه.

۱ الشورى: ۲۳. ۲ الأحزاب: ۶.

۳ راجع شرح النهج لابن أبى الحديد: ج۶ ص۵۲، دار إحياء التراث العربى، وفيه: (انفذوا جيش أُسامة، لعن الله من تخلّف عنه، وكرّر ذلك).

۴ وفى شرح النهج لابن أبى الحديد: (انفذوا جيش أُسامة لعن الله من تخلّف عنه وكرر ذلك) ج۶ ص۵۲/ دار إحياء التراث العربى.

۵ راجع مسند أحمد بن حنبل: ج۱ ص۳۵۵ ح۳۳۲۶ وفيه: (قال رسول الله: ائتونى باللوح والدواة، أو الكتف، اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً، فقالوا: إن رسول الله ليهجر) ومثله فى صحيح مسلم: ج۳ ص۱۲۵۹ ح۱، وراجع صحيح البخارى ج۱ ص۲۹ ط دار إحياء التراث العربى، باب كتابة العلم، وفيه: (قال عمر: إن النبى غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا) والبخارى: ج۶ ص۱۱ باب مرض النبى، وفيه: (فقال بعضهم: ان رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله). [الناشر].

۶ النجم: ۲ .۴ .۷ فاطر: ۱۰.

النبى (ص) ساعة الوداع

قال ابن مسعود: لما دنا فراق رسول اللّه (ص) جمعنا فى بيت فنظر إلينا فدمعت عيناه ثم قال (ص): مرحباً بكم، حياكم اللّه، حفظكم اللّه، نصركم اللّه، نفعكم اللّه، هداكم اللّه، وفّقكم اللّه، سلمكم اللّه، قبلكم اللّه، رزقكم اللّه، رفعكم اللّه، أُوصيكم بتقوى اللّه، وأُوصى اللّه بكم(۱)، انى لكم نذير مبين أن لا تعلوا على اللّه فى عباده وبلاده، فإن اللّه تعالى قال لى ولكم: (تلك الدار الآخرة نجعلها للّذين لا يريدون علوّاً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتّقين)(۲). وقال سبحانه: (أليس فى جهنّم مثوىً للمتكبّرين)(۳).

قلنا: متى يا رسول اللّه أجلك؟

قال (ص): دنا الأجل والمنقلب إلى اللّه وإلى سدرة المنتهى، وجنّة المأوى والعرش الأعلى، والكأس الأوفى، والعيش الأهنأ.

قلنا: فمن يغسّلك؟ قال (ص): أخى.

من كلمات الوداع

قال على (ع): بينما نحن عند النبى (ص) وهو يجود بنفسه وهو مسجّى بثوب وملاءة خفيفة على وجهه، فمكث ماشاءاللّه أن يمكث ونحن حوله بين باكٍ ومسترجع إذ تكلّم (ص) وقال: (ابيضّت وجوه، واسودّت وجوه، وسعد أقوام، وشقى آخرون، أصحاب الكساء الخمسة أنا سيّدهم ولا ـ فخر، عترتى أهل بيتى السابقون المقرّبون، يسعد من اتّبعهم وشايعهم على دينى ودين آبائى، أنجزتَ مواعيدك يا رب إلى يوم القيامة فى أهل بيتى).

الأولى حتى من جبرئيل

وعن على (ع) انه قال: دخلت على رسول اللّه (ص) فى شكاته فإذا رأسه فى حجر رجل أحسن ما رأيت من الخلق، والنبى (ص) نائم، فلما دخلت التفت إلىّ ذلك الرجل وقال لى: ادن إلى ابن عمك فأنت أحقّ به منّى، فدنوتُ منهما، فقام الرجل وجلست مكانه ووضعتُ رأس النبى (ص) فى حجرى كما كان فى حجر الرجل، فمكث ساعة، ثم استيقظ النبى (ص) فقال: يا على أين الرجل الذى كان رأسى فى حجره؟

قلت: يا رسول اللّه إنّى لما دخلت دعانى إليك ثم قال: ادن إلى ابن عمك فأنت أحقّ به منّى، ثم قام فجلستُ مكانه.

فقال النبى (ص): فهل تدرى من الرجل؟ ذاك جبرئيل كان يحدّثنى حتى خفّ عنى وجعى، ونمت ورأسى فى حجره.

قال عمار: لما حضر رسول اللّه (ص) أمر اللّه دعا بعلى (ع) فسارّه طويلًا ثم قال له: يا على أنت وصيّى ووارثى، قد أعطاك اللّه علمى وفهمى، فإذا متّ ظهرت لك ضغائن فى صدور قوم، وغصبت على حقك.

فبكت فاطمة (ع) وبكى الحسن والحسين (عليهما السلام).

فقال (ص) لفاطمة: يا سيّدة النسوان ممّ بكاؤك؟

قالت (ع): يا أبة أخشى الضيعة بعدك.

فقال (ص): أبشرى يا فاطمة فإنك أول من يلحقنى من أهل بيتى، لا تبكى ولا تحزنى، فإنّك سيدة نساء أهل الجنّة، وأباك سيد الأنبياء، وابن عمك سيد الأوصياء، وابناك سيدا شباب أهل الجنّة، ومن صلب الحسين (ع) يخرج اللّه الأئمّة التسعة مطهّرون معصومون، ومنك مهدى هذه الأُمّة.

جبرئيل وكتاب الوصيّة

قال على (ع): دعانى رسول اللّه (ص) عند ارتحاله من هذه الدنيا وأخرج من كان عنده فى البيت غيرى، والبيت فيه جبرئيل والملائكة معه، فأخذ رسول اللّه (ص) كتاب الوصية من يد جبرئيل مختومة، فدفعها إلىّ وأمرنى أن أفضّها، ففعلت، وأمرنى أن أقرأها فقرأتها، فإذا فيها كل ما كان رسول اللّه (ص) يوصينى به شيئاً شيئاً ما تغادر حرفاً.

قال موسى بن جعفر (ع): قلت لأبى عبداللّه (ع): أليس كان أميرالمؤمنين(ع) كاتب الوصية ورسول اللّه (ص) المملى عليه وجبرئيل والملائكة المقرّبون شهود؟

فقال (ع): قد كان ما قلت، ولكن حين نزل برسول اللّه (ص) الأمر نزلت الوصية من عند اللّه كتاباً مسجّلًا، نزل به جبرئيل مع أُمناء اللّه تبارك وتعالى من الملائكة، فقال جبرئيل: يا محمد مر بإخراج من عندك إلاّ وصيّك ليقبضها منا، وتشهدنا بدفعك إياها إليه.

ففعل رسول اللّه (ص) ذلك وأشهدهم عليه وقال: يا على تفى بما فيها مِن موالاة مَن والى اللّه ورسوله، والعداوة لمن عادى اللّه ورسوله والبراءة منهم، على الصبر منك، وعلى كظم الغيظ، وعلى ذهاب حقّك، وغصب خمسك، وانتهاك حرمتك.

فقال: نعم يا رسول اللّه.

فقال أمير المؤمنين (ع): والذى فلق الحبّة وبرأ النسمة لقد سمعت جبرئيل يقول للنبى (ص): يا محمد عرّفه انه ينتهك الحرمة وهى

حرمة اللّه وحرمة رسول اللّه (ص).

قال أمير المؤمنين (ع): فصعقت حين فهمت الكلمة من الأمين جبرئيل حتى سقطت على وجهى وقلت: نعم قبلت ورضيت وإن انتهكت الحرمة.

ثم دعا رسول اللّه (ص) فاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وأعلمهم مثل ما أعلم أميرالمؤمنين (ع) فقالوا مثل قوله، فختمت الوصية ودفعت إلى أمير المؤمنين (ع) وخرج جبرئيل والملائكة معه إلى السماء.

ثم عرض على رسول اللّه (ص) ضعف شديد، فلما أفاق دخلت عليه النساء يبكين وارتفعت الأصوات وضجّ الناس بالباب من المهاجرين والأنصار.

وديعة اللّه ووديعة رسوله

قال موسى بن جعفر (ع): فقلت لأبى (ع): فما كان بعد خروج الملائكة عن رسول اللّه (ص)؟

فقال (ع): ثم دعا (ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وقال لمن فى بيته: اخرجوا عنى، وقال لأُم سلمة: كونى على الباب فلا يقربه أحد، ثم التفت إلى على (ع) وقال له: يا على ادن منى، فدنا منه، فأخذ بيد فاطمة (ع) فوضعها على صدره طويلاً، وأخذ بيد على (ع) بيده الأُخرى، فلما أراد رسول اللّه (ص) الكلام غلبته العبرة فلم يقدر على الكلام.

فبكت فاطمة (ع) بكاءاً شديداً وأكبّت على وجهه تقبّله، وبكى على والحسن والحسين (عليهم السلام) لبكاء رسول اللّه (ص) ثم أكبّوا على وجهه.

فرفع رسول اللّه (ص) رأسه إليهم ويدها فى يده، فوضعها فى يد على (ع) وقال له: يا أبا الحسن هذه وديعة اللّه ووديعة رسوله محمد عندك فاحفظ اللّه واحفظنى فيها، وانك لفاعل هذا يا على، هذه واللّه سيّدة نساء أهل الجنّة من الأوّلين والآخرين، هذه واللّه مريم الكبرى، أما واللّه ما بلغت نفسى هذا الموضع حتى سألت اللّه لها ولكم، فأعطانى ما سألته، يا على أنفذ لما أمرتك به فاطمة، فقد أمرتها بأشياء أمر بها جبرئيل، وأمرتها أن تلقيها إليك، فانفذها، فهى الصادقة الصدوقة، واعلم يا على انى راضٍ عمّن رضيَت عنه ابنتى فاطمة، وكذلك ربى وملائكته، يا على ويل لمن ظلمها، وويل لمن ابتزّها حقها، وويل لمن هتك حرمتها، وويل لمن أحرق بابها، وويل لمن آذى حليلها، وويل لمن شاقّها وبارزها، اللّهم انى منهم برىء، وهم منى براء، ثم سماهم رسول اللّه (ص) وضمّ فاطمة إليه وعلياً والحسن والحسين (عليهم السلام) الحديث.

الإقرار بقبول الوصيّة

قال أبو عبداللّه الصادق (ع): ثم انّ رسول اللّه (ص) قال لعلى (ع) بعد أن دفع إليه الوصية وأشهد على ذلك جبرئيل ومن معه من الملائكة: يا على أضمنت دَيْنى تقضيه عنّى؟

قال (ع): نعم، الحديث.

حنوط من الجنة

قال على (ع): ثم انه كان فى الوصية أن يدفع إلىَّ الحنوط، فدعانى رسول اللّه (ص) قبل ارتحاله عن الدنيا بقليل وقال: يا على ويا فاطمة هذا حنوطى من الجنة، وكان وزنه أربعين درهماً، قد دفعه إلىَّ جبرئيل، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: اقسماه وأعزلا منه لى ولكما.

قالت فاطمة (ع): لك يا أبه ثلثه، وليكن الناظر فى الباقى على بن أبى طالب (ع)، فبكى رسول اللّه (ص) وضمّها إليه وقال: موفقة

رشيدة، مهدية ملهمة، يا على قل فى الباقى.
قال (ع): نصف ما بقى لها، ونصف لمن ترى يا رسول اللّه.
قال (ص): هو لك فاقبضه

النبى (ص) يستدعى أخاه

ولما ثقل رسول اللّه (ص) وحجب الناس عنه كان أمير المؤمنين (ع) لا يفارقه إلا لضرورة، فقام (ع) فى بعض شؤونه، فأفاق رسول اللّه (ص) إفاقة فافتقد علياً (ع) فقال وأزواجه حوله: (ادعوا لى أخى وصاحبى) وعاوده الضعف فصمت.
فدُعى له غير على (ع)، فلما فتح (ص) عينه ونظر إليه أعرض عنه بوجهه.
فقالت أُمّ سلمة: اُدعوا له علياً (ع)، فإنه لا يريد غيره.
فدعى أمير المؤمنين (ع) فلما دنا منه أومأ (ص) إليه، فأكبّ عليه فناجاه رسول اللّه (ص) طويلاً، ثم قام فجلس ناحية، فقال له الناس بعد ذلك: ما الذى أوعز إليك يا أبا الحسن؟
فقال (ع): علّمنى ألف باب من العلم، يفتح لى فى كل باب ألف باب، وأوصانى بما أنا قائم به إن شاء اللّه تعالى.
وفى رواية انه قال (ع): علّمنى رسول اللّه (ص) ألف باب من الحلال والحرام، وما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، كل باب منها يفتح ألف باب، فذلك ألف ألف باب، حتى علمت علم المنايا والبلايا وفصل الخطاب.
وفى رواية فى المستدرك: ألف ألف باب يفتح لى من كلّ باب ألف باب.

بين الحبيب وحبيبه

ثم انّ أم سلمة استأذنت على رسول اللّه (ص) فقال لها: ادعى لى حبيبتى وقرّة عينى وثمرة فؤادى فاطمة المظلومة بعدى، فدعتها، فأقبلت وهى تبكى، فاعتنقها رسول اللّه (ص) وضمها إلى صدره، فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تهملان دموعاً، ثم ناجاها وأسرّ إليها شيئاً تهلّل وجهها له، ولما سئلت بعد ذلك عن بكائها وعن تهلّل وجهها؟
قالت (ع): نعى إلىّ نفسه فبكيت، ثم أخبرنى بأنى أول أهل بيته لحوقاً به، وانه لن تطول المدّة لى بعده حتى أدركه، وأخبرنى أنى سيدة نساء أهل الجنّة، وابناى سيدا شباب أهل الجنة وان الأئمة الإثنى عشر خلفاؤه هم بعلى ووُلدى: على (ع) أبوهم وأولهم، والمهدى ابنى آخرهم، فتهلّل وجهى لذلك.
ثم انه (ص) دعا الحسن والحسين وقبّلهما وشمّهما وجعل يترشفهما وعيناه تهملان وأخبر (ص) بأنهما سيُظلمان بعده ويقتلان ظلماً، ولعن قاتلهما.
قال ابن عباس: ثم قالت فاطمة (ع) للنبى (ص) وهو فى لحظاته الأخيرة: يا أبة أنا لا أصبر عنك ساعة من الدنيا، فأين الميعاد غداً؟
قال (ص): أما انك أول أهلى لحوقاً بى وكان كذلك فقد لحقت بأبيها بعد خمسة وسبعين يوماً مظلومة شهيدة(۴) والميعاد على جسر جهنّم.
قالت (ع): يا أبة أليس قد حرّم اللّه عزّوجل جسمك ولحمك على النار؟
قال (ص): بلى، ولكنى قائم حتى تجوز أُمتى.
قالت (ع): فإن لم أرك هناك؟
قال (ص): تريني عند القنطرة السابعة من قناطر جهنّم، أستوهب الظالم من المظلوم.
قالت (ع): فإن لم أرك هناك؟

قال (ص): ترينى فى مقام الشفاعة وأنا أشفع لأُمّتى.

قالت (ع): فإن لم أركَ هناك؟

قال (ص): ترينى عند الميزان وأنا أسأل لأُمتى الخلاص من النار.

قالت: فإن لم أركَ هناك؟

قال (ص): ترينى عند الحوض، حوضى عرضه ما بين ايله إلى صنعاء، على حوضى ألف غلام(۵) بألف كأس كاللؤلؤ المنظوم، وكالبيض المكنون، من تناول منه شربة فشربها لم يظمأ بعدها أبداً، وجعل يكرّرها.

النبى (ص) حياً وميتاً

ثم ان رسول اللّه (ص) ثقل وهو (ص) فى بيت فاطمة (ع) فأشار إلى على (ع) فدنا منه، فقال له وهو فى لحظاته الأخيرة: (ضع يا على رأسى فى حجرك، فقد جاء أمر اللّه تعالى، فإذا فاضت نفسى فتناولها بيدك وامسح بها وجهك، ثمّ وجّهنى إلى القبلة وتولّ أمرى، فاستق لى ست قرب من ماء بئر غرص، فغسّلنى وكفّنى وحنّطنى، فإذا فرغت فخذ بمجامع كفنى واجلسنى ثم سلنى عما شئت، فو اللّه لاتسألنى عن شىء إلا أجبتك، وصلِّ علىّ أول الناس، ولا تفارقنى حتى توارينى فى رمسى، يا على ادفنّى فى هذا المكان فإنّ بيتى قبرى، وارفع قبرى من الأرض أربع أصابع، وفى رواية: قدر شبر وأربع أصابع، وفى رواية: واجعل حول قبرى حائطاً، ورش عليه من الماء واستعن باللّه تعالى).

فأخذ على (ع) رأس رسول اللّه (ص) فوضعه فى حجره وقد انقطع عن الكلام لما نزل به، فأكبت فاطمة (ع) تنظر فى وجهه وتندبه وتبكى وتقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ففتح رسول اللّه (ص) عينه وقال بصوت ضئيل: يا بنية هذا قول عمك أبى طالب، لا تقوليه، ولكن قولى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)(۶).

على مشارف الآخرة

ولما كان صباح يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة النبوية المباركة استأذن على رسول اللّه (ص) ملك الموت، وهو (ص) فى بيت فاطمة (ع) وعمر رسول اللّه (ص) إذ ذاك ثلاث وستّون سنة.

قال ابن عباس: فلما طرق الباب قالت فاطمة (ع): من ذا؟

قال: أنا غريب أتيت رسول اللّه (ص) فهل تأذنون لى فى الدخول عليه؟

فأجابت: امضِ رحمك اللّه لحاجتك، فرسول اللّه (ص) عنك مشغول.

فمضى ثم رجع فدقّ الباب وقال: غريب يستأذن على رسول اللّه (ص) فهل تأذنون للغرباء؟

فأفاق رسول اللّه (ص) وقال: يا فاطمة ان هذا مفرق الجماعات، ومنغّص اللذّات، هذا ملك الموت، ما استأذن واللّه على أحد قبلى، ولا يستأذن على أحد بعدى، استأذن علىَّ لكرامتى على اللّه، ائذنى له.

فقالت (ع): اُدخل رحمك اللّه، فلما اُذن له دخل كريح هفّافة وقال: السلام عليك يا رسول اللّه وعلى أهل بيتك.

قال (ص): وعليك السلام يا ملك الموت.

فقال: انّ ربك أرسلنى إليك وهو يقرؤك السلام ويخيّرك بين لقائه والرجوع إلى الدنيا.

فاستمهله (ص) حتى ينزل جبرئيل ويستشيره، فخرج ملك الموت من عنده وجاء جبرئيل فقال: السلام عليك يا أباالقاسم.

قال (ص): وعلیک السلام یا حبیبی جبرائیل.

فقال: یا رسول اللّه انّ ربک إلیک مشتاق، وما استأذن ملک الموت علی أحد قبلک، ولا یستأذن علی أحد بعدک.

قال (ص): یا حبیبی جبرئیل ان ملک الموت قد خیّرنی عن ربّی بین لقائه وبین الرجوع إلی الدنیا، فما الذی تری؟

فقال: یا رسول اللّه (وللآخرة خیر لک من الاُولی ولسوف یعطیک ربّک فترضی)(۷).

قال (ص): نعم، لقاء ربی خیر لی، لا تبرح یا حبیبی جبرئیل حتی ینزل ملک الموت، فنزل ملک الموت فقال له رسول اللّه (ص): امضِ لما اُمرت له.

وفی روایة: قال جبرئیل: یا رسول اللّه أترید الرجوع إلی الدنیا؟

قال (ص): لا، وقد بلّغت.

ثم قال ثانیة: یا رسول اللّه أترید الرجوع إلی الدنیا؟

قال (ص): لا، الرفیق الأعلی.

فقال جبرائیل: یا رسول اللّه هذا آخر یوم أهبط فیه إلی الأرض(۸) انما کنت حاجتی من الدنیا.

فقال له رسول اللّه (ص): یا حبیبی جبرئیل ادن منی، فدنا منه، فکان جبرئیل عن یمینه، ومیکائیل عن شماله، وملک الموت قابضاً لروحه (ص).

ثم مدّ (ص) یده إلی علی (ع) فجذبه إلیه وهو یقول: ادن منی یا أخی فقد جاء أمر اللّه، فدنا (ع) منه حتی أدخله تحت ثوبه الذی کان علیه، ووضع فاه فی اُذنه وجعل یناجیه طویلاً حتی فارقت روحه الدنیا، صلوات اللّه علیه وآله، وید أمیر المؤمنین (ع) الیمنی تحت حنکه، ففاضت نفسه فیها، فرفعها (ع) إلی وجهه فمسحه بها.

ثم انسل علی (ع) من تحت ثیابه، وقال: أعظم اللّه اُجورکم فی نبیّکم، فقد قبضه اللّه إلیه ثم مدّ علیه ازاره، وقال: إنّا للّه وإنّا إلیه راجعون، یالها من مصیبة خصت الأقربین وعمت المؤمنین، لما یصابوا بمثلها قط، ولا عاینوا مثلها.

فارتفعت عندها الأصوات بالضجّة والبکاء. فصاحت فاطمة (ع) وصاح المسلمون، وصاروا یضعون التراب علی رؤوسهم، وفاطمة (ع) تقول: یا أبتاه إلی جبرئیل ننعاه، یا أبتاه من ربّه ما أدناه، یا أبتاه جنان الفردوس مأواه، یا أبتاه أجاب ربّاً دعاه، واجتمعت نسوة بنی هاشم وجعلن یذکرن النبی (ص). وقالت اُم سلمة: وضعت یدی علی صدر رسول اللّه (ص) یوم قبض فمرّت بی أیام وأسابیع آکل وأتوضأ ما تذهب رائحة المسک من یدی.

أعظم المصائب

وکان رسول اللّه (ص) قد قال لعلی (ع): یا علی من اُصیب بمصیبة فلیذکر مصیبته بی، فإنها من أعظم المصائب، وإلی هذا المعنی یشیر ما جاء فی الدیوان المنسوب إلی أمیر المؤمنین (ع) من انه کان یقول:

ما غاض دمعی عند نائبة إلا جعلتک للبکا سبباً

وإذا ذکرتک سامحتک به منی الجفون ففاض وانسکبا

وأنشأ أمیر المؤمنین (ع) أیضاً یقول:

الموت لا والداً أبقی ولا ولداً هذا السبیل إلی أن لا تری أحداً

هذا النبی ولم یخلد لاُمته لو خلّد اللّه خلقاً قبله خُلدا

للموت فینا سهام غیر خاطئة من فاته الیوم سهم لم یفته غداً

وأنشأت الزهراء (ع) تقول:

إذا مات يوماً ميّت قلّ ذكره وذكر أبى طول الدُنى فى تزيّد

تذكرت لما فرّق الموت بيننا فعزّيت نفسى بالنبى محمد

فقلت لها: إن الممات سبيلنا ومن لم يمت فى يومه مات فى غد

التعزية من اللّه تبارک وتعالى

عن أبى جعفر الباقر (ع) قال: لما قُبض رسول اللّه (ص) بات آل محمد (عليهم السلام) بأطول ليلة حتى ظنّوا أن لا سماء تظلّهم، ولا أرض تقلّهم، لأنّ رسول اللّه (ص) وتر الأقربين والأبعدين فى اللّه.

فبينما هم كذلك إذ أتاهم آت لا يرونه ويسمعون كلامه، فقال: (السلام عليكم أهل البيت ورحمة اللّه وبركاته، انّ فى اللّه عزاء من كل مصيبة، ونجاة من كل هلكة، ودركاً لما فات (كلّ نفس ذائقة الموت وإنّما توفّون أُجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنّة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)(۹) انّ اللّه اختاركم وفضّلكم وطهّركم وجعلكم أهل بيت نبيّه، واستودعكم علمه، وأورثكم كتابه، وجعلكم تابوت علمه، وعصا عزّه(۱۰)، وضرب لكم مثلاً من نوره(۱۱)، وعصمكم من الزلل، وأمنكم من الفتن، فتعزّوا بعزاء اللّه، فإن اللّه لم ينزع منكم رحمته، ولن يزيل عنكم نعمته، فأنتم أهل اللّه عزّوجل الذين بهم تمّت النعمة، واجتمعت الفرقة، وائتلفت الكلمة، وأنتم أولياؤه، فمن تولّاكم فاز، ومن ظلم حقكم زهق، مودّتكم من اللّه واجبة فى كتابه على عباده المؤمنين، ثم اللّه على نصركم إذا يشاء قدير، فاصبروا لعواقب الأُمور فإنها إلى اللّه تصير، قد قبلكم اللّه من نبيّه وديعة، واستودعكم أولياءه المؤمنين فى الأرض، فمن أدّى أمانته آتاه اللّه صدقه، فأنتم الأمانة المستودعة، ولكم المودّة الواجبة، والطاعة المفروضة، وقد قبض رسول اللّه (ص) وقد أكمل لكم الدين، وبيّن لكم سبيل المخرج، فلم يترک لجاهل حجّة، فمن جهل أو تجاهل أو أنكر أو نسى أو تناسى فعلى اللّه حسابه، واللّه من وراء حوائجكم، واستودعكم اللّه، والسلام عليكم).

قال الراوى: فسألتُ أبا جعفر (ع) ممّن أتاهم التعزية؟قال (ع): من اللّه تبارک وتعالى.

جبرئيل يعزّى أهل البيت (عليهم السلام)

وعن أبى عبداللّه (ع) قال: لما قبض رسول اللّه (ص) جاءهم جبرئيل، والنبى (ص) مسجّى، وفى البيت على وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة (كلّ نفس ذائقة الموت وإنما توفّون أُجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنّة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)(۱۲) ان فى اللّه عزاء من كل مصيبة، ودركاً من كل ما فات، وخلفاً من كل هالک، فباللّه فثقوا، وإياه فارجوا، إنما المصاب من حرم الثواب.

الخضر يعزّى آل الرسول (عليهم السلام)

عن أبى الحسن الرضا (ع) قال: لما قبض رسول اللّه (ص) أتاهم آت فوقف على باب البيت فعزّاهم به وأهل البيت يسمعون كلامه ولا يرون شخصه، فقال على بن أبى طالب (ع): هذا هو الخضر أتاكم يعزّيكم بنبيّكم، فكان مما قال فى تعزيته:

(السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة اللّه وبركاته (كلّ نفس ذائقة الموت وإنّما توفّون أُجوركم يوم القيامة)(۱۳) انّ فى اللّه عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالک، ودركاً من كل فائت، فباللّه فثقوا، وعليه فتوكّلوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب وأستغفر اللّه لى ولكم، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته).

وفى رواية عن أبى ذر عن على (ع) انه بعث اللّه عزّوجل إليهم حين قبض رسول اللّه (ص): بالتعزية وفاطمة (ع) تبكيه، قال (ع): سمعنا حساً على الباب، وقائلاً يقول: (السلام عليكم أهل البيت ورحمة اللّه وبركاته، ربّكم عزّوجل يقرئكم السلام، ويقول لكم: انّ فى

اللّه خلفاً من كلّ مصيبة، وعزاءاً من كل هالك، ودركاً من كل فوت، فتعزّوا بعزاء اللّه، واعلموا انّ أهل الأرض يموتون، وانّ أهل السماء لا يبقون، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته).

قال (ع): وأنا فى البيت وفاطمة والحسن والحسين أربعة لا خامس لنا إلّا رسول اللّه (ص) مسجّى بيننا.

المعصوم لا يليه إلا معصوم

قال ابن مسعود: قلت للنبى (ص) وهو فى شكاته: يا رسول اللّه من يغسّلك إذا حدث بك حادث؟

قال (ص): يغسّل كل نبى وصيّه.

قلت: فمن يا رسول اللّه وصيّك؟

قال (ص): على بن أبى طالب.

وقال سلمان: أتيت علياً (ع) وهو يغسّل رسول اللّه (ص) وكان قد أوصى (ص) أن لا يغسّله غير على (ع)، وأخبر انه لا يريد أن يقلّب منه عضواً إلا قُلب له.

وقد قال أمير المؤمنين (ع) لرسول اللّه (ص): من يعيننى على غسلك يا رسول اللّه؟

قال (ص): جبرئيل.

فلما غسّله وكفّنه وحنّطه أدخلنى وأدخل أبا ذر والمقداد وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) فتقدّم وصففنا خلفه وصلّى عليه، ثم أدخل عشرة من المهاجرين وعشرة من الأنصار، فيصلّون ويخرجون، حتى لم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلّا صلّى عليه.

وفى رواية: ثم أدخل عليه عشرة فداروا حوله، ثم وقف أمير المؤمنين (ع) فى وسطهم، فقال: (إنّ اللّه وملائكته يصلّون على النبىّ يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً) فيقول القوم كما يقول، حتى صلّى عليه (ص) أهل المدينة وأهل العوالى كلهم.

انقطاع النبوّة أكبر فجيعة للأرض

قال ابن عباس: لما قبض رسول اللّه (ص) تولّى غسله على بن أبى طالب (ع)، فلما فرغ من غسله كشف الازار عن وجهه ثم قال (ع): (بأبى أنت وأُمّى طبت حياً وطبت ميتاً، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد ممّن سواك من النبوّة والأنباء، وأخبار السماء، خصصت حتى صرت مسلّياً عمّن سواك، وعممت حتى صار الناس فيك سواء، ولولا انك أمرتَ بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدْنا عليك ماء الشؤن، ولكان الداء مماطلاً، والكمد مخالفاً، وقلّا لك، ولكنه ما لا يملك ردّه ولا يستطاع دفعه، بأبى أنت وأُمّى اذكرنا عند ربّك، واجعلنا من همّك)، ثم أكبّ (ع) عليه (ص) فقبّل وجهه.

وفى نهج البلاغة: (ولقد قُبِض رسول اللّه (ص) وانّ رأسه لعلى صدرى، وقد سالتْ نفسه فى كفّى، فأمررتها على وجهى، ولقد ولّيت غسله (ص) والملائكة أعوانى، فضجّت الدار والأفنية، ملأ يهبط، وملأ يعرج، وما فارقت سمعى هينمة منهم يصلّون عليه، حتى واريناه فى ضريحه، فمن ذا أحق به منّى حياً وميّتاً؟)(۱۴).

وفى النهج أيضاً: (إلّا انّ لى فى التأسّى بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ، فلقد وسّدتك فى ملحودة قبرك، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون)(۱۵).

النبى (ص) فى مثواه الأخير

ولما فرغ المسلمون من الصلاة على رسول اللّه (ص) وقد صلّوا عليه فوجاً فوجاً خاضوا فى موضع دفنه فقال بعضهم فى البقيع، وقال آخرون: فى صحن المسجد.

فقـال على (ع): انّ اللّه سبحانه لم يقبض نبيـاً فى مكان إلا وارتضاه لرمسه فيه، وانى دافنه فى حجرته التى قبض فيها، وهى بيت فاطمة (ع) فرضى المسلمون بذلك.

فلما تهيّأ القبر وضع على (ع) رسول اللّه (ص) على يـديه ثم دلّاه فى حفرته، ثم نزل على (ع) فى القبر فكشف عن وجهه، ووضع خدّه على الأرض موجّهاً إلى القبلة على يمينه، ثم وضع عليه اللبن وأهال عليه التراب..

فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

(السلام عليك يا رسول اللّه، السلام عليك يا محمد بن عبداللّه، السلام عليك يا خيرة اللّه، السلام عليك يا حبيب اللّه، السلام عليك يا صـفوة اللّه، السـلام عليك يا أمين اللّه، أشـهد أنّك رسول اللّه، وأشـهد أنّك محمد بن عبداللّه، وأشـهد أنّك قد نصـحت لأُمّتك، وجاهـدت فى سبيـل ربِّك، وعبـدته حتى أتـاك اليقين، فجزاك اللّه يـا رسول اللّه أفضل ما جزى نبياً عن أُمَّته، اللّهمّ صلّ على محمد وآل محمد أفضل ما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم انّك حميد مجيد)(۱۶).

۱ أى: أطلب من الله سـبحانه أن يتفضل بالمزيد عليكم ولفظ (اوصـى) من باب المشاكلة مثل قوله تعالى: (تعلم ما فى نفسـى ولا أعلم ما فى نفسك).

۲ القصص: ۸۳. ۳ الزمر: ۶۰.

۴ أو بعد خمسة وتسعين يوماً، على اختلاف الروايات.

۵ هذا مثال الزيادة، لا العدد، فهو من قبيل قوله تعالى: (وإن تستغفر لهم سبعين مرة) [التوبة: ۸۰].

۶ آل عمران: ۱۴۴، ۷ الضحى: ۴ ۵.

۸ أى آخر هبوط على رسول الله (ص) لأجل إبلاغ الوحى وإلاّ فقد نزل جبرائيل بعده، فى قصص مختلفة لا لأجل الوحى.

۹ آل عمران: ۱۸۵.

۱۰ تشبيه بتابوت بنى إسرائيل، وعصا موسى (عليه السلام). ۱۱ المراد آية النور.

۱۲ آل عمران: ۱۸۵. ۱۳ آل عمران: ۱۸۵. ۱۴ نهج البلاغة: الخطبة ۱۹۷.

۱۵ نهج البلاغة: الخطبة ۲۰۲.

۱۶ وهذا مروى عن البزنطى قال: قلت للرضا (ع): كيف الصلاة على رسول الله ... وكيف السلام عليه؟ فقال (ع): (تقول)....:

خاتمة

وهل يمكن اعادة دور المسلمين، حتى يأخذوا بأزمة العالم مرة ثانية، كما أخذوها ببركة قيادة الرسول (ص) لينقذوا البشرية من الجهل والفقر والمرض والفوضى، والحروب والثورات، والإستبداد والإستغلال، ومن ألف مشكلة ومشكلة؟

وإذا أمكن فكيف؟

والجواب: نعم يمكن، والطريق هو الرجوع إلى الكتاب والسـنّة، كما قال رسول اللّه (ص): (إنّى تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتى أهل بيتى، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا)(۱).

والضـلال ليس فى العقيـدة فحسب، بـل فى العمل أيضاً، والخلاص ليس عن مشاكل الآخرة فحسب، بل عن مشاكل الـدنيا أيضاً، لأن الإسـلام دين ودنيا، كما قال القرآن الحكيم: (ومنهم من يقول ربّنا آتنا فى الدنيا حسـنةً وفى الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار أُولئك لهم نصيبٌ ممّا كسبوا واللّه سريع الحساب)(۲).

وكما قال الحديث الشريف:

(ليس منّا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه)(۳).

فإذا أرجعنا إلى المسلمين: (الأُمّة الواحدة) بإسقاط الحدود الجغرافية.

وأرجعنا إليهم: (الأُخوّة الإسلامية) بأن يكون كل مسلم في أي بلد من بلاد الإسلام، حاله حال أهل ذلك البلد في كل شيء.

وأرجعنا إلى مجتمعاتنا وشعوبنا: (الحريات الإسلامية) بأن يكون كل شيء حر ماعدا المحرّمات وما أقلّها.

وأرجعنا إلى الحكم: سائر قوانين الإسلام المذكورة في الكتاب والسنّة، وقد ذكرها علماء المسلمين في كتبهم الفقهية ورسائلهم العملية: في العبادات، والمعاملات، والقضاء، والقصاص، والحدود، والديات، والأحوال الشخصية، من: النكاح، والطلاق، والمواريث وغيرها وغيرها.

وكانت القيادة ممّا يعتمد عليها، كما قال علي (ع): (ووَثِقوا بالقائد فاتبعوه)(۴) بأن كانت كقيادة الرسول (ص) في العمل فإنه (ص) ارتحل من الدنيا وتحت نفوذه تسع دول في منطق عالم اليوم، بينما درعه مرهونة لأجل أصوع من شعير أخذها لقوت نفسه وأهله.

أو كقيادة علي (ع) كما قال بنفسه: (ألا وانّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه)(۵).

وكما قال (ع) أيضاً: (واللّه لئن أبيتُ على حسك السعدان مسهّداً، أو أُجرّ في الأغلال مصفّداً، أحبُّ إليَّ من أن ألقى اللّه سبحانه وتعالى ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام، إلى أن قال (ع): واللّه لو أُعطِيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى اللّهَ في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت)(۶).

وكان الحكم شورى، لا أن يستولي الحاكم على الحكم بالسلاح والقوّة، أو يصل إليه بالوراثة ككسرى وقيصر أو يتلاقفه بعض من بعض كالكرة.

وهذا كله لا يكون إلاّ بشورى المرجعية، وتعدّد الأحزاب الحرّة المستندة إلى المؤسسات الدستورية و...

فإنّ ذلك اليوم هو يوم رجوع الإسلام إلى زمام القيادة، وبقيادته الحكيمة لا ـ ينجو المسلمون فحسب، بل ينجو العالم كله حتى المسمّى بالحضاري والمتمدّن، الذي يرسف تحت ألف غلّ وغلّ، وألف مشكلة ومشكلة.

نعم إذا عمل المسلمون بالإسلام، وذلك ممكن فيما إذا عمَّ الوعي واتّقوا اللّه سبحانه في خطواتهم، ولم يتنازعوا بينهم، يقول اللّه تعالى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)(۷) حينئذ يرجع الإسلام إلى قمة القيادة ويتخلّص العالم من المشاكل والشرور، ومن المآسي والويلات، وما ذلك على اللّه بعزيز، واللّه الموفّق المستعان.

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد للّه ربّ العالمين، وصلّى اللّه على محمد وآله الطيّبين الطاهرين.

قم المقدسة

محمد الشيرازي

۱ بحار الانوار: ج۳۶ ص۳۳۸ ب۴۱ ح۲۰۱. ۲ البقرة: ۲۰۱ ۲۰۲.

۳ من لا يحضره الفقيه: ج۳ ص۱۵۶ ب۲ ح۳۵۶۸. ۴ نهج البلاغة: الخطبة ۱۸۲.

۵ نهج البلاغة: في كتابه إلى عثمان بن حنيف/ الكتاب ۴۵.

۶ مستدرك الوسائل: ج۱۲ ص۹۷ ب۷۷ ح۱۳۶۲۳، ونهج البلاغة: ا لخطبة ۲۲۴.

۷ الأنفال: ۴۶.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ في سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ عليّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ

کَلَامِنَـا لَاتَّبَعُونَـا... (بَـنـادِرُ البِـحـار – فی تلخیص بحـار الأنـوار، للعلاّمـة فیض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبـارِ الرِّضـا(ع)، الشـّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّـِس مُجتمَع "القائمیّـة" الثّقافیّ بأصـبَهانَ – إیرانَ: الشـهید آیـة الله "الشـمس آباذی" – "رَحِمَهُ اللهُ" – کان أحـداً من جَهابـذة هـذه المدینة، الذی قدِ اشـتهَرَ بشَـغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صـلواتُ اللهِ علـَیهـِم) و لاسـیَّما بحضـرة الإمام علیّ بن موسَـی الرِّضا (علیه السّـلام) و بِـساحـة صـاحِب الزّمـان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهـذا أسّـس مع نظره و درایته، فی سَـنـَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسـیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لَم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُـتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَـنـَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایـة سـماحة آیـة الله الحـاجّ السیّد حسن الإمـامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَـدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحـوزات العلمیّـة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهـِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشـّباب و عموم النـاس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائـل الدّینیّـة، تخلیف المطـالب النّـافعـة – مکـانَ البَلاـتیثِ المبتذلـة أو الرّدیئـة – فی المحـامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّـلام – بباعث نشـر المعارف، خـدمات للمحققین و الطّلاّب، توسـعة ثقافـة القراءة و إغناء أوقات فراغـة هُواةِ برامِـج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّـُبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشـرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّـه یُمکِن تسـریعُ إبراز المَرافِق و التسـهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَـم – مِن جـهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتـَجات العرضیّة، الخـَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنـَةِ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد"/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان" و مُفترَق "وفائی"/ بنایة "القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّهٔ و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظهٔ هامّهٔ:

المیزانیّهٔ الحالیّهٔ لهذا المرکز، شَعبیّهٔ، تبرّعیّهٔ، غیر حکومیّهٔ، و غیر ربحیّهٔ، اقتُنِیت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّهٔ و العلمیّهٔ الحالیّهٔ و مشاریع التوسعهٔ الثّقافیّهٔ؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّهٔ) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحهٔ بقیّهٔ الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.